دراسة الأدوات الحجرية لمواقع عصور ما قبل التاريخ في درعا جنوب سوريا

الدكتور أحمد دياب

قسم الآثار

جامعة دمشق

لفتت منطقة حوران انتباه باحثي الآثار مبكراً، لما تزخر به من مواقع هامة كان لها دوراً مهماً في تاريخ المنطقة خلال العصور الكلاسيكية كمدينة بصرى، وشهبا، وقنوات وغيرها من المواقع الأخرى، إلا أن مواقع عصور ما قبل التاريخ فيها بقيت بعيدة عن دائرة الاهتمام، وكانت المحاولات الأولى في هذا المجال خجولة لم تسمح بإعطاء فكرة واضحة عن التسلسل الزمني لحضارات عصور ما قبل التاريخ في حوران على غرار باقي المناطق السورية التي سمحت الأبحاث فيها، إلى وضع تسلسل زمني واضح لحضارات عصور ما قبل التاريخ، مما أعطى دفعاً كبيراً للدراسات في هذا المجال.

سنحاول من خلال دراسة الأدوات الحجرية التي تم جمعها أثناء المسح الأثري الذي قمنا به في منطقة درعا، إلى التعريف بمواقع ما قبل التاريخ بالمنطقة، ونبين تسلسل

الحضارات فيها، معتمدين على الصفات النمطية والتقنية للأدوات الحجرية، وربط هذه المواقع مع غيرها من المواقع المماثلة في سورية وبلاد الشام.

أولاً: الإطار الجغرافي والجيولوجي لمحافظة درعا

تقع محافظة درعا في الجزء الجنوبي الغربي من سورية، تمتد بين خطي طول °35،٤٥ و °36،٣٥ شرقي خط غرينتش، وبين خطي عرض °32،٢٠ و °33،٤٠ شمال خط الاستواء، وتشكل أراضيها جزءاً كبيرا من إقليم حوران[1]، الذي يمتد بين حوض دمشق في الشمال وسفوح جبل الشيخ الشرقية ومرتفعات الجولان المشرفة على وادي الأردن في الغرب والجنوب الغربي، وكتلة جبل العرب ومنطقة الحمّاد والصفا من البادية السورية في الشرق.[2] خارطة رقم ١

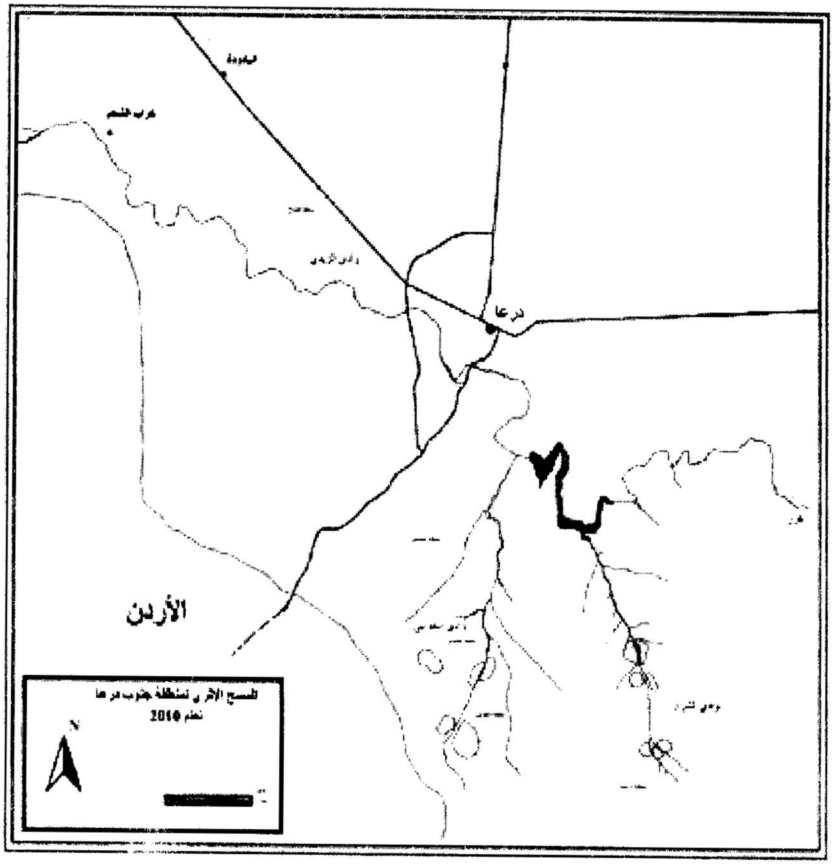
تشكل منطقة حوران ميزاباً وممراً طبيعياً محصوراً بين جبل العرب شرقا، وجبال الجولان غرباً، ويقدم سطح المنطقة الطبوغرافي سهلاً منبسطاً، تنتصب فوقه بعض الجبال والتلال المنفردة مثل تل الشعار ١١٣٧م، وهو أعلى نقطة في حوران، وتل الحارة ١٠٩٤، وتل السن شرق نوى٨٢٠م.[3]

إن الانحدار العام للبنية في إقليم حوران يتجه نحو الجنوب والغرب في الأجزاء الجنوبية من الإقليم، فيما يسيطر في الأجزاء الشمالية الانحدار العام من الشمال إلى الجنوب حتى موقعي إزرع والشيخ مسكين، ويسود في القسم الشرقي من الإقليم الطابع الجبلي المتمثل في كتلة جبل العرب.[4]

تغطي معظم منطقة حوران طبقة من الصخور الاندفاعية ماعدا منطقة صغيرة من الأراضي التي تظهر فيها الصخور الرسوبية، وذلك قرب الحدود الأردنية في جنوب درعا، وترجع أقدم الصخور الموجودة في المنطقة إلى عصر الباليوجين Paleogene[5]، إذ توضعت في فترة لاحقة منه هضبة بازلتية شكلت بمجموعها منطقة حوران، وتشير بعض الدلائل إلى أن البدايات الأولى للاندفاعات البركانية تعود إلى

عصر الميوسين Miocene التي استمرت إلى نهاية البليوسين Paleocene إذ شهدت سورية اندفاعات بركانية شديدة في حوران واللاذقية والمنطقة الشمالية الشرقية.[٦]

يعد نهر اليرموك الأكبر في منطقة حوران، ترفده عدة أودية مثل: (وادي الرقاد، وادي العلان،نهر الهرير، ووادي الزيدي)[٧].



الخارطة رقم ١ مواقع المسح في درعا

ثانياً: تاريخ البحث في آثار عصور ما قبل التاريخ في درعا

لم تحظ المنطقة الجنوبية عموما ومنطقة درعا خاصة بنصيب كاف من دراسات آثار عصور ما قبل التاريخ، وطغت الدراسات الكلاسيكية على دراسة الآثار في هذه المنطقة لما تزخر به من مواقع هامة كان لها دوراً كبيراً في تاريخ المنطقة في العصور الكلاسيكية كمدينة بصرى، وشهبا، وقنوات، وغيرها من المواقع الأخرى.

جاءت الدراسات عن عصور ما قبل التاريخ خجولة ومتفرقة، وكانت ضمن الحديث عن عصور البرونز، بدأها آدم سميث G.Adam Smith ١٩٠١، الذي عثر على عدة مواقع تعود لعصر البرونز مثل الطوطي، وتل شهاب وشيخ سعد، كما قام غتليب شوماخر Schumacher et Gottlieb بإجراء تنقيبات في موقع تل العشارة عام ١٩١٣[٨]. و أكد جوزيف نصر الله أنه عثر على أدوات عائدة لعصور ما قبل التاريخ خلال دراسته للأبنية المقببة في عصر البرونز في منطقة حوران، وكانت هذه الأدوات الصوانية عبارة عن نصال ومكاشط وكتل حجرية كروية الشكل[٩]، ونسب بعض من الأدوات الحجرية إلى الحضارة الغسولية[١٠].

وتعد الأسبار الاختبارية التي قامت بها ماري كلير كوفانM.C.Cauvan في موقع الطيبة بالقرب من درعا العمل الأساسي الوحيد لموقع يعود إلى عصور ما قبل التاريخ في منطقة درعا، إذ عثرت كوفان عام ١٩٦٢ على دلائل تشير على وجود الحضارة النطوفية في هذا الموقع[١١].

كما قام الدكتور سلطان محيسن في نهاية الثمانينات من القرن الماضي برفقة كل من بيزانسون J.Besanson، و وسانلافيل,P.Sanlavill بزيارة استطلاعية لمنطقة زيزون في وادي اليرموك التقطت فيها أدوات حجرية عبارة عن شظايا وقواطع وفؤوس يدوية نسبها إلى عصر اللطامنة أو الآشولي الأوسط.[١٢]

إن الأعمال السابقة لم تصل إلى درجة وضع مخطط زمني واضح لتسلسل حضارات عصور ما قبل التاريخ في منطقة حوران على غرار ما حصل في مناطق أخرى من سورية التي قامت بها حملات مسح أثرية لمواقع عصور ما قبل التاريخ، ودرست مواقعها ضمن إطارها الجيولوجي والجيومورفولوجي وحددت علاقتها بالأسرة والمصاطب والشواطئ الرباعية، كالمسح الذي جرى في حوض نهر الكبير الشمالي*، ومسح وادي العاصي الذي أثمر عن العديد من المواقع الهامة كموقع القرماشي وغيره من مواقع العاصي* ومسح نهر الفرات الذي حدد عدد من المواقع التي أضافت الكثير إلى معرفة حياة إنسان عصور ما قبل التاريخ**.

ويعد العمل الذي يقوم به فرانك بريمر F.Braemer في موقع القراصة بالقرب من شهبا الأفضل على مستوى البحث في آثار عصور ما قبل التاريخ في منطقة حوران، إذ بدأ موسم التنقيب الأول عام ٢٠٠٧ وتشير الدلائل الأولية على أن هذا الموقع يعود إلى عصري الميزوليت والنيوليت*، علما أن فرانك بريمرF.Braemer قد أجرى مسحاً أثرياً في منطقة حوران، أسفر عن اكتشاف عددٍ من مواقع عصر البرونز ومواقع عصور ما قبل التاريخ كان من ضمنها موقع القراصة[١٣].

ثالثاً: المواقع المدروسة:

اكتشفت المواقع المدروسة خلال المسح الأثري لمواقع عصور ما قبل التاريخ، الذي قام به قسم الآثار جامعة دمشق في محافظة درعا في الفترة ما بين٩-١٦/٥/ ٢٠١٠ وذلك بالتعاون مع المديرية العامة للآثاروالمتاحف**.

شمل المسح الأثري ثلاث مناطق متجاورة جنوب مدينة درعا، وهي وادي شرار، وادي الخوابي، وخربة الشياح، إن هذه الأودية عبارة عن أقنية مائية سيلية (شُعب أو مجاري مياه قادمة) من التلال الواقعة على الحدود السورية الأردنية المشتركة جنوب مدينة درعا وتتجه شمالا لتصب في وادي الزيدي بالقرب من مركز مدينة درعا،

بمسافة لاتزيد عن ١٢كم داخل الأراضي السورية، ويعد وادي الزيدي القادم من لحوف جبل العرب غرباً المجرى المائي الأكبر الذي يمر في درعا، تصب فيه إلى جانب الأودية الثلاث السابقة الذكر أودية رافدة كوادي الرقيق ووادي الزعتر ويتغذى بمياه نهر مزيريب وينابيع منطقة مزيريب العديدة قبل أن يصل إلى مصبه في وادي اليرموك.[١٤]

لقد قمنا بالتقاط ١٢١٢ أداة حجرية عثر عليها في ٣٢ موقعاً سطحياً في هذه المناطق، وتم تحديد مساحة الموقع أثناء المسح بـــ ٢٠٠x٢٠٠ م.وذلك وفق الجدول التالي:

المنطقة الممسوحة	عدد المواقع المكتشفة
وادي شرار	١٨
وادي الخوابي	١٢
الشياح	٢
المجموع	٣٢

١-وادي شرار

شعيب ينحدر من المرتفعات الواقعة على جانبي الحدود السورية الأردنية المشتركة جنوبا، ويصب هذا الوادي الصغير في وادي الزيدي بالقرب من مركز مدينة درعا من الجهة الجنوبية.

يعد هذا الوادي الأغنى بين المناطق التي تم مسحها من حيث عدد الأدوات ونوعيتها، وحتى نوعية المواقع التي تم اكتشافها فيه، يقع الوادي ضمن أراضي زُرعت فيها

أشجار الزيتون خلال العقدين الأخيرين(الصورة رقم ١)، عثر فيه على ثمانية عشر موقعا من بينها موقعان رئيسان:

أولهما هو وادي شرار١: يقع على الجهة اليمنى من الوادي باتجاه الجنوب، وعلى بعد حوالي ٧ كم من مدينة درعا جنوبا، N32.33.677 و E36.07.714 وعلى ارتفاع ٥٦٧م عن سطح البحر وهو أدنى ارتفاع لمواقع في هذا الوادي تم مسحها، وشكل بداية عملية المسح من جهة الشمال، ويأخذ الوادي في هذه المنطقة بالاتساع ويسجل عمقا أكبر في هذه النقطة بجانب موقع شرار١.(الصورة رقم ١)



الصورة رقم ١ وادي شرار

يعد موقع شرار ١ الأهم في هذا المسح لما يتمتع به من مواصفات تجعل منه موقعا واعدا؛ إذ يظهر في هذا الموقع وبشكل واضح تراكم عدة طبقات تحوي على عدد

كبير من الأدوات الحجرية المصنعة وقد ساهم جريان الماء والحت على الجانب الغربي من الوادي في إظهار ترسب طبقات أثرية وطمي، بسماكات مختلفة وصلت في إحدى النقاط داخل كتف الوادي من أعلاه إلى مترين تقريبا. كما يشكل الوادي نصف القطر لنصف الدائرة التي عليها شكل الموقع، يظهر في هذه الطبقات وبشكل واضح الأدوات الحجرية المصنعة(الصورة رقم٢)، كما يكسو سطحه عدد كبير من الأدوات والكتل الصوانية التي تغطيها طبقة العتق (الباتينا Patina)، يغلب عليها الأدوات الآشولية ولاسيما الفؤوس اليدوية، وكان النموذج الأكثر تواجدا في هذا الموقع هو الفؤوس اليدوية المتطاولة قليلا وطرفها مدبب، كما عثرنا فيه أيضا على عدة شظايا ونوى لوفالوازية، كما يمتاز بوجود قرن(نميل أنه لغزال) داخل طبقة كلس متحجر ظاهر للعيان مما يزيد من أهمية هذا الموقع.(الصورة رقم ٣)

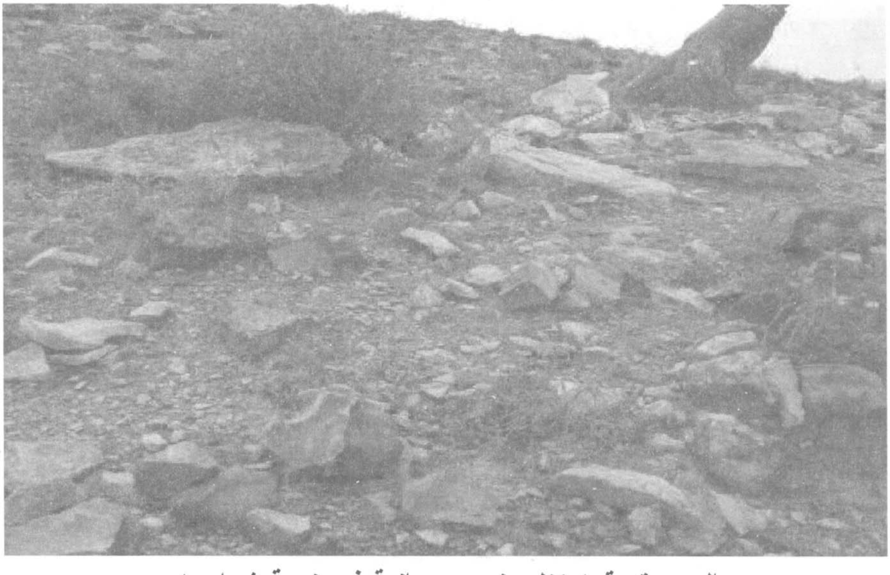
أما الموقع الثاني فقد كان خربة شرار ١ بمواقعها الثلاثة (١-٢-٣)، تقع هذه الخربة على بعد حوالي ٢كم جنوب موقع شرار ١ على الجهة اليسرى للوادي باتجاه الجنوب ارتفاع ٦٢٤ م عن سطح البحر وهو أعلى نقطة لمواقع تم مسحها في هذا الوادي، وتشكل نهاية المسح من جهة الجنوب.(الصورة رقم٤).



الصورة رقم٢: تراكم الأدوات الحجرية في حرف الوادي في موقع شرار ١.



الصورة ٣: قرن غزال.



الصورة رقم٤ كتل ونوى صوانية في خربة شرار ١

يغطي السفح الغربي لهذه الخربة المواجه للوادي من أعلاها حتى الوصول إلى مجرى الماء في أسفل الوادي العديد من الأدوات، والكتل الحجرية الصوانية، مختلفة الأشكال والأحجام تكسو هذه الأحجار طبقة سميكة من العتق (الباتينا Patina) ذات اللون الأسود، أعطت سطح الخربة لوناً أسوداً لكثافة تواجدها. عثرنا في هذا الموقع على طبقات صوان واضحة متداخلة في الطبقات الكلسية وكانت ظاهرة بشكل واضح، ولاحظنا خلال مسح هذه المواقع بعض الشظايا السميكة، وكتلاً حجرية مكسرة قد تكون مستخرجة من طبقات الصوان، استخدمت كمصادر للمادة الأولية، إذ وجدنا تشابهاً كبيراً في اللون بين الأدوات الحجرية، وبين الكتل الحجرية، والطبقات الصوانية المتداخلة مع الطبقات الكلسية المتناثرة على السطح في هذه المنطقة ما يؤكد أن مصادر الأدوات الحجرية التي صنعها إنسان هذه المنطقة كانت واحدة، وفي متناول يده وقريبة منه.

إن هذين الموقعين هما الموقعان الرئيسان اللذان تم تسجيلهما في هذا الوادي، كما تم تسجيل ١٧ موقعاً آخراً في هذا الوادي، كانت عبارة عن مواقع سطحية تدور في فلك هذين الموقعين، لقد سرنا في الوادي، وعلى مسار عرضي بمسافة ٢كم على جانبي الوادي حيث وجدنا هذه المواقع، ولم تكن هناك جهة مفضلة لدى الإنسان في هذه المنطقة يتحرك باتجاهها، إذ عثرنا على مواقعه في كل اتجاه من موقع شرار١ الذي كان الموقع الرئيس، وقد كانت منطقة وادي شرار متشابهه جغرافيا من حيث توفر الصوان المادة الأولية المستخدمة في تصنيع الأدوات، أو الشكل الجيومورفولوجي للمنطقة إذ تتواجد على جانبي الوادي ارتفاعات شبه جبلية متصلة شكل وادي شرار ما يشبه الميزاب بينها لتصريف مياه الأمطار في هذه المناطق وكانت الارتفاعات في هذه المواقع تتراوح ما بين ٥٦٧و ٥٨١ م فوق سطح البحر.

علما إن المنطقة التي تم مسحها تخلو من أية مُغر أو كهوف، وذكر بعض الأهالي من مربي الماشية أن هناك بعض المُغر الكبيرة في منطقة الحدود السورية الأردنية المشتركة التي صَعُب علينا زيارتها والتأكد منها.

٢- وادي الخوابي

يقع وادي الخوابي إلى الشمال الغربي من وادي شرار بحوالي ٣ كم، يتشابه مع وادي شرار كونه شعيب ينحدر من المرتفعات الواقعة على جانبي الحدود السورية الأردنية المشتركة جنوبا ويصب هذا الوادي الصغير في وادي الزيدي بالقرب من مركز مدينة درعا إلى الغرب من مصب وادي شرار (الصورة رقم٥).

كانت بداية المسح في هذا الوادي من الشمال بداية من موقع وادي الخوابي١، وكان بجانبه محجر كبير منعنا من أن تكون بداية المسح أقرب إلى مدينة درعا من هذه البداية، ثم سرنا في الوادي باتجاه الجنوب حيث الحدود الأردنية السورية المشتركة.



الصورة رقم ٥: وادي الخوابي

عثرنا في هذا الوادي على اثني عشر موقعاً، جميعها مواقع سطحية تشابه مثيلاتها في وادي شرار من جهة انتشار الأدوات الحجرية على سطحه، التي تغطيها طبقة العتق(الباتينا)، وتوفر كتل الصوان المادة الأولية المستخدمة في تصنيع الأدوات، أو الشكل الجيومورفولوجي للمنطقة إذ تتواجد على جانبي الوادي ارتفاعات شبه جبلية متصلة، شكَّل الوادي ميزابا لتصريف مياه الأمطار في هذه المناطق وكانت الارتفاعات في هذه المواقع بين ٥٥٤-٦٢٠م فوق سطح البحر.

تعد مواقع خربة الخوابي جنوبي(١ و٢و٣) الأغنى بين مواقع وادي الخوابي من حيث عدد الأدوات الحجرية إذ جُمع من هذه الخربة ١٤٧ أداة حجرية، كما تتشابه هذه الخربة مع موقع خربة شرار السابقة من حيث الانتشار الكثيف للكتل والأدوات الصوانية التي أكسبت الخربة اللون الأسود المشابه للون العتق الذي يغطي الأدوات الحجرية. الصورة رقم ٦.



الصورة رقم ٦ خربة الخوابي ١

٣- خربة الشياح

تقع هذه الخربة جنوب غرب وادي الخوابي وتعد امتداداً لوادي الخوابي وهي إحدى الخرب أو المرتفعات التي تدور في فلك وادي الخوابي، وتغطي هذه الخربة في جزء كبير منها أشجار الزيتون، شأنها في ذلك شأن بقية مناطق جنوب درعا، وغير ذلك فإنّ موقعي خربة الخوابي يتشابهان مع بقية مواقع وادي الخوابي ووادي شرار من حيث إنها مواقع سطحية، وترتفع عن سطح البحر بحدود ٦٠٠م. الصورة رقم٧.



الصورة رقم ٦ خربة الشياح

رابعاً: التتابع الزمني

بلغ عدد الأدوات التي تم جمعها ١٢١٢ أداة، مصنوعة جميعها من حجر الصوان الذي تتوفر خاماته بكثرة في منطقة المسح كما سبق الذكر، وكانت الأدوات الحجرية موزعة على نماذج متنوعة من الأدوات الحجرية التي تعود لعصور مختلفة من عصور ما قبل التاريخ، لقد فرزنا حوالي ٤٩٢ أداة للدراسة المبدئية، واستبعدنا من هذه الدراسة الأدوات غير الواضحة المعالم بشكل جلي وواضح، كما استبعدنا شظايا التصنيع التي نتجت عن عمليات التصنيع، ولم يكن لها شكل معين. سنحاول أن نبين أهم الصفات النمطية والتقنية لهذه الأدوات محاولين من خلالها أن نستوضح التسلسل الزمني للمنطقة من الأقدم حتى الأحدث:

١- العصر الحجري القديم الأدنى

تشكل الفؤوس اليدوية التي بلغ عددها ١٣٨ أداة العينة الأكبر التي تعود إلى العصر الحجري القديم الأدنى إلى جانب بعض الشظايا السميكة والقواطع، ونُسبت هذه الفؤوس إلى عصرين من العصر الحجري القديم الأدنى:

1ً- العصر الحجري القديم الأدنى (الوسيط):

عثرنا على ١٩ فأسا يدوية في مناطق المسح الثلاث مع تميز موقع شرار ١ الرئيسي بالعثور فيه على ٩ أدوات ووادي الخوابي٦ أدوات وفي خربة الشياح ٣ أدوات.

تشترك هذه الأدوات بعدة صفات فيما بينها دفعت إلى نسبتها إلى الآشولي الأوسط؛ صنعت هذه الأدوات جميعها بالمطرقة الحجرية التي أزاحت شظايا سميكة تركت على سطح الأداة ندبات عميقة كان بعضها كبير الحجم نسبيا، شكّل بعض من هذه الندب أسطحاً جديدة للتشظية .الشكل رقم ١

أخذت هذه الأدوات شكلا متطاولا وذات رؤوس مدببة في الغالب، وفي بعض منها كان رأس الأداة مكسوراً الذي قد يكون ناتجا عن التصادم أثناء جريان المياه، ولازالت القشرة تغطي جزءا من جسم الأداة في ثلاث أدوات.

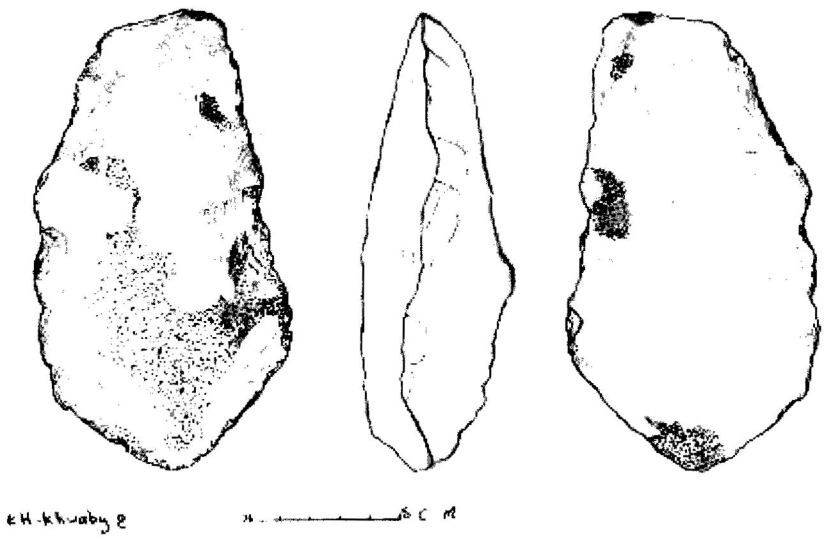
كما تُظهر حافتا الأداة خطا متموجا وغير منتظم، يعلو أجزاء منه في أغلب الأدوات آثار تكسير صغيرة التي قد تكون ناتجة عن استخدام المطرقة الحجرية أو الاستعمال، كما يظهر تحدب واضح على جانبي الأداة، وتتجلى السماكة القصوى للأداة في الثلث الأسفل منها، إذ يظهر تحدب كبير في هذا الجزء من الأداة.

أما الأبعاد فقد كانت تتراوح بين ١٦,٥-١٨ سم للطول، والعرض ٧,٥- ٨,٥ سم والسماكة ٥,٥- ٦,٨سم**.

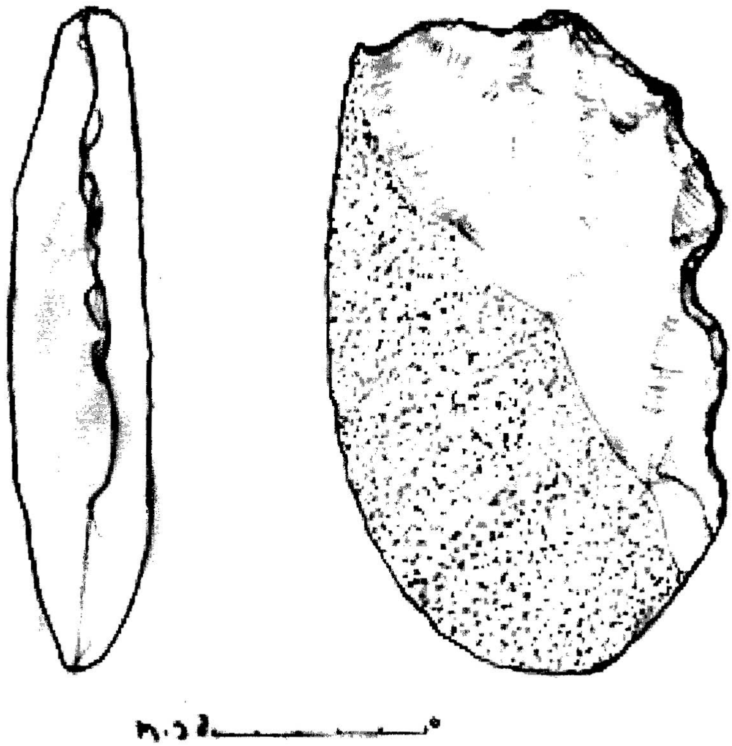
إن الدلائل تشير إلى أن الفؤوس اليدوية التي وجدناها في مواقع المسح تنسب إلى العصر الحجري القديم الأدنى(الوسيط) الآشولي الأوسط، أو ما يسمى محليا بعصر اللطامنة، انتشرت مواقعه في رقعة واسعة من بلاد الشام من الساحل حتى البادية السورية، كما برزت خلاله الفؤوس اليدوية ثنائية السطح كأداة رئيسة تم الاعتماد عليها في تمييز إقليمين في بلاد الشام: الإقليم الأول شمل المواقع الساحلية في بلاد الشام مثل رأس بيروت، البترون، بير زين و خلاله، إذ سادت فيه الفؤوس اليدوية ثنائية السطح البيضاوية الشكل وعريضة، بينما سادت في الإقليم الثاني (المنطقة الداخلية من بلاد الشام) ثنائيات السطح المتطاولة والمدببة غطت مواقع عديدة كموقع جب جنين في وادي الليطاني في لبنان، وموقع سمرا وموقع السطحة في الأردن[١٥]. وموقع الندوية، والميرة في الكوم، وموقع اللطامنة على العاصي، ويعد الأخير الموقع الأهم في هذا العصر، الذي عثر على طبقاته الأثرية في مكانها الأصلي إلى جانب أرضية سكن تعد الأقدم خارج أفريقيا مما أعطى دفعا للدراسات حول هذا العصر ويؤرخ على نهاية البليستوسين الأوسط.[١٦]

وعليه يمكن نسبة مواقع المسح إلى الإقليم الثاني (المنطقة الداخلية من بلاد الشام) أو ما يسمى عصر اللطامنة، وقد سبق أن أكد، د. سلطان محيسن(كما ذكر أنفا) وجود هذا النموذج في منطقة زيزون غرب درعا التي تبعد عن مواقع المسح بحوالي ٣٠ كم دون ذكر التفاصيل.

كما عثرنا على أدوات أخرى تدعم نسبة هذه الأدوات إلى العصر الحجري القديم الأدنى الوسيط، لقد وجدنا ثلاث عشرة أداة من القواطع Chopper، صنعت من حصى استخدمت أيضا المطرقة الحجرية في تصنيعها حسب ما يظهره لنا الحجم الكبير نسبيا للندبات التي على سطح الأداة الشكل ٢.إضافة لذلك فقد تضمنت العينة ست أدوات ثقيلة كبيرة الحجم تسمى الساطور.



الشكل رقم١: فؤوس يدوية ثنائية السطح متطاولة.موقع خربة خوابي٢،١

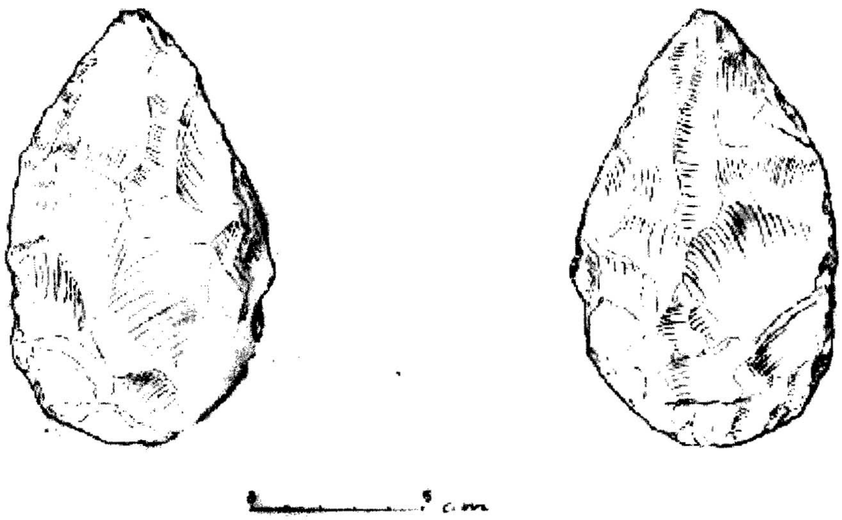


الشكل رقم ٢: أداة قاطعة Chopper موقع وادي شرار ٣.

العصر الحجري القديم الأدنى (الحديث)

تشكل العينة التي تعود إلى هذا العصر الأكبر عدداً بين الأدوات التي تعود إلى العصر الحجري القديم الأدنى إذ وصل عددها إلى ٩٢ أداة موزعة على المناطق الثلاث التي تم مسحها وذلك بنسب متقاربة فقد عثرنا على ٤٢ أداة في وادي شرار و ٣٧ في وادي الخوابي وفي خربة الشياح ١٣أداة .

تمتاز هذه العينة من الفؤوس اليدوية بأنها لا تأخذ شكلاً واحداً، وإنما تتراوح أشكالها بين الفؤوس اليدوية لوزية الشكل والبيضوية، وكان الشكل القلبي الأقل عددا (٣ أدوات فقط) (الشكل٣). كما كانت حوافها أكثر استقامة من حواف العينة السابقة وحادة وطرفها شبه مدبب، ويلحظ من خلال حوافها تحدب بسيط في جسم الأداة في وجهيها معا، كما يظهر وجهي الأداة مساحات صغيرة لشظايا صغيرة تم نزعها أثناء عملية التصنيع مما يشير إلى استخدام المطرقة اللينة أثناء إعداد هذه الأدوات.

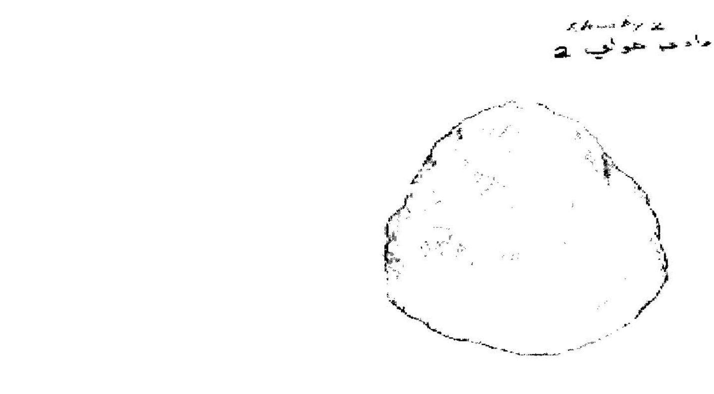


الشكل رقم ٣ : أداة لوزية الشكل

تنتشر مواقع هذا العصر على مساحة واسعة من بلاد الشام من الساحل حتى نهر الفرات استوطن إنسان هذا العصر البادية السورية في مواقع كالندوية، وأم تلال، وموقع القرماشي في وادي العاصي، ومواقع أخرى مشابهة مثل مغارة الطابون (السوية F) ومغارة أم قطفة (السوية D) في فلسطين، وموقع عين الأسد ومنطقة الأزرق في الأردن ، ورأس بيروت في لبنان[١٧] .

كما عثرنا أثناء المسح في وادي شرار وخربة الشياح على ثماني أدوات لوزية الشكل صغيرة الحجم طرفها العلوي مدبب نوعا ما، كما يظهر من خلال حوافها المستقيمة أنها قليلة التحدب وتميل إلى التسطح إذ تظهر سماكة خفيفة إذا ما قورنت بالأدوات السابقة الشكل رقم ٤.

نميل إلى أن هذه العينة تعود إلى الآشولي النهائي ويسمى أيضا الساموكية نسبة لموقع مشيرفة الساموك، ولكن قلة عدد هذه العينة يجعل الحكم عليها ليس بالمستطاع وقد تزودنا تنقيبات مستقبلية في موقع شرار ١ بمعلومات أكثر عن وجود هذه المرحلة في جنوب سورية. وقد استمرت الحضارة الآشولية ممثلة بالساموكية لتشكل جزءاً من الفترة الانتقالية بين العصر الحجري القديم الأدنى والعصر الحجري القديم الأوسط، عثر عليها في مواقع مشيرفة الساموك على نهر الكبير الشمالي، وطاحونة سمعان على العاصي، وموقع قدير٢٣وموقع الندوية١ في الكوم وسط سورية، وتنفرد مواقع بلاد الشام دون غيرها بوجود الفترة الانتقالية بين هذين العصرين إذ كانت إلى جانب الساموكية كل من اليبرودية، ماقبل الأورينياسية والهوملية.[١٨]



الشكل رقم ٤: أداة لوزية صغيرة الحجم موقع وادي الخوابي ٢

٢- العصر الحجري القديم الأوسط

تعد مواقع العصر الحجري القديم الأوسط الأكثر انتشاراً في سورية، وهي الأكثر عدداً بين مواقع العصر الحجري القديم في سورية بداية من الديدرية شمالاً والكوم في البادية السورية ويبرود جنوباً، إلا أنه لم يتم الإشارة إليه سابقاً في محافظة درعا.

إن العينة من الأدوات الحجرية التي تم جمعها بالمسح الأثري كانت الأكبر عددا إذ تم جمع ٣٢٠ أداة موزعة حسب الجدول التالي:

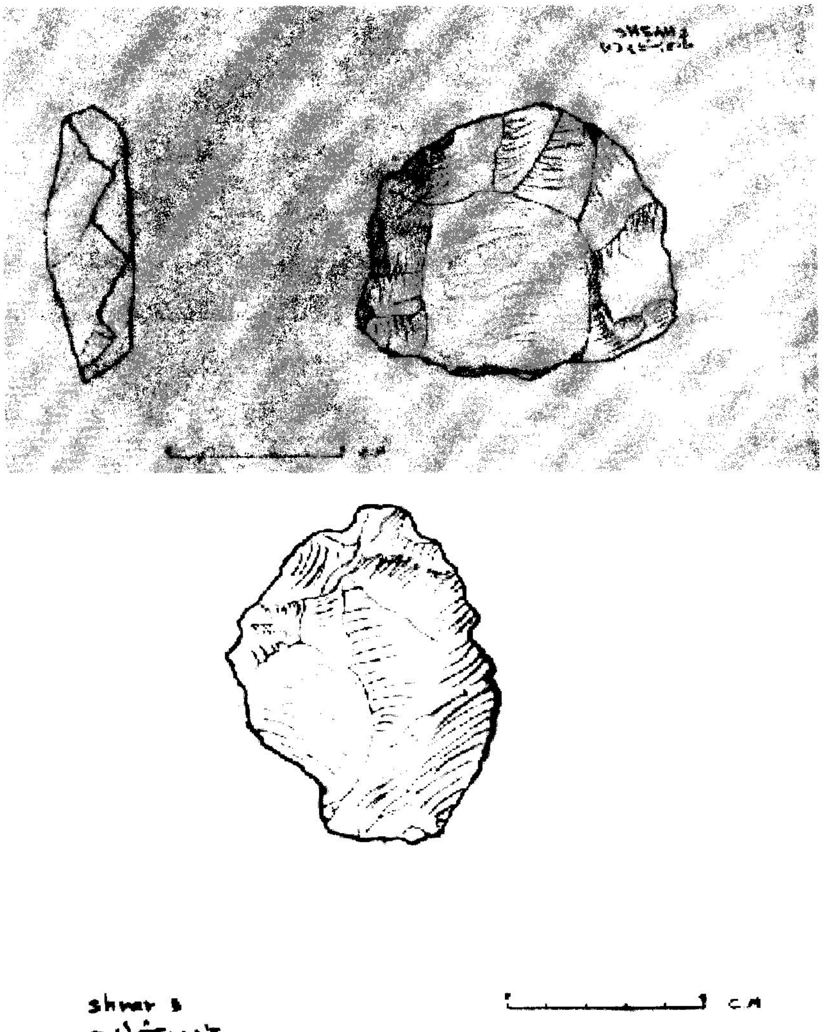
الأداة	النواة	الشظايا اللوفالوازية	النصال اللوفالوازية	رأس لوفالوازي مزيف	سكين بظهر طبيعي	المقاحف	المجموع
العدد	٤٥	٨٤	٣٥	٥٢	١٧	٨٧	٣٢٠

عثر على أدوات هذا العصر في كل المواقع تقريباً، وكانت النوى أكثر تواجداً في خربة وادي شرار ١ وخربة الخوابي، إذ تكثر الكتل الصوانية، وكانت في الغالب نوى مسطحة ليست سميكة استخرجت من كتل صوانية أكبر وكانت العينة من النوى أغلبها لإنتاج الشظايا. الشكل رقم ٥.

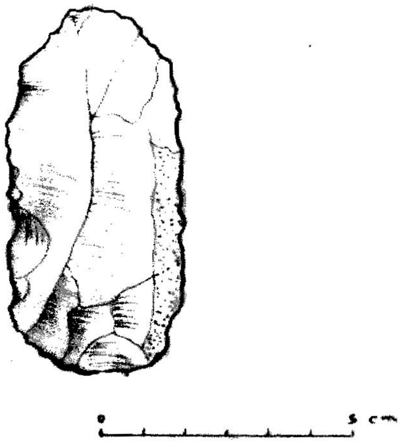
حازت الشظايا اللوفالوازية على النصيب الأكبر في هذه العينة، كانت أشكالها في الغالب بيضوية الشكل بعضها كُسرت حوافها، وصُنعت أغلبها بتقنية الطرق وحيد المحور وكانت مقاساتها تتراوح بين ٤,٥سم و ٦سم طولاً و ٣-٤سم عرضا وسماكتها القصوى لم تتجاوز٣,١سم، كانت قاعدة هذه الأدوات مكسورة في الغالب، أما غير المكسورة فقد كانت القاعدة المستوية هي القاعدة الأساسية لهذه الأدوات.الشكل رقم ٥.

كما عثرنا على عينة من النصال اللوفالوازية التي صنعت بتقنية محور الطرق الواحد وكانت القاعدة فيها مضلعة أو مستوية كان بعض منها مشذباً في إحدى حوافها.

أما المقاحف فقد تنوعت بين البسيط المحدب الذي كان الأكثر عددا (٨ أداة) إلى جانب المقحف المزدوج المحدب، المقحف المزدوج المحدب المقعر، والمقحف البسيط المقعر. الشكل٥.



الشكل ٥ أدوات العصر الحجري القديم الأوسط.



إن الدراسة الأولية لهذه الأدوات تثبت وجود هذا العصر في هذه المنطقة وبالتالي يضاف إلى المواقع السطحية التي تعود إلى العصر الحجري القديم الأوسط التي تزخر بها بلاد الشام كمواقع الكوم ومواقع جبل عبد العزيز و عفرين، ونميل بشكل أولي إلى نسبة هذه الأدوات إلى نموذج الطابون B حسب تقسيم (لويس كوبلاند Copeland.Louis) للصناعات الحجرية العائدة لهذا العصر في موقع الطابون[١٩] والأمر يحتاج الكثير من الدراسة.

العصر الحجري الوسيط والحديث:

إن العصر الحجري القديم الأعلى كان غائبا في مواقع المسح، وبالتالي تتشابه مواقع درعا التي تم مسحها مع مناطق أخرى في بلاد الشام التي شهدت غياب وندرة الأدوات التي تشير إلى العصر الحجري القديم الأعلى.

أما العصر الحجري الوسيط والعصر الحجري الحديث فهذان العصران سبق وإن عثر عليهما في منطقة حوران في موقع الطيبة من قبل ماري كلير كوفان، وموقع القراصة

الذي تغطي اكتشافاته حتى الآن العصر الحجري الوسيط والعصر الحجري الحديث كما ذكرنا آنفا.

أما بالنسبة للعينة التي أظهر الفحص المبدئي أنها تعود إلى العصر الحجري الحديث فقد كان عددها ٣٤ أداة وكانت نصالاً صغيرة بشكل رئيسي وبعضها كان نصيلات(نصلات مكسورة). كما أن تحديد الملامح النمطية ونسبتها لحضارات بعينها، يحتاج إلى عمليات تأريخ ناتجة عن تنقيبات أثرية منهجية لذلك فقد تم نسبتها بالعموم إلى العصر الحجري الحديث.

الخاتمة:

تعد هذه الدراسة خطوة أولى للتعريف بمواقع عصور ما قبل التاريخ في منطقة حوران عامة و درعا خاصة، استطعنا من خلالها أن نبين لأول مرة وجود العصر الحجري القديم الأدنى، ولاسيما منه الوسيط والأعلى، والعصر الحجري القديم الأوسط، والتأسيس بشكل مبدئي لوضع تسلسل زمني يمكن البناء عليه لتبيان فترات عصور ما قبل التاريخ في هذه المنطقة، اعتمدنا فيها على دراسة الأدوات الحجرية التي تم العثور عليها خلال المسح الأثري الذي تم في المنطقة، علما أن هذا المسح تم على منطقة جغرافية محدودة من درعا وعلى رافدين فقط من روافد وادي الزيدي، وفي أجزاء من هذه الروافد حيث الحدود الأردنية من جهة والمحاجر من جهة أخرى التي منعتنا من تتبع هذه الروافد من البداية حتى النهاية. ولكن المنطقة بشكل عام تزخر بالعديد من الخرب المغطاة بمئات الكتل والأدوات الصوانية التي صعب علينا أن نقوم بمسحها الأمر الذي يحتاج عدة مواسم أثرية، ولاشك أن التنقيب في موقع شرار١ ومتابعة عملية المسح لباقي منطقة جنوب وغرب درعا سيضيف الكثير لمعارفنا عن عصور ما قبل التاريخ في سورية.

الهوامش

(١) محمد العلان: **محافظة درعا دراسة في الجغرافية البشرية مـا بـين ١٩٧٠-٢٠٠٠**، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية/جامعة دمشق ، ٢٠٠٥، ص ١٧.

(٢) أحمد عز الدين عزو: **التطور العمراني القديم في مدينتي بصرى وشهبا حتـى نهاية الفترة البيزنطية**، رسالة ماجستير غيرمنشورة، كلية الآداب والعلوم الإنـسانية جامعة دمشق، ٢٠٠٩/٢٠١٠، ص١٥.

(٣) عادل عبد السلام: **الأقاليم الجغرافية السورية** ،جامعة دمشق، ١٩٩٠،ص٤٣٥.

(٤) أحمد عز الدين عزو: المرجع نفسه، ص ١٥.

(٥) عادل عبد السلام: المرجع نفسه، ص ٤٣٧.

(٦) أحمد عز الدين عزو: المرجع نفسه، ٢٠.

(٧)عادل عبد السلام: المرجع السابق، ص ٤٤٢.

(٨)-Frank Braemer1984, Prospection Archeologiques dans le Hawran(Syrie). Syria tom LXI PP219-250. P222.

(٩)Joseph Nasrallah, 1950, Tumlus de L'Age du Bronze dans le Hauran, Syria tom XXVI, PP314- 333, P322-323.

(١٠)- سـلطان محيـسن١٩٩٧:**آثـار عـصور ماقبـل التـاريخ فـي سـورية الجنوبية(محافظتا السويداء ودرعا)**، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية،مج ٤١، ص ٤٣-٤٦، ص ٤٥.

(١١) Cauvan.M.C1973; Station Natoufienne dans Le Hauran (Syrie): Taibe, Pres Deraa,Les Annales Archeologique Arabes Syriennes,VOL 23,Tom, 1,2. PP 105-110.

(١٢)- محيسن مرجع سابق ص ٤٤.

*-- **Copeland.L, Hours.F**1978; La Sequence Acheuleenne du Nahr El Kebir Region Septentrionale du Littoral Syrien. Paleorient,Vol 4..PP5-30

*- **Besancon.J, Copeland.L, Hours.F**; The Palaeolithic Sequence in Quaternary Formation of the Orontes River Valley Northern Syria A Preliminary Report; Institute of Archaeology Bulletin; Volum 15. London 1978

••- - **Besancon.J, Copeland.L, Hours.F, Muhesn.S;** Geomorphlogie et Prehistoire de La Vallee moyenne de l'Euphrate. Comptesrendus de l'academie des Sciences. D.290:PP 70-167.

* – تقرير البعثة الأثرية في موقع القراصة عام ٢٠٠٧ ومحادثة مع فرانك بريمر .

(١٣)- Frank Braemer1984, Prospection Archeologiques dans le Hawran(Syrie). Syria tom LXI PP219-250.

•* – كان فريق المسح مكون من: د.احمد دياب، د.سعيد الحجي المدرسين في قسم الآثار وياسر أبو نقطة دائرة آثار درعا.

(١٤)عادل عبد السلام:ص ٤٤٣.

•* استخدمنا منهج فرانسوا بورد في قياس الأدوات

Bordes.F 1988; Typologie du Paleolithique Ancien et Moyen.Paris.P71-73

(١٥)- **Besancon.J, Copeland.L, Hours.F.et al**1984; The Lower and Middle Paleolithic in The Upper Zarqa /khirbet Samra Area of Northern Jordan. 1982-83 Survey result. Annual 28;. PP91-142; P.103.

(١٦) Le Tensorer J.M 2007; Le Paleolithique Ancien de Syrie et L'Importance du Golan Comme Voie de Passage lors de L'Expannsion des Premirs Hommes Hors D'Afriqe. IN History and Antiquities of AL-Golan; 37-55. PP48-49.

(١٧)أحمد دياب:**آسيا الغربية في العصر الحجري القديم "دراسة متخصصة في الأدوات الحجرية"**، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآثار جامعة القاهرة، العام الدراسي ٢٠٠٥،ص ٤٠،٣٨،٣٥.

(١٨)- Muhesen Soltan1990; The Transitional Lower- Middle Paleolithic Industries in Syria, IN Akazawa.T; et all; The Evolution and Dispersal of Modern Humans in Asia;PP51-65, P 58,59

(١٩)- Copeland.L1975 ; The Middle and Upper Paleolithic of Lebanon And Syria ;IN F.Wendorf. A.Marks. Problems in Prehistory: North AFRICA And the Levant. Dallas.PP317-350.

مملكة نُخَشّي

في المصادر الأكّدية والمصرية القديمة

أ. د. فاروق إسماعيل

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة حلب

مدخل

نُخَشّي هو اسم مملكة قامت في وسط سورية، بين أواسط القرن الخامس عشر ونهاية الرابع عشر ق.م، وذلك بشكل متعاصر مع ممالك صغيرة وإمارات في شتى أرجاء بلاد الشام.

تُعدّ هذه الحقبة التاريخية حقبةً متميزة من تاريخ بلاد الشام القديم، حيث انعدمت فيها مملكة أو ممالك كبرى، بل انقسمت إلى كيانات صغيرة ضمن خضم الصراع الدولي (الميتاني، المصري، الحثي) على السيادة فيها. وتعرف هذه الحقبة في الدراسات بتسمية عصر العمارنة Amarna Period، نظراً إلى أن الوثائق الأكّدية المكتشفة في آخت آتون (تل العمارنة) بجنوبي مصر تُعدّ أبرز مصادرها التاريخية؛ إضافة إلى وثائق مصرية قديمة، ومسمارية أكدية من أوجاريت ومن ختّوشا العاصمة الحثّية.

ويمكن التعريف بمصادر هذا البحث – بإيجاز – على النحو الآتي:

١ - وثائق العمارنة:

تبلغ وثائق العمارنة ٣٨٢ وثيقةً، منها ٣٥٠ رسالةً، أرسل معظمها ملوك الممالك الكبرى في الشرق القديم (الميتانية، البابلية، الحثية) وعدد كبير من ملوك ممالك بلاد الشام (الصغرى) وحكامها وزعماؤها، وملك ألاشيا (قبرص) إلى ملوك من الأسرة الثامنة عشرة الحاكمة في مصر وممثليهم الكبار [١].

إنها مدونة بالكتابة المسمارية، واللغة الأكّدية (اللهجة البابلية الوسيطة)، وقد كانتا الأكثر انتشاراً واستخداماً في شرقي المتوسط، بل إن اللغة الأكّدية كانت بمنزلة اللغة الدولية، تُحرّر بها جميع المراسلات الدولية، كما كان الكتّاب والرسل الذين ينقلون الكلام ويترجمون المدوّن أهم عناصر التواصل والتراسل بين الممالك.

تغطي وثائق العمارنة حقبة قصيرة، تبلغ نحو ربع قرن (نحو ١٣٦٠-١٣٣٥ ق.م)، وهي محفوظة في متاحف عالمية عدة، أبرزها متحف برلين، والمتحف المصري في القاهرة [٢]، والمتحف البريطاني بلندن. وقد نشرت استنساخات لها في ١٨٨٩-١٨٩٠م، ثم نشرها النرويجي كنودتسن Knudtzon بشكل كامل، ثم تتالت بعد ذلك جهود الباحثين فيها، وصدرت ترجمات لها إلى عدد من اللغات الأوربية [٣]. وتجدر الإشارة إلى الاهتمام المتزايد للباحثين الإسرائيليين وذوي الميول التوراتية بها، في العقود الأخيرة.

٢ - وثائق أوجاريت:

تجري تنقيبات أثرية فرنسية في موقع أوغاريت منذ ١٩٢٧م، وقد كشفت عن نحو ثلاثة آلاف وثيقة دُوّن معظمها بكتابة مسمارية خاصة (أبجدية) أبدعت في أوجاريت، وبلغةٍ محلية تُعرف باللغة الأوجاريتية. أما البقية فهي بالكتابة المسمارية المقطعية،

وبلغات عدة (الأكّدية، السومرية، الحورية، الحثية). وهي محفوظة في متحف دمشق الوطني، ومتحف حلب الوطني، ومتحف اللوفر.

تتألف الوثائق المسمارية المقطعية منها من مجموعات (أرشيفات) وجدت في القصور الملكية في المدينة، ومجموعات خاصة لكهنة وموظفين كبار وغيرهم (RGTC 12/2,XV). وهي رسائل حكومية وخاصة، واتفاقات ومعاهدات، ونصوص إدارية اقتصادية وقانونية، ونصوص أدبية ودينية. وتعود إلى القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م.

نشرها الباحثون الفرنسيون ضمن سلاسل علمية معروفة، مثل: Ugaritica، PRU، RSOU، وثمة مجلة علمية ألمانية تعنى بشكل خاص بالدراسات الأوجاريتية هي Ugarit-Forschungen.

٣- وثائق خَتّوشا:

تجري تنقيبات ألمانية في العاصمة الحثية خَتّوشا منذ ١٩٠٦م. وقد كشفت عما يزيد عن خمسة وعشرين ألف وثيقة بالكتابة المسمارية، واللغات الحثية والأكّدية والحورية، وهي محفوظة في متحف برلين والمتحف البريطاني بلندن والمتاحف التركية. وتضم وثائق إدارية ومعاهدات ومراسلات ونصوصاً أدبية – دينية. وقد نشرت ضمن سلسلتين علميتين، يرمز إليهما بـ KUB، KBo.

٤- الوثائق المصرية القديمة:

هي نقوش مدونة بالكتابة الهيروغليفية، واللغة المصرية القديمة (المرحلة الوسطى)، وجدت في مواقع عدة، وتعود إلى ملوك السلالة الثامنة عشرة، ولاسيما القرن الرابع عشر ق.م.

إنها تمثّل نصوصاً تاريخية، وحوليات تروي بشكل مفصل أعمال كل ملك خلال سني حكمه، بشكل مرتب متسلسل تاريخياً. ومنها نص معاهدة السلام المصرية – الحثية المدون باللغتين ؛ المصرية القديمة والحثية. وهي منشورة – بشكل عام – ضمن كتاب بريستد BAR.

أما الدراسات السابقة التي تناولت موضوع البحث فتقتصر على فصل ضمن كتاب للباحث الألماني هورست كلنجل عن تاريخ سورية القديم، صدر قبل أربعة عقود من الزمان، وهو:

Horst Klengel: Geschichte Syriens im 2. Jahrtausend v.u.Z. Teil 2(Mittel- und Südsyrien). Akademie-Verlag , Berlin 1969 , 18-57.

يقدم الباحث فيه عرضاً لمصادر تاريخ المملكة، والمراحل الأساسية لتاريخها. ويؤكد أن هناك العديد من الأسئلة المتعلقة بتاريخها مازال بلا جواب (GS II 56). وهو بحث متميز في أوانه، ولكنه يحتاج إلى إعادة النظر، بسبب ظهور معطيات جديدة مستخلصة من وثائق اكتشفت فيما بعد، وبفضل ترجمات أدق لنصوص قديمة، وتحليلات وآراء جديدة فيها؛ ولاسيما في وثائق العمارنة. وسنشير إليه في متن هذا البحث بمختصر عنوانه (GS II).

أما البحوث العربية فتقتصر على ذكر اسم المملكة وبيان إطارها الجغرافي العام. ولذلك اخترنا هذه المملكة موضوعاً للبحث. وسنعتمد على دراسة ما يتوافر من وثائق عن تاريخها، حتى الآن، لاستخلاص ما يمكن عن تاريخها القديم. وقد مهّدنا لذلك بهذا المدخل، وبالحديث عن الإطار التاريخي العام في المنطقة، وصراعات القوى الكبرى، وطبيعة علاقات ممالك بلاد الشام وصلتها بها، نظراً لأهمية ذلك في تحديد مكانة الجزء ضمن الإطار الكلي لحركة التاريخ. وقد أرفقنا بالبحث مصوراً يعين على استيعاب الأحداث، كما رأينا أنه من المناسب عدم إثقال متن البحث بتوضيح الأسماء الحديثة للمواقع الحضارية القديمة المعروفة، والمواقع التقريبية لغير المعروفة، فأفردنا

لها جدولاً خاصاً في نهاية البحث. وقد سلك البحث منهج استقراء نصوص الوثائق وتحليلها، والربط بين الأحداث الحاصلة في إطار جغرافي واحد، وبيان التعاصر في أحداث المنطقة عامة.

الوضع التاريخي العام المحيط بمملكة نُخَشّي

تُشكّل الحقبة التي قامت مملكة نُخَشّي خلالها (نحو ١٤٥٠-١٣١٠ ق.م) جزءاً أساسياً مما يعرف في الدراسات الأثرية الحضارية بالعصر البرونزي المتأخر. وهو عصر وفير بالمصادر الأثرية المادية والكتابية المكتشفة، مما يساعد على إضاءة الوضع التاريخي العام آنذاك.

ويبدو من خلالها أن الحقبة شهدت تحالفات وصراعات، وتمايزت بالتباين الواضح في موازين القوى السياسية القائمة. وقد كانت تلك الموازين دائمة التغير بين الممالك العظمى، من حيث امتداد النفوذ وتقلصه، وتغيّر الولاء وطبيعته. وتحوّل التحالفات إلى صراع عظماء ملوك الممالك الخمس القائمة وتنافسها، مع تعاونها أحياناً (٤).

وسنلخص فيما يأتي أهم الأحداث في تاريخ تلك الممالك، التي تفيد في دراسة تاريخ مملكة نُخَشّي، وفي بيان أسباب التطورات والتغيرات فيه.

١- المملكة المصرية

نشأت مملكة نُخَشّي خلال حكم **تحتمس الثالث** (المنفرد) في مصر (١٤٥٨-١٤٢٥ ق.م). وقد عرف باهتمامه بالجيش وتنظيمه، ووجّه إلى بلاد الشام وميتاني سبع عشرة حملة خلال عهده، منها ثلاث حملات تُعدّ من جملة الأحداث التي مهدت لظهور نُخَشّي، وهي:

آ- معركة مجدّو التي جرت في مطلع عهده (١٤٥٨/١٤٥٧ ق.م)، وخاضها ضد حكام وأمراء في بلاد الشام بزعامة حاكم قادش، وأسفرت عن إلحاق

الهزيمة بهم والقضاء على طموحهم بالتخلص من النفوذ المصري، وبعقد تحالفات مع حكام في شمالي سورية (BAR II § 408ff).

ب- الحملة الثامنة (١٤٤٧ ق.م) التي كانت أبرز حملاته. وقد خاض خلالها ثلاث معارك متميزة، في سنزر، ووعن، وكركميش (BAR II § 581ff.). وقد حققت الحملة أهدافها، وتغلغل جيشه في مناطق مملكة ميتاني المجاورة لغربي نهر الفرات.

ج- الحملة العاشرة (١٤٤٥ ق.م) التي توجّه خلالها لقمع تمرد مدعوم من ميتاني. ويذكر أن المتمردين كانوا "متوحشين " اتحدوا بزعامة أمير ميتاني. وقد هزمهم في معركة في أَرَينا، وغنم غنائم كثيرة (BAR II § 497ff.).

أما ابنه **أمنحتب الثاني** (١٤٢٥-١٤٠١ ق.م) فقد كانت حملته الوحيدة إلى المنطقة في العام الثاني من حكمه، لقمع تمردات وقعت في وادي العاصي، ووصل الفرات أيضاً. وقد سجلت أحداث هذه الحملة على لوحة في معبد الكرنك، جاء فيها: "**إن جلالته عبر ممر نهر أ ر ن ث (العاصي) في ذلك اليوم، كقوة مونتو**()**، ورفع سيادته يده آمراً برؤية نهاية الأرض...**" ثم يذكر أنه وصل إلى مملكة نيا، وهناك علم بأن سكان مدينة إيكاثي قد تآمروا على الحامية المصرية، وأسروا أفراداً منها، فسار إليها، وعاقب المتمردين، وأنقذ الحامية. ثم سارت الحملة من هناك حتى وادي الفرات (BAR II § 487ff.).

وفي عهد ابنه **تحتمس الرابع** (١٤٠١-١٣٩١ ق.م) تجدد قمع التمردات السورية في مطلع عهده، ثم انتهج سياسة جديدة، إذ تحالف مع مملكة ميتاني الحورية، وصاهر ملكها أَرْتَتَما الأول (نحو ١٤٠٠-١٣٨٠ق.م) (EA 29)، وتمّ في هذا السياق تنظيم الحدود المشتركة بينهما في سورية، وقد بقيت ثابتة خلال العقود التالية. وقد كانت حدود مناطق السيادة المصرية تمتد في المناطق الساحلية، أكثر من الداخلية، وتشمل

أوجاريت حاضرة سورية التجارية. أما في وادي العاصي فكانت الحدود في منطقة سهل حمص تقريباً، وبقيت تونيب، وقطنا ضمن مناطق النفوذ الميتاني، بينما امتدت السيادة المصرية حتى قادش وبلاد أمورو [٦].

تُعدّ الفترة التالية من حكم ملوك الأسرة (١٨) المصرية فترة مختلفة تماماً، حيث ساد السلام والازدهار ثم طغى الفكر الديني على الأعمال العسكرية، وذلك بدءاً من حكم **أمنحتب الثالث** (١٣٩٠-١٣٥٢ ق.م)، الذي تميز بحب الترف واللهو والزواج، ولذلك يصفه كثير من الباحثين بـ"سلطان مصر القديمة".

كانت علاقاته متميزة مع ميتاني، وحسنة مع بابل وأرزاوا. وليست هناك أخبار عن صراعات عسكرية في بلاد الشام، بل تشير إحدى رسائل العمارنة إلى زيارة قام بها في مطلع عهده إلى مدينة صيدونا (EA 85,71).

قسمت مناطق الانتداب المصري في بلاد الشام بشكل دقيق إلى ثلاث مناطق أو ولايات، هي[٧]:

آ- ولاية خَزَّة (غَزَّة) في الجنوب.

ب- ولاية كومِد (كامد اللوز) في الوسط.

ج- ولاية أمورّو، ومركزها صُمُر في الشمال.

وكان يستقر في كل منها مندوب ملكي مصري، بصفة مراقب عام دائم (في الأكّدية: رابِص)، إلى جانب حاكم محلي. ويوجد فيها حامية عسكرية مصرية، ومقرّ حكم متميز. ولكن الباب العالي (الفرعون) المصري اعترف - إلى جانب ذلك - بحكم حكام محليين شبه مستقلين في مناطق بلاد الشام المختلفة.

وكان حكامها يحملون لقب "ملك" أو "زعيم" حسب الأهمية والرقعة الجغرافية. ويبدو أن حركة الإشراف المصري على الأوضاع فيها كانت نشطة، إذ يظل المبعوثون

والمفتشون والرُسُل يتجولون، ويصدرون التوجيهات، وينقلون الأوامر، ويحصّلون الضرائب.

لقد وفرت أجواء السلام حركة تجارية نشطة وازدهاراً اقتصادياً، وتحققت المصالح المتبادلة، خلال نحو نصف القرن. ولكن السنوات الأخيرة من عهده شهدت نشاطاً حثياً في شمال سورية، وبروز خطر العفيرين (الخبيرو) في المناطق الساحلية (٨). ترافق مع بدء الإهمال المصري وازدياد استغلال المندوبين والمبعوثين، فبدأ كثير من الملوك والزعماء يعيدون النظر في مسألة الولاء لمصر.

وبانتقال الحكم في مصر إلى **أمنحتب الرابع** (١٣٥٢-١٣٣٦ ق.م) تحوّل الحكم من سلطان إلى فيلسوف، أو داعية سلام وعدل. وبعد سنوات قليلة تركز جلّ اهتمامه على نشر عبادة آتون الذي أعلنه في العام السادس من عهده إلهاً واحداً للبلاد. وتلقّب باسم جديد (آخِن آتون)، وقرر بناء عاصمة جديدة، بدلاً من طيبة، هي آخت آتون (تل العمارنة) وانتقل إليها بعد إنجازها خلال سنتين.

اصطدم أخناتون بمواجهة من الكهنة الذين كانت معابد الآلهة الكثيرة تفيدهم اقتصادياً أكثر، وتوقفت ضرائب معابدهم المفروضة على التجارة مع بلاد الشام، كما تضررت بلاد الشام بسبب إهمال القصر الملكي المصري لشؤونها، لأن أخناتون نذر على نفسه ألا يبرح عاصمته (٩).

وضمن هذه الأوضاع برز دور المنافقين للملك، وانتشرت الرشوة والفساد الإداري، بل ظهر في البلاط من صار يخطط لإزاحة الملك، مثل المدعو توتو. وكانت أوضاع بلاد الشام انعكاساً لذلك كله، ويبدو أن من فقد امتيازاته ومكاسبه في البلاط المصري صار يمارسها في بلاد الشام البعيدة، حيث أسرف المندوبون والمبعوثون وغيرهم في التصرف الفردي، ولم يعودوا صلة وصل، بل يسهمون في تأليب قوى على أخرى، ومساندة من يستفيدون منه، ولا يوصلون صورة حقيقية عن الأحداث التي تحصل في

بلاد الشام. ولذلك سارت المملكة نحو الانهيار بدءاً من العام الثاني عشر من عهده (١٣٤١ ق.م)، كما تضررت مملكة ميتاني كثيراً من هذا الوضع، وانقطعت العلاقات الحسنة بعد سنوات قليلة من بدء حكم أمنحتب الرابع.

ثم حكم **سمنخ كارع** (١٣٣٥-١٣٣٢ ق.م) ومات في آخت آتون، وبعده أعاد **عنخ آمون** (١٣٣٢-١٣٢٣/١٣٢٢ ق.م) الحكم إلى طيبة، ولكنه كان طفلاً فتولت المؤسسة الكهنوتية الحكم عملياً، وانصرف الكهنة إلى استعادة نفوذهم ومكاسبهم، ثم حكم آي فترة قصيرة، وكان آخر ملوك هذه الأسرة هو **حورمحب** (١٣٢٢-١٢٩٥ ق.م) الذي نجح في إجراء إصلاحات إدارية داخلية متميزة. ثم حكمت أسرة جديدة (التاسعة عشرة) كان ثالث ملوكها **رمسيس الثاني** (١٢٧٩-١٢١٣ ق.م) أعظم ملوك مصر القديمة، وفي عام حكمه الخامس خاض معركة قادش الشهيرة مع الحثي مواتللي (١٢٧٥ ق.م) ثم وقّع في عام حكمه الحادي والعشرين معاهدة السلام مع الحثيين التي دوّنت على جدران معبد الكرنك (١٢٥٩ ق.م).

٢- مملكة ميتّاني الحورية (١٠)

أنشأ المهاجرون الميتانيون خلال القرن السابع عشر ق.م إلى مناطق الجزيرة السورية وطور عابدين مملكة جديدة مع أبناء جلدتهم الحوريين المقيمين هناك من قبل، ودخلت المملكة في صراع مع المملكة الحثية في بلاد الأناضول التي كانت تريد التوسع جنوباً وشرقاً.

تمكن الحثي مورشيلي الأول، في مطلع القرن السادس عشر ق.م، من إبعادهم عن مناطق وادي الفرات التي يتم عبورها إلى شمالي سورية. ولكن مملكته أصيبت في العقود التالية بجمود تام في مجال السياسة الخارجية، بسبب الصراعات الدموية الداخلية حول وراثة العرش. ولذلك استعادت ميتاني نفوذها هناك، وخضعت لها حلب خلال القرن الخامس عشر ق.م.

تمكن الملك الميتاني **بَرَتَّرْنا الأول** (نحو ١٤٧٠-١٤٤٠ ق.م) من مدّ نطاق حكمه غربي الفرات حتى البحر المتوسط وسهول شمالي حمص، حيث قامت عدة كيانات سياسية يحكمها حكام محليون ميتانيون أو تابعون لميتاني.

وقد ذكرنا أن تحتمس الثالث تغلغل في الأراضي الميتانية ودمرها ونهبها (١٤٤٧ ق.م)، ثم تتالت حملاته حتى كانت الأخيرة (١٤٣٨ ق.م) التي قمع خلالها ثورة مدعومة من ميتاني، نشبت في تونيب وقادش بدعم ميتاني (BAR II § 529ff.).

وبعد حكم متتال قصير **لثلاثة ملوك** (نحو ١٤٤٠-١٤٢٥ ق.م) حكم في ميتاني الملك **سوشتتر** (نحو ١٤٢٥-١٤٠٠ ق.م) المعاصر لأمنحتب الثاني. وقد نجح في تحقيق أقصى اتساع للمملكة بين أرّبخا في الشرق وأوجاريت على البحر المتوسط في الغرب، وبرز شأن عاصمته وَشّوكاني الواقعة عند منابع نهر الخابور.

استمر الصراع الميتاني – المصري حول السيادة على سورية الشمالية والوسطى حتى عهد **أرتتما الأول** (نحو ١٤٠٠-١٣٨٠ ق.م) الذي عاصر تحتمس الرابع ثم أمنحتب الثالث، وبدأت مرحلة السلام، وتنظيم الحدود، والمصاهرات وتبادل الهدايا. ووقفت القوتان معاً في وجه الأطماع الحثية. وكانت مملكة نُخَشّي آنذاك خاضعة للسيادة الميتانية. واستمر ذلك في عهد **شُتَّرنا الثاني** (١٣٨٠-١٣٦٥ق.م)، ثم شهدت المملكة اضطرابات بعد موته، لأن الحثيين كونوا تياراً معادياً للتحالف الميتاني – المصري ضمن البلاط الميتاني، ودبروا مؤامرة اغتيال وريث العرش أرتشمارا ليصل تشرتا الموالي لهم إلى الحكم.

ولكن **تشرتا** (١٣٦٥-١٣٣٥ ق.م) انقلب ضدهم بسرعة، وأعاد توطيد العلاقات مع مصر بشكل أقوى من ذي قبل، ثم عاصر تشرتا كامل عهد أمنحتب الرابع / أخناتون. ويتضح في رسائل العمارنة أنهما كانا – أول الأمر – حريصين على استمرار التحالف، ولعبت الملكة الأم تي دوراً إيجابياً في ذلك، كما إن اقتران الملك المصري

في مطلع حكمه بأرملة أبيه تادو خبا – التي يرى باحثون أنها نفسها حملت الاسم المصري نفرتيتي – شكّل سنداً متيناً لتحالفهما.

ولكن الوضع تبدل فجأة، وبدأت العلاقات تفتر، ثم انقطعت قبيل انتقال أخناتون إلى عاصمته الجديدة، وفسح ذلك المجال أمام الحثيين للتفرغ للقضاء تدريجياً على مملكة ميتاني. وفي هذا السياق الزمني بدأ يبرز دور الأمير الحثي شوبيلوليوما الأول، الذي أضحى ملكاً بعد ذلك بقليل (١٣٤٣-١٣٢٣/١٣٢٢ ق.م) وراح يستعيد أمجاد المملكة الحثية.

بدأت ميتاني تضعف رويداً رويداً، وكان ذلك ينعكس على الممالك الخاضعة لنفوذها في شمال سورية ووسطها. ومن أهم أسباب ذلك النزاعات الداخلية ضمن البلاط الملكي الميتاني، ونشاط آشور في الشرق، وحملات الحثي شوبيلوليوما الساحقة في الغرب، وأبرزها "الحرب الحثية – السورية الأولى " ١٣٤٣ ق.م، و"الحرب الحثية- السورية الثانية" ١٣٤٢-١٣٣٩ ق.م اللتين شكلتا منعطفاً بارزاً في تاريخ الممالك السورية، حيث سيطر الحثيون على معظم مناطق سورية الشمالية والوسطى.

اضطربت ميتاني بتأثير هذا الوضع، ولم تكن في وضع يؤهلها للتحرك، بل صارت محاصرة بخصوم يقتربون منها. آشور من الشرق، والحثيون من كركميش. وبتأثير ذلك اغتيل تشرتا على يد أحد أبنائه، وقام شترنا الثالث (ابن أرتتما الثاني الذي كان قد تمرد، وأعلن حكماً ميتانياً مستقلاً في تَيد) بثورة يدعمه الآشوريون فيها، واحتل العاصمة وشوكاني. ثم استعادها شتي وازا المدعوم من الحثيين، بعد تعاونه مع شوبيلوليوما ومصاهرته له.

كانت مناطق مملكة ميتاني في أواخر القرن الرابع عشر ق.م مقتصرة على مناطق مثلث الخابور، وفيها عاصمتان؛ وشوكاني في الغرب، تئيد في الشرق. ثم اختفى

دورها في سورية الشمالية والداخلية، ولذلك سهل على الحثيين فرض نفوذهم على الممالك القائمة هناك.

٣- المملكة الحثّية [١١]:

كان تليبينو، آخر ملوك المملكة الحثية القديمة يحكم في أواسط القرن الخامس عشر ق.م، وقد نجح في إنهاء مسلسل الأحداث الدموية الداخلية في القصر الملكي، وأصدر قانوناً للفصل في الخلافات حول وراثة العرش، وأعاد الاهتمام بالجيش والحياة الدينية، وضعفت في عهده الصلات مع شمال سورية تجنباً للصراع مع المصريين الذين كانت حملاتهم تصل إلى وادي الفرات.

ثم مرت المملكة بمرحلة جديدة (المملكة الوسطى) دامت نحو قرن من الزمان، وتفاصيلها غير واضحة تماماً. حكم خلالها خمسة ملوك، أشهرهم **تودخاليا** الثاني (نحو ١٣٨٥ ق.م)، الذي حارب الحوريين بضراوة وأجلى عدداً كبيراً منهم إلى عاصمته، كما أرغم حلب على العودة إلى السيادة الحثية.

تمزقت مناطق المملكة الحثية في آخر هذه المرحلة، ونشبت ثورات عدة في الأطراف ضد الملك **تودخاليا** الثالث (نحو ١٣٥٣ ق.م). فاستغل الحوريون ذلك، وعبروا الفرات واحتلوا المناطق الجبلية، وتقلصت المملكة الحثية إلى حد كبير. وفي هذه الأثناء بدأت مصر تسعى إلى عقد صلات مع مملكة أرزاوا الساحلية الجنوبية، وتعود إلى هذه الفترة رسالتان من العمارنة (EA 31,32) نقرأ فيهما أن أمنحتب الثالث طلب يد ابنة ملك أرزاوا، وأرسل له هدايا ثمينة، كما استلم رسالة مدونة بلغة أرزاوا.

ولكن يبدو أن علاقات أرزاوا ومصر لم تستمر، لأن شوبيلوليوما ابن الملك الحثي بدأ يدير الحملات العسكرية، ويقمع التمردات، وقد وفّق في ذلك واستحق وراثة العرش وإعادة أمجادها، وبحكمه بدأت مرحلة تاريخية جديدة تدعى (المملكة الحديثة) التي دامت نحو قرنين.

شهدت فترة حكم شوبيلوليوما (الأول) ١٣٤٣-١٣٢٣/١٣٢٢ ق.م تطورات سياسية وعسكرية مكثفة في مملكة نُخَشّي وسائر ممالك سورية الشمالية، سنعرضها بالتفصيل ضمن تاريخ نُخَشّي. كما حصل خلالها انهيار مملكة ميتاني، وتوثق العلاقات الحثية – البابلية، واضطراب الأوضاع في مصر بعد موت توت عنخ آمون الذي لم يخلّف ابناً يرثه.

وتقع في هذا السياق التاريخي الرسالة المفاجئة التي أرسلتها أرملة الملك المصري إلى شوبيلوليوما، وهو يحاصر مدينة كركميش، تطلب فيها منه أن يرسل إلى مصر أحد أبنائه ليتزوجها. وقد لبى شوبيلوليوما طلبها، بعد التحقق من صحة نواياها، وأرسل أحد أبنائه، ولكنه قُتل قبل وصوله إلى البلاط المصري، ويرجح أن ذلك تم بيد رجال حرضهم القائد العسكري المصري آي الذي استلم الحكم بعد ذلك.

لا تفيد مصادر عهد ابنه ووريثه **أرنو وندا** (الثاني) الذي حكم نحو ثلاث سنوات فقط، بأخبار عن الأوضاع في شمال سورية. ثم حكم ابن ثان له هو **مورشيلي** الثاني، حيث انهارت مملكة نُخَشّي خلال عهده.

٤- المملكة البابلية [١٢]

كانت بلاد بابل خلال المرحلة موضوع البحث خاضعة لسيادة الكاشيين الذين هاجروا في أواخر القرن الثامن عشر ق.م من سفوح جبال زغروس الوسطى إلى شمالي بلاد بابل، بقصد العيش والعمل في مجال الزراعة وتربية الحيوان. تشكلت مجتمعات ومستوطنات خاصة لهم بمرور الزمن، وتقبل سكان بلاد بابل وجودهم بينهم، مستفيدين من خبراتهم الاقتصادية، وتعمق اندماجهم في المجتمع البابلي.

احتل الملك الحثي مورشيلي الأول بابل في ١٥٩٥ ق.م، وتعاون معه الكاشيون. وعندما اضطر الملك الحثي إلى الانسحاب والعودة إلى بلاده بسرعة، سلّم حكم البلاد للكاشيين.

تذكر قائمة الملوك البابلية أن ستة وثلاثين ملكاً كاشياً حكم في البلاد، وذلك خلال مدى زمني بلغ نحو أربعة قرون ونصف (١٥٩٥-١١٥٤ ق.م).

حكم منهم الملك **كارا إنداش** في أواسط القرن الخامس عشر ق.م، وعاصر حملات المصري تحتمس الثالث إلى وادي الفرات، وسيّر سبع عشرة حملة ضد مملكة ميتاني، وصل في آخرها حتى كركميش. ويبدو أنه أدرك ضرورة عدم الدخول في صراع مع مصر، بل التحالف معها، فأسرع إلى هناك للقاء تحتمس الثالث وتقديم الهدايا له، رغبة في توثيق العلاقات. ثم توطدت علاقات المملكتين بإرساله إحدى بناته إلى مصر لتكون زوجة للملك.

وفي عهد خليفه **كدشمان خربي** (الأول) (نحو ١٤٠٠-١٣٧٦ ق.م) تحسنت العلاقات المصرية – الميتانية، ولم يؤثر ذلك على علاقاته الحسنة مع مصر. أما **كوريكالزو** (الأول) (نحو ١٣٧٥-١٣٦٥ ق.م) فقد انهمك بالأعمال العمرانية في عاصمته الجديدة، وتحسين أوضاع الشعب الاقتصادية، كما عني بتمتين العلاقات مع مصر أكثر، وأرسل أيضاً إحدى بناته إلى البلاط المصري زوجة للملك، ورفض عرضاً قدمه له أمراء عدد من مدن بلاد الشام للتعاون ضد النفوذ المصري في بلادهم.

ونعلم من مراسلات العمارنة أن ابنه **كدشمان إنليل** (الأول) (نحو ١٣٦٤-١٣٥٠ ق.م) أرسل خمس رسائل إلى أمنحتب الثالث، يسأل فيها عن مصير أخته، ويطلب الزواج من مصرية أيضاً، ولكن الملك المصري رفض ذلك بشكل قاطع، ولكنه لم يبخل عليه بالذهب للمحافظة على العلاقات.

ثم تولى حكم **بابل بورنا بورياش** (الثاني) (نحو ١٣٤٩-١٣٢٣ ق.م) وعاصر بدء ضعف حكم الأسرة الثامنة عشرة في مصر، خلال زمن أمنحتب الرابع، ونهوض المملكة الحثية على يد شوبيلوليوما، وانهيار مملكة ميتاني. فتابع العلاقات الحسنة مع مصر، وكتب إلى توت عنخ آمون معبراً عن استيائه من اعتراف مصر باستقلال

آشور عن ميتاني. وقد أدرك الملك الآشوري **آشـور أبلـط** (الأول) (نحـو ١٣٦٣-١٣٢٨ ق.م) خطر ذلك الموقف، فحسن علاقاته مع بابل، وأرسل ابنة له لتكون زوجة لملكها.

ثم انشغلت بابل بصراعات داخلية، فتوالى على حكمها ملكـان خـلال سـنة واحـدة (١٣٢٣ ق.م)، وبدأ التدخل الآشوري في شؤونها حتى اضطرت إلـى عقـد اتفـاق حدودي مع آشور تنازلت فيه عن مناطق حدودية. ولكن الصراع البابلي - الآشوري ظل مستمراً عقوداً أخرى من الزمن [١٣].

ممالك بلاد الشام، وموقفها من الصراع الدولي:

تلقي مصادر البحث ضوءاً وافياً على مراحل متصلة، أو منقطعة أحيانـاً،من تـاريخ ممالك صغيرة أو إمارات قائمة آنذاك في شتى مناطق بـلاد الـشام، عـدا القـسمين الأوسط والجنوبي من شرقي نهر الأردن [١٤].

ويلاحظ أن معظمها لم يكن قادراً على الاستمرار في الوجود زمناً طويلاً اعتماداً على قواها الخاصة، سياسياً وعسكرياً واقتصادياً. ولذلك كانت مضطرة إلى حليف ترتبط به بالولاء طلباً للدعم والحماية.

ويمكن القول إنها كانت - عدا القائمة في فلسطين - محتارة في اختيار الحليف، وكان من الطبيعي لديها الولاء لمصر أو ميتاني، حسب الموقع الجغرافي وما اتفـق عليـه خلال فترة السلام المصري - الميتاني (النصف الأول من القرن الرابع عـشر ق.م). ولكن تغيرات كبيرة في موازين القوى الدولية الكبرى ظهرت بدءاً من أواسط القرن، وتمثلت بثلاثة أمور أساسية، هي:

- توقف الاهتمام المصري بشؤون بلاد الشام.

- ضعف ميتاني، وبدء سيرها نحو الانهيار.

- بدء المملكة الحثية الحديثة، على يد شوبيلوليوما الأول.

أدى ذلك إلى انتهاء المعادلة السابقة في توزع الـولاء بـين مـصر وميتاني،وباتـت الممالك وحيدة إزاء الجيش الحثي الضخم. ومرت فترة صارعت خلالها من أجل عدم الاستسلام له، ولكنها اضطرت، واحدةً تلو الأخرى، إلى الإذعـان للـسيادة الحثيـة، والقبول بمعاهدات جائرة يفرضها الملك الحثي شـوبيلوليوما الأول، ثـم مورشـيلي الثاني. وكانت تتخلل ذلك تمردات وثورات لا تحقق نتائج مهمة، إذ تقمـع ويختفـي أثرها.

نحن أمام نحو خمسة وعشرين كياناً سياسياً متمايزاً في بلاد الـشام آنـذاك. وكـان معظمها يشغل رقعة جغرافية صغيرة تقتصر على مدينة مركزية (عاصمة) ومنـاطق محيطة بها، وقد كانت نُخَشّي موضوع هذا البحث أوسعها.

يمكن تقسيمها إلى سبع مجموعات ذات أطر جغرافية موحدة، وغالباً ما اشتركت فـي أقدارها ومصايرها، وتماثلت التطورات فيها، وذلك على النحو الآتي:

١- الممالك الساحلية (السورية):

تشمل أوجاريت، سيّانو، أمورو، أرواد. وقد اعتمدت هـذه الممالـك علـى الحركـة التجارية البحرية، وحركة العبور التجارية (ترانزيت) بين شرقي المتوسـط ومـصر وألاشيا (قبرص) [١٥]. كما كانت غنية بمواردها الذاتية بحكم مناخها وطبيعتها الجبلية، واشتهرت بمصنوعاتها النسيجية والمعدنية. وكان التبادل الاقتصادي الكثيف، ولاسيما عبر ميناء أوجاريت، يترافق بتبادل التأثيرات الحضارية أيضاً.

كانت أوجاريت من أغنى مدن المنطقة عامة، وقد تمكن ملوكها الثمانية من إرضـاء المصريين والحثيين حفاظاً على ثروات مملكتهم وازدهارها.

وكانت سيانو إمارة صغيرة قائمة في مناطق جبلة الحالية، بـين مملكتـي أوجاريـت وأمورو، أما أمورو فكانت مركزاً أساسياً للإدارة المصرية، ويقيم في عاصمتها صُمُر مندوب ملكي مصري، ولكن العلاقات مع مصر ساءت في آخر عهد ملكهـا عبـدي

أشرتا فقضى المصريون عليه (نحو ١٣٤٥ ق.م) وعينوا ابنه عزيرو الذي انقلب على مصر أيضاً، بعد فترة قصيرة، وغدا حليفاً أساسياً للحثيين.

كانت أرواد ذات وضع خاص بحكم كونها جزيرة، وهو الذي أهّلها للقيام بدور عسكري بحري متميز في الصراع الدولي [١٦].

٢ - الممالك الساحلية (اللبنانية):

تشمل جُبْلا، بيروتا، صيدونا، صوري. ولم تكن هذه الممالك قوية عسكرياً، بل اكتسبت أهميتها من موقعها البحري والحركة التجارية في موانئها.

كانت جبلا أهمها، وتتبع لها مدن مهمة، مثل بطرونا، أميّا، شيجاتا. وقد عانت كثيراً من خصومة جارتها الشمالية والشرقية أمورو، وتدخلها في شؤونها. ظلت جبلا وفية لمصر، تطلب منها وضع حد لاعتداءات أمورو، ولكن دون جدوى.

أما بيروتا فقد كانت أقل أهمية، وتعاونت مع جبلا في صراعها مع أمورو، وخسرت بسبب ذلك استقلالها. وفي الجنوب كانت هناك مملكتا صيدونا وصوري المتنازعان، بسبب تعاون صوري مع جبلا في مواجهة تحالف صيدونا مع أمورو.

٣ - الممالك الساحلية (الفلسطينية):

تشمل عكّو، أشقلونا، خزّة. ظلت وفية مرتبطة بمصر، وبعيدة عن أطماع الحثيين. وبرزت بينها خزّة كمركز أساسي للإدارة المصرية في فلسطين (بلاد كنعان).

٤ - ممالك سورية الشمالية:

تشمل أشتاتا، حلب، موكيش. وهي واقعة بين الفرات وساحل المتوسط (أوجاريت). كانت في الغالب موالية للميتانيين، وخضعت لاحتلالهم، وانتشر فيها الحوريون - الميتانيون بكثافة. ثم بدأت منذ أواسط القرن الرابع عشر ق.م تتحول إلى السيادة الحثية.

٥- ممالك سورية الوسطى:

تشمل نُخَشّي، نيا، تونيب، قطنا، كنـــزا/قادش. لعبت الدور الأبرز في الصراع الدولي على سورية، بسبب موقعها الجغرافي المتوسط بين الممالك الكبرى. كانت في البدء موالية للميتانيين، عدا كنـــزا/قادش، وتأثرت بالحملات المصرية المتجهة عبر أراضيها نحو وادي الفرات. وقد شهدت هذه الممالك حروباً كثيرة وتحولات متسارعة وخضعت للسيادة الحثية، وجرت في قادش عاصمة بلاد كنـــزا واحدة من أهم معارك تاريخ الشرق القديم.

٦- ممالك سورية الجنوبية:

تشمل بلاد أب (دمشق)، بلاد جارو (الجولان الجنوبي). لقد ظهرت أهمية دمشق فـــي القرن الرابع عشر ق.م ؛ كحليفة موالية لمصر، ولكنها لم تصمد إزاء حملات الحثيين وأعوانهم (قادش، أمورو) ومعاداة اشترت في حوران، وأطماع بعض حكم مدن بـــلاد عمقي (البقاع).

أما بلاد جاور فقد كانت تضم – على غرار نُخَشّي- عدة مدن متحالفة، تحـــت هـــذا الاسم،وذلك في مناطق شرقي طبريا. وقد خضعت للسيادة المصرية أيضاً.

٧- ممالك فلسطين الداخلية:

كان في فلسطين عدد كبير من المدن المستقلة تحت حكم " حاكم " أو " زعيم "، مثـــل: خازور، مجدّو، شكيم، جزري، اوروسليم، لاكيشا. وقد كانت كيانات صغيرة مواليـــة لمصر في الغالب.

تُعدّ أبرزها آنذاك مدينة مجدو التي كانت تسعى إلى لمّ شمل حكم المنـــاطق القريبـــة منها، وكذلك البعيدة مثل قادش، رغبةً في تحقيق الاستقلال عن النفوذ المـــصري،كما في معركة مجدو ١٤٥٨/١٤٥٧ ق.م. وقد عانت من جرّاء ذلك ولم تحقق طموحها.

الإطار الجغرافي لمملكة نُخَشّي:

يصعب رسم حدود دقيقة للمملكة، ولكن يمكن القول- بشكل عام – إنها نشأت في المناطق السهلية والبادية المتصلة بها شرقاً، بين أطراف مدينتي حلب وحماة، وبين غربي وادي الفرات وشرقي وادي العاصي (راجع المصور). وبذلك تكون نُخَشّي قد جاورت مدناً تاريخية وممالك مهمة قائمة آنذاك، مثل: حلب، إيمار، قطنا، تونيب، نيا، موكيش.

وثمة مصادر كتابية (أكدية، حثية، مصرية) عدة تفيد بهذا الإطار الجغرافي لها،لعل أهمها هو قائمة الأمكنة التي اكتشفتها بعثة سويسرية بإدارة ريكه Ricke في مطلع سنة ١٩٦٤م في الفناء الكبير لمعبد الأموات لأمنحتب الثالث في الأُقْصُر، مدونةً على قواعد تماثيل للملك (١٧).

تضم المجموعة الأولى منها (١٧) اسم مكان،يمكن قراءة (١٠) منها، وهي- بالترتيب:

س ن ج ر، ن هـ ر ن،.. (خمسة أسماء مهشمة)...، ق ر ق م ش، خ ر ب، ن ج س، ب ر ج، ت ن ن ب، أ م ت، خ ت، ي ر ث و، (اسمان مهشمان).

والاسم العاشر ن ج س (وفي نقوش تالية تاريخياً ن و ج س) هو الصيغة المصرية للأصل الذي يدون بالكتابة المسمارية – المتميزة بالتعبير عن الحركات – بصيغة نُخَشّي Nu-ha-aš-še، وكتب المقطع الأخير بالعلامة ši أيضاً. ويرد الاسم نفسه في نصوص أوجاريت الأبجدية بصيغة ن غ ث (١٨).

ونلاحظ في هذا الترتيب (٩-١٣) خطاً جغرافياً واضحاً، يمتد من خ ر ب (حلب) حتى أ م ت (حماة)، وبينهما ن ج س (نُخَشّي) (١٩).

ويمكن أن نستخلص من ذلك عدة أمور مهمة، هي:

١- وضوح التخوم الشمالية والغربية والجنوبية لمملكة نُخَشّي (راجع المصور ١).

٢- القرب الشديد بين حلب ونُخَشّي، إذ تذكران بشكل متتال.

٣- من المرجح أن حلب لم تكن مركز كيان سياسي مستقل، بل مركزاً دينياً أساسياً ؛ كما كانت في ظل مملكة إبلا ومملكة ألالاخ من قبل ، وفي ظل مملكة أرفاد من بعد . ولذلك لا نجد لها ذكراً في مراسلات العمارنة، ولعله السبب في حرص الحثيين الدائم على احتلالها، وعندما احتلها شوبيلوليوما الأول، عيّن ابنه تلبينو أول الأمر كاهناً لإله الطقس في حلب، ثم ملكاً عليها.

٤- ربما كان هناك تحالف متين يبلغ درجة الاتحاد عند ظهور الأخطار الخارجية، بين نُخَشّي وحلب وبرجا وتتنب، ولذلك ورد الحديث في النصوص الأكّدية والحثية عن "ملوك بلاد نُخَشّي"و "ملوك بلدان نُخَشّي".

أما في جهة الشرق فتمتد منطقة سهلية انتقالية، ثم البادية السورية. ولذلك كان إطار المملكة هناك مفتوحاً، لا حدود ثابتة له. وكان السكان يمارسون زراعة الحبوب في مساحات صغيرة، ويربّون قطعان المواشي، ويتنقلون بين السهول والبادية، حسب الظروف المناخية والمتطلبات الاقتصادية. وثمة إشارة في السيرة الذاتية للملك الحثي ختوشيلي الثالث تبين سهولة الهروب من نُخَشّي إلى بابل. ولكن يبدو أن حدودها عند منعطف الفرات نحو الشرق نُظمت مع بلاد أشتاتا / إيمار في عهد الحثي تلمي شرّوما؛ كما يبين نص معاهدةٍ له (GS II 18,24).

وكانت نُخَشّي في الجهة الجنوبية متاخمة لمملكة قطنا آخر الممالك المتحالفة مع الميتانيين، قبل بدء مناطق الانتداب المصري. كما يبدو أن جزءاً صغيراً منها – في الزاوية الجنوبية الغربية – كان يتاخم أراضي مملكة كنزا / قادش.

نشير إلى أن عدداً من رسائل العمارنة (EA 160,161,164-167) يوضح القرب بين مملكتي نُخَشّي وأمورو. ولكن مدينة تونيب وأراضي مملكتها الصغيرة كانت تفصل بينهما، ولذلك تردد في عدد من تلك الرسائل قول عزيرو ملك أمورو " **وهو (العدو الحثي) موجود الآن في بلاد نُخَشّي، والطريق إلى مدينة تونيب لا يستغرق سوى مسير يومين فقط**" أو "**الطريق من مدينة تونيب إلى حيث هو موجود لا يستغرق سوى مسير يومين فقط**" (EA 165,167).

كما تجدر الإشارة إلى أن المطابقة بين نُخَشّي، ولعش، الإقليم الذي ضمّه زكّور ملك حماة الآرامي إلى حكمه في أواخر القرن التاسع أو مطلع الثامن ق.م، مقبولة جغرافياً ومن حيث التبدلات الصوتية الطارئة على صيغة الاسم [٢٠].

مراحل تاريخ مملكة نُخَشّي:

إن أقدم وثيقة تاريخية تذكر نُخَشّي / ن ج س ككيان سياسي متميز، هي قائمة الأمكنة لأمنحتب الثالث، ثم يتكرر الحديث عنها كمملكة في عدد من رسائل العمارنة التي تعود إلى مطلع عهد أمنحتب الرابع. أي أن أخبارها المبكرة تذكر في مصادر أواسط القرن الرابع عشر ق.م، وليس قبل ذلك [٢١]. ولكن ثمة رسالة ضمن رسائل العمارنة تلك تشير بوضوح إلى أن مملكة نُخَشّي قامت خلال عهد تحتمس الثالث ؛ أي قبل ذلك بنحو قرن، وذلك ضمن سياق استرجاع ما حصل سابقاً.

كانت تلك المنطقة من قبل موطناً لقبائل أمورية،انتقلت إليها في زمن بعيد من مواطنها الأم حول جبل مارتو أو أمورّو (البِشْري)، المتصلة بها من جهة الشرق. ولذلك يمكن القول إن أراضي منطقة نُخَشّي كانت خلال القرن الثامن عشر ق.م – حيث قامت كبرى الممالك الأمورية في الشرق القديم عامةً – خاضعة لمملكة يَمْخَد (حلب) في الشمال، ومملكة قطنا في الجنوب الشرقي (GS II 33). ويبدو أن الوجود الحوري بدأ

يزداد فيها بعد دمار ماري أقوى الممالك الأمورية (١٧٦ ق.م)، وذلك على غرار انتشارهم في مملكتي حلب وألالاخ، مع استمرار الحكم الأموري فيهما.

ويرى الباحثون أن مناطق شمالي بلاد الرافدين شهدت بعد ذلك (القرن ١٧ ق.م) انتكاس المقومات الاقتصادية للعيش، وتأثر سكان مناطق الأطراف الجبلية بذلك، واضطر قسم منهم إلى تغيير نمط حياته، والبحث عن مجال للعيش في السهول الزراعية (٢٢). وضمن تلك الظروف هاجرت قبائل جبلية حورية جديدة من موطنها الأم إلى مناطق طور عابدين والجزيرة السورية، وعُرفت باسم ميتّاني الذي كان على الأرجح اسم أبرز قبائلها، أو اسم أحد زعمائها البارزين. واستطاعت في أواخر القرن السابع عشر ق.م أن تجمع حولها القبائل الحورية التي كانت تقيم هناك من قبل، وأنشأت مملكة ميتّاني التي سميت البلاد التابعة لها باسم خاني جَلْبَت أو نهرينا.

ثم أدى التجاور الجغرافي والأطماع التوسعية – بمرور الزمن – إلى دخولها في صراع مع المملكة الحثية في بلاد الأناضول. وكانت نقطة التقاء أطماع المملكتين هي مناطق سورية الشمالية، ولهذا تركّز صراعهما حول السيطرة على وادي الفرات واحتلال حلب.

ولكن حملة الحثي مورشيلي الأول المفاجئة في مطلع القرن السادس عشر ق.م إلى بابل واحتلالها، ثم الانسحاب منها بعد شهور ولّدت اضطرابات داخلية، وأبعدت الحثيين عن شمال سورية نحو قرن ونصف. ولذلك تفردت ميتاني بها، لأن ملوك مصر أيضاً انهمكوا بتحرير بلادهم من الهكسوس، ثم إعادة تنظيم شؤونهم الداخلية وتحقيق الازدهار. ولذلك لا نعرف حملات لهم إلى وادي الفرات – قبل تحتمس الثالث – غير حملة واحدة قادها تحتمس الأول في نحو ١٥٠٠ ق.م.

يمكن تقسيم تاريخ مملكة نُخَشّي اصطلاحياً إلى عدة مراحل، حسب حكامها وملوكها – الذين نعرف أسماء خمسة منهم – وعلاقاتها بالقوى الكبرى في الشرق القديم، إلى المراحل الآتية:

١- نشأة المملكة (عهد تاكو، نحو ١٤٥٠ ق.م)

إن ازدياد حركة الحملات المصرية إلى داخل سورية ووصولها إلى وادي الفرات الأوسط، بدءاً من عهد تحتمس الثالث، كان يشكل خطراً على بلاد نُخَشّي التي تربط بين واديي العاصي والفرات. ولكنها لم تؤد إلى تغييرات أو تأثيرات في مناطقها الشرقية التي كانت تمرّ بها، كما إنها لم تثر مشكلات للمصريين، ولم تلق اهتماماً منهم، ولذلك أغفلوا ذكرها والحديث عنها.

ولعل السبب في ذلك هو أنها كانت لا تستأثر باهتمام المصريين اقتصادياً من ناحية، ومن ناحية ثانية كان سكانها لا يشكلون قوة سياسية أو عسكرية ذات شأن، بل يعيشون حياة شبه بدوية، وينتقلون إلى البادية المجاورة عند اقتراب الجيش المصري، ثم يعودون بعد عودته إلى ديارهم وبيوتهم البسيطة.

ولكن يبدو أن المصريين تنبّهوا إلى الأهمية الاستراتيجية لتلك البلاد عامةً، فصاروا يفكرون بضرورة إيجاد حليف تابع لهم مدعوم منهم، لممارسة الرقابة في تلك المنطقة الشاسعة التي تشكل جبهة مقابلة للمناطق الميتانية. وأدركوا أنها مهمة تتطلّب أن يقوم بها زعماء محليون. ولذلك تم (في نحو ١٤٥٠ ق.م) اختيار أحد الزعماء القبليين هناك، ليكون "ملكاً " عليها، وهو تاكو الذي لا تفيدنا المصادر بأية معلومات عن شخصيته ومكانه وأعماله السابقة، وغير ذلك.

إن معرفتنا بتاكو هذا تقتصر على خبر عنه في نص يعود إلى ما بعده بأكثر من قرن من الزمن. وهو نص رسالة مكتشفة في آخِت آتون (تل العمارنة) مرسلة من ملك نُخَشّي آنذاك، وهو أدو نيراري، إلى الملك المصري أمنحتب الرابع (EA 51). يقول فيها له (٢٣):

إلى الشمس، الملك، سيدي، ملك بلاد مصر. هكذا يقول أدّو نيراري خادمك:

انظر ! عندما جعل مَنَخ بيّا ملك بلاد مصر، جدُّك، تاكو جدّي ملكاً في بلاد نُخَـشّي؛ وضع الزيت على رأسه، وقال ما يأتي: (هذا هو) الذي جعله ملك بلاد مصر ملكـاً، ووضع له [الزيت على رأسه]. لا أحد [سوف...]. أعطاه........ الآن،.............

(بقية الوجه الأمامي للرقيم مهشمة، ومن ثم القسم العلوي من الوجه الخلفي أيضاً)

و............. تاكو جدّي............... . والآن يا سيدي...

.... وملك بلاد خَتّي إليّ [كتب بخصوص عقد تحالف].

سيدي ! [لقد رفضتُ] الرُّقُم والمواثيق، و [مازلتُ خادم] ملك بلاد مصر، [سيدي].

والآن، ليت سيدنا [يأتي] إلينا، وسوف [نعيد البلدان] لسلطته. و....... إلى سيدنا. فليت سيدنا يخرج إلينا (هذه) السنة. ليتك لا تهمل (ذلك). ستجدهم أوفياء في خدمة سيدي حقاً. وإن لم يرد سيدي المجيء (شخصياً)، فليرسـل سـيدي واحـداً مـن مستشاريه مع قواته ومع عرباته.............. سيدي.................. سيدي.

سنعود لاحقاً إلى الحديث عن ملك نُخَشّي، مرسل هذه الرسالة في نحـو ١٣٤٠ ق.م. وما يهمنا هنا تأكيده على أن تحتمس الثالث (مَنَخ بيّا) [٢٤] كان قد عيّن جـدّه تـاكو ملكاً على نُخَشّي، وأقام بتلك المناسبة مراسيم تنصيب رسمية شهدت عمليـة سـكب الزيت على رأسه كتعبير رمزي عن شرعيته. كما إن الرسالة تؤكد بشكل غير مباشر على نظام الحكم الوراثي في المملكة.

ومن المرجح أن السطور المهشمة في وجهي الرقيم ذكرت أموراً مهمة أخرى، لعـل أبرزها التذكير بحسن العلاقات، والحماية المصرية للمملكة آنذاك. ويأتي هذا – بعـد نحو قرن – بهدف المقارنة وحضّ الملك المصري على دعمه ضد الخطر ...حثي الذي يشير إليه.

إننا لا نعرف أي خبر آخر عن تاكو وعهده، ولابد من مصادر جديدة توضح أوضاع المملكة الناشئة وعلاقاتها، وفترة حكم تاكو.

٢- نُخَشّي تحت السيادة الميتّانية (نحو١٤٢٥-١٣٤٤ ق.م)

كانت آخر حملات تحتمس الثالث (١٤٣٨ ق.م) موجهة لقمع تمرد في قادش وتونيب بدعم ميتاني. وكان الملك المصري قد تجاوز آنذاك السبعين من عمره، (راجع: BAR II, p.214)، وتفرّغ في أواخر عهده للاهتمام بالشؤون الداخلية، وإنجاز أعمال عمرانية في الكرنك وغيرها. أما خليفه أمنحتب الثاني فقد اقتصرت محاولته تثبيت الوجود المصري في وسط سورية على حملة عامه الثاني (١٤٢٤ ق.م).

استغل الملك الميتاني الجديد سوشتتر هذا الإهمال المصري، واستطاع توحيد مملكته المضطربة من جديد، وقد ذكرنا أنه حقق أقصى اتساع جغرافي في تاريخ مملكته. وكان من مظاهر الوضع الجديد خضوع نُخَشّي، كغيرها من ممالك سورية الشمالية، للسيادة الميتانية.

مع بدء مرحلة التحالف المصري – الميتاني في مطلع القرن الرابع عشر ق.م تمّ تنظيم الحدود بينهما، وظلت نُخَشّي في الجانب الميتاني حتى نحو ١٣٥٠ ق.م، واستقرت الأوضاع وشاع جو من السلام والازدهار.

لم تكشف التنقيبات الأثرية عن شواهد كتابية من هذه المرحلة بعد، ولذلك لا نستطيع إضاءة جوانب من تاريخ نُخَشّي، والمنطقة، بشكل عام. ولكن يبدو أن الحثيين كانوا يتحيّنون الفرص المناسبة للتدخل أو التغلغل الجزئي في شمال سورية ومناطق وادي الفرات القريبة منهم، بل يحاولون إيجاد موالين لهم في الإطار الشعبي أو الرسمي، ضمن المناطق الميتانية الأساسية أو الخاضعة لسيادتهم.

ويمكن في هذا السياق الاستفادة من نص حثي يشير إلى أحداث حصلت آنذاك في شمال سورية؛ على الرغم من أن النص يعود إلى مرحلة تاريخية لاحقة. إنه نص معاهدة أبرمها تَلْمي شرّوما الحاكم في حلب مع الملك الحثي مواتللي، حيث نقرأ في مقدمتها التاريخية استعادة لأحداث سابقة حصلت قبيل استلام شوبيلوليوما العرش الحثي، منها أن سكان بلاد أشتاتا على الفرات ونُخَشّي طالبوا الملك الميتاني بحق السيادة في مدن ومناطق حدودية مع حلب، فاستجاب لطلبهم، وأقرّ لهم بذلك في وثيقة مختومة. ثم فعلوا الأمر نفسه مع الملك الحثي ختوشيلي الثاني (٢٥).

ويرى كلنجل أن عدم ذكر حاكم معين، بل الإشارة إلى سكان (أبناء) أشتاتا ونُخَشّي يمكن أن يكون دليلاً على اعتماد نظام حكم لا مركزي، غير وراثي، في بلاد نُخَشّي آنذاك (GS II,32). ولكننا نخالف رأيه لتعارضه مع طبيعة الحياة البدوية التي كانت سمة القسم الأكبر من بلاد نُخَشّي. ولوجود دليل مضاد يعبّر عن الحكم الوراثي في رسالة أدّو نيراري التي عرضناها من قبل. ونعتقد أن الغاية من ذلك هي التعبير عن إجماع القبائل المتُعدّدة في مملكتي أشتاتا ونُخَشّي.

لقد ظلت نُخَشّي في أواخر هذه المرحلة ذات حكم محلي تحت السيادة الميتانية الشكلية. ولكن القوى الكبرى الثلاث كانت تمر بمرحلة عصيبة، فقد كان الملك تشرتا يعاني من الخلافات الداخلية، ويحاول دون جدوى المحافظة على التحالف القديم مع مصر التي انهمك ملكها أمنحتب الرابع بنشر أفكاره الدينية الجديدة، بينما كانت المملكة الحثية تمر بمرحلة من التفكك وازدياد التمردات فيها، ولاسيما تمرد الكشكيين في الشمال، وكان الملك العجوز تودخاليا الثالث يعتمد على ابنه الأمير شوبيلوليوما في إدارة الحروب المتفرقة للحفاظ على مملكته التي بدأت تتفكك رويداً رويداً.

٣- نُخَشّي وحملات الحثي شوبيلوليوما الأول(١٣٤٣-١٣٢٣ق.م) (٢٦)

لم تخضع نُخَشّي، خلال هذه المرحلة، للسيادة الميتانية ولا الحثية بشكل حقيقي، بل ظلت تحت وطأة استقرار جيوش الملك الحثي شوبيلوليوما في أراضيها، وهي غير قادرة على التخلص منها، كما لا ترضى بوجودها تماماً.

يمكن القول بدايةً أن ظهور شوبيلوليوما الأول كان إنقاذاً للأوضاع في المملكة الحثية، لأنه كان شخصاً متميزاً بقدراته. وتفيد نصوص عهده بأنه كان محارباً بارعاً قاسياً مقداماً، ينتقل من ساحة حرب إلى أخرى، ورجل دولة ناجحاً، وحاكماً عادلاً (٢٧). خبِرَ الحياة العسكرية وفنون القتال والخطط الحربية، منذ أن كان أميراً يوكل إليه أبوه (تودخاليا الثالث) قيادة حملات جيش المملكة.

ولذلك عندما تولى عرش الحكم، بات الأقوى بين حكام الشرق القديم عامة، وتركز اهتمامه على تصفية الحسابات القديمة مع المتمردين خلال عهد أبيه في جهات المملكة المختلفة، وإنهاء مملكة ميتاني العدوة التقليدية منذ قرون، واستغلال الإهمال المصري لمناطق نفوذها في بلاد الشام وإخضاعها. وقد تمّ له ذلك خلال فترة قصيرة نسبياً، ولذلك أحدث تغيراً واضحاً في مجرى التاريخ السياسي للمملكة الحثية، وعُدّ مؤسس المملكة الحثية الحديثة (٢٨).

والمصادر الكتابية التي تعود إلى عهده، وتتطرق إلى بلاد نُخَشّي هي الأوفر عدداً، وتبلغ إحدى وعشرين وثيقة بالكتابة المسمارية، واللغتين الأكّدية والحثية، اكتشفت في مواقع متباعدة،هي آخت آتون (العمارنة) أوجاريت (رأس شمرا) خَتّوشا (بوغاز كوي) وهي أكثر المصادر غنى بالمعلومات عن المملكة، وعن أربعة من ملوكها، وهم: **شَرّوبشي، أَدّو نيراري، تِكيب شِرّي، تيتّي**. ومن ثم فإن معلوماتنا عن هذه المرحلة البالغة عشرين عاماً تفوق ما نعرفه عن المراحل الأخرى من تاريخ المملكة الذي امتد نحو قرن ونصف.

افتتح شوبيلوليوما عهده بالتوجه إلى العاصمة الميتانية وشوكاني، عبر جبال كشياري (طور عابدين) الوعرة، وعلى الرغم من أن الحملة أخفقت في تحقيق هدفها، فقد نبّهت حكام المنطقة بشكل عام إلى بدء فصل جديد من الصراع، وخلقت نوعاً من الاستنفار والتهيؤ فيها. وكان الملك الميتاني تشرتا في وضع حرج، بعد أن يئس من محاولاته تحريك الحليف التقليدي له ؛ أي مصر.

بدأ شوبيلوليوما يستُعدّ لحملة كبرى إلى الممالك السورية المرتبطة بميتاني. ووجه حملة تمهيدية بقيادة لُبَكّو، عبر خلالها بلاد نُخَشّي، إلى بلاد كنزا الحليفة، بل وصل حتى بلاد عمقي. وتعرف هذه الحملة بـ "الحرب الحثية – السورية الأولى" (١٣٤٣ ق.م). ويبدو أن **شَرّوبشي** ملك نُخَشّي آنذاك رحّب بالمحتل، وحدثت أعمال نهب للمصالح الميتانية أو لأنصارهم. أراد تشرتا الانتقام منه وردعه عن التحول إلى التحالف مع الحثيين، ووجّه إليه جيشاً لتأديبه، ولذلك أسرع شروبشي في إرسال رسول لطلب المساعدة من القوات الحثية المرابطة عند ضفاف الفرات، وتستُعدّ أصلاً للهجوم، فكان ذلك مبرراً ودافعاً أقوى لاندفاع الجيش الحثي لحماية نُخَشّي وإبعاد الجيش الميتاني.

كانت بلاد نُخَشّي واسعة، بالمقارنة مع الأطر الجغرافية للممالك السورية الأخرى. كما إنها لم تكن موحدة، بل تضم زعامات قبلية قد تتفرد بمواقفها وتختلف عن العاصمة نُخَشّي، وقد تبدل تحالفاتها بسرعة. ولذلك فإن ولاءها لميتاني لم ينته إلا بشكل تدريجي.

تغلغل الجيش الحثي مرة أخرى في أراضي ميتاني المركزية، ووصل العاصمة وشوكاني، مما أثار نُخَشّي، أو قسماً منها، من جديد، وعبّرت عن استيائها بدعم الجيش الميتاني، فسار إليها الجيش الحثي وأخضعها وهرب الملك شروبشي.

في الفترة تلك كان ملك آخر من ملوك نُخَشّي، على الأرجح في مكان آخر ضمن البلاد، يستشعر خطورة الأطماع الحثية على سادة المنطقة التقليديين، ميتاني ومصر، وهو **أدو نيراري** الذي لاحظ عدم إمكانية العون الميتاني فكتب إلى ملك مصر بشكل عاجل الرسالة التي عرضناها من قبل، حيث ذكرّه بالعلاقة الوثيقة القديمة، وأكد استمرار ولائه لمصر، وأنه رفض عرض الملك الحثي بإبرام معاهدة وتحريرها كتابياً على رُقم كنوعٍ من التأكيد على الالتزام، ولاسيما أن التحرير يعني تضمينها أسماء آلهة من آلهة الطرفين كشهود، مما سيضمن تنفيذ بنودها.

ويستشف من الرسالة أن أدو نيراري لم يكن يتوقع حضور الملك بنفسه، لانهماكه بنشر أفكاره الآتونية التوحيدية الجديدة، أو لتخوفه من غدر خصومه من الكهنة خلال غيابه. ولذلك اقترح إرسال أحد مستشاريه لمساعدته في مواجهة الخطر الحثي، وكان الأهم لديه هو وصول القوات والعربات.

ولكن الرسالة لم تلق صدى، كعشرات الرسائل التي أرسلها غيره من الحكام إلى أمنحتب الرابع / أخناتون ؛ كما يتضح من رسائل أرشيف العمارنة. ولذلك كله اضطر، أو قرّر أدو نيراري التعاون مع الحثيين الذين عيّنوه ملكاً جديداً لبلاد نُخَشّي، بدلاً من شروبشي الذي خيّب آمالهم.

في هذه الأثناء كان عزيرو ملك أمورو الجديد في زيارة إلى مصر، وقد أوكل شؤون مملكته إلى أخيه وابنه اللذين قلقا للمستجدات المتسارعة، فكتبا رسالتين أرسلاهما معاً، واحدة إلى عزيرو يطلبان منه العودة بسرعة إلى بلاده لازدياد الخطر الحثي، ويعلمانه بأن قوات حثية بقيادة قائد يدعى لُبَكّو عبرت البلاد (قبل شهور، بعيد سفره) ووصلت حتى بلاد عمقي واحتلت مدناً. ثم يتحدثان عن حرب حثية جديدة، يقولان له:

" أمرٌ ثانٍ، لقد سمعنا ما يأتي: زيتانا (القائد الحثي) جاء. وجاء معه تسعون ألف جندي من المشاة. ولكننا لم نتحقق من هذا الكلام بعد، (ولسنا متأكدين) إن كانوا موجودين هناك حقاً، ووصلوا إلى بلاد نُخَشّي؟" (EA 170 ,19-27).

أما الرسالة الثانية فموجهة إلى توتو المندوب الملكي المصري، ويطلبان منه أن لا يؤخر عزيرو عن العودة، بل يدعه يأتي بسرعة "كي يحمي بلاد الملك"، ويقولان له:

" أمرٌ ثانٍ، إلى توتو سيدي: اسمع كلمات ملوك بلاد نُخَشّي. لقد قالوا لي: أبوك بعته مقابل ذهبٍ لملك بلاد مصر، فمتى سيتركه يعود من بلاد مصر ؟!. كما إن (حكام) جميع البلدان، وجميع (قادة) القوات السوتيّة [٢٩] يقولون لي: لن يخرج عزيرو من بلاد مصر.

والآن، ها هم السوتيون ينهبون البلدان، ويعيّرونني باستمرار (قائلين): أبوك موجود في بلاد مصر، لذا سنثير الحرب عليك،... رجاله. فاسمع يا توتو، سيدي، ودَع عزيرو يأتي إلينا بسرعة... نُخَشّي... (أربعة سطور مفقودة)". (EA 169,16-44).

ما يهمنا في الرسالتين الملاحظات الآتية:

١- كانت بلاد نُخَشّي تشكل منطقة المواجهة الأولى لدى تقدم الجيش الحثي، ويبدو أنها أضحت خلال عهد أدو نيراري مركز تجمع الجيش وانطلاقه. وإن كان ذلك طبيعياً من الناحية الجغرافية، فهو يعبّر في الوقت ذاته عن إدراك وشعور بوحدة إقليمية لدى حكام سورية القديمة، رغم وجود التناحر الداخلي فيما بينهم، بين حينٍ وآخر.

٢- ضخامة الجيش الحثي المتقدم نحو سورية.

٣- إدراك أهمية شخصية توتو في البلاط المصري، ودوره الفاعل. وثمة ما يشير إلى أن توتو هذا كان شخصاً أجنبياً (غير مصري) بدأ حياته في القصر خادماً، ثم لم يلبث أن أصبح صاحب اليد العليا فيه. ويرى عبد الحليم نور الدين أنه كان أحد العوامل الهامة في انهيار الإمبراطورية المصرية، لأنه كان يخفي على الملك بعض ما تتضمنه الرسائل الواردة من الولايات الخاضعة للحكم المصري، بقصد تضليله (٠).

٤- إن قول " **اسمع كلمات ملوك بلاد نُخَشّي** " يشكل أحد الشواهد على ما ذكرنا من تكون البلاد من كيانات عدة. كما إنه يشير إلى شعور بالحاجة إلى التعاون،والسعي إليه،ولاسيما لدى ظهور الأخطار الخارجية.

٥- كانت القبائل البدوية في بادية الشام (السوتيون) تستغل الاضطرابات للقيام بأعمال نهب.

٦- ربما كانت الإهانة التي وجهها ملوك بلاد نُخَشّي في الرسالة الثانية، بأن غرض أمورو من التحالف مع مصر وسفر الملك إليها هو الذهب، وكذلك السخرية في القول " **متى سيتركه يعود...**" ردّاً على إهانة موجهة إلى ملوك بلاد نُخَشّي بأنهم سلّموا بلادهم للحثيين لتكون مسرحاً لجيشهم، أو ما يشبه ذلك.

صار شوبيلوليوما في مواجهة ملوك الممالك السورية كلها، وكان بينهم كثير من المرتبطين الموالين لميتاني، ولم يكن من السهل تبديل ولائهم فجأة. ولذلك ظهر بينهم تياران، من حيث الموقف من السيادة الحثية المرتقبة، ويظهر ذلك بوضوح في رسالة أرسلها أكيزّي ملك قطنا إلى أمنحتب الرابع (EA 53). حيث يبين أن حاكم قادش بات حليفاً للحثيين، واستمال حاكمي لابان ورخيزي، وهم يهاجمون ويحرقون بلاد أب (دمشق)، أما الموالون لميتاني ومصر فقد فقدوا الأمل في مساعدة من سيدهم ملك ميتاني، ويتطلعون إلى النجدة والعون من مصر. يقول:

"يا سيدي! كما أحبّ أنا الملكَ، سيدي ؛ كذلك ملك بلاد نُخَشّي، وملك بلاد نيّا، وملك بلاد سَنْزَر، وملك بلاد تُنَنَب. هؤلاء الملوك كلهم خدم موالون لسيدي". (EA 53,40-44).

ويختم رسالته بالتنبيه إلى أن سقوط دمشق سيعني انفراط عقد المناوئين للحثيين، ولكن وصول الدعم العسكري المصري كفيل بمنع حصول ذلك.

في تلك الأثناء عاد عزيرو ملك أورو إلى بلاده، ووجد وضعاً جديداً تماماً، وأدرك أن السيادة الحثية حاصلة عما قريب، ولاسيما أنه كان قد رأى بعينه الأوضاع الجديدة في البلاط المصري، التي لا تبشر بخيرٍ لممالك بلاد الشام، بسبب صراع كهنة آمون مع أخناتون، وانصراف الملك عن الاهتمام بالشؤون الخارجية. ولذلك غيّر عزيرو موقفه بسرعة، وراح يتعاون مع ملك كنزا / قادش، ويحاول أو يخطط لتوسيع نطاق مملكته في أراضي ممالك مجاورة في الشرق (نيا، تونيب) والجنوب (جُبْلا).

احتل عزيرو نيا، ثم تونيب، ولم تَعدّ هناك مملكة تفصله عن نُخَشّي التي يستقر فيها جيش شوبيلوليوما، ولم يكن ملكها أدو نيراري إلا ملكاً شكلياً. وكان عزيرو مراوغاً، يفاوض الحثيين، ويرسل في الوقت ذاته رسائل ولاء إلى مصر يؤكد فيها للملك أنه يحمي بلاد الملك، ولكن **"ملك بلاد الحثيين موجود في بلاد نُخَشّي، وأنا خائف منه. ربّما يأتي ويحتل بلاد الملك، سيدي. ولذلك – بسبب هذه الأحداث – سأبقى حتى يرحل ويعود إلى بلاده " (EA 165,18-24).**

ثم يقول له: **"هو موجود الآن في بلاد نُخَشّي. والطريق إلى مدينة تونيب لا يستغرق سوى مسير يومين فقط. ولذلك أنا خائف من هجومه على مدينة تونيب. ليته يرحل. أمرٌ ثانٍ، سيدي ! لا تصغ إلى الواشين. أنا وإخوتي وأبنائي خدم الملك سيدي إلى الأبد " (EA 165,38-45).**

وبذلك لم يبق حليف قوي لمصر في سورية، غير أكيزّي ملك قطنا الذي كان يتابع عن كثب ما أحدثه تصرف عزيرو الذي اتفق مع الحثيين، وسيطر على منطقة واسعة (بين وادي العاصي الأوسط، والبحر المتوسط) بينما سيطر الحليف الحثي الآخر ملك قادش – ومعه حلفاء صغار – على مناطق جنوبي قطنا، حتى دمشق وسهل البقاع. وبذلك أضحى أكيزي محاصراً. وقد واجهت قطنا خلالها أول حملة حثية مشتركة مع قوات عزيرو.

وبذلك انتهت أحداث الفترة التي تعرف في البحوث بـ " الحرب الحثية – السورية الثانية " بعد أن دامت نحو ثلاث سنوات (نحو ١٣٤٢–١٣٣٩ ق.م). ويلاحظ فيها بوضوح أن الدور الحثي فيها اعتمد بشكل أساسي على التخطيط والتوجيه والدعم العسكري، بينما كان السوريون هم المتحاربون والضحايا. أما بلاد نُخَشّي فقد احتلها الجيش الحثي، وانتشر فيها، وجعلها منطقة لعملياته. ولم يكن أدو نيراري الذي نصبوه ملكاً على البلاد قادراً على التصرف بغير إدارة الشؤون الداخلية، والتنسيق مع المحتل، وبين الزعامات المختلفة في البلاد. وسيتضح لنا بعد قليل أنه لم يكن مقتنعاً وراضياً بذلك.

تكللت تلك الحرب والجهود المتميزة لعزيرو ملك أمورو بتوقيع معاهدة تبعية مع الملك الحثي شوبيلوليوما الأول، في نحو ١٣٣٩ ق.م. وقد كشفت التنقيبات الأثرية في العاصمة الحثية خَتّوشا عن نص المعاهدة مدوناً باللغتين الحثية والأكّدية، بشكل منفصل [٣١].

يرد في المعاهدة الحديث عن مملكة نُخَشّي ضمن سياق مراجعة أحداث تاريخية قريبة العهد، حيث يذكر شوبيلوليوما أسماء البلدان التي ناصبته العداء آنذاك، وهي: مصر، ميتّاني، أشتاتا، نُخَشّي، نيا، كنزا، موكيش، حلب، كركميش. ثم يقول: " **ولكنّ**

عزيرو ملك أمورو جاء إليّ من بوّابة إقليم النفوذ المصري، وصار تابعاً لجلالتي، أنا ملك بلاد ختّي".

كما تذكر نُخَشّي كمملكة حليفة "صديقة" – فيما بعد – ضمن البند الذي يفرض على أمورو التعاون العسكري مع الجيش الحثي في حملاته إلى بلاد الأعداء، أو إلى بلاد أصدقاء قد يتحولون إلى أعداء، ويلزمها بمبدأ " **سيكون صديقي صديقك، وعدوي عدوك**"؛ كما جاء في النص.

وكذلك تذكر نُخَشّي في البند الذي يفرض على أمورو الالتزام باعتقال الأسرى الهاربين من بلاد ختّي وإعادتهم إليها.

حاول الملك الميتاني دعم نُخَشّي، وخطط مع ملوكها، أو مع أحدهم لتحرير مناطقها، وحقق نجاحاً في البداية، ووصلت قواته حتى مناطق النفوذ المصري – من قبل –، ولكن ذلك لم يدم طويلاً، إذ ردّته القوات الحثية على أعقابه (٣٢).

ثم اتبع ملك نُخَشّي أدو نيراري، وربما ملك آخر فيها، خطوة جديدة مفاجئة، إذ اتفق مع ملك موكيش، ثم انضم إليهما ملك نيا، وشكل تحالفاً مضاداً للحثيين، بدعمٍ ميتاني. وأدركت أطراف التحالف أهمية أوجاريت في تشكيل طوق في وجه الجيش الحثي، وبدأت تحاول استمالة أوجاريت ودفعها إلى التخلي عن علاقاتها مع الحثيين، ولكن نقمادو الثاني ملك أوجاريت (نحو ١٣٥٣-١٣١٨ ق.م) لم يظهر أية استجابة، فقامت قوات التحالف المذكور بالتقدم نحو أراضي أوجاريت.

ويبدو أن الحثي شوبيلوليوما استنفر أيضاً تحالفاً موالياً له وبقيادته، وكتب إلى نقمادو رسالة يقترح عليه التحالف معه، ويطلب منه ألا يخاف منهم وأن يكون واثقاً من نفسه، ويقول له:

" الآن، يا نقمادو، أيّد الميثاق والتحالف الذي (شكّلته) بلاد ختّي. وبعد ذلك سترى ما سيفعل الملك العظيم بهم؛ (أعني) ملوك بلاد نُخَشّي، وملك بلاد موكيش الذين تخلوا عن الميثاق والتحالف الذي (شكلته) بلاد ختّي، وصاروا معادين للملك العظيم، سيدهم... وإذا الملوك كلهم أرسلوا جنداً لنهب بلادك، فلا تخشهم يا نقمادو". (RS.17.132,19-27(PRU IV 36)).

ثم يطلب منه جواباً يرسله مع رسول يأتي إليه بسرعة، ليعرف ماذا ينوي نقمادو فعله. يقول له:

"وإن تهاجم يا نقمادو بأسلحتك جندَ بلاد نُخَشّي، أو جند بلاد موكيش، وتسبقني، فلا تدع أحداً ينتزعهم من يدك. وإن يدخل جند من بلاد نُخَشّي، أو جند من بلاد موكيش إلى وسط بلادك، بصفة رجال فارّين، وهو محتمل، فلا تدع أحداً يأخذهم من يدك". (RS.17.132,35-43(PRU IV 36f.))

وثمة نص آخر من أوجاريت يمثّل اتفاقاً بين الملكين بعد أن رفض نقمادو التحالف مع نُخَشّي وموكيش. وقد فرض شوبيلوليوما فيه تقديم جزية سنوية ضخمة، وهدايا فصّل في ذكرها (ذهب، صوف، أثواب...)، وذلك للملك وولي العهد والموظفين الملكيين الكبار في البلاط الحثي. ويذكر آلهة شهوداً على الاتفاق (RS.17.727(PRU IV40ff.)).

لقد حدث الهجوم، كما يذكر نص معاهدة فرضها شوبيلوليوما على نقمادو، إذ جاء في مطلعها ما يأتي: **"عندما كان إتور أدّو ملك بلاد موكيش، وأدّو نيراري ملك بلاد نُخَشّي، وأجيت تشوب ملك مدينة نيا، معادين لسلطة إله الشمس، الملك العظيم، سيدهم، جمعوا قواتهم، واحتلوا مدناً في قلب بلاد أوجاريت، وهجموا على سكان بلاد أوجاريت، وأخذوا رعايا نقمادو ملك بلاد أوجاريت أسرى، وخربوا بلاد أوجاريت. عند ذلك كتب نقمادو ملك بلاد أوجاريت إلى شوبيلوليوما، الملك العظيم،**

قائلاً: " ليت إله الشمس، الملك العظيم، سيدي، يخلّصني من يد الأعداء...[٣٣]. (**RS 17.340,2-11**)

استجاب شوبيلوليوما لطلبه، وأرسل جيشاً طرد أعداءه من وسط بلاده. وتقديراً لذلك منح نقمادو الملك هدايا ثمينة، وسار إلى مدينة ألالاخ للقائه، وقبل بمعاهدة التبعية التي أوردنا مطلعها، وقد تضمنت الحديث عن ثلاثة موضوعات (وضع الفارين، الحدود، إعلان حالة السلم بين البلادين).(RS17.340+369).

نرجح – اعتماداً على مجرى الأحداث – أن المعاهدة وقّعت في ١٣٣٨/١٣٣٧ ق.م. ويتضح اعتماداً على مصدر حثي أن نُخَشّي لم تكن قد خضعت للحثيين بعد. (GS II, 43).

انشغل شوبيلوليوما بعد ذلك مباشرة بتأديب ملك نيا (أجيت تشوب) ومدينة أَرَخاتي. ثم تفرغ لأمر نُخَشّي واحتلها كلها، ويبدو أن شروبشي ملك نُخَشّي كان ما يزال حياً في مدينة إكْلِزات التي كانت مركزاً مهماً في إحدى جهات مملكة نُخَشّي، ويعمل ضد المصالح الحثية. ولذلك حاربه شوبيلوليوما بشدة، وأجلى أسرته إلى بلاد الحثيين، وعيّن أحد خدمه المدعو **تكيب شرّي** مكانه (نحو ١٣٣٧ ق.م). أما أدو نيراري فقد اختفى ذكره، ولا يعرف مصيره.

انهارت مملكة ميتاني في نحو ١٣٣٠ ق.م، واحتل شوبيلوليوما مدينة كركميش (١٣٢٧ ق.م) واتخذها مركزاً عسكرياً أساسياً للإشراف على شؤون المناطق الجنوبية والشرقية. وجعل ابنه بِيَّشّيلي (شرّي كوشوخ) حاكماً عليها، كما عيّن ابنه تلبينو في حلب المركز الديني الأساسي للإله الحوري تشوب، الذي عبده الحثيون أيضاً.

في ١٣٢٥/١٣٢٤ ق.م حصل تمرد في نُخَشّي على النفوذ الحثي، ولم يستطع ملكها تكيب شرّي تهدئة الوضع، فتدخل الملك الحثي – الذي كان في أواخر حياته –، وقمع التمرد،واستبدل الملك بملك جديد، يدعى **تيتي** الذي لم يكن يمت بصلة نسب إلى

الملوك السابقين. وفرض عليه – كملكي أمورو وأوجاريت – معاهدة تبعية هي الوحيدة المتعلقة بهذه المملكة.

كشف عن نص المعاهدة في العاصمة الحثية ختّوشا، وهو مدوّن باللغة الأكّدية على ستة رُقم طينية [٣٤]. تتألف المعاهدة من مقدمة تاريخية تتضمن التذكير بأحداث قديمة حصلت في نُخَشّي، ثم تتوالى البنود التي تفرض على تيتي أن يقدم الجزية السنوية خلال زيارة شخصية، وأن يكون في المستقبل "**صديق صديقي، وعدو عدوي**" ويتعاون في الحروب ضد الخصوم.

كما يحذره شوبيلوليوما من التردد أو الخيانة، ويلزمه باستقبال القوات الحثية وحمايتها، وتسليم الفارين واللاجئين. وتختم المعاهدة بذكر أسماء مجموعة كبيرة من الآلهة، بلغ عددها نحو مئة، تشهد على المعاهدة، وستحمي تيتي إن التزم بما جاء فيها.

إنها معاهدة دولية مفصلة، تُعدّ أنموذجاً متكاملاً من معاهدات التبعية – المتميزة عن معاهدات التكافؤ – التي كان الحثيون يفرضونها على الممالك الخاضعة لسيادتهم؛ وذلك من حيث بناء المعاهدة، وأسلوبها اللغوي والتعبيري،ومضمون بنودها (الجزية السنوية، الزيارة السنوية، التعاون العسكري، تسليم السجناء والفارين...).

في السنة التالية (١٣٢٣ ق.م) مات شوبيلوليوما الأول، ولكن تيتي ظل يحكم خلال عهد خليفه أرنو وَنْدا الثاني الذي دام فترة قصيرة (١٣٢٢-١٣٢١ ق.م) والعقد الأول من عهد مورشيلي الثاني (١٣٢١-١٢٩٥ ق.م).

٤- نُخَشّي تحت السيادة الحثية (١٣٢٢-١٣١٠ ق.م):

خضعت نُخَشّي للسيادة الحثية تماماً، حيث كان يحكمها تيتي بأمرٍ من شري كوشوخ نائب الملك المستقر في كركميش التي أضحت بمنزلة العاصمة الثانية التي تشرف

على شؤون الكيانات السياسية في سورية. وقد فوّضه الملك بذلك، وتفرّغ لإدارة الشؤون الداخلية والعسكرية ضمن مملكته في بلاد الأناضول.

لا نعرف أخباراً عن نُخَشّي خلال فترة حكم أرنووندا القصيرة. أما في عهد مورشيلي فثمة أحداث كثيرة شبه متواصلة حصلت في بلاد نُخَشّي، بين عاميه السابع والتاسع (١٣١٤-١٣١٢ ق.م).

تتحدث حوليات الملك مورشيلي الثاني عن تمرد سكان بلاد نُخَشّي على الحكم الحثي في عامه السابع، ولكن أسباب التمرد ومجرياته غير واضحة، بسبب تهشم العمود الأول من تلك الحولية. أما العمود الثاني فيتضمن ما يشير إلى التمرد. جاء فيه [٣٥]:

١) .... هذا..............

٢) .... والسجينَ رجلَ نُخَشّي

٣) سلّمتُه لأخي. ولكن أخي تركه يعود إلى زوجته وأطفاله،

٤) (مع أنه) كان يتوجّب عليه أن يقوده، مع زوجته وأطفاله، إلى مدينة خَتّوشا.

والمقصود أن مورشيلي كان قد عهد إلى أخيه (شري كوشوخ، حاكم كركميش) أمر سجن زعيمٍ نُخَشّي متمرد ثم نقله إلى العاصمة. ولكن الأخ خالف، أو أهمل أمره، وأطلق سراح المتمرد. ولعل في ذلك إشارة إلى أن التمرد كان قد قُمع وسُجن زعيمه، ولكن تصرف أخيه قاد إلى ظهوره ثانية.

ويعلم من وثيقة اكتشفت في أوجاريت (RS 17-334(PRU IV 54f.)) أن شري كوشوخ انتهج سياسة مخالفة في ربع نُخَشّي، إذ تراسل مع نقمادو الثاني ملك أوجاريت، واقترح عليه التحالف العسكري لمواجهة تيتي ملك نُخَشّي، والطريف أن مرسل هذه الوثيقة إلى أوجاريت هو إني تشوب حفيد شري كوشوخ، ولعله وجد النسخة الثانية من الوثيقة – التي كانت تحفظ عادة لدى المرسل، في حال الوثائق

المهمة – في قصره،فأمر بإعادة كتابتها،وختمها من جديد بختمه وأرسلها إلى ملك أوجاريت (نقميبا)، كاقتراح جديد للتحالف، على غرار ما كان قد تمّ بين جدّه وجدّ نقميبا.

جاء في تلك الوثيقة:

هكذا يقول الملك: عندما أعلن ملك بلاد نُخَشّي الحرب عليّ، كتبتُ إلى نقمادو ما يأتي: إن تشنّ الحرب على تيتي، ولا أكون قريباً من بلاد نُخَشّي بعد، فعليك، يا نقمادو، أن تهاجم وتواجهه، أن تهاجم وسط بلاد تيتي. ولنقمادو أن يأخذ من بلاد نُخَشّي ما يشاء من أسلحتها.

وأما ما يتعلق بالذين يدخلون إلى بلاده كفارّين، فإن طالبَ تيتي في الأيام المقبلة بعبيده، فعلى نقمادو ألا يعيد أحداً منهم.

إن لم يرغب نقمادو في شنّ الحرب على تيتي، ولا ينفذ الكلمات التي قلتها، فعليه أن يعيد (جواباً على) أوامر هذا الرّقيم إليّ.

هذا الرقيم هو مما كان جدي الملك قد ختمه، وصار مهشماً. الآن ختمه إني تشوب الملك ثانيةً.

إن قيام هذا التحالف كان بمنزلة تطويق لنُخَشّي. وبات شري كوشوخ مطمئناً على أن تيتي لن يجرؤ على إثارة تمردات على الحثيين أو السماح بها ثانية، وربما يكون إطلاق سراح المتمرد النُخَشّي تعبيراً عن حسن النية والرغبة في طي صفحة الماضي.

ولكن لم يمر وقت طويل حتى ظهر تمرد جديد قاده تيتي وبل أورتا على السيادة الحثية، بعد موت شري كوشوخ مباشرة. وقد كشف في العاصمة الحثية عن وثيقة (KBo III 3) تعرض أسبابه وأحداثه، إذ تذكر أن جدّ **أبي ردّا** ملك مدينة بَرْجا كان قد

احتل مدينة يَرُوَتّا، بدعم الملك الميتاني شترنا الثاني (١٣٨٠-١٣٦٥ ق.م)، وسلّم حكمها إلى شروبشي ملك نُخَشّي، ثم آلت إليه بعد ذلك.

((الآن ؛ تمرد تيتي وبل أورتا، وانتزعا مدينة يَرُوَتّا من أبي ردّا حليف الحثيين، وصار بل اورتا حاكماً عليها، فسافر أبي ردّا بسرعة إلى العاصمة الحثية طلباً للمساعدة في استعادة المدينة، و"لو كانت فارغة)) (٣٦)، واستغل الفرصة لنقل أخبار مثيرة عن تيتي وأعماله تحريضاً عليه.

لم يظهر مورشيلي الثاني استجابة سريعة لانهماكه بمشكلات داخلية، ثم قرر تفادي الدخول في صراع جديد، وإرسال حملة عسكرية إلى نُخَشّي، ولذلك سعى إلى إيجاد حل بالوسائل السياسية، فقرر الاستعانة بأناس من أسرة تيتي طالباً إزاحته لتعود الأوضاع، كما كانت. وأصدر مورشيلي قراره التالي:

"يجب أن تُعطى مدينة يَرُوَتّا لأبي ردّا، إذا ما اضطرت حملة عسكرية حثية إلى انتزاعها من سلطة تيتي، وتهجير سكانها، ونهبها. ولكنها ستظل تابعة لنُخَشّي (لن تعاد لبرجا) إن يُقتل تيتي بيد ابنٍ أو أخ له، أو يُسلّم إلى مورشيلي ".

بقية النص مهشمة، ولذلك لا نعرف النتيجة، ولكن وثائق حثية أخرى تفيد بأن مورشيلي كلّف القائد العسكري كَنْتوزيلي بقيادة حامية عسكرية من كركميش لإلحاق الهزيمة بأهل نُخَشّي. كما طلب منه أن يوافيه بخبرٍ عن حقيقة ما يروى عن وجود قوات مصرية هناك، وإذا ما كان ذلك صحيحاً فإنه سيسير بجيشه الرئيس إلى نُخَشّي (KUB XIV 17).

يتعاصر هذا الحدث مع العام ١١/١٢ من حكم حورمحب في مصر (١٣٢٣-١٢٩٥ ق.م)، وقد كان هذا الملك بدأ باستعادة الاهتمام المصري العسكري بالممالك السورية، بعد إهمال دام أكثر من قرن، منذ مطلع حكم أمنحتب الثاني. ويطرح كلنجل إمكانية

الدعم المصري لثورة تيتي، ولاسيما أن وثائق حثية تذكر تيتي ومصر في سياق واحد (GS II , 52).

ويبدو أن أسرة تيتي أدركت خطر الموقف، فثار عليه أحد أخوته، وأزاحه، وأخضع نفسه للسيادة الحثية (KUB XVI 41)، وربما قتل تيتي آنذاك.

وتذكر الوثيقة (KBo III 3) شخصين – بعد ذلك –، هما شوميتّا وخويا، ويرجح أن الحثيين عينوهما على حكم نُخَشّي ويروتا. ثم تنتقل إلى الحديث بشكل مفصل عن طبيعة العلاقات التي يجب أن تكون بين الشخصين.

كانت مملكة أمورو آخر مملكة ذات شأن يفرض الحثيون فيها سيادتهم من جديد، وفرض مورشيلي معاهدة جديدة على ملكها الجديد دوبّي تشوب في مطلع حكمه (١٣١٢-١٢٩٠ ق.م)(٣٧). وقد تم الحديث في مقدمتها عن تيتي وأسلافه العفيرين (الخبيرو)، وعن جماعة، وربما قبيلة، تدعى نَمْرا يأمر مورشيلي بضرورة تسليمهم إلى الحثيين إن فرّوا من نُخَشّي إلى أمورو، ويذكر مورشيلي ذلك في معاهدته مع نقميبا ملك أوجاريت أيضاً (٣٨).

انتهى الصراع الحثي مع نُخَشّي بإخضاعها تماماً. ولا تتحدث المصادر التالية عن نُخَشّي ككيان سياسي، بل تذكر الاسم بدلالته الجغرافية فحسب. ويبدو فيها بوضوح أن حلب أضحت المركز الديني والسياسي في شمال سورية.

تفيد النصوص التي تناولت أحداث معركة قادش التاريخية بين الملكين المصري رمسيس الثاني، والحثي مواتللي (١٢٧٥ ق.م) أن بلاد نُخَشّي كانت ضمن حلفاء الحثيين (BAR III p.138)، ولكن ثمة نصوص تالية يرد فيها ذكر حلب بدلاً من نُخَشّي، كالنص الذي يذكر حلفاء الحثيين الذين وقفوا ضد رمسيس الثاني في خضم المعركة (BAR III p.141). وبين الأعداء المهزومين كان "**زعيم حلب اللعين الذي عاد إلى الطرف الآخر مع جنوده، بعد أن رماه سيادته (رمسيس الثاني) في الماء**

بقوة"(BAR III p.154) كما كانت حلب، لا نُخَشّي، ضمن القوى السياسية التي شهدت توقيع معاهدة السلام المصرية – الحثية، بين رمسيس الثاني وختوشيلي الثالث في ١٢٥٩ ق.م. (BAR III p.171).

خاتمة:

شهدت ممالك بلاد الشام حملات مصرية عدة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ق.م، وصلت إلى وادي الفرات، وشكلت خطراً على مملكة ميتاني في الجزيرة وشمالي سورية. ثم هدأت الأوضاع بعد تحالف القوتين، فأضحت أراضيها واقعة – بشكل مقسم – تحت النفوذ أو الانتداب الميتاني والمصري، ونعمت بالاستقرار والازدهار؛ بدءاً من مطلع القرن الرابع عشر ق.م. ولم تظهر فيها نوازع استقلالية حتى أواسط القرن الرابع عشر ق.م ؛ حيث بدأت ميتاني تسير نحو الانهيار، وغاب الاهتمام المصري بها.

وفي تلك الفترة الانتقالية الحرجة جوبهت بقوة كبرى ثالثة، تنهض من جديد، وتتحرك بقوى عسكرية ضخمة بهدف إخضاع المناطق السورية المختلفة ؛ أعني المملكة الحثية الحديثة.

لم يكن بمقدور تلك الممالك مواجهة الخطر الحثي فرادى، كما لم تتفق على تشكيل تحالفات واسعة قوية ضده، بل ساد فيها الشعور بأن تتدبر كل مملكة أمرها، وتدافع عن وجودها وأراضيها وحدها.

وكان عدد من تلك الممالك – ولاسيما الشمالية والوسطى – ما يزال متأثراً بغلبة الروح القبلية التي تأصلت فيها قبل ذلك بقرون، منذ عهود الممالك الأمورية، مثل ماري وقطنا، وحلب، وموكيش (ألالاخ). كما لم تكن تمتلك جيوشاً منظمة، بل تستنفر السكان للحرب لدى الحاجة، بشكل آني.

لقد كانت مملكة نُخَشّي ذات الإطار الجغرافي الأوسع بينها أبرز الممالك التي تُعـدّدت في أرجائها الزعامات القبلية، وتحالفت تحت راية الزعيم الأبـرز. ولـذلك تحـدثت النصوص الكتابية عن "ملك نُخَشّي" أحياناً، و"ملوك نُخَشّي" أحياناً أخرى.

لم تستقر مملكة نُخَشّي دون حليف قوي تستند إليه. وكان ذاك الحليـف هـو مملكـة ميتاني أولاً، ثم المملكة الحثية ثانياً، وذلك بعد مرحلة صراع انتقالية شهدت محاولات استقلالية غير مجدية.

وعلى الرغم من أن المصادر المتوافرة توضح خيوطاً أساسية مهمة لتـاريخ المملكـة وتحدياتها والتحولات فيها؛ فإنه يظل ناقصاً، لأن تلك المصادر لا تمثّـل مـا ذكـره النُخَشّيون أنفسهم عن الأحداث، بل هي كتابات غيرهم. ولـذلك فـإن الكـشف عـن العاصمة نُخَشّي، أو عن مدن أخرى ضمن إطار المملكة، سيزيد بالتأكيد معارفنا عـن تاريخها السياسي، وكذلك الحضاري الذي نجهله.

ولعله من المؤسف أن التلال الأثرية الكثيرة الموجودة في إطار نُخَشّي لم تلق اهتماماً بعد، إذ لا تجري تنقيبات في غير تلال معدودة منها، أبرزها تل طوقان الذي يمكن أن يكون نُخَشّي أو يَرْوَتّا، وتنقب فيه منذ سنوات بعثة إيطالية بـإدارة الباحثـة سـتيفانيا مازّوني Stefania Mazzoni، ولم تسفر الأعمال عن كشف وثائق كتابية بعـد. كمـا يمكن أن يكون تل أم المره الذي تنقب فيه بعثة أمريكية بإدارة الباحث جلن شـفارتس Glenn Schwartz من مدن مملكة نُخَشّي المهمة أيضاً.

هوامش البحث

(١) نجد في معظم البحوث التي تعرّف بمجموعة رسائل العمارنة أنها تصفها بـ "رسائل متبادلة". ولكن الحقيقة هي أنها لا تضم سوى عشر رسائل (من أصل ٣٥٠) مرسلة من مصر، والنسخ المكتشفة هي النسخ الثانية التي كان البلاط الملكي يحتفظ بها. أما بقية رسائل المجموعة فمرسلة إلى مصر. ولذلك نعتقد أن وصفها بالمتبادلة غير دقيق. راجع الكتابين:

Knudtzon. J.A: Die El-Amarna-Tafeln.

J.C.Hinrichssche Buchhandlung , Leipzig , 1915.

Moran , W.L: The Amarna Letters. The Johns Hopkins Uni. Press, Baltimore and London ,1992.

(٢) يحتفظ المتحف المصري بالقاهرة بخمسين رقيماً من مجموعة تل العمارنة، في حالة كاملة أو ناقصة. وقد قمنا بتدقيقها وتصويرها في أيلول ٢٠٠٨م، وذلك بموافقة كريمة من د. زاهي حواس رئيس المجلس الأعلى للآثار، و د. وفاء الصديق مديرة المتحف المصري. وهو عمل يتم ضمن إطار قيامي بإعداد كتاب تنشر فيه مراسلات العمارنة كاملة باللغة العربية.

(٣) إسماعيل، فاروق: **أخبار دمشق وبلاد أب في مراسلات العمارنة**. الحوليات الأثرية العربية السورية، مج ٤٥/٤٦، ٢٠٠٢-٢٠٠٣، ص ٦٧-٨١.

(٤) برايس، تريفور: **رسائل عظماء الملوك في الشرق الأدنى القديم**. ترجمة رفعت السيد علي، ط١، دار العلوم للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٦، ص٢١.

(٥) مونتو إله (مصري قديم) ذو رأس صقر، يتوّجها قرص الشمس أو ريشتان. كُلّف خاصةً بحماية الآلهة والملوك من أعدائهم، وقد يُماثل مونتو بإله الحرب. راجع:

تيبو، روبير جاك: موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية. ترجمة فاطمة عبد الله محمود. ط١، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤، ص ٣١٧.

(٦) إسماعيل، فاروق: **أخبار دمشق وبلاد أب في مراسلات العمارنة**، ص ٦٩.

(٧) **Hachmann , R**: Die ägyptische Verwaltung in Syrien während der Amarnazeit. ZDPV 98 , 1982 , 17 ff.

(٨) العفيرون (الخبيرو) مجموعات من المرتزقة، كانت موجودة في مناطق مختلفة من شمالي بلاد الرافدين وبلاد الشام، لعبت دوراً متميزاً في الأحداث السياسية خلال عصر العمارنة. راجع رسالة الماجستير: سما أبو صالح: **الخبيرو في النصوص الأكدية** – جامعة حلب ٢٠٠٨م (غير منشورة).

(٩) مري، مرجريت: **مصر ومجدها الغابر**. ترجمة محرم كمال. ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٦٤.

(١٠) عن تاريخ الحوريين؛ راجع:

فيلهلم، جرنوت: **الحوريون تاريخهم وحضارتهم**. ترجمة وتعليق فاروق إسماعيل، ط١، دار جدل، حلب، ٢٠٠٠. وانتبه إلى أن الكتاب يعتمد المنهج القصير في التأريخ.

(١١) عن تاريخ الحثيين ؛ راجع:

– جرني، أ.ر: **الحيثيون**. ترجمة محمد عبد القادر محمد، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧.

– إسماعيل، فاروق: **الحثيون وحملاتهم على سورية**. دراسات تاريخية ٨١-٨٢ (٢٠٠٣)، ص ٣-٣٥.

- Cornelius , F: Geschichte der Hethiter. WBG , Darmstadt, 1990.

(١٢) عن تاريخ بابل خلال الحكم الكاشي، راجع:

Klengel , H.: Kulturgeschichte des alten Vorderasien. Akademie-Verlag , Berlin 1989 , p. 308 ff.

(١٣) عن تاريخ الآشوريين؛ راجع:

كانجيك – كيرشباوم، ايفا: **تاريخ الآشوريين القديم.** ترجمة فاروق إسماعيل، ط١، دار الزمان، دمشق، ٢٠٠٨.

(١٤) تختلف البحوث في وصف تلك الكيانات (ممالك، إمارات، ولايات، دويلات..). فالقول بأنها ممالك، بناءً على تلقّب حكامها بلقب (ملك، Šarru في الأكّدية) يصطدم بأن ذلك يجعلها كالممالك الكبرى (ميتاني، مصر، ختّي)، وهي لم تكن كذلك، بل محدودة المساحة والقوة، ومتُعدّدة على غرار دويلات المدن السومرية في الألف الثالث ق.م. ولم يكن حكام جميعها يحملون هذا اللقب، بل كان هناك من يحمل لقب (حاكم مدينة، hazannu في الأكّدية)، وآخرون يحملون لقب (رجل أو زعيم، amelu في الأكّدية)، وكان الأخير شائعاً – بشكل خاص – في بلاد كنعان (فلسطين).

ومن ناحية ثانية ؛ نجد أن حكامها كانوا يركزون في علاقاتهم بالممالك الكبرى على وصف أنفسه بالولاء، وبذلك تناسبها صفة الولايات الواقعة تحت انتداب قوة كبرى. ولذلك فإن تسميتي "ممالك، ولايات" مقبولتان، مع أخذ ما ذكرناه بعين الاعتبار.

(١٥) راجع بحثنا المسهب " **ألاشيا (جزيرة قبرص) في المصادر الأكّدية**"، المقبول للنشر في مجلة " دراسات تاريخية "، جامعة دمشق.

(١٦) راجع بحثنا "**جزيرة أرواد في النصوص الكتابية المسمارية**"، المقبول للنشر في مجلة "دراسات تاريخية"، جامعة دمشق.

(١٧) **Edel, E:** Die Ortsnamenlisten aus dem Totentempel Amenophis III. Peter Hanstein Verlag , Bonn , 1966 , 1 ff.

(١٨) يشير كلنجل (GS II 20) إلى أن الأصل اللغوي للاسم نخشي حوري، وينتهي مثل كثير من الأسماء الحورية باللاحقة še.

(١٩) نرجح أن تكون المدينتان الأخريتان (ب ر ج، ت ن ن ب) مدينتين حدوديتين مع بلاد نُخَشّي.

فالأولى ب ر ج هي برجا التي تذكر في نصوص إبلا والنصوص الحثية، أما في النصوص الأكّدية (البابلية الوسطية) فيقتصر ذكرها على شاهدين من العمارنة وأوجاريت، وكان فيها "ملك".

طابقها باحثون مع موقع بَرقون (نحو٣٥ كم جنوب غربي حلب). ويرى كلنجل أنها في الاتجاه نفسه، ولكن قد تكون أقرب إلى وادي العاصي (شمال شرقي أفاميا)، وهو يعتمد في ذلك على صلتها بالوادي،كما يتضح من المصادر الحثية، وهو أمر لا يمكن تجاهله،ولذلك نرجح رأيه. راجع: RGTC 12/2,52.

أما الثانية ت ن ن ب فهي تُنَنَب التي تذكر في المصادر الحثية، أما في النصوص الأكّدية (البابلية الوسيطة) فيقتصر ذكرها على شاهدين من العمارنة وإيمار، كما تذكر في نص أوجاريتي أبجدي. يرجح مطابقتها مع موقع دُنَيْبه شمال شرقي قطنا (تل المشرفة). راجع: RGTC 12/2 , 293.

(٢٠) إسماعيل، فاروق: **اللغة الآرامية القديمة**. ط١، منشورات جامعة حلب، ١٩٩٧، ص ٢٠٦.

(٢١) ذكر كلنجل أن الاسم يرد – أول مرة – في المصادر الكتابية المصرية التي تعود إلى عهود تحتمس الثالث (١٤٥٨–١٤٢٥ ق.م)، على الرغم من أنه يذكر

أيضاً أن تلك المصادرة غير مؤكدة! (GS II, 33). وقد اتضح لي بعد تدقيق نقوش عهد تحتمس الثالث ؛ ولاسيما حولياته – أن ثمة خلطاً بين (ن ج س / نُخَشّي) ومدينة أخرى يذكر اسمها في حوليات تحتمس الثالث عدة مرات بصيغة (ي / أن – يُ – ج– سأ).

وتبين أن هذه المدينة تذكر في تقريره عن معركة مجدو (١٤٥٨/١٤٥٧ ق.م) مع مدن قرب بحيرة طبريا في فلسطين، مثل يَنوما (تل النعيم، جنوب غرب بحيرة طبريا) (RGTC 12/2,340)، بل توصف في تقريره عن الحملة التاسعة (١٤٤٦ ق.م) بأنها في منطقة جبلية مرتفعة ضمن بلاد زاهي (BAR II § 490). وكان زاهي اسم منطقة في القسم الجنوبي من سلسلة جبال لبنان الشرقية، حوالي جبل الشيخ. كما يتأكد موقعها هناك في تقريره عن حملته الثالثة عشرة (١٤٤٢ ق.م)، حيث يذكر أنه سار إلى إقليم أن – يُ – ج– سأ وأخضع الحكام المحليين الذين يشرفون على الطريق المتجه نحو الشمال (BAR II § 507ff.).

ومن ثم فهي بكل تأكيد ليست نُخَشّي (ن ج س) الواقعة بين حلب وحماة. وهي لم تذكر في تقاريره، على الرغم من أن تقرير الحملة الثامنة (١٤٤٧ ق.م) يذكر أنه وصل إلى صُمُر، ثم نيا في وادي العاصي، ثم سار نحو وادي الفرات ؛ حيث واجه الملك الميتاني وأرغمه على الهروب. وعندما عاد مرّ بمملكة نيا (قلعة المضيق) الموالية له. ويستدعي ذلك مروره ذهاباً وإياباً في مناطق نُخَشّي، ولكنه لم يذكر شيئاً عن ذلك (BAR II § 477ff.).

أما الشاهد نَ–جَ–سُ المذكور في نص مسلّة ممفيس، في الكرنك الذي يعود إلى عهد أمنحتب الثاني (١٤٢٥–١٤٠١ ق.م) فالباحثون مختلفون في صحة نسبه إلى عهد أمنحتب الثاني، وهو على الأرجح ليس اسم مكان، بل اسم دال

على فئة اجتماعية (GS II, 23) كما إن تقريره عن حملة عامه الثاني (١٤٢٤ ق.م) يذكر وصوله إلى نيا حليفته، وقمعه تمرداً ضد الحامية المصرية في مدينة إكَتْخي، ثم سيره إلى بلاد ميتاني، ولا يأتي على ذكر نُخَشّي (BAR II §487ff.)، بل يذكر مدينة تَخْسي (الواقعة جنوبي قادش، على العاصي)، وننبّه إلى ضرورة تمييزها عن نُخَشّي، موضوع هذا البحث.

(٢٢) فيلهلم، جرنوت: **الحوريون. تاريخهم وحضارتهم**، ص ص ٤٥.

(٢٣) الترجمة لمؤلف البحث، عن كتاب قيد الإنجاز، بعنوان "**مراسلات العمارنة الدولية** ".

(٢٤) منخ بيا هو صيغة أكّدية لاسم تحتمس الثالث الملكي (من- خبر- رع). وهنا تبرز مشكلة أن الجد الحقيقي لأمنحتب الرابع هو تحتمس الرابع ذو الاسم الملكي (من - خبرو - رع)، وهما الوحيدان ضمن ملوك الأسرة الثامنة عشرة، اللذان يبدأ اسماها بـ (من). راجع:

نور الدين، عبد الحليم: آثار وحضارة مصر القديمة. ص ٧١٧.

ولكن نظراً لأن المصادر لا تفيد بخبر أية حملة للأخير إلى داخل بلاد الشام، فيمكن الجزم بأن الأسبق هو المقصود، وكانت له حملات عدة إلى وسط سورية ووادي الفرات، كما بيّنا من قبل. ومن ثم فإن كلمة الجد (abi abika أبو أبوك) في هذا السياق، وكما في شواهد أخرى ضمن مراسلات العمارنة، تدل على " السلف "، بشكل عام.

(٢٥) **Beckman , G.:** Hittite Diplomatic Texts. SBL, Vol. 7 , Scholars press , Atlanta, eorgia, second Edition 1999. p 94.

(٢٦) أرخ معظم الباحثين استلام شوبيلوليوما العرش الحثي بنحو ١٣٨٠ ق.م (التأريخ الطويل) مع أنه كان آنذاك أميراً يدير شؤون البلاد في ظل حكم أبيه.

ويرى فيلهلم وبوزه وموران وغيرهم أن ذلك يجب أن يعدّل استناداً إلى حجج قوية، ليصبح ١٣٤٣-١٣٢٣/١٣٢٢ ق.م. ويتوافق هذا مع حروبه الأخيرة لدى انهيار مملكة ميتاني، وحصاره كركميش، واستلام رسالة الملكة المصرية بعيد موت زوجها توت عنخ آمون.

وقد لاحظنا أن ذلك يتوافق تماماً مع الأحداث التي حصلت في ممالك بلاد الشام، ومنها نخشي.

راجع مدخل الكتاب: **Moran , W.L**: The Amarna Letters. xxxviii.

(٢٧) إسماعيل، فاروق: **الحثيون وحملاتهم على سورية**، ص ٢٣.

(٢٨) يعتمد عرضنا لأهم أحداث عهد شوبيلوليوما على:

.**Cornelius , F.**: Geschichte der Hethiter. p 136 ff

(٢٩) السوتيون قبائل بدوية كانت تتنقل في أطراف بادية الشام الشمالية، وتعتمد في تأمين معيشتها على النهب، وخدمة القوافل التجارية، أو سلبها. يتردد ذكرهم في وثائق العمارنة، وفي الوثائق المكتشفة في مواقع الفرات الأوسط.

(٣٠) نور الدين، عبد الحليم: **تاريخ وحضارة مصر القديمة**. بلا، ص ٢٠٨.

(٣١) إسماعيل، فاروق: معاهدات الملك الحثي شوبيلوليوما الأول (نحو ١٣٨٠-١٣٤٠ ق.م) مع الممالك السورية. مجلة الجمعية التاريخية السعودية، جامعة الملك سعود، العدد ١١، ٢٠٠٨.

(٣٢) فيلهلم، جرنوت: **الحوريون. تاريخهم وحضارتهم**، ص ٧٥.

(٣٣) إسماعيل، فاروق: **معاهدات الملك الحثي شوبيلوليوما الأول**.

(٣٤) إسماعيل، فاروق: المرجع السابق.

(٣٥) **Goetze , A.:** Die Annalen des Mursilis. Hethtische Texte , Heft 6 , 2. Edition , Darmstadt 1967. p. 82 ff.

Bryce , T: Tette and the Rebellions in Nuhassi. Anatolian Studies p. 21 ff.

(٣٦) ذهب كلنجل إلى أن أبي ردّا صدّ هجوم بل اورتا، وأبعده عن البلاد، ثم سار إلى ختوشا بسرعة للحصول على مكافأة من الملك الحثـي (GS II 52). بينما رأى كورنليوس أن أبي ردّا أُبعد عن البلاد، فسار إلى ختوشا طلباً للمساعدة (Die Hethiter 190) ويبدو لنا الرأي الأخير أكثر قبولاً.

(٣٧) **Beckman , G.:** Hittite Diplometic Texts, p59ff.

(٣٨) Ibid , p. 64ff.

جدول بأسماء المدن القديمة المذكورة في البحث، وأسماؤها الحديثة أو موقعها العام

أُبِ: البلاد التي كانت دمشق مركزاً لها

إبلا: تل مرديخ، جنوب غربي حلب

آخت آتون: تل العمارنة، بين المنيا وأسيوط

أَرَّبْخا: كركوك، شمالي العراق

أرخاتي: ؟ في منطقة حماة

أرزاوا: بلاد حثية في الجنوب الغربي من بلاد الأناضول

أرفاد: تل رفعت، نحو ٢٠ كم شمال حلب

ارواد: جزيرة ارواد السورية

أشتاتّا: البلاد التي كانت إيمار مركزاً لها

أشترت: تل عشترة، غربي أزرع، جنوب غربي دمشق

أشقلونا: عسقلان في فلسطين

آشور: قلعة الشرقاط على دجلة، غربي كركوك

إكلزات: ؟ مدينة أساسية في مملكة نخشي

ألالاخ: تل عطشانه قرب منعطف العاصي نحو المتوسط

أمات: حماة

أمورو: البلاد التي كانت صُمُر مركزاً لها

أمورو (جبل) انظر: مارتو

اوجاريت: رأس شمرا، ٨ كم شمال اللاذقية

اورو سليم: القدس

إيكاثي: ؟ مدينة ضمن مملكة نخشي

إيمار: تل مسكنه على الفرات، ٩٠ كم شرقي حلب

بابل: بابل، جنوبي بغداد

برجا: ؟ في وادي العاصي الأوسط، حوالي أفاميا

بطرونا: البطرون، جنوب طرابلس اللبنانية

بيروتا: بيروت

تئيد: ربما تل أحمدي – جنوب القامشلي

تُنَنب: ؟ قرب قطنا (تل المشرفة)

تونيب: ؟ تل العشارنة، أو موقع شمالي حماة

جارو: بلاد شملت الجزء الجنوبي من الجولان السوري

جبلا: جبيل، جنوب طرابلس اللبنانية

جزري: تل جَزَر، شمال غرب القدس

خازور: تل القدح، غربي بحيرة طبريا

خاني جَلْبَت: اسم آخر لبلاد الميتانين، الجزيرة السورية

خَتّوشا: العاصمة الحثية بوغاز كوي، شرقي أنقره

خَتّي: بلاد الحثيين، الأناضول

خَزّة: غَزّة في فلسطين

خَلَب: حلب

دمشق: دمشق

رُخيزي: ؟ في منطقة الهرمل بلبنان

سنزر: قلعة سيزر على العاصي، شمالي غرب حماة

سيانو: تل سيانو، قرب جبلة بين اللاذقية وطرطوس

شكيم: نابلس في فلسطين

صُمُر: تل الكزل، قرب صافيتا السورية

صوري: صور (لبنان)

صيدونا: صيدا (لبنان)

عكّو: عكا (فلسطين)

عمقي: سهل البقاع في لبنان

قادش: تل النبي مند، جنوب غربي حمص

قطنا: تل المشرفة، ١٨ كم شمال شرق حمص

كركميش: جرابلس عند مدخل الفرات إلى سورية

كنزا: البلاد التي كانت قادش مركزاً لها

كومد: كامد اللوز، قرب راشيا في لبنان

لابان: ؟ في منطقة بعلبك (لبنان)

لاكيشا: تل الدوير، جنوب غربي القدس

لعش: نُخَشّي (الصيغة الآرامية)

مارتو: جبل البِشْري، بين دير الزور والرقة

ماري: تل الحريري، جنوب شرق دير الزور

مِجِدّو: تل المتسلّم، شمال شرق طولكرم

مصر: مصر

موكيش: البلاد التي كانت ألالاخ مركزاً لها

ميتاني: بلاد شملت الجزيرة السورية وطور عابدين

نُخَشّي: بين حلب وحماة

نهرينا: اسم آخر لبلاد الميتانيين

نيا: سهل الغاب، في وادي العاصي الأوسط

وَشّوكاني: العاصمة الميتانية، عند منابع نهر الخابور

وعن: ؟ غربي حلب

ي ر ث و: ؟

يَرُوَتّا: ؟ ربما تل طوقان جنوب شرقي إدلب.

يَمْخَد: البلاد التي كانت حلب مركزاً لها.

مراجع البحث

آ- المراجع العربية:

أبو صالح، سما: الخبيرو في النصوص الأكدية – جامعة حلب ٢٠٠٨(رسالة ماجستير غير منشورة).

إسماعيل، فاروق : اللغة الآرامية القديمة. ط١، منشورات جامعة حلب، ١٩٩٧.

الحثيون وحملاتهم على سورية. دراسات تاريخية ٨١-٨٢ (٢٠٠٣)، ص ٣-٣٥.

أخبار دمشق وبلاد أب في مراسلات العمارنة. الحوليات الأثرية العربية السورية، مج ٤٥/٤٦، ٢٠٠٢-٢٠٠٣، ص ٦٧-٨١.

معاهدات الملك الحثي شوبيلوليوما الأول (نحو ١٣٨٠-١٣٤٠ ق.م) مع الممالك السورية. مجلة الجمعية التاريخية السعودية، جامعة الملك سعود، العدد ١١، ٢٠٠٨.

نور الدين، عبد الحليم: آثار وحضارة مصر القديمة. ج١، ط٧، الخليج العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٨.

تاريخ وحضارة مصر القديمة. بلا.

ب- المراجع المعرّبة:

برايس، تريفور: رسائل عظماء الملوك في الشرق الأدنى القديم. ترجمة رفعت السيد علي، ط١، دار العلوم للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٦.

تيبو، روبير جاك: موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية. ترجمة فاطمة عبد الله محمود. ط١، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤.

جرني، أ.ر: الحيثيون. ترجمة محمد عبد القادر محمد، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧.

فيلهلم، جرنوت: الحوريون تاريخهم وحضارتهم. ترجمة وتعليق فاروق إسماعيل، ط١، دار جدل، حلب، ٢٠٠٠.

كانجيك – كيرشباوم، ايفا: تاريخ الآشوريين القديم. ترجمة فــاروق إســماعيل، ط١، دار الزمان، دمشق، ٢٠٠٨.

مــري، مرجريــت: مصر ومجدها الغابر. ترجمة محرم كمال. ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨.

ج- المراجع الأجنبية:

Beckman , G. : Hittite Diplomatic Texts. SBL, Vol. 7, Scholars press , Atlanta, Georgia, second Edition 1999.

Belmonte Marin , J.A.: Die Orts und Gewässernamen der Texte aus Syrien im 2. Jt. v.Chr , Wiesbaden , 2001. [**RGTC 12/2**]

Breasted , J.H.: Ancient Records of Egypt. Chicago 1906. [**BAR**]

Bryce , T : Tette and the Rebellions in Nuhassi. Anatolian Studies.

Cornelius , F : Geschichte der Hethiter. WBG , Darmstadt, 1990.

Edel, E : Die Ortsnamenlisten aus dem Totentempel Amenophis III. Peter Hanstein Verlag , Bonn , 1966.

Goetze , A. : Die Annalen des Mursilis. Hethtische Texte , Heft 6 , 2. Edition , Darmstadt 1967.

Hachmann , R : Die ägyptische Verwaltung in Syrien während der Amarnazeit. ZDPV 98 , 1982.

Klengel , H. : Geschichte Syriens im 2. Jahrtausend v.u.Z.Teil [2](Mittel-und syrien). Akademie-Verlag , Berlin 1969. [**GS II**]

____________ : Kulturgeschichte des alten Vorderasien. Akademie-Verlag , Berlin 1989.

Knudtzon. J.A : Die El-Amarna-Tafeln. J.C.Hinrichssche Buchhandlung Leipzig , 1915. [**EA**]

Moran , W.L : The Amarna Letters. The Johns Hopkins Uni. Press, Baltimore and London ,1992.

Nougayrol , J. : Textes accadiens des archives sud (Archives internationales) Paris 1956. [**PRU IV**]

سرجيلا : قرية أثرية في شمال سورية من العصرين الروماني والبيزنطي

الدكتور مأمون عبد الكريم

قسم الآثار

جامعة دمشق

مقدمة

تقع قرية سرجيلا في وسط جبل الزاوية، وتحديداً إلى الغرب من مدينة معرة النعمان بحوالي تسعة كيلومترات، تحيط بهذا الموقع، مجموعة من القرى القديمة العائدة إلى العصرين الروماني والبيزنطي (الشكل ١)، ما تزال في حالة حفظ ممتازة، تتألف في مجملها من أراض غنية، وتعد أراض سرجيلا أغناها وأكثرها امتداداً، حيث اعتمد سكانها بشكل أساسي على زراعة الأشجار وخاصة الزيتون، والكرمة، ولها أهمية كبيرة، على عكس تربية الماشية التي لم تتم كثيراً في هذه المنطقة خلال العصور القديمة، بالتالي كان للاقتصاد الزراعي دورٌ كبيرٌ في تطور هذه القرية.

تم استيطان هذا الموقع مثل بقية المواقع في شمال سورية منذ بداية العصر الروماني، من قبل السكان الذين قدموا من المدن المجاورة فعملوا على استصلاح الأراضي الغنية بالتربة الزراعية، وذلك من خلال تنظيف تلك الأراضي من الصخور الكلسية عن طريق تجميعها في أماكن محددة، أو الاستفادة منها في تشكيل الجدران القليلة الارتفاع على شكل صفوف متراصة من الحجارة الغير منتظمة تشكل حدوداً لملكيات الأراضي. وقد تمت الاستفادة من المنتجات الزراعية في تصنيع الزيت والنبيذ، وهذا

ما دلّ عليه وجود الكثير من المعاصر المنحوتة في الصخر، ومن ثم تم تصديرها إلى المدن المجاورة، وبذلك انعكس ازدهار التجارة في سرجيلا على أحوال السكان المعيشية. سأحاول في هذا البحث إلقاء الضوء على تاريخ هذه المنطقة وأهم الدراسات التي تناولتها.

الأبحاث الأثرية في سرجيلا:

- يعد الكونت الفرنسي الجنسية ملكيـــور دوفوغيه M. VOGÜÉ أول من وصف ودرس العديد من المباني الأثرية في قرى الكتلة الكلسية منذ منتصف القرن التاسع عشر[١].
- قامت بعثة جامعة برنستون الأمريكية برئاسة هوارد بتلر H.C. BUTLER [٢] بدراسة هذه المنطقة، وقد نشرت العديد من الأبحاث حول سرجيلا ضمن الدراسات التي نشرت بخصوص الكتلة الكلسية في شمال سورية بشكل عام[أ]، وبفضل أعمال ودراسات هذه البعثة اكتُشِفت لوحة فسيفساء في حمام القرية، كما تم التعرف من خلال الكتابة اليونانية الموجودة في اللوحة على اسم باني هذا المبنى وهو جوليانوس من قرية سرجيلا، حيث أهدى هذا الحمام لأهل قريته وتم التأكيد من خلالها على تاريخ بناء هذا الحمام العائد إلى القرن الخامس الميلادي.
- درس جوزيف ماتيرن J.MATTERN في ثلاثينات القرن الماضي موقع سرجيلا وتحدث كذلك عن أهمية هذه القرية[٣].
- تابع جورج تشالنكو G.TCHALENKO الأبحاث الأثرية فيها، بطريقة منهجية ويعود له الفضل في استخدام الصور الجوية لرسم أول مخطط طبوغرافي لهذا الموقع، حيث تم رفع المباني الأثرية العائدة إلى العصر البيزنطي وكذلك الممرات

[أ] المقصود بالكتلة الكلسية في شمال سورية هو المنطقة التي تضم سبعة جبال كلسية في محافظتي حلب وإدلب هي: جبل سمعان، حلقة، باريشا، الأعلى، الدويلي، الوسطاني والزاوية.

والأزقة الموجودة فيه، وُضّح في هذا المخطط وجود حمام وبجواره المبنى الذي كان يستخدم حسب رأيه لاجتماع أهل القرية[٤].

- أخيراً اهتمَّ جورج تات G.TATE بهذا الموقع حيث درس الأسباب الكامنة وراء تطوره وطرح تساؤلات عديدة حول طبيعته من الناحية العمرانية والمعمارية[٥]، وأهمية الاستيطان فيه خلال العصرين الروماني والبيزنطي، لذا بدأ بالتنقيب المنهجي فيه منذ عام ١٩٨٩ وأصبحت البعثة الأثرية الفرنسية فيما بعد بعثة سورية–فرنسية مشتركة بإدارة جورج تات G.TATE وجيرار شاربانتييه G.CHARPENTIER من الجانب الفرنسي، ومأمون عبد الكريم من الجانب السوري. تركّزت الدراسات على العديد من المباني في سرجيلا مثل الكنيسة والحمام والمعاصر وكذلك تطور العمارة السكنية فيها لتوضيح السمات التي تتميز بها البيوت.كما قمنا بالمشاركة مع الجيولوجي الفرنسي بيير بيلدجين P. BILDGEN وجان بيير غوبير J-P. GAUBERT بدراسة المنشآت المائية[٦]، وذلك لتوضيح طبيعتها في هذا الموقع وكذلك في المواقع الأخرى، والتأكد من صحة الفرضيات المطروحة سابقاً حول أنماط المنشآت المائية في المنطقة.

تقع سرجيلا على هضبة يخترقها وادٍ تتواجد فيه وعلى السفوح المطلة عليه بقايا المباني الحجرية التي تعود إلى مرحلتين من التطور، حيث تمثل المرحلة الأولى الاستيطان الأول للموقع العائد إلى الفترة الرومانية، حيث تتجمع بقايا مبانيها في وسط الوادي، وهي عبارة عن أكوام كبيرة من الحجارة المتهدمة التي استخدمت لبناء البيوت السكنية البسيطة (الشكل ٢-٣-٤)، يمكن تحديد وظيفة البعض منها بشكل واضح، كدعامات الأبواب بشكل خاص. أجريت في هذا القطاع بعض التنقيبات وهي تؤرخ من القرن الأول للميلاد. كما تتواجد على السفوح المطلة على هذا الوادي الأبنية الحجرية التي ما تزال في حالة جيدة من الحفظ، والعائدة إلى مرحلة التوسع الثانية العائدة إلى العصر البيزنطي تتألف من البيوت السكنية غالباً، بالإضافة إلى

مبانٍ أخرى كالحمام والكنيسة والنزل...الخ. بالتالي نلاحظ توزع المباني بشكل أساسي في عنق الوادي وكذلك السفوح المطلة عليها من جهة الشرق والغرب.

بيّنت الاكتشافات الحديثة أنَّ هذه الأرياف كانت مسكونة من قبل فلاحين نشيطين ومبدعين كانوا يقلّدون سكان المدن في بعض أنماط السلوك الاجتماعي، وقد اعتنق سكان سرجيلا الديانة المسيحية بعد أن كانوا قد عبدوا آلهة وثنية، كما بدأ بعضهم بالاهتداء إلى الإسلام قبل الهجرة النهائية عن هذه القرية خلال القرن العاشر الميلادي.

ووضحت التنقيبات الأثرية والدراسات المعمارية التي تمت في هذا الموقع خلال خمس عشرة سنة بين عامي ١٩٨٩ و٢٠٠٥ طبيعة تطور هذه القرية وتحديداً السمات المعمارية للمباني المختلفة المشيدة فيها كما سمحت لنا أيضاً بفهمٍ أوضح لتطور الاستيطان في القرى الأثرية في شمال سورية بشكل عام. كما كانت حالة الحفظ الممتازة للمباني في هذا الموقع سبباً رئيساً لقيام أعمال التنقيب فيه لمدة طويلة، وقد تم اختيار مجموعة من المباني الهامة في الموقع لإجراء التنقيبات الأثرية بهدف إظهار السويات الأثرية التي تلقي الضوء على أبعاد وتطور هذه المباني خلال العصرين الروماني والبيزنطي.

مجمع سرجيلا الكنسي:

يقع مجمع سرجيلا الكنسي على السفح الشرقي للوادي، إلى جوار نبع ماء كان قد استخدم بسبب نقاوته خلال الطقوس الدينية. يتألف المجمَّع من عدة مبانٍ شيدت خلال عدة قرون، وقد أجريت على هذه المباني أعمال توسعية في أجزاء من المنشآت القديمة التي كانت قد تمت إزالتها بالكامل. قام هوارد بتلر، في بداية القرن العشرين بدراسة هذا المجمع الكنسي، وترك مجموعة من الرسومات والتصورات حول طبيعة هذا المبنى، وقد اعتمد في دراساته على الجانب المعماري القائم دون القيام بالدراسات التنقيبية. واعتبر هذه الكنيسة من الكنائس القديمة في الكتلة الكلسية، علماً أنه وضّح

في دراسته وجود الكثير من العناصر المعمارية والزخرفية العائدة إلى القرن السادس الميلادي[٧]. وعلى الرغم من أهمية هذه الدراسات فإنه من غير الممكن الاعتماد فقط على الجانب المعماري في دراسة هذا المبنى، وكان لابد من القيام بالتنقيبات الأثرية المنهجية خلال عدة سنوات للتعرف على طبيعة التطور في بناء وتوسع هذه الكنيسة.

تاريخ المجمع الكنسي (من القرن الرابع إلى القرن السادس):

شُيِّد هذا المجمع الكنسي، وفقاً للتنقيبات الأثرية، تدريجياً على مدى نحو ثلاثة قرون من نهاية القرن الرابع وحتى بداية القرن السابع، وتميز تاريخ بنائه بثلاث مراحل كبرى، ففي المرحلة الأولى "القرن الرابع الميلادي"، بنيت خلالها الكنيسة الأولى التي تتألف من جناحٍ واحدٍ فقط، يتألف من قسمين أحدهما للرجال والآخر للنساء، يدخل إليهما عبر بابين يقعان في الجهة الجنوبية، بالإضافة إلى رواق جنوبي وبناء ملحق به يتألف من غرفتين أرضيتين. ويقع المذبح شرق الكنيسة حيث بنيت على جانبيه حجرتان إحداهما في الشمال هي حجرة الدياكونيكون Diaconicon [ب]، والأخرى في الجنوب هي مارتيريون Martyrion [ج]، بالمقارنة مع كنائس منطقة أنطاكيا (الشكل ٥-٦-٧).

وفي القرن الخامس أجريت تعديلات على الكنيسة فأصبح مخططها مبنياً على غرار مخططات كنائس أفاميا ذات الأجنحة الثلاثة، وتحولت مداخل الكنيسة إلى الجهة الشمالية حيث تم إنشاء مدخلين جديدين يتقدمهما رواق كما بنيت على محور المخطط

[ب] الدياكونيكون: تعني غرفة الشمامسة وتكون محاذية للمذبح من جهة اليسار، توضع فيها الأواني الكنسية والكتب الدينية وفيها تحصل الاستعدادات الدينية كما يمكن لرجال الدين استخدام هذه الغرفة لتبديل الملابس الخاصة بالقداس، كما كانت تحفظ فيها الهدايا المقدمة من المؤمنين.

[ج] المارتيريون: يسمى أيضاً ببيت أو دار الشهداء وهو غرفة محاذية للمذبح من جهة الجنوب أو اليمين، توضع فيها ذخائر الشهداء و تعني كلمة ذخيرة الأثر المقدس من الشهيد، وتعني كذلك الوعاء أو الصندوق الحاوي لتلك الذخائر. وكانت تحفظ أيضاً ذخائر وعظام الشهداء من القديسين في جرن حجري يصب فوقها المؤمنون بعض الزيت للتبرك.

الجديد للكنيسة حنية أخرى بينما تم تفكيك الحنية الأولى بشكلٍ كاملٍ، وتم تبليط أرضية الباحة الداخلية للكنيسة وفيما يتعلق بالغرفتين على طرفي المحراب فقد انقلبت وظيفتهما وأصبحت غرفة الدياكونيكون تقع في الجهة الجنوبية بينما تحولت وظيفة الغرفة الثانية لتصبح مارتيريون.

في القرن السادس تم توسيع غرفة الشهيد كما أضيفت للبناء قاعات في الجهة الجنوبية، منها قاعة رئيسة استخدمت كمصلى، يوجد على جانبيها رواقان، كما نجد غرفة أخرى ذات وظيفة جنائزية خصصت لوضع النواويس. وفي الجهة الغربية لجدار الباحة شيدت منشآت خصصت لنشاطات حرفية.

لذا فإن المخطط العام النهائي للمجمع يصبح على الشكل الآتي: ثلاثة مداخل رئيسة، اثنان في الجهة الشمالية حيث يفضي أحدهما إلى القسم المخصص للرجال، يفصله حاجزاً على شكل درابزين عن قسم النساء، بالإضافة إلى باب جنوبي صغير يؤدي إلى الدياكونيكون، ويوجد المحراب الذي يرتفع ثلاث درجات، وهو يضم الحنية (على شكل نصف دائرة)، والمعزبة الأولى من الجناح الرئيس، كما يوجد الرواق الشرقي الذي يتم الدخول منه عبر ممر إلى الباحة الداخلية ، والرواق الشمالي الذي يُدخَل إليه من خلال باب رئيس، وكان ثمة باب جانبي يفضي إلى الباحة أيضاً، إضافة إلى الغرف الملحقة التي سبق الحديث عنها تفصيلياً.

بيّنت الدراسات الأثرية وجود مرحلة ما بعد هجر الكنيسة نتيجة الدمار الذي لحق بالقرية بشكل عام، ويبدو من خلال التغيرات التي طرأت في هذا المجمّع أنه تمت إعادة توظيف بعض أجزاء من المبنى، كانت قد اُستخدمت لأهداف سكنية ومهنية قبل أن تتحول إلى مسجد خلال العصر المملوكي، ويبدو أن أجزاء من هذه المباني قد بقيت معاصرة للمسجد الذي بني فيما بعد في الجهة الجنوبية من المجمّع الكنيسي.

بني في فترة متأخرة جداً جامع صغير في خرائب المجمع الكنسي، وهو عبارة عن قاعة مستطيلة الشكل تبلغ أبعادها ٧،٥×٥،٤ م، وقد تم التعرف على هذا المسجد من

خلال بقايا المحراب المشيَّد من المداميك المعاد استعمالها خلال العصور الإسلامية، بعد أن تم إنشاء فتحة بعرض ١،١ متر في الجدار الجنوبي من المصلى، حيث استخدمت هذه القاعة الأخيرة (المصلى العائد إلى العصر البيزنطي) كمسجد. وكان يتم الدخول إلى هذا المسجد من الباب العائد إلى المصلى، لكن لم تتم إعادة بناء الرواق الذي كان قد دمر سابقاً، لذا أُزيحت الأعمدة المتساقطة خارج هذا الرواق. يبقى من الصعب تصوّر شكل السقف في هذا المسجد بسبب عدم وجود بقايا أثرية له، ويطابق هذا المسجد بمحرابه، المبني من الحجارة المعاد استخدامها، المساجد الصغيرة الخمس التي أُنشئت في البارة، وتؤرخ من خلال الكتابات بالعصور الوسطى.

الشيء الملفت في هذه القرية هو الاستمرار في التوسع المعماري للكنيسة نفسها خلال القرون المختلفة، دون بناء كنيسة جديدة إضافية، كما نجد في قرية الرويحة، عندما بنيت كنيسة جديدة في القرن السادس في الجهة الشمالية من القرية، دون إهمال للكنيسة العائدة إلى القرن الخامس في الجهة الجنوبية من القرية، كما نجد في قرية البارة المجاورة، خمس كنائس بالإضافة إلى وجود الأديرة أيضاً.

القبور:

تم تأريخ القبور المبنية في موقع سرجيلا من خلال الأنماط المعمارية والزخرفية التي تتميز بها والتي تعود إلى القرنين الخامس والسادس، ويتواجد عدد كبير منها فوق جزء مرتفع من القرية، حيث يوجد قرابة ٢٠ قبراً من بينها ١١ ناووساً منحوتاً من كتل حجرية كبيرة تُفرَّغ من الداخل بعمق متر واحد وتوجد عليها نقوش منحوتة، بالإضافة إلى ذلك نجد في سرجيلا المدافن الأرضية وهي ٩ مدافن، يتألف المدفن من تجويفين، نحت في كلٍ منه عدداً من اللحود المعقودة، يتم النزول إليها من خلال درجتين منحوتتين في الصخر.

كما توجد أربعة أضرحة مبنية من الحجر، ذات سقف مبلَّط حتى الباب البازلتي، بالإضافة إلى قبر هرمي في الجهة الجنوبية الغربية، ويتميز أحد هذه الأضرحة

بضخامته حيث تم تشييده على مصطبة شكله مستطيل، وله قوسان معقودان كانا يحملان بلاطات السقف، وفي المدفن ثلاثة نواويس حجرية أحدها يشبه نواويس المقبرة التي جلب منها غالباً (الشكل ٨).

بالمقارنة مع العمارة الجنائزية في القرى المجاورة لهذه القرية فإننا نلاحظ الكثير من الاختلاف في شكل المخططات أو الزخرفة المعمارية الغنية على واجهات المباني الجنائزية في قرية البارة المجاورة على سبيل المثال. خاصة فيما يتعلق بالأضرحة التي تحمل سقفاً هرمياً أو المدافن الأرضية التي تتنوع في أشكالها في القرى الأخرى مثل قرية شنشراح، ربيعة، مجليا، دير سنبل وجرادة...الخ. كما نجد اختلافاً واضحاً في أشكال المدافن المعبدية التي بنيت وفق مخططات مشابهة لأشكال المعابد الرومانية، لكن وفق مقاييس أصغر ونجد أفضل الأمثلة عن هذه المدافن في قرية الرويحة، التي تتميز بوجود مدفنين معبديين غنيين بالزخارف الكلاسيكية وتيجان الأعمدة المختلفة التي تتقدم واجهة هذه المدفن. أما في سرجيلا فإن المدفن المعبدي يبقى بسيطاً في شكله بالمقارنة مع المدافن في قرية الرويحة.

حمّام القرية:

يقع الحمّام في عمق الوادي، إلى الغرب من نزل القرية، ويعد من أهم المباني الأثرية في سرجيلا، وكذلك في شمال سورية بسبب حالة الحفظ المميزة لهذا المبنى من الناحية المعمارية. دُرِس هذا الحمام لأول مرة من قبل الكونت ملكيور دو فوغيه في منتصف القرن التاسع عشر، وقد ترك بعض الرسومات لهذا الحمام، لكن حملت رسوماته بعض الأخطاء المعمارية، عندما اعتبر هذا المبنى بالإضافة إلى النزل والخزان كمجّمع معماري واحد.[٨] قام هوارد بتلر بدوره بدراسة هذا الحمام في بداية القرن العشرين، واعتمد على طروحات دوفوغيه في وجود مجمّع معماري واحد يضم المباني المذكورة سابقاً، ويعود الفضل إليه في اكتشاف لوحة فسيفساء في القاعة الكبرى، التي أمكن من خلالها تأريخ المبنى إلى القرن الخامس الميلادي، وتحديداً سنة

٤٧٣ للميلاد، وكان أحد السكان الأغنياء واسمه جوليانوس ابن تالايوس هو الذي قدّم هذه "الهبة الكريمة" لقريته. [٩]

كما قام جورج تشالنكو بدراسة هذا الحمام بشكل عام، دون الدخول في التفاصيل المعمارية ووافق مع الآخرين الذين سبقوه في دراسة هذا المبنى على جعله ضمن مجمّع معماري واحد يضم الحمام والنزل والخزان[١٠]. لذلك قامت البعثة الأثرية المشتركة بإجراء الدراسات الأثرية في هذا المبنى بهدف التعرف بشكل جيد على العناصر المعمارية التي يتألف منها، والتأكد من صحة الفرضيات السابقة حول الحلقة التي تربط بينه من جهة، والنزل والخزان المتواجدان أمام هذا المبنى من جهة ثانية،كما كان من الضروري فهم التقسيم الداخلي للمبنى والتأكد من طبيعة وظيفة القاعة الكبرى. لذلك أجريت العديد من الدراسات المعمارية والأثرية بإدارة جيرار شاربانتييه الذي أعدَّ رسالة دكتوراه حول هذا الحمام، بالإضافة إلى الحمامات الأخرى في شمال سورية[١١]. (الشكل ٩-١٠-١١).

يتألف هذا الحمام من مجموعة قاعات رئيسة ذات وظائف مختلفة، وهي القاعة الباردة والدافئة والساخنة التي تعمل وفق نمط الحمامات الرومانية، حيث تزودها الأفران الواقعة أسفل القاعات الساخنة بالحرارة، وتغذى بموقد في غرفة التسخين، وكانت مواد الوقيد تخزن في مخزن يدخل إليه عبر سرداب له مدخلاً منفصلاً. ويتم تزويد الحمام بالمياه اللازمة من خلال أقنية خارجية متصلة بحوضين صغيرين متوضعين في قاعات الحمام، وتتصل كذلك بالمرجل المتصل بمغطس المياه الساخنة، وفي الجهة الجنوبية يوجد خزان صغير يغذى بالمياه في الحوض الكبير، كما يوجد خزان كبير محفور في الصخر على عمق سبعة أمتار ليستخدم أيضاً كحوض لحجز الماء ضد مخاطر الفيضان، تصل سعته إلى ٨٠٠ م^{٣} من مياه الأمطار، ويتكون غطاؤه من نحو مائة قطعة حجرية مستطيلة تستند على اثني عشر قوساً من حجارة مقصبة، تم إكساءه من الداخل من كتل من الفخار سُدت الفراغات بينها بالصلصال، ثم كسيت

بطبقة سميكة من الكلس المائي. وكان هذا الخزان مزوداً بقناة واحدة للتغذية متصلة بحوض ترسيب، وتم تشييد ملحقاً بالحمامات يزود بالمياه من المثابة الشمالية الغربية ليملأ الخزان الصغير الملاصق للحمامات، أما الفتحة الثانية الواقعة في الزاوية المقابلة فكانت تستخدم للنزل.

يتم الدخول إلى الحمام من خلال بهوٍ يؤدي إلى قاعة كبيرة فيها منصة محمولة على أعمدة، مزودة بمقاعد جانبية كانت تستخدم أحياناً كقاعة عامة للاجتماعات القروية، بالإضافة إلى وظيفتها الأساسية حيث كان المستحمون يخلعون ألبستهم فيها، ومن هذه القاعة يدخلون إلى بهو فيه جرن لغسل أرجلهم قبل الإنتقال إلى القاعة الباردة المزودة بالمراحيض، ثم يدخلون القاعة الدافئة لوقت قصير من أجل الاستعداد لدخول القاعة الحارة، حيث توجد فيها مغاطس فردية صغيرة، وهذا على عكس ما هو متبع في العادات الرومانية إذ كانوا يفضلون الحمام الجماعي، وبعد إنتهاء المستحمون من الاستحمام يتجهون إلى القاعة الباردة من أجل التبرد تحت "الدش"، والاستعداد للخروج إلى القاعة الكبيرة وارتداء ألبستهم.

يتشابه هذا الحمام في شكله ووظيفته مع حمام البارة، سواء من ناحية الشكل أو الوظيفة، لكن يكمن الاختلاف في استمرارية الإشغال في حمام البارة الذي تحول إلى حمام إسلامي، لكن وفق تقنية مختلفة مسماة بالحمام البخاري، حيث أجريت تعديلات في بعض القاعات بما يتناسب مع التقنية الجديدة، أما حمام سرجيلا فلم يتحول إلى حمام إسلامي، وهذا يعود إلى هجران الموقع خلال العصور اللاحقة، وتحوله إلى قرية بسيطة على خلاف قرية البارة التي استمر الاستيطان فيها بشكل كبير خلال العصور اللاحقة.

نزل القرية:

يقع هذه المبنى في عمق الوادي إلى الشرق من الحمام وبمحاذاته مباشرةً، وتبلغ مساحة الطابق الأرضي حوالي ١١٧ متراً مربعاً بأبعاد (١٢،٤٥× ٩،٤ متر). يتجه

هذا البناء العام نحو الجنوب في مواجهة القرية، وهو غير مزوّد بسور، ولا تحده من جهة الشمال المباني الأثرية، حفظ رواقه الممر بشكل ممتاز، ولا تنقصه سوى العناصر الخشبية لتثبيت وإنشاء ألواح الدرج والهيكل والأخشاب التي تحمل السقف المكوّن من الآجر. يتألف المبنى من طابقين يتقدمه رواق مبني على الأعمدة المختلفة والتي تحمل بعض الزخارف، تم بناء هذا المبنى من الجدران ذات الصف الواحد من المداميك الحجرية التي تم نحتها بعناية، إلا أنّ أبعاد هذه المداميك غير متساوية. وقد بيّنت الدراسات الأثرية أن هذا المبنى قد بني في مرحلة واحدة دون أن تحدث عليه تطورات في عمليات التوسع المعمارية على شاكلة المباني الأخرى (الشكل ١٢).

لم يهتم هوارد بتلر بهذا المبنى في بداية القرن العشرين، ولم يشر إليه إلا من خلال بعض المعلومات العامة واعتبره مقهىً لاجتماع أهل القرية. أما جورج تشالنكو فقد نشر عدة رسومات له، واعتبر هذا الصرح أنه *أندرون* Andron القرية، أي مكان عام مخصص للاجتماعات القروية، وذلك من خلال وجود قاعة كبيرة في الطابق الأعلى[١٢]. كما عُد هذا المبنى ولفترة طويلة مع الحمام والخزان مجمّع معماري واحد علماً أنه لا يوجد جدار باحة يضم هذه المباني مع بعضها البعض، كما أن البابان الرئيسان للحمام والنزل يقعان في اتجاهين مختلفين، لكن أظهرت التنقيبات الأخيرة وظيفة هذا المبنى الذي استخدم كنزل، من خلال وجود إصطبل في الطبقة الأرضية، فيه معالف حجرية متوضعة بين العضادات الداخلية، وكان يتم الوصول إلى الطابق الثاني عبر درج يقع تحت رواق في الجهة الغربية، توجد فيه قاعة جلوس متصلة من خلال بهو مع حجرة صغيرة، كانت مخصصة غالباً للنوم، وبالإضافة إلى وظيفة هذا المبنى في إيواء العابرين بالمكان فقد كان يستخدم أيضاً كمأوى للحجاج ، على افتراض وجود حج للمجمع الكنسي في سرجيلا.

المعَاصر:

تعد المعاصر من المباني الهامة التي تلقي الضوء على الواقع الاقتصادي لسكان القرية، ومنذ القرن الخامس الميلادي بات يتوفر لملاكي الأراضي في هذه القرية والقرى الأخرى فائضاً من الإنتاج قاموا ببيعه أو تصديره. وقد أضافوا إلى إنتاجهم للأغذية، صناعة الزيت والخمر كما تشهد على ذلك المعاصر الثلاث المكتشفة في سرجيلا. تصل أبعاد المعصرة الأكبر بينها إلى ١٥ × ١٠ م، وهي محفورة في جزءٍ كبيرٍ منها في الصخر بعمق أربعة أمتار لكي تقاوم بشكل أفضل الاهتزازات الناجمة عن عمليات الضغط. وقد بنيت أقواس معترضة ضخمة من الحجر المقصَّب من أجل حمل السقف الآجري (الشكل ١٣-١٤). وكان هذا السقف بآجره قد انهار داخل الصرح، وأدت إزاحة هذا الركام إلى الكشف عن معصرة مزدوجة حيث كان يعصر الزيتون والعنب وفقاً لتعاقب الفصول.

بالإضافة إلى المعصرة الكبيرة توجد العديد من المعاصر الأخرى المحفورة أيضاً في الصخر وفي أماكن مختلفة من القرية بجوار البيوت، لكن بمقاييس صغيرة كانت تستخدم أغلبها لصناعة النبيذ.

لقد دُرست المعاصر الموجودة في المنطقة الشمالية من الكتلة الكلسية من قبل أوليفييه كالو O.CALOT، حيث وضّح من خلال رسوماته لهذه المنشآت آلية عمل هذه المعاصر في العصور القديمة، وبالرغم من قلة الدراسات حول هذه المباني في المنطقة الجنوبية من الكتلة الكلسية، ومنها قرية سرجيلا، إلا أنه يبدو أنَّ آلية عملها متشابهة[١٣]. لدينا نموذج من هذه المباني في قرية البارة، وقد قامت المديرية العامة للآثار والمتاحف بترميم معصرتها التي تعطي صورة واضحة عن هذا النوع من المباني في الكتلة الكلسية.

العمارة السكنية:

استخدم الحجر الكلسي المحلي في بناء مختلف المعالم الأثرية التي نجدها في سرجيلا، ومنها العمارة السكنية، حيث تم استخراجه وفق تقنيات قديمة اتبعها سكان المنطقة، استلزمت جهود خبراء مهرة لتمييز حجم وشكل الحجارة المطلوبة في البناء والأماكن التي يتم انتقائها بحسب وظيفة المبنى وضخامته. يبرز الحجر الكلسي عن سطح الأرض بوضوح مما يسهل استخراجه، وقد عثر في سرجيلا على مقالع للحجر (التي تتواجد بشكل عام بمكان غير بعيد من البناء أو أسفله)، تحت الأبنية غالباً، حيث ساعد استخدام حجر الربط الذي شاع استخدامه في القرن الخامس إلى إيجاد خطط استثمارية لتلك المقالع، وقد دلّت عليها آثار النحت داخل الباحات وكذلك الغرف الأرضية أسفل البناء، والسبب الرئيس في تشييد هذا النوع من الأبنية فوق مقالعها يعود إلى أهداف استثمارية لها علاقة بتوفير جهود نقل الحجارة وغلاء تكاليفها في ذلك العصر من مكان استخراجها إلى مكان البناء وأيضاً استثمار المساحة والفراغات التي تتم تسويتها بما يتناسب مع الغرض المراد منه البناء، وخير الأمثلة في سرجيلا الحوض الكبير المحفور على عمق سبعة أمتار في المعصرة الكبيرة. وفيما يتعلق بالمقالع التي تم اختيارها خارج الأبنية فقد كانت تستثمر على خاصرة تلة أو منحدر وبعضها ذا حجم كبير أمكن الاستفادة منه في تشكيل مقلعاً كبيراً جماعياً للقرية بشكل عام، ويتم استخراج القطع الحجرية الثقيلة بواسطة روافع خشبية مرتكزة في نقرات، حيث يقوم النحاتون بتشكيلها ونحتها قبل القيام بتثبيتها في أماكنها.

كانت توجد في هذه القرية والقرى الأخرى مشاغل للحرفيين الذين يمتلكون مهناً مختلفةً كالقيام بالأعمال المعمارية ومنها تشييد المباني السكنية، وقد كانوا يمتلكون مستوىً عالياً من المهنية في البناء، كما كان يوجد نوع من التخصص كذلك، فعلى سبيل المثال عند التخطيط لتشييد أحد الأبنية السكنية فهذا يتطلب خدلة عمل ومراحل متعددة تضم عدد من الورشات والاختصاصيين، حيث يتم توزيع الـ مل بين عدة

ورشات ما كان يقوم بتأمين الحجر المطلوب لنوع وحجم البناء ونحته، ومن ثم القيام بالبناء أيضاً، وهناك كذلك الورشات المتخصصة في بناء الأقواس الحاملة للأسقف. أما الأجزاء التي تتطلب القيام بأعمال النحت والزخرفة فقد كانت تلك من اختصاص ورشة أخرى خاصة بهذا العمل، وأخيراً فقد كان سكان القرية يشاركون كعمال في عمليات البناء.

قامت البعثة الأثرية بدراسات معمارية لأغلب البيوت في قرية سرجيلا، لأن حالة الحفظ المعمارية الفريدة قد ساعدت على فهم تطور العديد منها، وتأريخها من خلال العناصر الزخرفية الموجودة على واجهاتها، كما كان من السهل فهم عمليات التوسع التي أجريت على هذه البيوت الضخمة ومراحل بنائها من خلال دراسة واجهات الجدران. وفي حالات أخرى كان من الضروري إجراء التنقيبات الأثرية بهدف فهم مخططاتها بشكل جيد وتأريخها بدقة حيث مرت بعضها في مراحل عديدة من التوسع، وقد ساعدت الحفريات الأثرية والكثير من العناصر المعمارية على تصور طبيعة هذه البيوت عبر القرون المختلفة. لكن الملفت أننا لا نجد تنظيماً معيناً في توزع هذه البيوت بسبب عدم وجود مخطط عمراني في هذه القرية مثل بقية القرى الأخرى في شمال سورية. كما تتميز أغلب البيوت بحالة من الإغلاق نحو الخارج وبشكلٍ متلاصق، خاصة وأن القرى غير مسوَّرة بشكل عام، هذا الإغلاق من خلال جدران البيوت الخارجية وفَّر نوعاً من الحماية للقرى ضد الأخطار الخارجية خاصة اللصوص والحيوانات المتوحشة.

يوجد تنوع في العمارة السكنية في موقع سرجيلا، سواءً بأحجامها أو في طبيعة الزخرفة المعمارية فيها، ويمكن تصنيفها من حيث الحجم إلى ثلاثة أنماط : كبيرة–متوسطة–صغيرة. ويبلغ عددها نحو تسعة وثمانين بيتاً، حيث تشغل حوالي ٥٠% من مساحة القرية. دُرست هذه البيوت منذ بداية القرن العشرين من قبل هوارد بتلر ومن ثم جورج تشالنكو وأخيراً جورج تات[١٤].

تتألف بيوت سرجيلا من عدة غرف مؤلفة من اثنتين إلى أربع غرف متوضعة بشكل متتالٍ، مبنية من طابقين، حيث خصص الطابق الأرضي لإيواء الحيوانات، أما الطابق العلوي فقد خصص للمعيشة، ونصل إلى هذا الأخير عبر درج خشبي عندما يكون تحت الرواق، أو درج حجري إذا كان يطل على الخارج (الشكل١٥-١٦-١٧-١٨-١٩-٢٠-٢١).

يتقدم هذه الغرف رواق محمول على الأعمدة ويحيط بالبيوت من الأمام باحة مغلقة بجدار، حيث تسوّى هذه الباحة على مستوى الصخر، كما تُجهّز بخزان منحوت على شكل زجاجة حيث يتراوح عمقه بين ٥ و ٧ أمتار وتتجمع في هذا الحوض مياه الأمطار النازلة من الأسقف أو المياه الجوفية. أما الأبواب الخارجية فقد تنوعت أيضاً في أشكالها من مداخل بسيطة يعلوها ساكف مزخرف أو أخرى تتقدمها ردهة مسقوفة بقوس مزخرف بالقولبات الهندسية المختلفة. وكانت لبعض البيوت ملحقات تستخدم كمستودع وكزريبة، أو كانت تجهز في بعض الأحيان كمعصرة. أخيراً فقد تم تسقيف البيوت بقطع الآجر المصفوفة على الألواح والدعامات الخشبية.

باستثناء اختلافات الأبعاد والزخرفة، فإن كافة بيوت القرنين الخامس والسادس كانت قد بنيت بحجارة ربط متوضعة فوق بعضها دون أي سد أو تثبيت لها، وبشكل عام فإن حجم البيوت متوسط بالمقارنة مع أحجام البيوت في القرى الأخرى مثل البارة أو الرويحة.

أجريت التنقيبات المنهجية في أحد البيوت الهامة في هذا الموقع (بيت ٩)، بهدف الحصول على معلومات حول التطور المعماري للمبنى، وهو يقع في أعلى المنحدر الشرقي للوادي، أجريت عليه عمليات توسعية عبر الزمن وظل مسكوناً لفترة طويلة استمرت حتى القرن الثامن (اعتماداً على كتابة قديمة منحوتة على ساكف المدخل الرئيسي للمنزل باللغتين العربية والسريانية)، حيث كان يتألف هذا البناء الكبير بالأصل من حجرتين، ثم ازداد عددها فيه بشكل تدريجي. تتوزع الحجرات على

طابقين، طابق أرضي يضم غرفاً تطل على باحة مبلّطة، فيها رواق محمول على أعمدة، وطابق آخر علوي استخدم للمعيشة بالإضافة إلى استخدام بعض المساحات فيه لتخزين المحاصيل (الشكل ١٧أ –١٧ ب). وتم تخصيص بعض المساحات في البيت للقيام بنشاطات حرفية كالمعصرتين اللتين تم العثور عليهما خلال أعمال التنقيب لهما مدخل مستقل، كان يعصر بهما الزيت أو الخمور تبعاً لفصول السنة. كما أضيف في القرن السادس برجاً للمراقبة مؤلفاً من ثلاث طبقات بالإضافة إلى إنشاء اصطبل إلى جوار المدخل الرئيس.

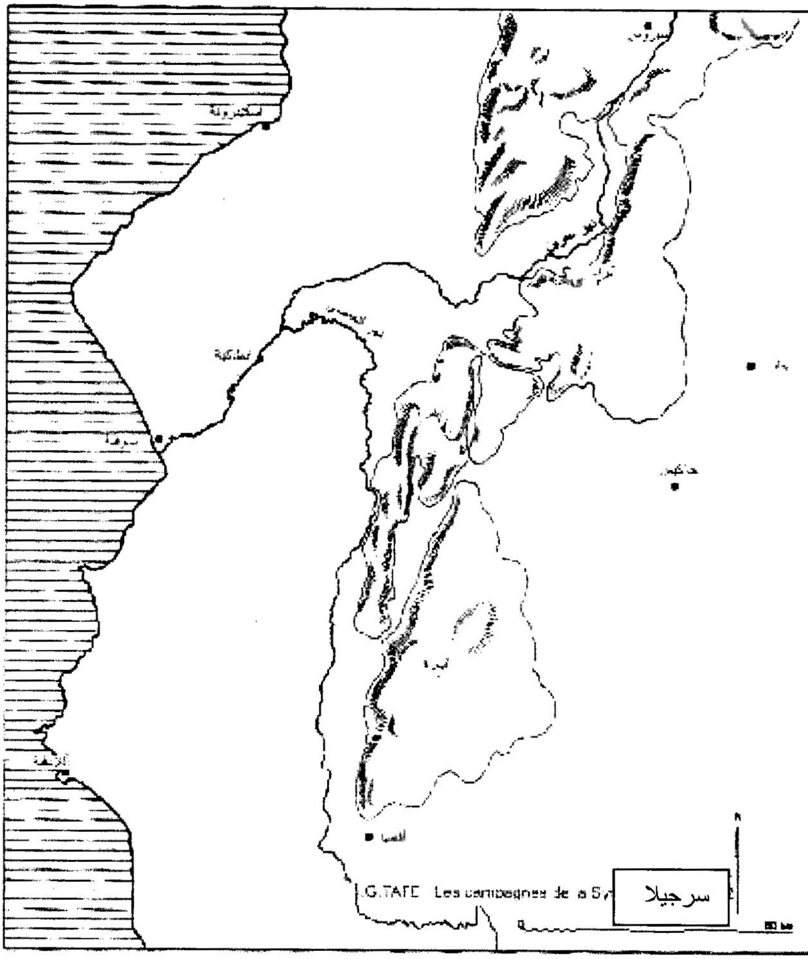
وفيما يتعلق بدراسة زخارف الأبنية السكنية، فقد قدم جورج تات، أولى الدراسات عن البيوت السكنية وأجرى تصنيفات لها من حيث تقنيات البناء وأنواع الزخارف المعمارية التي نحتت في الواجهات السكنية في القرى الواقعة جنوب الكتلة الكلسية ومنها قرية سرجيلا [١٥]، كما تمكن من تصنيف تلك الواجهات ضمن أربعة أنماط تعطي تأريخاً تقريبياً لها، واستطاع من خلال الزخرفة المعمارية إيجاد روابط بينها تفيد في تأريخها ولو كان ذلك بشكل نسبي، كما قدَّم وصفاً عاماً للعناصر الزخرفية في تلك الواجهات من جهة، ووصفاً دقيقاً لبعض العناصر الزخرفية من جهة أخرى كأوراق الأكانثيا المنقوشة على سواكف الأبواب، أو الميداليات الموجودة عليها، وأيضاً زخرفة التيجان التي تحمل أروقة البيوت، وتمكَّن من خلالها إيجاد تصنيفات تفيد في تقديم تاريخاً أقدم أو أحدث. ثم أجرت عفاف ليلا، دراسة تفصيلية استكملت من خلالها الجانب المرتبط بالزخرفة المعمارية بشكل رئيسي المتمثلة بالنقوش المنحوتة على سواكف الأبواب والنوافذ[١٦]، الأروقة، التيجان، المشاكي، وتصنيف بعضها ضمن مجموعات جديدة في نفس المنطقة، وقد تركَّزت الدراسات فيها على بعض القرى الهامة من بينها قرية سرجيلا، أدت تلك الدراسات في هذه الأخيرة إلى إيجاد سمات متشابهة غالباً في جوهرها من حيث نوع العناصر المنتقاة للنحت مع اختلافات بسيطة بشكلها وتقنية نحتها بين سرجيلا والقرى الأخرى مما يدل على وحدة فنية بينها تدل على الطابع المحلي للمشاغل، وكمثال في سواكف البيوت، التي تعد

الأكثر غنى من بين الأجزاء المعمارية الزخرفية الأخرى المنقوشة في الواجهات، نلاحظ تواجد أشكال العناصر الهندسية كالتضليعة والربعية والحد المائل في سرجيلا وفي القرى الأخرى إضافة إلى أنواع السواكف ذات القولبات الهندسية، أو العناصر الزخرفية في السواكف النباتية كنقوش الأكانثيا وأفاريز ورق العنب الملتف كما هو الحال في القرى الأخرى، وهناك الكثير من العناصر التي بينت بوضوح العلاقة الوثيقة التي تربط زخارف بيوت سرجيلا مع القرى المجاورة لها.

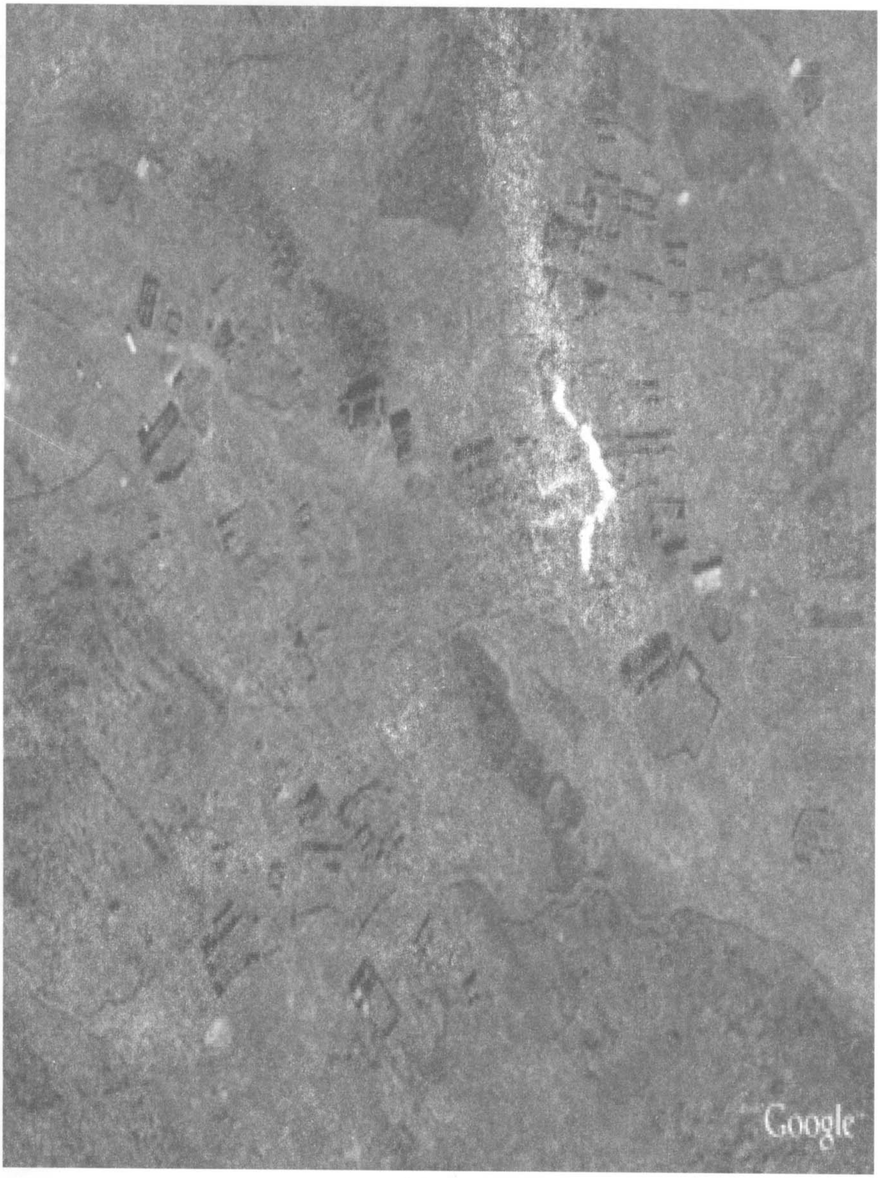
خاتمة:

وضّحت لنا الدراسات الأثرية والمعمارية في هذا الموقع طبيعة الاستيطان خلال قرون عديدة، حيث دلّت التنقيبات الأثرية التي أجريت في الوادي الذي يخترق الموقع على وجود مبانٍ بسيطة بنيت وفق مخططات بدائية مختلفة في أشكالها عن مخططات المباني الواقعة على سفحي الوادي والعائدة إلى العصر البيزنطي، مما يدل على أن الوضع الاقتصادي لسكان القرية قد تحسن كثيراً في هذا العصر بالمقارنة مع العصر الروماني بفضل زراعة الزيتون والكرمة وتصنيع النبيذ والزيت والمتاجرة بهذه المنتجات مع المدن المجاورة، والتي شكّلت بدورها عاملاً كبيراً في ازدهار الوضع الاقتصادي للقرية والقرى الأخرى أيضاً، لذلك نرى أن هذا الموقع قد عاش نهضة معمارية كبيرة خلال العصر البيزنطي، لكن تلك الظروف الجيدة لم تستمر طويلاً في القرنين السادس والسابع بل أخذت تسوء نتيجة أسباب عديدة إذ تعرضت هذه القرية مثل بقية القرى في شمال سورية للكوارث الطبيعية في القرن السادس كالزلازل والأوبئة، وقد كان من نتيجة الزلازل إحداث الصدوع في طبقات الأرض وانخفاض مستوى المياه الجوفية فقلّت المياه وأصبح من الصعب تأمين المياه الضرورية للحياة المعيشية أو للزراعة وأيضاً هناك النزاعات السياسية وعدم الاستقرار نتيجة الحروب بين الساسانين والإمبراطورية البيزنطية للسيطرة على سورية في النصف الثاني من القرن السادس وبداية السابع الميلادي، ثم تلت تلك الكوارث أزمات اقتصادية فانتشر

الفقر وازدادت الأحوال تدهوراً حتى الفتح الإسلامي، وبذلك فإن دخول الجيوش الساسانية إلى سورية واحتلالهم مناطق عديدة منها قد أحدث الكثير من الدمار فيها وبشكل خاص المنطقة الشمالية، كما أن سيطرتهم على مدينتين هامتين هما أنطاكية وأفاميا اللتين شكلتا مراكز انتعاش اقتصادية لقرى الكتلة الكلسية وتحول الطرق التجارية باتجاه الشرق، نحو بلاد الرافدين، والجنوب نحو شبه الجزيرة العربية، كانت سبباً هاماً في تراجع النشاط التجاري وانتشار البطالة بين السكان مما دفع بالكثير منهم إلى الهجرة من تلك القرى ومن بينها سرجيلا، وبذلك فإن جميع تلك العوامل شكلت نهاية حقيقية لمعظمها ولم تترك لنا حتى يومنا هذا سوى آثار الخراب فيها وفي المواقع المجاورة .



الشكل ١: خارطة الكتلة الكلسية عن جورج تشالنكو



الشكل ٢ : صورة فضائية من غوغل تمثل موقع سرجيلا



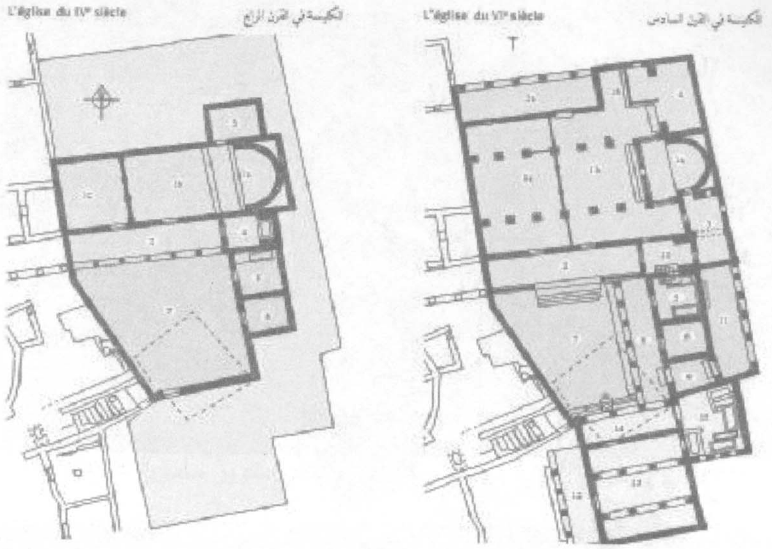
الشكل ٣: مخطط قرية سرجيلا– عن وثائق البعثة السورية الفرنسية المشتركة في سرجيلا



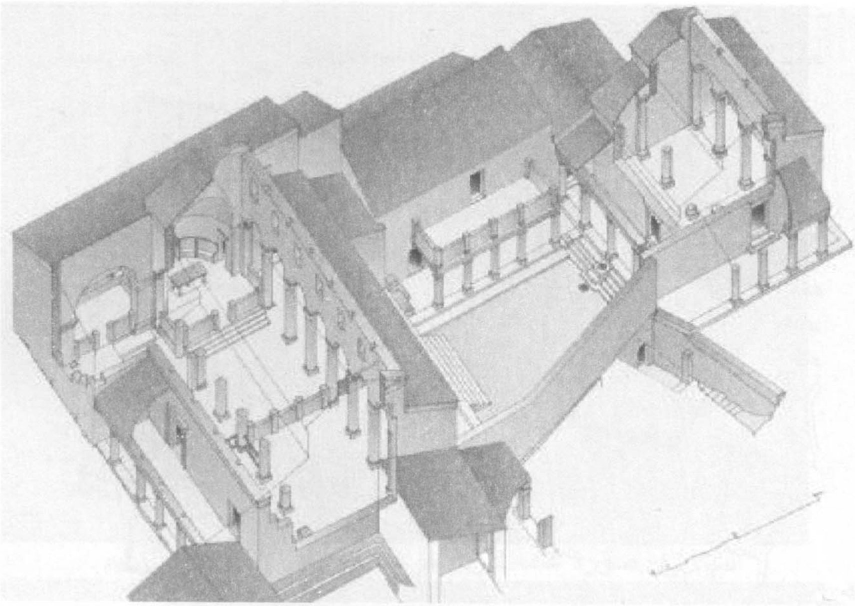
الشكل ٤: صورة عامة لقرية سرجيلا-تصوير مأمون عبدالكريم



الشكل ٥: كنيسة سرجيلا



الشكل ٦: مخططات كنيسة سرجيلا عن وثائق البعثة السورية الفرنسية المشتركة في شمال سورية- رسم: G.Charpentier



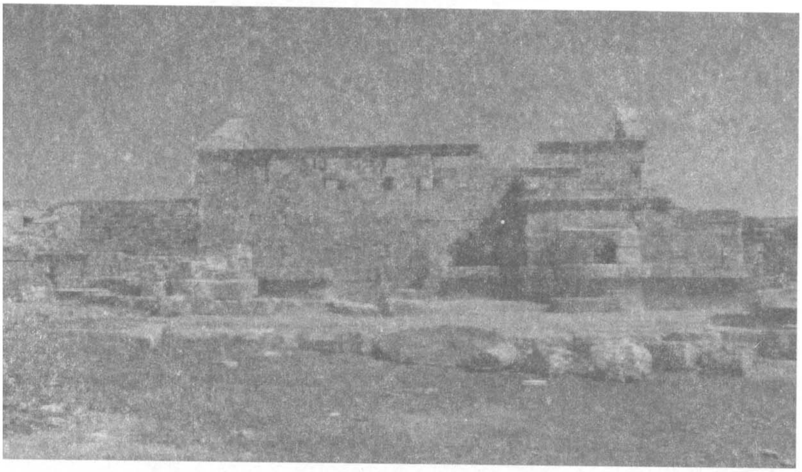
الشكل ٧ :إعادة تصور مجمّع كنيسة سرجيلا عن وثائق البعثة السورية الفرنسية المشتركة في شمال سورية- رسم: G.Charpentier



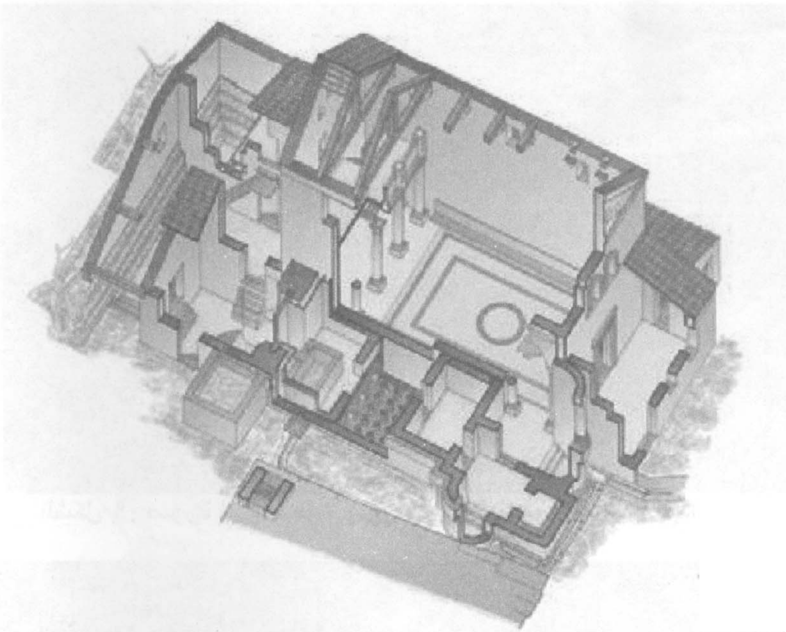
الشكل ٨: المدفن الغربي في سرجيلا



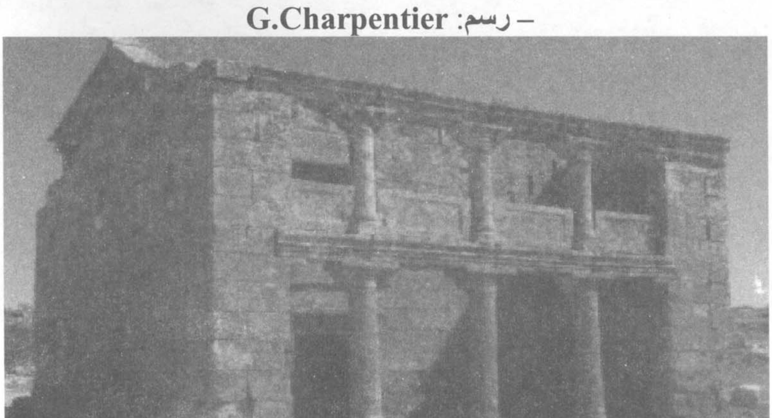
الشكل ٩: صورة جوية لحمام ونزل سرجيلا- تصوير مأمون عبدالكريم



الشكل ١٠: حمام سرجيلا



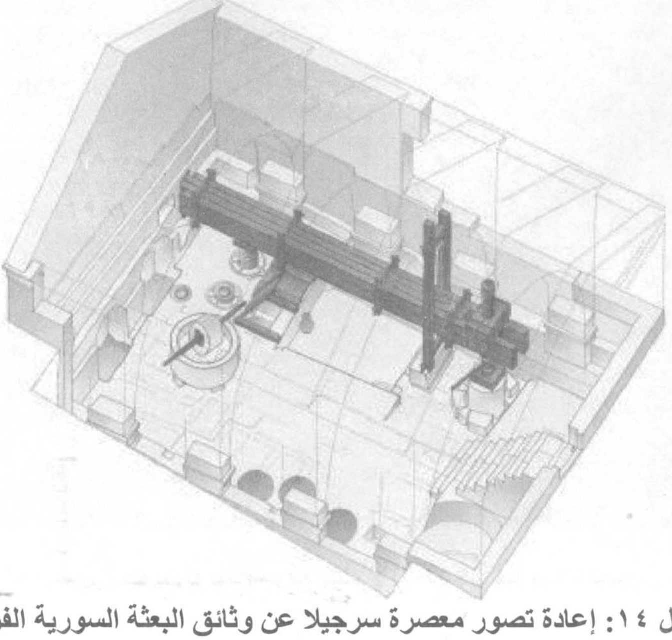
الشكل ١١: إعادة تصور حمام سرجيلا- عن وثائق البعثة السورية الفرنسية المشتركة – رسم: G.Charpentier



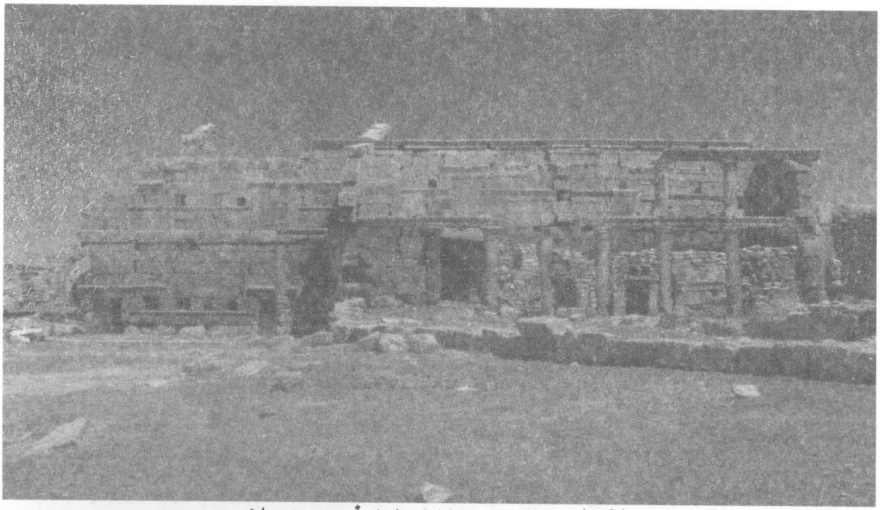
الشكل ١٢: نزل سرجيلا



الشكل ١٣: معصرة سرجيلا



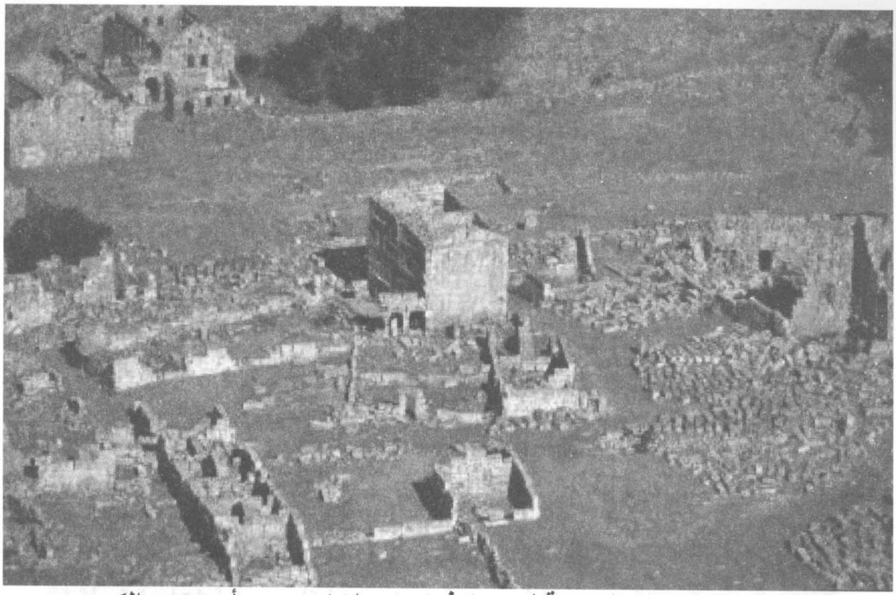
الشكل ١٤: إعادة تصور معصرة سرجيلا عن وثائق البعثة السورية الفرنسية المشتركة في شمال سورية – رسم: G.Charpentier



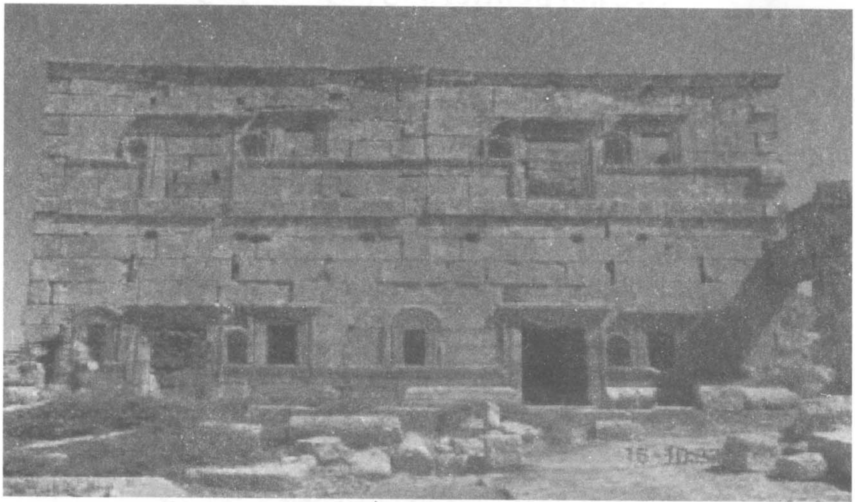
الشكل ١٥: بيت ١٧-١٨ في سرجيلا



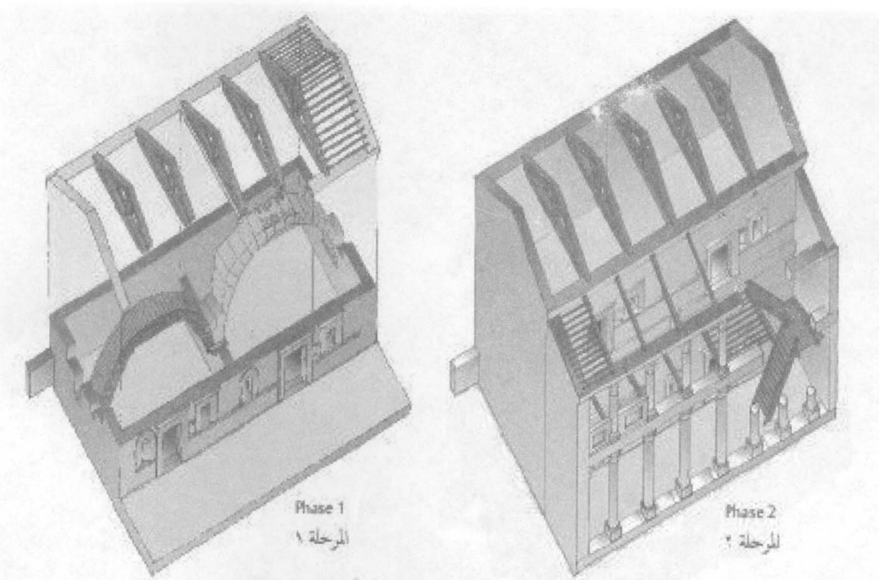
الشكل ١٦: صورة جوية توضّح موقع بيت ١٧-١٨ في سرجيلا- تصوير مأمون عبدالكريم



الشكل ١٧ : صورة جوية لبيت ٨ في سرجيلا–تصوير مأمون عبدالكريم



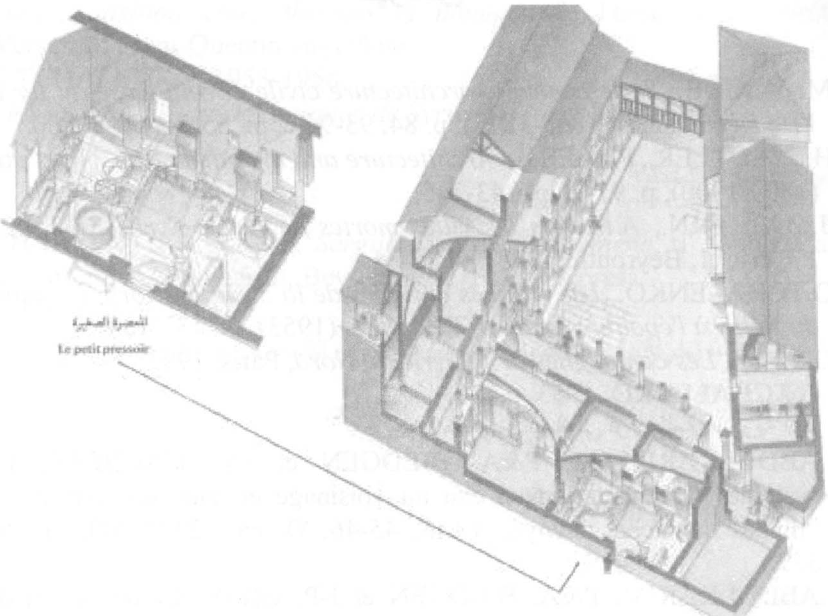
الشكل ١٨ : بيت ٨ في سرجيلا



الشكل ١٩: إعادة تصور لتطور بيت ٨ في سرجيلا- عن وثائق البعثة السورية الفرنسية المشتركة. رسم:G.Charpentier



الشكل: ٢٠ : صورة جوية توضح موقع البيت ٩ في سرجيلا- تصوير مأمون عبدالكريم



الشكل ٢١ : إعادة تصور لبيت ٩ مع المعصرة الصغيرة الملحقة بها- عن وثائق البعثة السورية الفرنسية المشتركة في شمال سورية- رسم: G.Charpentier

الهوامش

[1] M. VOGÜÉ., *Syrie centrale, architecture civile et religieuse du Ier au VIIe siècle,* Paris (1865-1877), p. 84, 93-94 et pl. 35-36, 50-53, 60.
[2] H.C. BUTLER., PAAES II, *Architecture and the others arts,* New-York (1899-1900), p. 97-99 p. 243-245.
[3] J.MATTERN., *À travers les villes mortes de Haute Syrie*, M.U.S., T. 17, fasc. 1, Beyrouth (1933), p. 32-34.
[4] G.TCHALENKO., *Les villages antiques de la Syrie du Nord, Le massif du Bélus à l'époque romaine*, T. 2, Paris (1953), pl. 137-139.
[5] G.TATE, *Les campagnes de la Syrie du Nord*, Paris, 1992. G.TCHALENKO, 1953, p.430.
[6] حول منظومة المياه في قرى شمال سورية أنظر:
M.ABDULKARIM M, P&A. BILDGEN et J-P. GAUBERT, Les systèmes d'alimentation en eau au voisinage et dans les terroirs des villages du Gebel zawiyé, *AAAS*, 45-46, Damas, 2002-2003, p.359-379.
M.ABDULKARIM, P&A. BILDGEN et J-P. GILG., Comparaison des pontenialités naturelles d'accueil des Gebels siman et zawiyé, vis-à-vis des choix d'implantation des sites antiques romano-byzantins de Syrie du Nord, *Photo-interprétation*, volume.40, Paris, 2004, p.27-35. M.ABDULKARIM et G.CHARPENTIER, La gestion de l'eau dans un village des campagnes de la Syrie du Nord, Dans : *Sratégies d'acquisition de l'eau et société au Moyen-orient depuis l'Antiquité,* Beyrouth, 2009, P.149-157.

مأمون،عبدالكريم : الاستيطان والهجرة في القرى الأثرية في شمال سورية خلال العصرين الروماني والبيزنطي، **دراسات تاريخية**، العددان ١٠٥-١٠٦، جامعة دمشق، ٢٠٠٩، ص ٣١-٥٧.

[7] H.BUTLER, *PPUAES*, II, 1920, P.114-118.
[8] VOGUE, 1865-1877, PL.55.
[9] H.BUTLER, PPUAES, II, 1920.
[10] G.TCHALENKO, 1953-1958, t1, P.26.
[11] G.CHARPENTIER, 1994, Les Bains de Sergilla, *Syria*, T.LXXI, Paris, p.113-142. et 1999, *Les bains protobyzantins de la Syrie du nord*

"une transition entre thermes et hammams", Thèse de Doctorat, Versailles-Saint-Quentin-en-Yvline.

[12] G.TCHALENKO, 1953-1958.

[13] CALLOT O., *Huilerie antiques de Syrie du Nord*, Paris, 1984.

حول العمارة السكنية أنظر:

[14] CHARPENTIER G et al., *Sergilla, village d'Apamène*, tI , publié par G.Tate et M.Abdulkarim, Beyrouthe, 2010. Sous press.

[15] G.TATE, 1992, P.127.

[16] ليلا،عفاف، **زخرفة واجهات المباني السكنية في القرى القديمة في جبل الزاوية خلال العصر البيزنطي**، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، ٢٠٠٩.

المراجع

ABDULKARIM M, BILDGEN P&A et GAUBERT J-P., Les systèmes d'alimentation en eau au voisinage et dans les terroirs des villages du Gebel zawiyé, *AAAS*, 45-46, Damas, 2002-2003, p.359-379.

ABDULKARIM M, BILDGEN P&A et GILG J-P., Comparaison des pontenialités naturelles d'accueil des Gebels siman et zawiyé, vis-à-vis des choix d'implantation des sites antiques romano-byzantins de Syrie du Nord, *Photo-interprétation*, volume.40, Paris, 2004, p.27-35.

ABDULKARIM M et CHARPENTIER G, An Early islamic Mosque in Bara, in: *Colloquium on the Antique qnd Islamic Archaeology in Bilad al-Sham*, DAI, Damas, 2006.

ABDULKARIM M et CHARPENTIER G, La gestion de l'eau dans un village des campagnes de la Syrie du Nord, Dans : *Sratégies d'acquisition de l'eau et société au Moyen-orient depuis l'Antiquité*, Beyrouth, 2009, P.149-157.

BUTLER H. C., *Architecture and other arts, PAES II*, New-York (1899-1900).

CHARPENTIER G, *Les petits bains protobyzantins de la Syrie du Nord*, thèse de Doctorat, Université de Versailles- Saint -Quentin en Yvelines, 2000, inédite.

CHARPENTIER G et al., *Sergilla, village d'Apamène*, tI , publié par G.Tate et M.Abdulkarim, Beyrouthe, 2010. Sous press.

MATTERN J., *À travers les villes mortes de Haute Syrie*, MUSJ, 17, fasc.1, Beyrouth,1933.

CALLOT O., *Huilerie antiques de Syrie du Nord*, Paris, 1984.

TATE G., *Les campagnes de la Syrie du Nord*, Paris, 1992.

TCHALENKO G., *Les villages antiques de la Syrie du Nord, Le massif du Bélus à l'époque romaine*, t. 2, Paris,1953.

VOGÜÉ M., *Syrie centrale, architecture civile et religieuse du Ier au VIIe siècle,* Paris,1865-1877.

عبدالكريم ،مأمون: الاستيطان والهجرة في القرى الأثرية في شمال سورية خلال العصرين الروماني والبيزنطي، **دراسات تاريخية**، العددان ١٠٥-١٠٦، جامعة دمشق، ٢٠٠٩، ص ٣١-٥٧.

عبدالكريم مأمون: أبحاث أثرية حول تطور موقع البارة في شمال سورية خلال العصرين الروماني والبيزنطي، **دراسات تاريخية**، جامعة دمشق، قيد النشر.

ليلا، عفاف: **زخرفة واجهات المباني السكنية في القرى القديمة في جبل الزاوية خلال العصر البيزنطي**، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، ٢٠٠٩.

دمشق مدينة التعايش المسيحي الإسلامي في الدولة الأموية "يوحنا الدمشقي نموذجاً"

الأستاذ الدكتور سليمان أحمد الضاهر

قسم الفلسفة

جامعة دمشق

مدخل:

يتناول هذا البحث حياة لاهوتيٍّ مسيحي مهم ما يزال مع شهرة اسمه مغموراً حتى الآن، وهو منصور بن سرجون الملقب بـ"يوحنا الدمشقي". وليس الغرض من هذا البحث التعريف بحياته فحسب، وإنما سنقف في أثناء الحديث عن سيرته عند إشكالية كانت مثار جدل وخلاف كبيرين بين دارسي فكر العصر الوسيط الإسلامي ومؤرخيه الذين سبق أن وقفوا عند جوانب من حياته وفكره. ونعني بالإشكالية الأسباب التي كانت وراء تركه لما يشغله من مناصب سياسية وإدارية في دمشق بداية عهد الدولة الأموية، ومن ثم الانتقال إلى بيت المقدس ليتفرغ هناك لحياة الزهد والرهبنة.

ولعل الدافع من معالجة هذه القضية ما لمسناه من خلاف في الرأي في بيان رحيله عن دمشق، فبعضهم يرى أن الرجل غادرها بمحض إرادته، وبعضهم يرى أنه أوذي وخيّر بين الدخول في الإسلام، أو البقاء على دينه شريطة تخليه عن منصبه، فاختار الرحيل. وقد لاحظنا أن الفريقين كليهما لم يقدما قرائن تثبت صحة ما ذهبا إليه، ولا تنفي بالضرورة رأي الطرف الآخر.

من هنا كانت رحلة هذا البحث لجلاء حقيقة هجرة يوحنا الدمشقي إلى بيت المقدس.

وقد جاء البحث في ثلاث فقرات رئيسة، تناولت الفقرة الأولى الموقع الاجتماعي لأسرة آل سرجون في دمشق قبل الفتح الإسلامي وبعده. أما الفقرة الثانية فتعرض لمولد الدمشقي ونشأته وألقابه. وتناقش الفقرة الثالثة سبب مغادرة يوحنا الدمشقي مدينة دمشق وهجرته إلى القدس، ثم تعرض آراء بعض المؤرخين حول هذا الموضوع، وتنتهي بمقاربة خاصة قدمها الباحث في هذا الصدد.

أولاً- أسرة يوحنا الدمشقي:

عاشت أسرة يوحنا الدمشقي في عصر انقلاب خطير تغير فيه وجه العالم في العصور الوسطى الأولى، ومثّل تحولاً في تاريخ الشعوب، إذ اختفت حضارات قديمة، ونشأت حضارة جديدة إثر دخول الجيوش العربية الفاتحة بلاد الشام، إنها الحضارة العربية الإسلامية التي استمرت أطول فترة في تاريخ الحضارات الإنسانية في العصور الوسطى.

اشتهرت أسرة سرجون التي ينتمي إليها يوحنا الدمشقي، منذ احتلال الفرس لبلاد الشام، وزادت شهرتها في عهد البيزنطيين الذين طردوا الفرس من هذه البلاد، ثم تعاظم دور أسرة الدمشقي، وزاد احترامها بعد الفتح الإسلامي أيضاً.

وتُعد أسرة يوحنا من الأُسر الدمشقية العريقة المشهورة حسبما ذهب إليه هنري لامنس مؤكداً «أن منصور بن سرجون كان من أقدم أُسر دمشق»[١]. وتعود هذه الأسرة بنسبها إلى قبيلة «تغلب»[٢] العربية، التي هاجرت من جنوب بلاد الشام في القرون الأولى لانتشار المسيحية، واستوطنت في دمشق.

وكانت بلاد الشام منذ ذلك العصر مركزاً حضارياً مهماً، ولاسيما مدينة دمشق التي تمتعت بموقع جغرافي حيوي، لقربها من البادية، فنشأ فيها مركز اقتصادي مهم

ومحطة لتلاقي القوافل التجارية، وعاش الشاميون فترة رخاء إلى أن احتل الفرس الساسانيون بلاد الشام. لكن هذا الاحتلال لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما طردهم الروم واحتلوا البلاد مكانهم، ولكن هؤلاء أيضاً لم ينعموا كثيراً باحتلالها، إذ جاء الفتح الإسلامي لمدينة دمشق، بقيادة يزيد بن أبي سفيان، وخالد بن الوليد، وأبي عبيدة بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة، «وأقاموا على حصار دمشق ستة أشهر»(٣)، وعزم أهل دمشق على التخلص من الإمبراطورية البيزنطية المستعمرة ومن المشاحنات الدينية، فقرروا التعاون مع الجيوش الإسلامية، ولجؤوا إلى التفاوض معها، واستعجالها كجيوش محررة لا مغتصبة، فسلّموا المدينة بمعاهدة صلح، وحسب ما يرويه الواقدي في "فتوح الشام"، فإن «أهل دمشق اجتمعوا إلى كبارهم من البلد وتشاوروا فيما بينهم فقرروا الصلح(٤).

كان منصور بن سرجون جد يوحنا الدمشقي على رأس المجموعة الدمشقية المكلفة بالمفاوضات حول تسليم المدينة، والتي تمخض عنها تمكين العرب المسلمين من دمشق.

وتكاد المصادر التاريخية العربية كلها تجمع على معاهدة الصلح هذه، إذ يروي سعيد بن البطريق قائلاً: «لما أُجهد أهل دمشق الحصار صعد عامل دمشق على الباب الشرقي فكلم خالد بن الوليد أن يعطي الأمان له ولأهله ولمن معه ولأهل دمشق سوى الروم حتى يفتح أبواب دمشق. فأجابه خالد ابن الوليد إلى ما سأل وكتب له أماناً هذه نسخته: "هذا كتاب من خالد بن الوليد لأهل مدينة دمشق: إني قد أمنتكم على دمائكم وديارکم وأموالكم وكنائسكم ألا تُهدم ولا تُسكن وتُسلم عليكم". ودفع له القرطاس ففتح منصور الباب الشرقي لخالد بن الوليد. فدخل المدينة وصاح بأصحابه أغمدوا السيوف. فلما دخل أصحاب خالد بن الوليد المدينة كبرُوْا فسمع الروم المقاتلة المقيمون على الأبواب التكبير، وعلموا أن منصوراً قد فتح الباب وأدخل العرب المدينة. فخلوا عن الأبواب وهربوا...»(٥).

وتكاد تتطابق رواية ابن البطريق مع رواية البلاذري، الذي يروي أن أسقف دمشق قال لخالد بن الوليد: «يا أبا سليمان إن أمركم مقبل ولي عليك وعد فصالحني عن هذه المدينة [أي دمشق] فدعا خالد بن الوليد بدواة وقرطاس فكتب "بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم ولا يُهدم ولا تُسكن شيء من دورهم، لهم بذلك عهد الله وذمة رسول الله(ص) والخلفاء والمؤمنين"»(٦).

تتفق روايتا ابن البطريق والبلاذري مع رواية ابن عساكر في تسليم دمشق عن طريق الصلح، إذ يورد ما جاء في كتاب خالد بن الوليد حين أتاه أهل دمشق النصارى بعهدهم على النحو الآتي: «بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من خالد بن الوليد لأهل دمشق أني أمنتهم على دمائهم وكنائسهم أن لا تُسكن ولا تُهدم»(٧).

وبذلك تحقق للعرب الفاتحين النصر، ولاذ الجيش البيزنطي بالفرار من دمشق، تاركاً لأهلها تدبّر شؤون مدينتهم، ولما سمع هرقل ملك الروم أن دمشق قد فتحت، أطلق صرخة الأسف والحسرة، قائلاً: «عليك السلام يا سوريا، سلاماً لا اجتماع بعده، ولا يعود إليك رومي أبداً إلا خائفاً»(٨). ونظراً لتسهيل منصور فتح دمشق عن طريق الصلح، يذكر ابن البطريق «أن جمع البطاركة والأساقفة قد لعنوا منصوراً في الدنيا لأنه أعان المسلمين على الروم»(٩). وهكذا تحقق فتح مدينة دمشق للمسلمين في شهر آب سنة ٦٣٥ م.

لقد كانت أسرة الدمشقي مضطلعة بدور مهم في تاريخ مدينة دمشق قبل الفتح الإسلامي وبعده. ففي أثناء احتلال الروم لبلاد الشام، استمرت أسرة آل سرجون في عملها، «فقد كانت أسرة آل سرجون مكلفة بأموال المدينة يوم كانت بيزنطة هي الحاكمة»(١٠)، ولقد شغل منصور بن سرجون منصب مدير الشؤون المالية في

السنوات الأخيرة من حكم الإمبراطور موريس (حكم بين ٥٨٢-٦٠٢ م)، وأبقاه هرقل في منصبه بعد طرد الفرس من بلاد الشام[١١].

وتعاظم دور أسرة الدمشقي بعد الفتح الإسلامي، فأصبحت تتمتع بمركز اجتماعي محترم في الخلافة الأموية، نظراً لدورها في تسهيل فتح دمشق، ولما لديها من خبرة في فن الإدارة وشؤون المال والأعمال. ولما كان منصور قد عُرف أثناء الفتح بعدما قابل يزيد بن أبي سفيان وخالد بن الوليد، وعرف عنه مهارته وخبرته في شؤون مفاوضات الصلح، سلمه يزيد الإشراف على الشؤون المالية.

ونظراً لخدمات منصور بن سرجون أيام الفتح الإسلامي، وإخلاصه لبني أمية أوكل له معاوية الإدارة المالية، وقرّبه إليه من جملة من قرّبهم من «النابهين من أهل الذّمة، مستفيداً من خبرتهم خصوصاً إذ أنه كان يتقن عمله؛ موظفاً، طبيباً، كاتباً»[١٢]. ويذكر ماجد فخري أن «سرجون بن منصور، والد القديس يوحنا الدمشقي، كان قيماً على الشؤون المالية لمعاوية»[١٣]. ومازال منصوراً في منصبه حتى آخر حياته، غير أن المصادر التاريخية لا تسعفنا في تحديد الفترة الزمنية التي رافق فيها منصور خلافة معاوية التي امتدت ما بين (٦٦١-٦٨٠م).

وبعد أن توفي منصور خلفه ابنه سرجون في إدارة الشؤون المالية حسب رواية ابن عساكر التي أورد فيها: «كان سرجون بن منصور الرومي كاتباً لمعاوية بن أبي سفيان» [١٤]، وإلى هذا يذهب الجهشياري، إذ يقول: «كان يكتب لمعاوية على ديوان الخراج سرجون بن منصور الرومي»[١٥]. وحسب الجهشياري، استمر سرجون في وظيفته حتى عهد يزيد بن معاوية (٦٨٠-٦٨٣)، الذي أبقى لسرجون جميع الامتيازات التي منحه إياها معاوية والده[١٦]، بالإضافة إلى أنه كان مستشاراً مقرباً منه في الظروف السياسية الصعبة، إذ يروي الجهشياري أن يزيد «شاور سرجون ابن منصور فيمن يُولّي على العراق ليقاوم الحسين، فقال له سرجون: عبيد الله ابن

زياد»[١٧]. وقد استمر سرجون والد الدمشقي في وظيفته لفترة طويلة من الزمن، تمكن فيها أن يكون «كاتب معاوية، وابنه يزيد بن معاوية، وعبد الملك بن مروان»[١٨]. فيما يبدو استمر سرجون في عمله لفترة طويلة يتقلد ديوان الشام في عهد خلافة عبد الملك ابن مروان (٦٨٥-٧٠٥م) [١٩].

وتكاد تجمع المصادر التاريخية كلها على الحظوة الكبيرة التي تمتعت بها أسرة يوحنا الدمشقي بعد الفتح الإسلامي، فالروايات التاريخية التي سقناها تكشف إلى حدٍ بعيد الثقة الكبيرة التي أولاها بنو أمية منذ فتح دمشق لأسرة الدمشقي، ولاسيما في إسنادهم لهذه الأسرة الشؤون المالية التي أخذت تتعقد مع اتساع الفتوحات الإسلامية المتزايدة. وتبدو هذه الثقة التي أولاها بنو أمية لهذه الأسرة مؤشراً حقيقياً على التعايش والتسامح بين المسلمين والمسيحيين في دمشق كشركاء في المواطنة.

لعل للإستطالة في هذه المقدمة التاريخية ما يسوغها، لأنها ستساعدنا في فض إشكالية البحث، ومعرفة السبب الحقيقي الذي دفع يوحنا إلى الهجرة من دمشق إلى القدس، لأنها تنفي أن يكون السبب هو شعوره بالاضطهاد من قبل بني أمية، الأمر الذي سنعرض له بالتفصيل لاحقاً.

ثانياً- يوحنا الدمشقي- مولده ونشأته وألقابه:

لم تدوّن الروايات التاريخية القديمة مولد يوحنا الدمشقي ووفاته، لذلك لجأ الكثير من المؤرخين المعاصرين إلى حسابات مختلفة وافتراضات عديدة لاستدراك هذا النقص، فاختلفوا في تحديد المولد والوفاة.

يرى البطريرك مكسيموس الرابع الصائغ أن يوحنا الدمشقي عاش بين (٦٧٥-٧٤٩م)[٢٠]، بينما يذهب باسيليوس بريدي إلى أن الدمشقي عاش بين (٦٧٥-٧٥٠م)[٢١]. ويتفق هذا التاريخ مع ما ذهب إليه صاحب كتاب «اللؤلؤ المنثور»[٢٢]،

غير أن جوزف نصر الله يرى ولادة الدمشقي بين (٦٥٥ و ٦٦٠)، ووفاته بين (٧٤٩ و ٧٥٠) [٢٣].

مات يوحنا الدمشقي[٢٤]وهو طاعن في السن فقد قارب مئة سنة، قضى شطرها الأول في العمل الإداري في الخلافة الأموية، وقضى شطرها الثاني في حياة النسك والبحث والتأليف، إلى أن توفي ودفن في دير مارسابا بالقرب من القدس.

كان يوحنا الدمشقي من أصل عربي[٢٥]، واسمه الحقيقي هو «منصور» وهو اسم جده، تبعاً للتقليد العربي القديم في إعطاء الحفيد الأكبر اسم الجد، واسم أبيه سرجون، فهو **منصور بن سرجون بن منصور بن سرجون**[٢٦].

عُرف الدمشقي بعدة أسماء، سماه ابن العبري «كوريني بن منصور، والكتبة الأقباط يَنحَ بن منصور»[٢٧]، وأبو الفرج الأصفهاني "ابن منصور"[٢٨] كما عُرف الدمشقي بـ "يحيى الدمشقي"[٢٩]. بينما أسمته المستشرقة الروسية بيغوليفسكايا بـ "مار يوحنا"[٣٠].

لكن جوزف نصر الله يذهب إلى أن الدمشقي حمل اسمين: «أحدهما يوناني (يوحنا)، والآخر عربي (منصور)» [٣١]. ونحن نتحفظ على رأي نصر الله ونعتقد أن الدمشقي قد عُرف بـ"يوحنا" بعد ترسيمه كاهناً من قبل "يوحنا الخامس بطريرك القدس" (٧٠٦-٧٣٥م) وبذلك يكون اسم "يوحنا" هو الاسم "الديني" الذي حصل عليه تيمناً باسم من نصّبه في سلك الرهبنة، وهذا تقليد كنسي ربما ما يزال شائعاً حتى اليوم.

لُقب منصور بن سرجون بـ"الدمشقي" نسبة لولادته في دمشق حسب رواية ميخائيل السمعاني الأنطاكي[٣٢]، كاتب سيرة يوحنا الدمشقي التي يقول فيها: «فهذا أبونا البار يوحنا، كان مولده وتربيته في مدينة دمشق بعينها، ابناً لسرجون بن منصور الشريف المحل في أهلها»[٣٣]. ويجدر الإشارة هنا إلى الخطأ الذي وقع فيه مؤرخ الفلسفة اليونانية محمد علي أبو ريان عندما خلط بين "يوحنا الدمشقي" و"دمسقيوس"، فكتب أن «دمسكيوس Damascius هو المعروف عند الإسلاميين باسم يوحنا الدمشقي»[٣٤].

وإلى هذا ذهب فراس السواح أيضاً عندما كتب أن الدمشقي هو «آخر فلاسفة الأفلاطونية الحديثة وهو "داماسكيوس" وتعني الدمشقي المولود في دمشق حوالي ٤٨٠ بعد الميلاد»، ويتابع السواح: «وقد تحدث هذا الفيلسوف عن بعض الأساطير البابلية في كتابه الرئيسي "صعوبات وحلول المبادئ الأولى"»[٣٥]. ونعتقد أنه ربما كان سبب الخلط بين اسم "يوحنا الدمشقي" و"دمسقيوس" يعود إلى أن أشخاصاً كثراً حملوا لقب الدمشقي[٣٦]. والحقيقة أن "دمسقيوس" ليس هو يوحنا الدمشقي، بل أحد أقطاب مدرسة أثينا في الأفلاطونية المحدثة، وآخر من ترأسها كما أورد السواح، وقد اشتهر بكتابه الموسوم بـ"المبادئ"[٣٧].

سمّي الدمشقي أيضاً بـ"مجرى الذهب" أو "دفاق الذهب"[٣٨] لفصاحته وبلاغة لسانه وتدفق ألفاظه وعباراته، وهي كناية عن «نهر بردى» الذي تتدفق مياهه بغزارة لتروي غوطة دمشق وتحولها إلى واحة خضراء.

ولا تمدنا المصادر التاريخية بمعلومات وافية عن سنوات حداثة الدمشقي. فكل ما نعرفه عن حداثته يعتمد في الغالب على سير القديسين، التي تخبرنا أنه عاش في جوٍ أسري سعيد لأسرة دمشقية نبيلة، فقد تربى ونشأ على نمط حياة الدمشقيين الأثرياء، ووفرت له عائلته قسطاً كبيراً من الثقافة العالمية يتناسب مع ثروتها ومكانتها الاجتماعية. وتروي بعض المصادر التاريخية العربية أن الدمشقي كان من رواد البلاط الأموي وصديقاً ليزيد قبل تقلده الخلافة، فقد أخبرنا أبو الفرج الأصفهاني «أن يزيد بن معاوية كان أول من أفسح المجال لحفلات الترويح عن النفس في القصر، وكان مجالساه الاعتياديان منصور بن سرجون المسيحي والأخطل»[٣٩].

ويذكر هنري لامنس أنه لما كان يزيد ولي العهد، فإنه كثيراً ما كان يخرج من قصر الخضراء، فليجأ إلى منزل الدمشقي الكائن في بستان القصر، ويلتقي هناك بصديقيه الأخطل الشاعر الكبير، ومنصور بن سرجون[٤٠].

كان الدمشقي ذا ثقافة عالية متقنة، وبحسب شهادة ميخائيل الأنطاكي، اختار سرجون لابنه معلماً من الأسرى المسيحيين المجلوبين إلى دمشق من جزيرة صقلية اسمه "قزما القلبري"[٤١]، بعد أن أعتقه وأوكل إليه تعليم ابنه يوحنا مع أخيه بالتبني والمسمى "قزما" أيضاً. فالدمشقي كان قسيماً لقزما «لاشتراكهما في التعليم والأدب، واختلاطهما في العيش والتربية في منزل أبي يوحنا»[٤٢]. وبحسب ميخائيل الأنطاكي فإن الفتيين «تعلما منه في مدة يسيرة علوماً كثيرة، وتناهيا فيها: أعني علم المنطق والخطابة وعلم الهندسة والنجوم، ولم يتركا فناً منها إلا وتضلعا فيه ودرسا كتبه وحفظاه، وتأدبا بجميع أدب الدور الكلي المنسوب إلى اليونان [أي الفلسفة اليونانية]»[٤٣]، ولما كانا قد أتما تعليمهما بشكل جيد، واطلعا على جميع العلوم تقدم "قزما" المعلم "الراهب الفيلسوف" من والد يوحنا قائلاً له: «يا مولاي إن يوحنا ولدك قد تعلم العلوم التي أعرفها كلها (...) وكذلك أيضاً أخوه قزماً»[٤٤]. إن هذه الحياة التربوية والثقافة المشتركة تفسر الروابط الحميمة التي جمعت فيما بعد هذين الأخوين في سلك الرهبنة، فعندما توجه الدمشقي إلى بيت المقدس «أخذ معه قزما الذي تربىّ في منزل أبيه، مرافقاً»[٤٥].

لقد أتقن الدمشقي منذ حداثة سنه جميع العلوم والفنون في عصره، واستقى معارفه اللاهوتية والفلسفية من مصادر فكرية متعددة الاتجاهات والمشارب، فاعتمد فلسفياً على منهج خاص استمده من أرسطو، أما لاهوتياً فأخذ عن أثناسيوس وباسيليوس ويوحنا "الذهبي الفم" وسغيريانوس وغريغوريوس النزينزي.

أما على صعيد الفن، فلقد كان للدمشقي دور مهم في الموسيقى الكنسية وتراتيلها، وربما كان لاحتكاكه بالشاعر الأخطل أثر في أناشيده المنغمة التي كتبها مع أخيه قزما، والتي عرفت باسم "القوانين". ويذكر ابن العبري أنه في زمن يعقوب الرهاوي وجرجس العربي ابتدأت هذه الأناشيد التي دُعيت القوانين العربية، بعد أن وضعها يوحنا الدمشقي وقزما. ولقد دخلت هذه القوانين كنائس الشرق والغرب. ومن

المعروف أن الدمشقي لحّن أناشيده على الوزن اليوناني (إيانبي). إضافة إلى ذلك، يعد الدمشقي أحد المبدعين في تاريخ الموسيقى الليتورجية الكنسية. (٤٦)

ولما كان سرجون والد الدمشقي، يعد ابنه ليخلفه في رئاسة الطائفة المسيحية، والانخراط في الحياة العملية، وليقوم بالمهام التي قامت بها الأسرة منذ زمن طويل، فقد عمل على تدريبه على فن الإدارة والتنظيم المالي، وإكسابه كل الخبرات التي أتقنها في ممارسته للإدارة المالية.

وقد استمر احترام بني أمية لأسرة آل سرجون من الجد إلى الحفيد. فخلف يوحنا الابن والده بوظيفة مالية وإدارية مهمة في الدولة الأموية، «وبعد أن توفي سرجون أبو يوحنا صار ابنه يوحنا كاتب يد أمير دمشق، متقدماً عنده، صاحب سرّه وجهره، وأمره ونهيه»(٤٧).

تقلد الدمشقي منصباً رفيعاً في الإدارة الأموية، وتبع «في أول عهده مهنة أسلافه في إدارة الشؤون المالية، مستفيداً من اختيارات أبيه ونصائحه، فحذا حذوه في ذاك المنصب حتى خلافة هشام (٧٤٢-٧٤٣م) »(٤٨)، ومع أن المصادر التاريخية العربية لم تحدد بدقة وظيفة الدمشقي، إلا أنه يكفينا اتفاق جميع مؤرخي الكنيسة الشرقية المعاصرين على أن «الدمشقي تولى من بعد أبيه وظيفة مالية عند الخليفة الأموي»(٤٩).

خلاصة القول إن الدمشقي، وبناء على خبرته التي ورثها عن آبائه وأجداده، وللاحترام الذي حظي به من قبل بني أمية، عمل في الشؤون المالية في دولة بني أمية في وقت كانت فيه شؤونها المالية والإدارية آخذة في التعقيد عندما كانت الفتوحات الإسلامية آخذة في التوسع أكثر فأكثر.

وقبل الانتقال إلى مسألة هجرته إلى القدس، يجدر بنا الإشارة إلى طبيعة المؤلفات التي أثمرت عنها الحياة الفكرية والثقافية والدينية التي عاشها الدمشقي، فقد جاء نتاجه

ضخماً متنوعاً، تباينت فيه الموضوعات بين الفلسفي والعقائدي والجدلي، فضلاً عن المواعظ الدينية وكتابات التفسير والزهد، أو كتابات الشعر والموسيقى وغيرها من الفنون.

كتب الدمشقي مؤلفاته باللغة اليونانية دون العربية مع أنه يتقنها، وذلك لأن اليونانية كانت لغة الثقافة المسيحية الكنسية آنذاك. ثم ترجمت مؤلفاته المهمة إلى لغات عدة بين قديمة وحديثة، منها اللاتينية والفرنسية والإنجليزية والروسية. أما العربية فلم يترجَم إليها إلا الجزء الثالث من "ينبوع المعرفة"، وهو القسم الموسوم بـ"الإيمان الأرثوذكسي" أو "المئة مقالة في الإيمان الأرثوذكسي" (٥٠).

يعد كتاب "ينبوع المعرفة" واحداً من أهم كتب اللاهوت النظري بسبب قدمه في تاريخ الفكر المسيحي. ناهيك عن أهمية أخرى استحق الدمشقي لأجلها لقب "المدرس اليوناني" وصفة المؤسس الحقيقي للفكر اللاهوتي المدرسي، حيث فتح في هذا الكتاب وجهة جديدة أمام اللاهوت المسيحي، حين فسر أصوله ومبادئه، وعالج قضاياه مستفيداً من فلسفة أرسطو ومنهجه. فكان في طليعة اللاهوتيين الذين أدخلوا فلسفة أرسطو في تفسيرات العقيدة المسيحية، وأخذ عنها الكثير من التحديدات والمفاهيم، مثل: "الطبيعة" و"الجوهر" و"الماهية" و"القوة" و"الفعل" و"الذات"، ليبدع من خلالها جملة من المفاهيم الخاصة بعلم اللاهوت. لذلك لم يقصد الدمشقي في مؤلفه "ينبوع المعرفة" إقامة مذهب فلسفي، فجاءت مادته الفلسفية «على نحو "تعريفات" متوالية خاصة، وبصورة "ممهدات"»(٥١) شارحة ومفسرة. لذلك لم تكن الفلسفة عنده غاية بذاتها، بل وسيلة يهدف منها إلى استعمال الفلسفة الأرسطية كأداة لتفسير القضايا اللاهوتية في العقيدة المسيحية.

ثالثاً- الهجرة إلى القدس:

إن الدراسة العلمية للظاهرة التاريخية، تقتضي إخضاعها للنقد والتحليل الإبستيمولوجي لمعرفة الظروف الموضوعية التي عملت على تشكلها، والكشف عن أبعادها ومضامينها، واستنطاقها بما يجعلها واقعة حية أقرب إلى الفهم والتصديق. من هنا يصبح التساؤل مشروعاً حول سبب مغادرة الدمشقي مدينته التي عُرف باسمها إلى بيت المقدس، ليعيش حياة الزهد والنسك.

غادر يوحنا مسقط رأسه دمشق برفقة أخيه بالتبني «قزما» إلى بيت المقدس، فزارا الأمكنة المقدسة، ثم قصدا دير مارسابا، ولقد كانت شهرة الدمشقي قد سبقته إلى هذه الأمكنة المنعزلة الموحشة. فكان ينتقل بين القدس ودير مارسابا واعظاً ومرشداً ومعلماً ومزاولاً حياة النسك والزهد.

ولقد تباينت الإجابات حول سبب الهجرة هذه، وكثرت التأويلات بين النقاد والمؤرخين المعاصرين بشأنه، ولا يزال السبب الحقيقي الذي دفع الدمشقي لمغادرة دمشق إلى القدس لممارسة الرهبنة، مثاراً للجدل والخلاف. لماذا يتغير ابن النبلاء والأشراف بشكل مفاجئ، فينزل من عليائه الأرستقراطي ليرحل من بسطة الدنيا في قصور العاصمة الأموية إلى وحشة الدير في القفر القاحل، ويؤثر حياة النسك والتعبد والتفكر على حياة الدعة والرخاء والتنعم؟

لعل أقدم رواية تاريخية تعرض لذكر هجرة الدمشقي إلى القدس هي رواية ميخائيل الأنطاكي، الذي يورد أن الدمشقي طلب من الخليفة «أن يعفيه من الخدمة، ويطلق له المسير في سبيل ربه التي يختارها وترضيه. بعد كل جهد أطلق سراحه، فمضى لوقته إلى داره (...) ثم توجه في المسير نحو بيت المقدس، وقصد دير مارسابا، وأخذ معه قزما الذي تربى في منزل أبيه مرافقاً»[٥٢].

النص في غاية الوضوح والجلاء، فلا يحتمل التأويل، وكل ما يشير إليه هو طلب الدمشقي إعفاءه من الوظيفة دون أن يتعرض الأنطاكي لتوضيح سبب هجرة يوحنا من دمشق، بل يكتفي بالإشارة إلى مغادرة الدمشقي إلى بيت المقدس برفقة أخيه قزما، بعدما سمح له الخليفة بذلك. ولكن ما يمكن استنتاجه من المنطوق العام للنص هو الكشف عن الهواجس الداخلية التي كان يعاني منها الدمشقي، والتي عبر عنها الأنطاكي بألفاظ ذات دلالة دينية- روحية (أن يطلق له المسير في سبيل ربه التي يختارها وترضيه).

ولما كانت المصادر التاريخية قد أغفلت ذكر سبب هجرة الدمشقي إلى القدس، ولم تعن بمعالجته بشكل واضح وجلي، فقد أدى هذا إلى فتح باب النقاش واسعاً وإلى كثرة التأويلات والتفسيرات أمام المؤرخين والنقاد المعاصرين، فخرجوا بآراء عدة سنحاول إخضاعها للنقد الإبستمولوجي، للكشف عن صدق مضامينها ومدى اتساقها وإمكانية قبولها والأخذ بها.

لم يذكر هنري لامنس السبب الذي دفع يوحنا لهجرة دمشق إلى القدس، بل اكتفى بالقول: «ودع (الدمشقي) العالم وانصرف إلى الروحيات مختلياً في دير القديس سابا نواحي القدس»(٥٣). بينما يرى البطريرك مكسيموس الرابع الصائغ أن السبب الذي دفع الدمشقي إلى مغادرة دمشق إلى القدس «ما يزال غامضاً لا يُعرف بالتأكيد». ثم يردف قائلاً: «إنه خُيّر بين البقاء في مركزه أو المحافظة على إيمانه»(٥٤)، ويكاد يلتقي الرأي السابق مع رأي نصر الله الذي ذهب بعيداً في تأويلاته وتفسيراته، إذ يرى دون سند تاريخي «أن الدمشقي كان ضحية إجراءات تعسفية تتلخص بعدم تسليم المسيحيين وظائف رفيعة في الحكومة ما لم يرتدوا عن دينهم، مما أوجب على القديس أن يختار بين إيمانه ومنصبه، ولم يتردد لحظة واحدة، بل استقال من وظيفته (...) وذهب وقرع باب دير القديس سابا»(٥٥). وذهب إلى هذا الرأي يذهب آلان دي ليبيدا صاحب كتاب "فلسفة العصر الوسيط"، إذ يربط هجرة الدمشقي إلى القدس باتخاذ عمر

ا بن عبد العزيز موقفاً عدائياً من المسيحيين، يقول: «لم يغير يوحنا دينــه، ويعتنــق الإسلام بغية الاحتفاظ بمنصبه في الإدارة، وآثر النزول عن المال والثروة، والبقاء في ملته ودخل دير القديس مار سابا»[٥٦].

وخلافاً للآراء السابقة ذهب الأب م. جوجي إلى «أن القديس تخلى بملء اختياره عــن وظائفه الرسمية في دمشق، وربما دفعته إلى ذلك التنظيمات التي أخذت تــزداد شــدة وتُثقل كاهل الذميين من يهود ومسيحيين. فاعتزل يوحنا في دير مارســـابا»[٥٧]. أمـــا فؤاد البستاني فيربط سبب هجرة الدمشقي إلى القدس «باضــطهاد هــشام لأصــحاب الحركة القدرية التي لم يكن يوحنا ببعيد عنها»[58]!!.

ونعتقد أن مجمل التأويلات والتفسيرات الأنفة الذكر، والتي حاولت الكشف عن ســبب هجرة يوحنا من دمشق إلى القدس، قد توجهت وجهتين اثنتين.

ركزت الوجهة الأولى على الأسباب "التنظيمية_ الإدارية"، التي قال بهــا البطريــرك مكسيموس الرابع، وجوزف نصر الله، والأب م. جوجي، والتي حاولوا فيهــا ربــط هجرة الدمشقي بالإصلاحات الإدارية في الدولة الأموية، وتحديــداً بقــرار "تعريــب الدواوين"[٥٩] الصادر في عهد عبد الملك سنة (٧٠٠م)، والقاضي بتعميم اللغة العربية في مؤسسات الدولة الإسلامية بدل اللغة اليونانية، ومن ثم حصر الوظائف الرفيعة في الدولة بمتقني اللغة العربية فقط.

ونعتقد هنا أن مكسيموس الرابع وجوزف نصر الله قد التبس عليهما الأمر فربطا قرار التعريب واشتراط "اعتناق الإسلام" لإسناد وظائف رفيعة في دولة بني أمية، وخلــصا إلى ما سمياه بـــ"فرضية الاختيار بين الوظيفة والإيمان"، معتبرَين أن تمسك الدمــشقي بإيمانه المسيحي هو السبب في إعفائه من وظيفته، ومن ثم هجرته إلى القدس.

إن القول بفرضية "الربط بين الوظيفة واعتناق الدين الإسلامي" لا يعتمد على أي سند أو وثيقة تاريخية، ويكشف لنا إخضاعها للنقد والتحليل عن ضعفها وتهافتها. فقد اقتبس

نصر الله في كتابه "منصور بن سرجون المعروف بالقديس يوحنا الدمشقي" كثيراً عن المؤرخ الإسلامي الجهشياري، وعدّه مصدراً موثوقاً، لكنه أغفله تماماً عندما وضع فرضيته القائلة بـ"الاختيار بين الوظيفة والدين". فحديث الجهشياري عن تعريب الدواوين في عهد عبد الملك بن مروان ومن جاء بعده من الخلفاء، لم يتطرق قطّ لربط الوظيفة في الدولة الأموية باعتناق الإسلام. إذ بقي من يتقن العربية من الكتّاب النصارى محافظاً على عمله في الدولة[٦٠]. ولا نظن أن الجهشياري سيغفل أمراً كهذا لو كان قد وقع حقاً، وهو يتطرق في كتابه لأمور أبسط من ذلك وأقل شأناً.

ومن ناحية ثانية، إذا كان قرار تعريب الدواوين يشترط إتقان اللغة العربية للتعيين في المناصب الرفيعة في الدولة؛ فإن الدمشقي «قد تضلع في اللغات الثلاث: السريانية واليونانية والعربية»[٦١]. ولما كانت العربية هي اللغة الأم عند الدمشقي فإن قرار التعريب لا يقوم دليلاً أو حجة لتفسير هجرة الدمشقي، مع أن لامنس يرى أن الدمشقي ظل في منصبه حتى حوالي سنة (٧٣٠م)، أي إلى ما بعد تاريخ قرار تعريب الدواوين بمدة طويلة، وصلت حتى عهد خلافة هشام (٧٢٤-٧٤٣م). وبهذا يكون ولفسون محقاً في ما ذهب إليه من أن «يحيى الدمشقي اعتزل العمل عند الأمويين سنة ٧٣٠م»[٦٢].

من تحليلنا السابق يتضح أن قرار التعريب لا يستقيم كدليل يفسر هجرة الدمشقي إلى القدس، لذلك تبدو فرضية "الاختيار بين الوظيفة والإيمان" ضعيفة وغير مقنعة لافتقارها إلى السند التاريخي والتسويغ المقبول منطقياً.

أما رأي الأب م. جوجي فغير موضوعي لسببين الأول: أن ربط سبب مغادرة الدمشقي بدفع "الجزية" العالية المفروضة على "أهل الكتاب" من يهود ومسيحيين أمر لا يستقيم مع الحقيقة، لأن الجزية تستند إلى تشريعات دينية محددة وثابتة. والثاني: أن "الجزية" مهما علت فلن تثقل كاهل الدمشقي ابن النبلاء نظراً لثراء أسرته. ولهذا يبدو رأي الأب م. جوجي غير كاف لتفسير مغادرة الدمشقي إلى القدس.

أما الوجهة الثانية التي مثلها فؤاد البستاني فتركز على الأسباب الفكرية- العقائدية التي نتجت عن أول صراع فكري شهدته عاصمة الأمويين بين "القدرية" و"الجبرية". وبحسب رأي البستاني، فإن الدمشقي لم يكن بعيداً عن هذا الصراع لأنه يلتقي فكرياً، كما يبدو من نقاشاته الجدلية اللاهوتية، مع أنصار القدرية في الفكر الإسلامي، من جهة قوله بحرية الإنسان ومعارضته للقول بالقضاء والقدر، الذي مثل فكر السلطة الرسمية للدولة الأموية. فسبب هجرة الدمشقي إلى القدس، بحسب البستاني، هو «اضطهاد هشام لأصحاب الحركة القدرية التي لم يكن يوحنا ببعيد عنها»(٦٣).

ونحن نتحفظ على رأي البستاني الذي علل سبب مغادرة الدمشقي إلى القدس بالجدال الفكري القائم بين "القدرية" و "الجبرية"، وعندما نؤكد أن الدمشقي كان من أنصار القدرية، ومدافعاً عن حرية الإنسان، فإن موقفه هذا لم يكن ليشكل خطراً على السلطة الأموية لدرجة تدفعها إلى مضايقته وملاحقته "واضطهاده". فقد كان الدمشقي رغم قدريته مقرباً من بلاط بني أمية، لأنه لم يكن لينافس بني أمية على سلطتهم، أو يؤلب -وهو المسيحي- الرعية عليهم. ناهيك عن ما عُرف عن بني أمية من أنهم لم يفرقوا «بين الناس من خلال عقائدهم الدينية، فنظروا إلى مواطنيهم تبعاً لذلك نظرة واحدة ولم يفرقوا بين الناس على أساس الدين والعقيدة، بل عدوا الناس جميعاً مواطنين متساوين في الحقوق والواجبات... فقدموا أهل الذمة واعتمدوا عليهم في العديد من الأعمال المهمة فشعروا مدة حكم الأمويين بالأمان والاطمئنان»(٦٤).

إن البحث عن السبب الحقيقي وراء مغادرة الدمشقي إلى دير سابا، يتطلب قدراً من النزاهة العلمية والابتعاد عن الهوى أو الفرضيات المبنية على مواقف أيديولوجية مسبّقة. فالحقيقة تستلزم الكشف عن الأسباب الموضوعية والمسوغات العقلية المقنعة التي تجعل الحدث التاريخي قابلاً للتصديق.

وانطلاقاً من تمسكنا بالأصول الأكاديمية لمنهج البحث العلمي النزيه، نجد أنفسنا مدفوعين لمقاربة سبب المغادرة برؤية خاصة تهدف إلى الكشف عن الظروف التاريخية لتشكّل الحدث.

نعتقد أن سبب مغادرة الدمشقي إلى دير سابا ناجم عن موقف «ديني–روحي» يجب البحث عنه داخل المسيحية ذاتها، وما أصابها من انقسامات وانشقاقات ومنازعات فكرية في تفسير طبيعة السيد المسيح. فقد انقسمت المسيحية إلى يعاقبة ونساطرة وآريوسية وملكانية، وأخذت البدع بالتسلل إلى المسيحية[٦٥]، وبدأت الأفكار الهرطقية المنادية بتحريم الإيقونات وتحطيمها بالظهور علناً، وشكلت اتجاهاً فكرياً قوياً له أنصار ومؤيدون، وأخذت المانوية تنافس العقيدة بقوة، الأمر الذي هدد المسيحية من داخلها وخارجها.

في سنة (٧٢٦م) أصدر الإمبراطور البيزنطي لاون الثالث الأيصوري (حكم بين ٧١٧-٧٤٠م) [٦٦]قراراً يقضي بتحريم الإيقونات وتحطيمها، ونزع القداسة عن التماثيل المرفوعة للسيد المسيح والعذراء، واعتبار تكريمها طقوساً وثنية. هذا القرار أحدث مع ما رافقه من خلافات داخل الكنيسة نفسها، رافقتها مشاحنات ومماحكات لاهوتية، ضربة قوية وعميقة لوحدة الكنيسة، أججت عند الدمشقي عاطفة دينية روحية وغيرة قوية على عقيدته، لذلك أنبرى للتصدي لهذه المشكلات ولاسيما مسألة تحطيم الإيقونات التي كان في خضمها مباشرة، فاشتبك مع قيصر الروم لاون الثالث وابنه قسطنطين الخامس في صراع ديني ذي صبغة فكرية، «فما تكاسل يوحنا الكريم بغيرته في الأمانة ورأيه المستقيم (...) عن مكاتبته إلى سائر الجهات القريبة منه والبعيدة في توطيد الكنائس والتمسك بالديانة الصحيحة من جهة السجود للإيقونات المقدسة»[٦٧].

لقد تألم الدمشقي كثيراً لما حل بالمسيحية، واستشعر الخطر الذي يهدد وحدة الكنيسة، وما أصابها من تصدع وانشقاقات أيقظت عنده أزمة داخلية، حركت نوازع روحية، حملته على اعتزال وظيفته، والابتعاد عن الحياة العادية ومشاغلها، والانكفاء على الذات والتأمل فيها، ففكر في الانخراط في سلك الرهبنة وحياة الزهد، ليتسنى له متسع من الوقت للتأمل والتفكير، لتبيان حقيقة الإيمان المسيحي.

إن الباعث على مغادرة دمشق من جهة، وباعث ممارسة الرهبنة من جهة أخرى، يتطابقان عند الدمشقي ويتكاملان ليفسر كل منهما الآخر، فسبب المغادرة إلى بيت القدس لا يعود إلى "فرضية الاختيار بين الإيمان والوظيفة"، كما رأى أصحاب الوجهة الأولى، بل ارتبط ببواعث داخلية دينية عقائدية روحية، حركتها عوامل نفسية للميل إلى الزهد، وهي ظاهرة معروفة وصحية في طلب الطمأنينة النفسية والسكينة الروحية عند رجال الدين، عبر ممارسة حياة التزهد المألوفة في المسيحية والإسلام.

أما اختيار الدمشقي دير مارسابا مكاناً لنسكه وزهده، فيعود باعتقادنا إلى ردة فعله على انشقاقات المسيحية وانقساماتها وصراعاتها. وربما كان حرصه الشديد على وحدة الكنيسة وسلامتها، هو ما دفعه إلى أن يكون مكان تعبده وزهده بالقرب من القدس "مهد المسيحية الأولى والواحدة"، التي لم تعرف الانقسام والتفرق،على عكس الاتجاهات المسيحية المتعددة والمتصارعة آنذاك، ومن هنا كان اختياره لدير مارسابا إشارة إلى دفاعه عن المسيحية الواحدة، وتبيان حقيقتها والرد على اليعاقبة والمانوية والنساطرة والبدع والهرطقات(٦٨).

خاتمة:

كان على الباحثين والمؤرخين الذين خاضوا في مسالة هجرة الدمشقي إلى القدس، أن يلتزموا البحث الموضوعي المنطقي، الذي تلزم فيه النتائج عن المقدمات، آخذين بعين الاعتبار الشروط التاريخية والموضوعية لانتشار المسيحية، وما تعرضت له من

انشقاقات خطيرة هددت وحدة الكنيسة. وكان عليهم أيضاً أن يفتشوا عن سبب مغادرة الدمشقي إلى دير سابا، في هذه الظروف وملابساتها، بدلاً من إلقاء التهم جزافاً ولاسيما مكسموس الرابع وجوزف نصر الله وآلان دي ليبيدا الذين عدّوا الإصلاحات الإدارية المتعلقة بتعريب الدواوين التي قام بها بني أمية (إجراءات تعسفية دفع الدمشقي ضحيتها). فابتكروا فرضية "الاختيار بين الإيمان المسيحي والوظيفة".

وكان من الأجدر لو بحث القائلون بهذا الرأي عن السبب الحقيقي لهجرة الدمشقي وراء ما أصاب الكنيسة من مشاحنات ومماحكات وانشقاقات أدت إلى اتهام بعضهم، وتكفير آخرين، وإقصاء بعضهم الآخر. لقد حملت هذه الأحداث المؤلمة الدمشقي على نبذ العيش الرغيد مع الحكام وكبار الموظفين، مؤثراً حياة الرهبنة والنسك. وما اعتزاله الوظيفة في دولة بني أمية، إلا من باب حرصه على سلامة الكنيسة ووحدتها، ودفاعه عن الأيقونات واستنكاره الشديد على من وقف ضدها(٦٩)، وما يُبرر صحة رأينا هو الطابع النقدي الذي سلكه الدمشقي في مؤلفاته أثناء اعتكافه، فقد تناولت كتابات الدمشقي الأولى موضوعات جدلية دفاعية وعددها سبعة مؤلفات، ثم موضوعات عقائدية وإيمانية مثل: ضد النساطرة وضد اليعاقبة وضد المانوية، و"مغانم دمشق" الذي يقدم فيه حواراً ضد أسقف يعقوبي يقول بالطبيعة الواحدة، وكتاب "الهرطقات" الذي يمثل القسم الثاني من موسوعته "ينبوع المعرفة"، وضد محطمي الإيقونات. وتأتي بعد هذه المؤلفات النقدية والجدلية شروحات وتفاسير الدمشقي للعقيدة الأرثوذكسية وتوضيح حقيقتها، لتكشف لنا انشغاله بالكنيسة وما أصابها، وتبرز غيرته ودفاعه عن وحدة الكنيسة وسلامتها. وتبين لنا هذه الطريقة المنهجية في التأليف بعضاً مما كان يعتلج في فكر الدمشقي ويخطط له هو في دمشق، وما قصد إلى إنجازه في دير مارسابا في القدس، ضمن برنامج متكامل تتفاعل فيه الحياة النسكية الروحية مع الحياة الفكرية الجادة نحو البحث والتأليف.

وفي الختام، يتأكد لنا أن المثال النموذجي للتعايش المسيحي الإسلامي، والذي تحتضنه بلاد الشام في عصرنا الحالي، ليس وليد ثقافة طارئة أو روح عصر جديد، بل هو امتداد لروح الشعوب التي تعود بجذورها في هذه المنطقة إلى مرحلة ضاربة في القدم. وما الحالة التي نعيشها اليوم سوى استمرار لهذا التاريخ المشرق، ولكي نستمر في دفع هذه الحالة وضمان استمرارها، ينبغي علينا أن نعيد تسليط الأفكار مرة بعد أخرى على الشواهد التاريخية التي تؤكد هذا الروح وتدعمه. أما ما يهدد ديمومة هذا التعايش فيعود برأينا إلى قراءة تاريخ العصر الإسلامي الوسيط، قراءة لا تتسم بالنزاهة والموضوعية.

ملحق:

١- اليعاقبة: يعرفون في التسمية اليونانية "بالمونوفيزية"، ومعناها "الطبيعة الواحدة"، وينسبون إلى أسقف الرها يعقوب بن عدّاي (أو البردعاني ٥٠٥-٥٧٨م).

٢- النساطرة: نسبة إلى نسطوريوس، أخذوا بالطبيعتين وشددوا على الفصل بينهما، فقالوا "بالإثنينية الأقنومية"، مسيحاً بشرياً ومسيحاً إلهياً، واحدٌ قبل التجسيد والآخر بعده. اعتمد النساطرة مبادئ مخالفة للكنيسة الجامعة عندما أكّدوا على طبيعتين: "الجوهر القائم بذاته"، وهو المصطلح الأرسطي "هيبوستاس = Hypostaseis" الإلهي، و"بروسبون = Prosopon" الإنساني، وأقصوا تماماً كلمة "ثيوتوكيس = Theotokis" أي والدة الإله مريم. راجع جورج قنواتي، المسيحية والحضارة العربية، ص٣٠.

٣- الآريوسية: أو الأريانية، نسبة لأريوس. كان يدعو إلى «أن الله واحد غير مولود لا يشاركه شيء في ذاته تعالى. فكل ما كان خارجاً عن الله الأحد، إنما هو مخلوق من لا شيء بإرادة الله ومشيئته. أما "الكلمة" فهو وسط بين الله والعالم. كان ولم يكن زمان، لكنه غير أزلي ولا قديم. بل كانت مدة لم يكن فيها "الكلمة" موجوداً "فالكلمة" "مخلوق" فهو دون الله مقاماً». يقوم هذا المذهب على إنكار اللاهوت في المسيح والاعتقاد بأنه إنسان محض مهما كان عظيماً، لذلك أجمع الآباء في مجمع نيقة على تكفير المعتقدين به، وأكدوا أن المسيح إله وأنه "همؤسيوس" أي مساو للأب في الذات والجوهر. راجع: لويس غرديه وجورج قنواتي، فلسفة الفكر الديني، ص ٢٨٧.

٤- الملكانية: تسمية أطلقها اليعاقبة والنساطرة على أنصار الكنيسة الخلقدونية، أي الكنيسة الرسمية آنذاك، والتي اعترفت بما قرره المجمع المسكوني الخلقدوني سنة ٤٥١م. يقول الملكانيون، على خلاف اليعاقبة والنساطرة، بالأقانيم الثلاثة. ولقد كان هذا المجمع أول من عمل على تعيين المرتبة الثانية لبطريرك القسطنطينية، فتقدم على سائر البطاركة وحلّ بعد بابا روما مباشرة في الترتيب الكنسي، وكان هذا الأمر هو السبب البعيد للانشقاق النهائي بين الكنيستين الشرقية والغربية في القرن الحادي عشر.

الهوامش

(١) قبيلة «تغلب» هي أحد أفخاذ بني «ربيعة» راجع: جورج قنواتي، المسيحية والحضارة العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر: بيروت، بدون تاريخ، ص١٣٣.

(٢) سعيد بن البطريق المتطبب، **التاريخ المجموع على التحقيق**، مخطوط في مكتبة الأسد الوطنية على الميكروفيش في أربعة أجزاء، الجزء الثالث تحت رقم م ش/ م/٧٢.

(٣) الواقدي، **فتوح الشام**، دار صادر: بيروت، ٢٠٠٤، ص٦٢.

(٤) سعيد ابن البطريق المتطبب، **التاريخ المجموع على التحقيق**، الجزء الثالث.

(٥) البلاذري، **فتوح البلدان**، تحقيق طه عبد الرؤوف وعمر أحمد عطوه، دون معطيات، ص١٤٦.

(٦) ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، تحقيق علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: بيروت،١٩٩٥، ج٢، ص١١٧.

(٧) الطبري، **تاريخ الطبري**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان: بيروت، بدون تاريخ، ج ٢، ص٦٠٣؛ ويذكر ابن البطريق صرخة هرقل قائلاً:«عليك السلام يا سوريا، ويعني عليك السلام يا دمشق»، ابن البطريق، مرجع سابق.

(٨) ابن البطريق، المصدر السابق. ولقد أخذ المؤرخون المعاصرون بالرويات التاريخية العربية حول دور منصور بن سرجون في تسليم مدينة دمشق «كان منصور بن سرجون عند الفتح الإسلامي الوكيل المالي للحكومة البيزنطية في دمشق، وهو الذي قام بعقد شروط الصلح مع الفاتحين الجدد»، البير أيونا،

تاريخ الكنيسة السريانية الشرقية، دار المشرق: بيروت، ١٩٩٢، ج ٢،ص ٦٨-٦٩.

(٩) لويس غرديه وجورج قنواتي، **فلسفة الفكر الديني**، ترجمة صبحي الصالح وفريد جبر، دار العلم للملايين: بيروت، ١٩٧٨، ط ٢، ج٢، ص٣٤.

(١٠) هنري لامنس، **أسرة القديس يوحنا الدمشقي**، ص٤٨٢.

(١١) شوقي أبو خليل هكذا يكتبون تاريخنا، دار الفكر: دمشق، ٢٠٠٨، ص١٧.

(١٢) ماجد فخري، **تاريخ الفلسفة الإسلامية**، ترجمة كمال اليازجي، الدار المتحدة للنشر والتوزيع: بيروت، بدون تاريخ، ص٢٧.

(١٣) ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**/ ج ٢٠، ص١٦١.

(١٤) الجهشاري، **كتاب الوزراء والكتّاب**، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي: القاهرة، ١٩٣٨، ص٢٤.

(١٥) المصدر السابق، ص٣١.

(١٦) المصدر السابق.

(١٧) ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج ٢٠، ص١٦١.

(١٨) الجهشياري **كتاب الوزراء والكتّاب**، ص٤٠.

(١٩) مكسيموس الرابع الصائغ، "**منشور بطريركي**"، في الذكرى المئوية الثانية عشرة لوفاة القديس يوحنا الدمشقي، ص٣.

(٢٠) باسيليوس بريدي، "**تقريظ القديس يوحنا الدم**شقي"، الذكرى المئوية الثانية عشرة لوفاة القديس يوحنا الدمشقي، ص١١.

(٢١) أغناطيوس أفرام الأول برصوم، **اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السريانية**، سلسلة التراث السرياني: حلب، ط ٥، ١٩٨٧، ص٧٠.

(٢٢) جوزف نصر الله، **منصور بن سرجون المعروف بالقديس يوحنا الدمشقي**، ترجمة أنطوان هبي، منشورات المكتبة البولسيه: بيروت، ١٩٩١، ص١٦٠.

(٢٣) يعد أسقف حران الملكي ثاودروس المعروف أبو قرة (٧٤٠-٨٢٠م) نفسه من أتباع الدمشقي، وقد تأثر به في محاربة البدع والرد عليها بالبراهين. ويذكر قنواتي أن أبا قرة سافر إلى دير مارسابا في فلسطين وقابل يوحنا الدمشقي. راجع: جورج قنواتي، **المسيحية والحضارة العربية**، ص٢٦٣.

(٢٤) اللافت للانتباه أن بعض المؤرخين مثل ابن عساكر والجهشياري ينعتون يوحنا الدمشقي بـ«الرومي» راجع ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، ج٢٠، ص١٦١ حيث يدون "منصور الرومي" ونجد التسمية نفسها عند الجهشياري حيث أطلق عليه "منصور الرومي" راجع: الجهشياري **كتاب الوزراء والكتاب**، ص٢٤. وربما يعود سبب هذه التسمية إلى أن الدمشقي قد كتب باليونانية وهي لغة الروم.

(٢٥) هنري لامنس، **أسرة القديس يوحنا الدمشقي**، ص٤٨٢.

(٢٦) كيرلس بسترس وحنا الفاخوري، **تاريخ الفكر المسيحي عند آباء الكنيسة**، منشورات المكتبة اليولسية: بيروت، ٢٠٠١، ص٦٦٢.

(٢٧) أبو فرج الأصفهاني، **كتاب الأغاني**، تحقيق لجنة من الأدباء بإشراف عبد الستار أحمد الفراج، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع؛ بيروت، ط ٨، ١٩٩٠، ج٨، ص٢٨٩.

(٢٨) فؤاد البستاني، **يحيى بن منصور**، منشورات الدائرة: بيروت، ١٩٨٥. وهو الاسم نفسه الذي يطلقه مصطفى لبيب على يوحنا الدمشقي فيكتب "يحيى الدمشقي"، راجع: هاري أ. ولفسون **فلسفة المتكلمين**، ترجمة مصطفى لبيب، المجلس الأعلى للثقافة: القاهرة، ٢٠٠٥، ج١، ص١٠٢، هـ ٤.

(٢٩) راجع: نينا بيغوليفسكايا، **ثقافة السريان في القرون الوسطى**، ترجمة خلف الجراد، دار الحصاد للنشر والتوزيع: دمشق، ١٩٩٠، ص٣٠٧.

(٣٠) جوزف نصر الله، **منصور بن سرجون المعروف بالقديس يوحنا الدمشقي**، ص٨١.

(٣١) يُعد ميخائيل السمعاني الأنطاكي المعروف بـ "ميخائيل الراهب" أول من شرع في جمع أخبار يوحنا الدمشقي وذلك سنة ١٠٨٥، للميلاد أي بعد نحو ٣٣٥ سنة من وفاة الدمشقي. لذلك تعد سيرة يوحنا الدمشقي، لميخائيل الأنطاكي، والتي كتبها بالعربية من أقدم المصادر التاريخية عن سيرة الدمشقي. وقد نشر هذه السيرة كمال اليازجي بعد تحقيقها.

(٣٢) ميخائيل الأنطاكي، **سيرة القديس يوحنا الدمشقي** نشرها كمال اليازجي يوحنا الدمشقي، منشورات النور: بيروت، ١٩٨٤، ص٢٨-٢٩.

(٣٣) محمد علي أبو ريان، **تاريخ الفلسفة "الفلسفة اليونانية"**، دار المعرفة الجامعية: الإسكندرية، ١٩٩٠، ج٢، ص٣٤٣، هامش١.

(٣٤) فراس السواح، **مغامرة العقل الأولى** "دراسة في الأسطورة- سورية وبلاد الرافدين"، دار المنارة: دمشق، ط٩، ١٩٩٠، ص ١٠٦.

(٣٥) بالعودة إلى المصادر التاريخية يطلعنا ابن أبي أصيبعة على عدة أعلام لُقبوا بالدمشقي، منهم أطباء وشعراء ونقلة ولاهوتيين..، كحبيش بن الحسن الدمشقي، وابن الأعشم الدمشقي، وإسحاق الدمشقي، وابن أبي سلامة الدمشقي، وأبي الحسن عيسى بن حكم مسيح الدمشقي، وإلياس الجوهري الدمشقي، وأبو عثمان الدمشقي، وغيرهم. راجع: ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة: بيروت، بدون تاريخ. راجع أيضاً: جورج قنواتي، المسيحية والحضارة العربية، أماكن متفرقة.

(٣٦) للمزيد حول "دمسقيوس"، راجع: أميل برهييه، **تاريخ الفلسفة "الفلسفة الهلنستية والرومانية"**، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة: بيروت، ١٩٨٢، ج٢، ص٢٨٠، ٢٨٤.

(٣٧) أول من خلع على الدمشقي هذه التسمية هو المؤرخ اليوناني تيوفانس، وتبعه بعد ذلك كل واضعي سيرة الدمشقي من البيزنطيين. راجع: The Chronicle of Theophanes, translated by Harry Turtledove, University Of Pennsylvania Press, 1982, p108. ونجد هذه التسمية أيضاً عند ميخائيل الانطاكي الذي يدون: «**الأب يوحنا الدمشقي المكنى بمجرى الذهب**» راجع: ميخائيل الانطاكي، **سيرة القديس يوحنا الدمشقي**، ص٢٧.

(٣٨) أبو الفرج الأصفهاني، **كتاب الأغاني**، ج ١٧، ص٢٢٢.

(٣٩) راجع: هنري لامنس، **أسرة القديس يوحنا الدمشقي**، ص٤٨٤.

(٤٠) قزما القلبري نسبة إلى قلورية، أقليم في جنوب ايطاليا يقع في منطقة صقلية جيء به إلى مدينة دمشق مع جملة أسرى، وحسب رواية ميخائيل الأنطاكي، فإن قزما القلبري يسمى نفسه بـ"الراهب الفيلسوف"، راجع: ميخائيل الأنطاكي، **سيرة القديس يوحنا الدمشقي**، ص٣١-٣٣-٣٤.

(٤١) ميخائيل الانطاكي، **سيرة القديس يوحنا الدمشقي** ص٢٨.

(٤٢) المصدر السابق، ص٣٤.

(٤٣) المصدر السابق.

(٤٤) المصدر السابق، ص٣٦.

(٤٥) النشيد القانوني هو النشيد الذي يكتبه ويلحنه الشخص نفسه. وللاطلاع على دور المسيحيين السوريين في الموسيقى الكنسية أنظر مقالة فايز مقدسي: "**الأصول السورية للموسيقى الكنسية**"، مجلة المعرفة السورية، وزارة الثقافة، العدد ٥٦٠، أيار ٢٠١٠، ص ٢١٣ حتى ٢٣٥.

(٤٦) ميخائيل الأنطاكي، **سيرة القديس يوحنا الدمشقي**، ص ٣٦، ولعل الأمير هو الخليفة عبد الملك بن مروان(٦٨٥-٧٠٥) أو ابنه الوليد (٧٠٥-٧١٥) الـذي حظي عنده يوحنا بكثير من الاحترام. وتتفق هذه الروايــة مــع مــا ذكــره الأصفهاني «أن الأخطل قدم على عبد الملك فنزل على ابن ســرجون كاتبــه» أبو الفرج الأصفهاني، **كتاب الأغاني**، ج ٨، ص٢٨٩.

(٤٧) هنري لامنس، **أسرة القديس يوحنا الدمشقي**، ص٤٨٥.

(٤٨) باسيليوس بريدي، **تقريظ القديس يوحنا الدمــشقي**، في المئوية الثانية عشرة لوفاة القديس يوحنا الدمشقي، الطبعة البولسية: حريصا، ١٩٥٠، ص١٧.

(٤٩) ترجمه أدريانوس شكور، ونشرته المكتبة البوليسية، ١٩٨٤م.

(٥٠) لويس غرديه وجورج قنواتي، **فلسفة الفكر الديني**، ج ٢، ص ٤٠.

(٥١) ميخائيل الأنطاكي، **سيرة القديس يوحنا الدمشقي**، ص٤٦.

(٥٢) هنري لامنس، **أسرة القديس يوحنا الدمشقي**، ص٤٨٥.

(٥٣) مكسيموس الرابع، منشور بطريركي، "**الذكرى المئوية الثانية عشرة لوفاة القديس يوحنا الدمشقي**"، ص٢.

(٥٤) جوزف نصر الله، **منصور بن سرجون المعروف بالقديس يوحنا الدمشقي**، ص٩٩-١٠٠.

(٥٥) آلان دي ليبيدا، **فلسفة العصر الوسيط**، ترجمة مصطفى ماهر، دار شرقيات للنشر والتوزيع، ١٩٩٩ م، ص ٩٥-٩٦.

(٥٦) الاقتباس مأخوذ عن: لويس غردية وجورج قنواتي، **فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية**، ترجمة صبحي الصالح وفريد جبر، دار العلم لملايين، بيروت، ١٩٧٩، ج٢، ص٣٥.

(٥٧) فؤاد البستاني، **يحيى بن سرجون القديس يوحنا الدمشقي** منشورات الدائرة: بيروت، ١٩٨٥، ص٣٩.

(٥٨) للمزيد من الاطلاع انظر: علي أحمد، **مظاهر التعريب في دول المنطقة العربية في العصور الوسطى**، دمشق، ٢٠٠٩، ص ٣٢، و«كان من أهم الدواوين التي شملتها عملية التعريب في عصر عبد الملك بن مروان ديوان الجند، وديوان الخراج، **وديوان الرسائل، وديوان المغانم**».

(٥٩) راجع: الجهشياري، **كتاب الوزراء والكتّاب**، ص ٣٤-٤٠.

(٦٠) هنري لامنس، **أسرة القديس يوحنا الدمشقي**، ص٤٨٥.

(٦١) هاري أ. ولفسون، **فلسفة المتكلمين**، ترجمة مصطفى لبيب، المجلس الأعلى للثقافة: القاهرة، ٢٠٠٥ ج ١، ص١٠٢.

(٦٢) فؤاد البستاني، **يحيى بن سرجون القديس يوحنا الدمشقي**، ص٣٩.

(٦٣) علي أحمد، **مظاهر التعريب في دول المنطقة العربية في العصور الوسطى**،ص١٩.

(٦٤) حول هذه التسميات، راجع الملحق في نهاية البحث.

(٦٥) لقد كان ابنه قسطنطين الخامس (٧٤١-٧٧٥) ولي العهد أشد مغالاة في تحريم الإيقونات، ونزع القداسة عنها. لقب عند كتّاب تاريخ الكنيسة الشرقية بـ "الزبلي الاسم" لأنه أفرز في جرن المعمودية حين عُمِد. راجع أسد رستم، **تاريخ مدينة الله انطاكية العظمى**، بيروت، ١٩٦٠، ج ٢،ص ٨٩.

(٦٦) ميخائيل الأنطاكي، **سيرة القديس يوحنا الدمشقي**، ص٣٧.

(٦٧) هرطقية: لفظة معربة عن اليونانية Hairesis، وتعني التأويل والتفسير الديني المنحرف عما هو مُسلَّم به ومتعارف عليه دينياً. راجع: **معجم الألفاظ الأجنبية في اللغة الروسية** موسكو، ١٩٨٤، ص١٧٨.

(68) The Chronicle of Theophanes, translated by Harry Turtledove, University Of Pennsylvania Press, 1982, p100.

المصادر والمراجع

أولاً- المصادر:

١- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة: بيروت، بدون تاريخ.

٢- ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: بيروت، ١٩٩٥.

٣- أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، تحقيق لجنة من الأدباء بأشراف عبد الستار أحمد الفراج، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع؛ بيروت، ط ٨، ١٩٩٠.

٤- البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق طه عبد الرؤوف وعمر أحمد عطوه، دون معطيات.

٥- الجهشياري، كتاب الوزراء والكتّاب، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، مطبعة البابي الحلبي: القاهرة، ١٩٣٨.

٦- الطبري، تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان: بيروت، دون تاريخ.

٧- الواقدي، فتوح الشام، دار صادر: بيروت، ٢٠٠٤.

٨- سعيد بن البطريق المتطبب، التاريخ المجموع على التحقيق، مخطوط في مكتبة الأسد الوطنية على الميكروفيش، ج٣، م س/م/٧٢.

٩- ميخائيل الأنطاكي، سيرة القديس يوحنا الدمشقي، نشرها كمال اليازجي تحت عنوان "يوحنا الدمشقي"، منشورات النور: بيروت ١٩٨٤.

١٠- يوحنا الدمشقي، الإيمان الأرثوذكسي، ترجمة أدريانوس شكور، المكتبة البولسية، ١٩٨٤.

11-The Chronicle of Theophanes, translated by Harry Turtledove, University Of Pennsylvania Press, 1982.

ثانياً- المراجع:

١- أسد رستم، تاريخ مدينة الله أنطاكية العظمى، بيروت، ١٩٦٠،

٢- أغناطيوس أفرام الأول برصوم، اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السريانية، سلسلة التراث السرياني: حلب، ط٥، ١٩٨٧.

٣- آلان دي ليبيدا، فلسفة العصر الوسيط، ترجمة مصطفى ماهر، دار شرقيات للنشر والتوزيع، ١٩٩٩ م.

٤- ألبير أبونا، تاريخ الكنيسة السريانية الشرقية، دار المشرق: بيروت، ١٩٩٢.

٥- أميل برهييه، تاريخ الفلسفة "الفلسفة الهلنستية والرومانية"، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة: بيروت، ١٩٨٢.

٦- باسيليوس بريدي، "تقريظ القديس يوحنا الدمشقي"، الذكرى المئوية الثانية عشرة لوفاة القديس يوحنا الدمشقي، الطبعة البولسية: حريصا، ١٩٥٠.

٧- جورج قنواتي، المسيحية والحضارة العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر: بيروت، دون تاريخ.

٨- جوزف نصر الله، منصور بن سرجون المعروف بالقديس يوحنا الدمشقي، ترجمة أنطون هبي، منشورات المكتبة البولسية: بيروت: ١٩٩١.

٩- شوقي أبو خليل، هكذا يكتبون تاريخنا، دار الفكر: دمشق، ٢٠٠٨.

١٠- علي أحمد، مظاهر التعريب في دول المنطقة العربية في العصور الوسطى، دمشق، ٢٠٠٩.

١١- فؤاد البستاني، يحيى بن سرجون "القديس يوحنا الدمشقي"، منشورات الدائرة: بيروت، ١٩٨٥.

١٢- فراس السواح، مغامرة العقل الأولى "دراسة في الأسطورة- سورية وبلاد الرافدين"، دار المنارة: دمشق، ط٩، ١٩٩٠.

١٣- كيرلس بسترس وحنا الفاخوري، تاريخ الفكر المسيحي عند آباء الكنيسة، منشورات المكتبة اليولسية: بيروت، ٢٠٠١، ص ٦٦٢.

١٤- لويس غردية وجورج قنواتي، فلسفة الفكر الديني، ترجمة صبحي الصالح وفريد جبر، دار العلم للملايين: بيروت، ١٩٧٨.

١٥- ماجد فخري، تاريخ الفلسفة الإسلامية، ترجمة كمال اليازجي، الدار المتحدة للنشر والتوزيع: بيروت، دون تاريخ.

١٦- محمد علي أبو ريان، تاريخ الفلسفة "الفلسفة اليونانية"، دار المعرفة الجامعية: الإسكندرية، ١٩٩٠.

١٧- مكسيموس الرابع الصائغ، "منشور بطريركي"، الذكرى المئوية الثانية عشرة لوفاة القديس يوحنا الدمشقي، الطبعة البولسية: حريصا، ١٩٥٠.

١٨- نينا بيغوليفسكايا، ثقافة السريان في القرون الوسطى، ترجمة خلف الجـراد، دار الحصاد للنشر والتوزيع: دمشق، ١٩٩٠.

١٩- هاري أ. ولفسون، فلسفة المتكلمين، ترجمة مصطفى لبيب، المجلس الأعلـى للثقافة: القاهرة، ٢٠٠٥.

ثالثاً- الدوريات والمعاجم:

١- هنري لامنس، "أسرة القديس يوحنا الدمشقي"، مجلة المشرق، بيروت، العدد ٢٩، ١٩٣١.

٢- فايز مقدسي، "الأصول السورية للموسيقى الكنسية"، مجلة المعرفـة الـسورية، دمشق، وزارة الثقافة، العدد ٥٦٠، أيار ٢٠١٠ م.

٣- معجم الألفاظ الأجنبية في اللغة الروسية، موسكو، ١٩٨٤.

حركة التنصير الديني في شمال أفريقيا خلال القرنين الثاني والثالث الميلاديين.

الأستاذ: عبد الحميد عمران*

قسم التاريخ

جامعة محمد بوضياف ص ب.١٦٦

اشبيليا ٢٨٠٠٣-المسيلة- الجزائر

خطة المقال

مقدمة

١:- ظهور وانتشار الديانة المسيحية في أفريقيا الرومانية

٢:- حركة التنصير وعوامل توغل العقيدة المسيحية في منطقة المغرب القديم

أ:- حركة التنصير في منطقة المغرب القديم

ب:-عوامل توغل العقيدة المسيحية في الوسط الأفريقي

١-العامل الاجتماعي

٢ -العامل الاقتصادي

٣:- موقف السلطة الزمنية من حركة التنصير

أ- مرحلة العداء للمسيحية

١:- فترة الاضطهاد المتقطع

٢:- فترة العداء الشديد

ب- مرحلة الاحتواء وتنصر السلطة

خاتمة

الإحالات

مقدمة:

كان لظهور الديانة المسيحية وانتشارها بمنطقة المغرب القديم الأثر الكبير في تاريخ المنطقة، نظرا لما صاحبها من اضطهاد للسكان من قبل المحتل الروماني، سواء بمحاولته فرض العبادة الرسمية للإمبراطورية، والمتمثلة في عبادة الإمبراطور وتقديسه من قبل جميع رعايا الإمبراطورية بما في ذلك شعوب المستعمرات مما أدى إلى حركة اضطهاد واسعة في صفوف المتنصرين، وخاصة في إفريقيا الرومانية، بالرغم من محدودية الانتشار المسيحي، فلقد سجلت العديد من حوادث الاضطهاد في صفوف المتنصرين المغاربة الذين صبروا أمام تلك المآسي.

وبتنصر السلطة الرومانية في عهد الإمبراطور "قسطنطين" والتي تنصر معها أصحاب النفوذ و الملاك و المعمرين، و حاولت السلطة الرومانية أن تفرض المذهب الكاثوليكي على الجميع، مما أدى بالمغاربة إلى رفض هذا التوجه من قبل السلطة التي ظلت تضطهد المسيحيين الأوائل، وما يهمنا في هذا المقال هو الوسائل التي انتشرت بواسطتها المسيحية في المنطقة وكيفية انتشارها و العوامل المساعدة على ذلك، أما بالنسبة لرد فعل المغاربة من عملية تنصر السلطة الرومانية فسنتناوله في موضوع آخر إن سنحت الفرصة بذلك.

١ :ظهور وانتشار الديانة المسيحية في أفريقيا الرومانية

ظهرت المسيحية (١) بإقليم الجليل (فلسطين) خلال حكم الإمبراطور تبريوس(*Tiberis*) (٢)، وحملها عيسى الناصري (عليه السلام) داعيا إلى الله وناصحا للخير وجمع حوله بعضا من الأنصار المخلصين، وتدعم هذا الدين الجديد بانضمام العديد من الأتباع وهذا ما أقلق بال القائمين بأمر الإمبراطورية الرومانية مما جعلهم يضطهدون أتباعه ،ولكنهم لم يستطيعوا وقف انتشاره(٣).

وبدأ أصحاب عيسى"الحواريون" بالانتشار في كافة النواحي للدعوة لهذا الدين، لكن العداء للمسيحية كان قويّا من طرف اليهود والوثنيين.

ونظرا لخوف اليهود على دينهم وامتيازاتهم من انتشار المسيحية،تآمروا على قتل عيسى عليه السلام وبحثوا عنه، فدلّهم عليه أحدُ أصحابه وشُبه لهم فقتلوه وصلبوه معتقدين بأنه هو عيسى،وكان لعيسى عليه السلام اثنا عشرة(١٢) حواريا، تفرقوا في النواحي لنشر الدين المسيحي وكتب البعض منهم الإنجيل مما جعل الأناجيل تختلف بالزيادة أو بالنقصان وقد وصل الاختلاف أحيانا إلى درجة التناقض فيما بينها على اعتبار أن الإنجيل لم يُجمع باللغة التي أنزل بها ولا في أيام نزوله [٤].

ذلك أنه كانت تهددهم نفس الأخطار التي تعرض لها عيسى (عليه السلام)، ولكنهم استطاعوا استمالة بعض اليهود اليونانيين إلى عقيد تهم الدينيّة بعدما جاؤوا إلى القدس للاحتفالات الدينية، وبدؤوا بعدها النشاط التبشيري بالمسيحية في العديد من المناطق، ومنهم من انتقل إلى طرطوس حيث يقيم بولس [٥] الذي سوف يكون دعّامة المسيحيّة في المستقبل [٦].

تَقربت المسيحيّة من الطبقات الفقيرة من خلال الدعوّة إلى المساواة والتصدق بالأموال والزهد في ملذات الحياة مما جعل الطبقة الغنية الرومانية التي تدين بالوثنية،تتهم المسيحيين المتصدقين بتبديد الثروّة وتنظر إليهم بعين الشّك والريبة،وخاصة الطبقة التي تحوز مناصب وتسعَى للحفاظ على أمن الدولة وسلامتها و تعتبر أن الوثنية أحد أركان الحكومة ونظامها، وراح هؤلاء يربطون بين آلهتهم وبين مجد الدولة وعظمتها،خاصة وأن المسيحية تدين الوثنيّة ولا تدين بالولاء للحكومة [٧]، وبذلك كثُر أعداءُ المسيحّية من يهود وأصحاب المال والوثنيين والسلطة ليُلاقي أتباعها الاضطهاد إلى درجة أن المسيحيين كانوا يتعرضون للانتقام ويُحمّلون مسؤولية الكوارث التي تقع، بحسب نص لترتليانوس والذي جاء فيه:"إذا فاض نهر التيبر (بروما) على أسوار

المدينة أو جفّ النيل ولم يبلغ الحقول وعزّت السماء عن المطر وإذا زُلزلت الأرض أو حدثت مجاعةٌ أو أنتشر الطاعون تتعالى الصيحات:" **فليُلق بالمسيحيين إلى الأسود**."(*christianos ad leonem*)"،(٨).

ورغم أن روما كانت متسامحةً في المسائل الدينية ما لم تتنافى مع المبادئ الأخلاقية أو تتعارض مع السياسة العامة،فإن المسيحيين كانوا في نظر السلطات الرومانية مواطنين أشرارا وعناصر خطرة في المجتمع نظرا لترفعهم عن ممارسة شعائر الديانة الرسمية،وعدم تقديسهم لصُور الإمبراطور،و لا يشتركون في عبادة"روما المؤلهة "أو "الروح الحارسة " للإمبراطور (٩).

ورغم أن الديانة المسيحيّة كانت قد انتشرت في الكثير من المناطق.إلا أن تاريخ انتشارها ظل مجهولا على الأقل خلال القرنين الأول والثاني لأن الأباطرة كانوا يَتَوجّسُون خيفةً من هذه العقيدة ومن أتباعها الذين كانت تنظر إليهم الحكومةُ كطائفةٍ من اليهود، ومن ثَم استفاد المسيحيون من اتجاه روما لخصومهم من اليهود (١٠)، الذين كانوا يلاحقون المسيحيين منذ البداية مما جعل معظمهم يخرج من فلسطين لنشر تعاليم الدين الجديد ومنهم الرسول بطرس الذي وصل روما سنة ثلاثة وخمسين للميلاد(٥٣ م)، وراح ينشر الديانة الجديدة بين سكانها. وفي سنة أربعة وستين للميلاد(٦٤ م) أحرقت بعض أحياء مدينة روما وأشارت أصابع الاتهام إلى المسيحيين بإحراق المدينة،مما جعل الإمبراطور الروماني "نيرون"(*NIRON*) يصدر مرسوما يقضّي بأن لا يكون أحدٌ مسيحيّا (١١)، وهدد قيصر بالموت كل المتهمين باعتناق المسيحيّة ولكن نيرون يُعتبر أول من عاقب بالسيف الإمبراطوري هذه الديانة حينما ظهرت بروما وبدأ المسيحيون يتعرضون إلى الاضطهاد الديني(١٢).

٢: حركة التنصير وعوامل توغل العقيدة المسيحية في منطقة المغـرب القديم

أ: حركة التنصير في المغرب القديم

إن سلسلة الاضطهادات والمؤامرات التي صاحبت بداية المسيحيّة كان لها الأثر الكبير في تبنّي أسلوب السرية -فيما نرى - وعدم الجهر بالدين الجديد، إلاّ في نطـاق مـن يؤتَمن جَانبهم، ولأن المسيحيّة كانت تقوم على المبادئ التي ترفض عبادة الإمبراطور وتعمل على نشر المحبّة بين الناس وتطبيق قواعد الأخلاق،وترى بأن العبيد والشيوخ والفلاحين والإمبراطور سواسيّةً أمام الله، كما ترفض التمييّز الاجتماعي، فإن المبادئ التي جاءت بها المسيحية قد أدت إلى إثارة أعدائها الـذين اضـطهدوا مُعتنقيهـا [١٣]، الذين أُرغموا فيما يبدو على تبنّي السريّة وبالتالي لم تبق الأدلة الكتابية أو المادية التي تُشير إلى بداية الانتشار المسيحي في المغرب القديم،فيما عدا ما أورده ابن خلدون **من أن علماء النصارى يرون بأن الذي بعث من الحواريين إلى أرض افر يقيا هو فيليب (*St PHILIPPE*)، والى أرض برقة والبربـر سـيمعون القنـاني (*Simon de CANA*)** [١٤]. ويذكر نص لوهاب بن مونابي (٩٦١م -١٠٣٨م) **بأن فيليب قد أرسل إلى القيروان**[١٥]. ويبقى أثر هذين المبشرين في نشر المسيحيّة في المغرب القديم غير معروف، ويذكر بعض مؤرخي النصرانية **بأن فيليب وسـيمعون اسـتقطبا أتباعـا كثيرين** [١٦].

وكان التبشير "الرسولي " في ليبيا وموريطانيا ومن خلال نصين لترتليـانوس حـول انتشار المسيحية بأفريقيا،أنه كان مقبولا ،إذ يشير النص الأول **إلى أن فضيلة" الـرب" قد انتشرت في مختلف الأرجاء، وفي النص الثاني يشير إلى أن عـدد المـؤمنين بالمسيحية قد زاد عند مختلف الفرق الجيتولية وعند قبائل كثيـرة تـسكن تخـوم موريطانيا** [١٧].

وبالرغم من أنه كان يُنظر إلى المسيحي كمجرم مُحمل بكل الجرائم،وشخص خطير ضد الديانة الوثنيّة، وضد الإمبراطور والإمبراطورية [١٨] إلا أنها وصلت إلى الكثير من البقاع. وما يهمنا هوالكيفية والوسائل التي وصلت بها إلى المغرب القديم وذلك في غياب أدلة صريحة فإن الظن يُثار على أنها دخلت عبر الموانئ وخاصة قرطاج وقد تكون قد وجدت لها أنصارا قاموا بنشرها في المنطقة [١٩].

وربما تكون قد دخلت إلى المغرب عن طريق مصر[٢٠]، وبدأت تنتشر شيئا فشيئا داخل المدن وبين الجماهير الرومانية في الداخل، وحسب ترتليانوس،"**فإن المسيحيّة قد انتشرت في الحقول كما في القصور المحصّنة وفي الجزر،حيث ينتشر المسيحيون من الجنسين ومن كل الأعمار**" [٢١].

ومهما يكن من أمر فان المسيحيّة قد انتشرت في المغرب القديم عبر منافذ متعددة، وظلّ تاريخ بدايتها في المنطقة مجهولا نتيجة لسياسة الاضطهاد التي عانت منها، وبدأت مرحلة صراع،قال عنها ترتليانوس:"**لقد سُلَّ السيفُ ضدّنا.**" وذلك بعد ما تم قطع رؤوس اثنا عشرة مسيحيًا،[٢٢] في جويلية ١٨٠ للميلاد في مدينة صغيرة تسمى" شيلي"(*SCILE*) في عهد الإمبراطور" كومودوس"(*COMMODE*) [٢٣].

و"**مُزقَت خواصرُ المسيحيين بأظافر من حديد** "[٢٤].ليزداد الإيمان المسيحي قوة بعدها من منطلق أنه إذا ما تعرض أحد المسيحيين لمعاناة معينة فإن باقي المسيحيين يشعرون بالمعاناة معه [٢٥]. وأظهرت نقوش للشهداء وجدت في قرطاج، وفي "دقّة" (*Dougga*) مع بقايا أثرية بالمعابد الكنسية، وكانت مشوهة كثيرا (من ثلاث وثلاثين قطعة لصفيحة رخامية) ذكرت شهداء قرطاج في ٠٧ مارس ٢٠٣ م، وهي أول نقيشة فيما يبدو تذكر أسماء الشهداء اللذين جهروا بإيمانهم [٢٦].

ويُعد المسيحيون أعداء للإمبراطور ذلك أنهم كانوا يسخرون من آلهته ويحتقرون شخصه [٢٧]، ويظهر من خلال أحداث ٢٠٣م في قرية "طبربة" (*Thuburbo*

Minus) القريبة من قرطاج أن إيمان المسيحيين بعقيدتهم قد زاد عن أي وقت مضى، وذلك بعد توقيف خمسة مسيحيين،من بينهم امرأة غنية لم يتجاوز عمرها (٢٢) سنة، وكانت مُرضّعة لطفل وتسمى"القديسة فيا بربوتيا"(*Via PARPOTIA*)[٢٨]، وسُجن معها شخصان فقيران وعبدان ثم انضم إليهما سادس عن طواعيّة و تم الحكم عليهم في قرطاج برميهم إلى الحيوانات الضارية [٢٩].وكان الجهر بالمسيحيّة يُعد جريمة يعاقب عليها بالتعذيب والحكم على المُتهم دون الرجوع إلى قواعد العدالة ولعل هذا ما جعل أحدهم يصيح:"**أنا مسيحي.**"***(Christianus sum)*** [٣٠].

ومع نهاية القرن الثاني للميلاد كانت المسيحيّة قد انتشرت في أجزاء غير قليلة من البروقنصلية ومن نوميديا [٣١]، ويظهر ذلك من خلال عقد مجمع كنسي عام مائتين وخمسة عشرة (٢١٥م) بقيادة أسقف مدينة قرطاج" أغريبيانوس" (*Agrippinus*)، ضمّ أساقفة من البروقنصلية ونوميديا للنظر في إعادة تعميد الهراطقة الذين عادوا إلى الكنيسة والبحث في الوجهة التي يجب على المجتمع اتخاذها كموقف موحد، و في سنة ٢١٧ م عقد مجمع آخر في نفس المكان وبرئاسة نفس الأسقف [٣٢]. وبحضور سبعين(٧٠) حبرا. رغم القمع الذي باشرته السلطة،والذي دفع بترتليانوس إلي التحدي بقوله:-"**يمكنكم الفتك بقرطاج، إذا أردتم تحطيم كل المسيحيّين.**"[٣٣] كإشارة إلى ازدياد أعدادهم،وازدياد إيمانهم، بحيث إن المؤمنين كانوا يظهرون بسالة لا تقل عن شجاعة الشهداء الذين ماتوا تحت التعذيب في السجن، وبقي أتباعهم أوفياء لهم. لأنهم "**منحوهم تاج الحياة**" [٣٤]

ومهما يكن من أمر فإن المسيحيّة قد انتشرت في المنطقة كعقيدة توحيد بالرغم من تعدد المعبودات[٣٥]. و وجدت استجابة في أوساط الأهالي منذ أواسط القرن الثاني للميلاد،بالرغم من الأذى الذي سبقت الإشارة إليه،وما يلاحظ في حادثة شهداء طبربة الستة أن أثنين منهم كانا من الطبقة الفقيرة واثنين من الرق [٣٦]. وهذا يرجع حسب رأينا أن من دوافع قبول التنصير بين الطبقة البسيطة في المجتمع هو الإحساس

بالخلاص الروحي في هذه العقيدة المُتسمة بالطابع الإنساني،رغم أن المغاربـــة ألِفـــوا العبادة الوثنيّة منذ أمد بعيد.

ب:-عوامل توغل العقيدة المسيحية في الوسط الأفريقي

مما لا شك فيه أن الأوضاع السياسية والاقتصادية والأخلاقية للعـــالم الرومـــاني قـــد ساعدت الدعاية المسيحية على الانتشار و أضحت هذه الديانة متنفـــسا للكثيـــر مـــن الأنفس الراغبة في العدل الاجتماعي والتي تجلت كحقيقة عامة مُطبقة في أفريقيا مثلها مثل باقي الأقاليم،حيث تشكّلت" النوادي" الأولى للتبشير المـــسيحي، وكـــان الوعـــاظ المسيحيون من المتطوعين اللذين قَدِمُوا ليس من الشرق فحسب ولكن من إيطاليا نفسها أيضا، وانتشروا في مختلف مدن البروقنصلية ونوميديا ووصلوا حتـــى موريتانيـــا،في مجموعات مسيحية موجهة من طرف الأسقف [٣٧]. ولعل أسقفية أفريقيا كانـــت قـــد أعطت إشارة أكثر وضوحا للتضامن التام لمجموعـــة تحـــيط بالقـــديس "قبريـــانوس" وأفكاره[٣٨]، إن المسيحية قد انتشرت في أفريقيـــا وتأصـــلت كإيمـــان جديـــد عنـــد الأفارقة،خاصة بعد اضطهاد الأباطرة لمعتنقيها،[٣٩] واستعمالهم للقوة لإسكات صوت هذه الديّانة التي تتنافى تعاليمها مع كبريائهم ،و معاقبة المتمسكين بها إما بالقتل وإمـــا بالسجن [٤٠]. وكانت قسوة التعذيب قد تركت آلاما مبرحة في النفوس، ولكنها تبقـــى قائمة وبأكثر قوة في نفوس المكلفين بالقيام بها، على اعتبار "أن أظـــافر الحديـــد قـــد بالغت في ضرب المؤمنين وتمزيقهم."[٤١]

وهذا ما جعل المؤمـــنين يتمسكون بها أكثرعلى الرغم من ردّة البعض منهم. والـــذين وصـــفهم القديس قبريانوس بقوله:"لقد كان عددهم أكثر من قوة إيمانهم." كدلالة على أن الإيمان لم يكن متأصلا في نفوس كل المسيحيين، وقد يكون البعض من معتنقيهـــا قد وجد فيها ما يستجيب لمتطلباته الاجتماعيـــة والاقتـــصادية. وذلـــك بعـــد حملـــة الإمبراطور "دسيوس" (*DECIUS*) [٤٢] الذي أمر جميع الرعايا في سنة ٢٥٠ للميلاد

بأن يُعلنوا عن وطنيتهم وتمسُكهم بديانة عبادة الأباطرة،إلى جانب آلهة روما، مع التنصلِ من كل العبادات الأخرى وعلى رأسها المسيحية [٤٣].وهذا ما جعل الشواهد المُخلدة للشهداء الذين رفضوا الاستجابة للأوامر الإمبراطورية تنتشر خلال القرن الثاني للميلاد في المغرب القديم،وشهدت الصروح الوثنية نفسها على شجاعة المتعاركين في الصراعات الدمويّة في الساحات. وأطلق الوثنيون صيحة:"**قبريانوس إلى الأسود**"[٤٤]

وفي منتصف القرن الثالث للميلاد (سنة ٢٥٦م) عقد مَجمع كنسيّ في قرطاج شارك فيه ثلاثة وعشرون قسا نوميديا برعاية القديس "قبريانوس" [٤٥]. مما يدل على أن المسيحية قد بدأت تجد أتباعا لها بالمنطقة.

ولنا أن نتساءل عن العوامل التي ساعدت على تغلغلها بين صفوف العديد من المغاربة الذين اعتنقوها.وهل اعتنقها جميع السكان؟.

1:- العامل الاجتماعي

لعل من العوامل الأساسية التي سهلت انتشار المسيحيّة في الوسط الأفريقي هي حالة المجتمع الذي كان يتّسِمُ بالعبودية والظلم والاستبداد والاستغلال الطبقي، مع ازدياد الفجوّة التي تفرق بين طبقات المجتمع. وكانت التعاليم المسيحيّة تُشكل أمل الطبقات الفقيرة في السعادة بحياة أخرى.إذ أنها تجعل الجميع سواسيّة أمام الله، ولا فَضل لأحد على الآخر، فيما عدا فضلُ عمل الخير والتمسك بقواعد الأخلاق. ولعل هذا ما دفع بالفقراء والعبيد لأن يكونوا أولَى المؤمنين بتعاليم هذا الدين[٤٦]. و نلمس ذلك من خلال صفة شهداء نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث للميلاد.

وقد عبر "ترتليانوس" عن دوافع التنصر عند الأفارقة، بعد أن بيّن العلاقة الاجتماعية القائمة على أساس الأخوّة والعلاقة الاقتصادية القائمة على أساس من التضامن بين المسيحيين، قائلا:-"**إنكم (يقصد الوثنيين)، تحطمون الأخوةّ. وإنّنا(يقصد المسيحيين)،**

متحدون فكريا وروحيا ولا نتردد في اقتسام أموالنا مع الآخرين،وكل شيء مشترك بيننا فيما عدا أزواجنــا"(٤٧).وهذا يعني أن الطبقة المسحوقة قد استعادت إنسانيتها بفضل المسيحيّة حسب هذا المؤرخ ولم يحمل المتنصرون ألقاب القبائل التي أقيمت بها تلك المراكز وهذا يدل على أن التمسح لم يكن شاملا. كما دعا قبريانوس الأساقفة إلى ضرورة العناية بالفقراء، لأنهم

حسب قوله:-"**يقاومون بشجاعة إلــى جانبنــا، ولــم يتركــوا المــسيحية، رغــم الاضطهادات."**(٤٨)

ومن المؤكد أن أفراد الطبقات الدنيا وجدت بُغيّتها الروحية وطموحها الاجتماعي فــي هذا الدين(٤٩)، الذي أغرى الأفارقة بان كان يواسيهم في شــقائهم البــدني والروحــي ويعطيهم الأمل في حياة أحسن،فاعتنقوه لأنه يعارض ديانة الإمبراطورية الرسمية(٥٠).

تمركز أغلب الأهالي في المناطق الجبلية والتخوم، بعــد سياســة الرومنــة الــشاملة والسيطرة على الأراضي الخصبة حيث وجدت المراكز المسيحيّة والتي كان الأساقفة يحملون أسماءها ولا يحملون ألقاب القبائل التي أقيمت بها تلك المراكز وهذا يدل على أن التمسّح لم يكن شاملا بل تمسّحت مجموعات تعلمت اللاتينيــة، وأخــذت بالتقاليــد الرومانية(٥١). ونعتقد بأن هذا الرأي لا يمكن تعميمه لوجود منافذ اتــصال مــا بــين المناطق، فسكان المناطق الجبلية كانوا يتصلون عبــر الــسهول المجــاورة وســكان المناطق المتاخمة للصحراء عبر الحواشي التابعة لها، وبذلك ظلّ السكان يتنقلون مــا بين سهول المراعي في الشتاء،ومناطق الأوديّة لزراعة مساحات الحبوب (٥٢). ورغم أن أفريقيا كانت هي آخر المقاطعات الرومانية التي تغلغل إليها الإنجيل، وذلــك مــا أشارت إليه الأدلة الأثرية إلا أن الخاصيّة الأكثر وضوحا، هي أن المــسيحيين مــن الأفارقة دفعهم شقاءهم الروحي والاقتصادي والاجتماعي إلى تقبل الشريعة الجديــدة.

وبُنيّت المعابد الكنسية في المدن الصغيرة، وفي القرى، رغم الاضطهادات المتكـــررة خلال بداية القرن الثاني للميلاد والتي لم تكن لتسمح بالدعاية للدين الجديد.

حيث حَملت النصب الأثرية شهداء في مدينة قرطاج واضطهادات أخرى وقعت عـــام ٢٠٣ للميلاد مما سمح بازدياد حدّة التعاطف مع المضطهدين في العديد من المدن[٥٣].

أما القرن الثالث فقد بدأ بالدعاية للمسيحية في نوميديا،والعداء لوثنية السلطة الرومانية وخاصة عبادة الإمبراطور التي سبقت الإشارة إليها وحملت النُصب المقدمة خلال تلك الفترة رموزا لذلك،ووجدت هذه النصب في الكثير من المناطق ومنها نـــصب حمـــل إهداء من قائد الفرقة الأوغسطية الثالثة إلى الإله "جوبتير" يشكره على المساعدة فـــي نجاح الإمبراطور في الانتصار على السكان المحليين في المعارك التـــي دارت ســـنة ٣٥٣ م في منطقة "أوزيا"، عثر عليه في كويكول يرجع تاريخه إلى سنة ٢٥٥ م. وفي سنة ٢٥٩ قدم قائد الفرقة العسكرية في نوميديا نصبا إلى آلهة النصر[٥٤].

ولعل حالة العداء للسياسة الرومانية قد سمحت بالمقابل بتوغل التعاليم المسيحية عنـــد القبائل الجيتولية و المورية، ويظهر ذلك من خلال مجمع ديني ضم تسعين(٩٠) قـــسا سنة ٢٥٠ م في مدينة" لمبيزي "بالجنوب النوميدي لمحاكمة أحد المبتدعين.

وأثناء حكم "فاليريان" (*Valérien*)[٥٥] تم الحكم على عدد معتبر من رجـــال الـــدين المسيحيين في نوميديا بالأشغال الشاقة في المناجم،و الحكم على عدد آخـــر بـــالموت [٥٦]. وحَملت نقيشة لشهداء سيرتا،عثر عليها داخل كهف بـــوادي الرمـــال، أســـماء لشهداء، وذكرت القديسين ماريـــان(*Marien*) وجـــاك (*Jacques*). والعديـــد مـــن المُضطهدين سنة ٢٥٩ م والذين تم إيقافهم بمزرعة بالقرب من سيرتا بتهمـــة تهديـــد المدينة، كما ذكرت النقيشة كذلك أسماء لأشخاص تم اقتيادهم إلى "لمبيـــزي" وحُكـــم عليهم بالموت حسب ما تذكر الوثائق [٥٧].

والملاحظ أن هؤلاء المضطهدين كانوا من الطبقة الدنيا في المجتمع على اعتبـار أن القانون الروماني لا يحمي هذه الطبقة، و يميز بين نوعين من الناس بناء على المنزلة الاجتماعية، إذ يبيح الحكم بالإعدام بواسطة الرمي للوحوش. [٥٨].

2:-العامل الاقتصادي

كان لسياسة الرومنة وتفكيك البنيّة الاقتصادية للسكان الأثر الكبير في امتصاص إنتاج الفلاحة (زراعة ورعي) وتوجيهه لخدمة الوافدين أو تصريفه باتجاه روما، ومن ثـم جُنّدَ الإنسان والأرض لصالح جمهور المدينة وأصبحت منطقة المغرب القديم مطالبـة بتحمل تزويد النقص الحاصل في روما بما تحتاج إليه من منتجات متعـددة،وذلك مـا أدى إلى تفاقم حدّة البؤس والشقاء،وعُسر العيش على جمهور الأهالي [٥٩].

وبالرغم أن روما كانت تزدهر وتستقر أمنيا إلى حدٍ ما إلا أن النظام الاقتصادي ظـلّ بدائيًا بالنسبة للأهالي بفعل الضعف الشديد والفقر، وركدت التجارة فيما عدا تلك التـي يحتاج إليها الأثرياء [٦٠]. وعمّت مظاهر السخط العام ولم يقتصر ذلك علـى السكان البربر الذين أخرجوا من أراضيهم، بل امتدت إلى الملاكين

الصغار والمتوسطين، وتدهورت الحالة الاقتصادية التي ازدادت صـعوبة. وراجـت تجارة العبيد بأسعار زهيدة وتحول الكثير من الرجال الأحرار إلى أيـدي المحتكـرين الذين عاملوهم كأرقاء مشدودين إلى أرض السيّد المالك، رغم أنهم أحرارا في نظر القانون[٦١] – بموجب دستور ٢١٢ م الذي سبقت الإشارة إليه – ولعل ذلك قد سـاهم فيما نرى في تعلم اللاتينية – لغة الإنجيل – لدى هذه الفئة وتنامي حدّة التذمر خلال فترة السيطرة الرومانية.والتي كانت فيها الأرض تحدد كملكيـات زراعيـة بحـسب النظام السياسي القائم.

وأشارت النصب الأثرية الرومانية إلى قوّة الاستغلال الزراعي للمنطقة.ومنها العثـور على مخزن للحبوب للفرقة العسكرية الثالثة في نوميديا، أثبت بأن القسم الأكبـر مـن

المنطقة كانت تمارس فيه زراعة الزيتون.و عثر الأثريون على شقف جرار للزيت الأفريقي في مناطق متباعدة في الحوض المتوسط مما يدل على تنظيم الاستغلال الزراعي من قبل الملاكين الكبار.وبروز أرستقراطية تُشَغّل طبقة الفلاحين الكادحة مما أدى إلى اتساع الهوّة ما بين الطبقتين[٦٢].

وأشارت الحفريات التي أجريت في مدينة كويكول (جميلة الحالية) على وجود العديد من المطامير لحفظ وتخزين الحبوب.ويرجح أنها كانت توجّه لخدمة الإمبراطور. وأشار نصب إهدائي إلى أن تلك المخازن المحلية قد شيّدت من أجل تأمين المصاريف للمستعمرة، كما وجدت مطامير أخرى من المحتمل أنها مخصصة لتخزبن سلع أخرى مثل الزيت والخمر وذلك لجدرانها الصلبة. وأظهرت نقيشة وجدت في نفس المدينة على واجب تقديم الضريبة السنوية "الأنونا "[٦٣].

وبدأت الملكيات تنتشر في المنطقة على حساب الأهالي، وأشارت النقيشة السابقة إلى سياسة الاستغلال حيث يتم تقسيم أراضي الأعداء –ويقصد الأهالي– على الجنود على شرط أن يُورّثوا الخدمة العسكرية لأبنائهم[٦٤]. وتقوم الحكومة بتزويد المستعمرات بالعتاد الفلاحي وكل ما يحتاج إليه المُعمر من ماشية ومن عبيد .ودفع الأهالي إلى مناطق البور والأراضي المتروكة.

وتكَفّل وكلاء بالأملاك الخاصة واستغلال الأرض وتمدين المستعمرات[٦٥]. وهذه السيّاسة أضرت كثيرا بالأهالي و دفعت الكثير منهم إلى اعتناق المسيحية التي حملت مبادئ الرحمة وعالجت حالتهم المزرية لأنها أولت اهتماما للمقهورين وعملت على التآخي بين الناس وإقامة الصلاة. والتضرع، وكان المسيحي لا يأكل إلا حينما يجوع ويساعد الفقراء [٦٦].

وكانت المنطقة الإفريقية مستودعا حقيقيا لروما لذلك استخدمت كل الوسائل من أجل أن تبقى المنطقة تزود الرومان بحاجتهم من الغذاء. وكانت ثروة السكان تنقل أمام

أعينهم وهم بأمس الحاجة إليها، بل هم الذين يقومون بحملها وشحنها وأغلبهم مهدد بفقدان ما تبقى له من حرية. إذ انتشرت تجارة العبيد و زادت بقوة خلال القرن الثاني للميلاد مما أدى إلى تخريب النظام الاجتماعي للسكان.وكان ذلك في صالح روما وأقلية من الملاك الكبار ومن التجار الإيطاليين،و بعض الملاك المتحالفين مع الرومان، وانهار المستوى المعيشي للأهالي (٦٧).

وفي القرن الثالث للميلاد ازداد عدد الإداريين المكلفين بجبايةّ الضريبة السنوية المعروفة بالأنونا" وساهمت في ازدياد عدد المسيحيين كما ساهمت العلاقات التجارية ما بين مسيحيي روما وقرطاج في ذلك. حيث توحدت الكنيسة(٦٨) .ومن ذلك أحد الأفارقة عُرِضَ أمام الإمبراطور سنة ٢٥٠ م بعد١٩ يوما من السجن والتعذيب لأنه مسيحي.كما أرسل٦٥ سجينا من قرطاج إلى روما.(٦٩) مما يدل على أن أعداد المتنصرين قد زاد خلال القرن الثالث للميلاد على الأقل بالبر وقنصلية.ويكون السكان قد وجدوا طموحاتهم في هذا الدين والذي كان خلاصا لهم من المآسي التي يعانون منها وباعتباره دين توحيد وأخوة كما قال ترتليانوس:" **إننا اخوّة نتعاطف فيما بيننا.**"(٧٠)

٣:- موقف السلطة الزمنية من حركة التنصير

كانت الدولة الرومانية تؤمن بفكرة الولاء العام لدين الدولة،المتمثل في عبادة الإمبراطور كرباط قوي يربط أجزاء إمبراطورية مختلفة الأجناس واللغات والثقافات والديانات المحلية، ولأن المسيحية دين قائم على التوحيد لله الواحد، ويرفض فكرة عبادة الأشخاص وعدم إبراز مظاهر الولاء والطاعة والخنوع للإمبراطور، فإنها صارت تمثل العنصر الغريب في هذا التشكيل الاجتماعي للإمبراطورية، مما جعل الدولة تتخذ إجراءات لاندماج المسيحيين أو استئصالهم. ولأنهم أغلبهم رفض الاندماج، والكثير منهم وجد في المسيحية وسيلة أخرى للمعارضة، مما دفع بالنظام الإمبراطوري إلى اتخاذ إجراءات من أجل ردع هؤلاء لتوحيد الإمبراطورية، وكان

ذلك السبب الأقوى لتعرضهم لمحاولات الاستئصال، ولحركة اضطهادات واسعة كان من نتائجها أن ارتفع عدد الشهداء وبالمقابل ازداد عدد المتنصرين في عالم مُتعطش إلى القوّة الروحية [٧١].

وكانت الاضطهادات متقطعة خلال القرون الثلاث الأولى.ومع بداية القرن الرابع سلطت الدولة الرومانية أقسى أنواع القمع والاضطهاد الذي لم يسبق له مثيل في التاريخ الروماني على المسيحيين، قبل أن تتراجع وتتبنى المسيحية كديانة رسمية للإمبراطورية. ويمكن أن نميّز بين مرحلتين في تعامل السلطة الرومانية تجاه الديانة المسيحيّة، المرحلة الأولى وهي مرحلة العداء منذ ظهور هذه الديانة إلى بداية القرن الرابع للميلاد ويمكن أن نقسمها إلى فترتين هما:-

ا - فترة الاضطهادات المتقطعة منذ حوادث سنة ٦٤م أثناء حكم الإمبراطور نيرون،إلى سنة ٣٠٣م

ب- فترة الاضطهادات العنيفة من ٣٠٣ م إلى ٣١١ م.

أما المرحلة الثانية فهي مرحلة الاحتواء، وتنصّر السلطة وتبنّي المسيحيّة ديانة رسمية للإمبراطورية الرومانية وذلك منذ سنة ٣١١ للميلاد.

وكان لهذه السياسة -العداء ثم الاحتواء- آثارها ونتائجها على كامل الإمبراطورية الرومانية، وعلى مستعمرة المغرب القديم بالخصوص،التي كان لها رد فعل يكاد يكون متميّزا تجاه مرحلتي ردود الفعل الإمبراطوري.

أ:-مرحلة العداء للمسيحية

١- فترة الاضطهاد المتقطع

- تبدأ المرحلة الأولى بالأخص منذ عهد نيرون واضطهاده للمسيحيّين بعد أن حَمّلهم المسؤولية عن الحريق الذي اندلع في روما عام ٦٤ م [٧٢]. لتبدأ بعدها حركة اضطهاد واسعة-كما مرّ بنا - زادت من حدّة العداء بين السلطة والكنيسة.وبخاصة بعد أن نزّع مسيحيو العهد الأول إلى الإيمان باقتراب نهاية العالم، وتطلعهم إلى

يوم القيامة ونزوعهم عن الدنيا ،مما أضرّ بمصالح الوطن الروماني، وخاصة بعد رفضهم للخدمة العسكرية ، ومعارضتهم للحرب وما تخلفه من معاناة للإنسانية ،مع رفض لكل مظاهر التأييد والولاء الذي تطلبه الحكومة كشكل من أشكال الاحتجاج على الطابع الديني الوثنّي الرسمي(٧٣).

وكان المغرب القديم في هذا الإطار العام إذ تعرض مسيحيوه لسلسلة من الاضطهادات خلال القرنين الأول و الثاني للميلاد.وقدم الأفارقة العشرات من الشهداء خلال النصف الثاني من القرن الثاني للميلاد.وبعد الأحداث الدمويُة في بداية حكم "كومودوس"،وبعد إعدامات ١٨٠ م،وضعت المسيحيّة قدما صلبة في المغرب القديم ونجح التبشير المسيحي في استقطاب عدد كبير من الناس أثناء فترة الهدوء التي أعقبت تلك الأحداث (٧٤).من خلال تزايد دعوة المسيحيين إلى الثبات، و بأن يكونوا أوفياء لينالوا تاج الحياة، ووعد كل من يصبر على التعذيب ويثبت على دينه حتى النهاية بالنجاة.(٧٥)

وألّح نص لترتليانوس خلال تلك الفترة إلى أن المسيحيين استغلوا تلك الحوادث لكسب تعاطف الناس معهم ودعوتهم إلى الإيمان حيث قال:-"**إننا نعترف بالله كرب وكخالق لكل شيء... وإننا نتردد باستمرار على ساحاتكم (يقصد ساحات الوثنيين)، وعلى أسواقكم ودكاكينكم وفنادقكم، ومعارضكم ومختلف أماكن التجارة.إننا نسكن معكم في هذا العالم...ونخدم جندكم.ونعمل في الأرض، ونمارس التجارة. ونتبادل معكم منتجات فننا وأعمالنا.فكيف تريدون منا أن نظهر باننا غير مفيدين في أعمالكم؟ إننا نعيش معكم ولكم.**"(٧٦).

وبهذه الروح المتسامحة، ومحاولات إقناع الآخرين بضرورة التعايش، واستغلال الظروف تمكنت الكنيسة في المغرب القديم من جذب أعداد من مختلف الطبقات الاجتماعية من أغنياء وفقراء وعبيد(٧٧)، مما أدى بالسلطة الزمنية إلى تضييّق الخناق على المسيحيّين وأصدرت قانونا في سنة ١٩٧م يمنع إقامة المقابر داخل الأحياء

والمناطق المجاورة لها منعا مطلقا.مما دفع بالمسيحيين إلى إقامة مقــابرهم بجــوار الأضرحة الوثنية وعزلها بواسطة الأسوار و السياج وكانت تعتبر- المقــابر- مثــالا لمشاعر الأخوّة المسيحيّة ما بين الأغنياء والفقراء ،الذين يُــدفنون جنبــا إلــى جنــب وكشّفت الحفريات أن مُعظم الكنائس قامت على أضرحة الشهداء(٧٨).

وبالرغم من الاضطهاد الذي تعرض له المسيحيون، فإن عدد من يؤُم الكنائس، أخــذ يتكاثر خلال القرن الثالث للميلاد، مما جعل الهياكل الوثنيّة تكاد تخلو من الزائــرين ، وتعالت الأصوات مطالبة بدرءِ هذا الخطر الداهم الذي يُهدد الإمبراطورية (٧٩). وقاد الوثنيّون حملة عداء ضد المسيحيّين، ونظرا لتحالف السلطة مــع الوثنيّــة لمحاربــة المسيحيّة فقد ارتد الكثير من أتباعها الذين لم يصمدوا أمام سلسلة الاضطهاد خــلال عهد القديس "قبريانوس"(٨٠)وبالخــصوص بعــد أن أرغــم الإمبراطــور" دســيوس" المســيحيين على تقديم شــــواهد الولاء أمام الجميع، وذهب الــبعض مــنهم إلــى شــراء بطاقات الولاء، وازداد عدد المرتدين(٨١). و أصدر أمرا بأن يقدم جميع سكان الإمبراطورية القرابين للآلهة الوثنّية ومن لا يفعل ذلك يعتبر مسيحيّا ،و قدم الــبعض من المسيحيين ضعاف النفوس للسلطات شهادات مزوّرة بأنهم وثنيــون(٨٢). وكــان أباطرة النصف الثاني من القرن الثالث للميلاد قد استخدموا أقسى وســائل العنــف، والقتل في كثير من الأحيان، بتوجيه تُهما متعددة وكثيرة لحَمل الناس علــى الخــوف والتهويل والردة ومنها: - **الانتساب إلى دين غير مشروع،والانتماء إلى جماعــات سريّة والتآمر على الحاكم ورفض تنفيذ الأوامر** - إذا كان المتهم جنديا - **والتهرب من الواجبات العامة والخاصة**، وغيرها من التهم، أمام أساليب قضائية تَتّسم بالقــسوّة بوجه عام. وبلغت أقصى حدّ في الأمور المسيحية.لأن للقضاة اليد المطلقة في تقــدير العقاب على من تثبت ضده تهمة التآمر على المحاكم.وتخضع الأحكام لمزاج القاضي الشخصي أثناء الحكم لتشديد العقاب أو التخفيف منه (٨٣). واضطر الكثير من المتهمين

إلى إعلان تعلقه بالديّانة الرسمية خوفا من القتل ، وكان البعض منهم يعترف بذلك في الساحات العمومية، وهذا ما أثار مسألة كيفية تعامل الكنيسة مع المرتدين [٨٤].

وهذا مادفع بالقديس "قبريانوس" إلى القول في سنة ٢٥١م:-" **لقد أضاعوا مصدر الحياة وُبشروا بنعمة الماء الحيوي والشافي، إنهم رجال لا يغتسلون وأنجاس، لذلك وجب تعميدهم بمثل التعميد الأول**".[٨٥]

وعقدت لأجل ذلك المجامع الكنسيّة في قرطاج خلال السنوات:-٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥ و٢٥٦م بحضور الكثير من الأساقفة من البروقنصلية ومن نو ميديا ومن موريطانيا- خلال المجمعين الأخيرين- لبحث مسألة التعميد، ومسألة الهراطقة (أهل البدع)،الذين يقصدون الكنيسة من أجل التعميد، أو من أجل الطهارة وبعد مناقشات تم الاتفاق على اعتبار أن التعميد السابق عن الردّة يعتبر لاغيًا، ولا يكون الإيمان إلا بتعميد جديد. وقال "قبريانوس" الذي كان يرأس المجمع:-"**إنني لا أعتقد إلا بوجود تعميد واحد داخل الكنيسة يعبر عن حقيقة الرجاء وعن حقيقة الإيمان**".

وأبلغ قرارات المجمع إلى البابا "إيتيان الأول" (*Etienne I*)[٨٦] الذي رفض هذه القرارات بشأن التعميد لأن كنيسة روما لا ترى ضرورة لإعادة تعميد المرتدين والهراطقة، مما أدى إلى خلاف حاد داخل الكنيسة الكاثوليكيّة ما بين روما و قرطاج[٨٧].

لقد قدمت نوميديا العديد من أبنائها الذين تعرضوا للاضطهاد لتمسكهم بالعقيدة المسيحيّة. ودلّت الآثار التي تنتشر بنوميديا على كثرة عدد المستشهدين من خلال النقوش التي وُجدت في المنطقة والتي ذكرت أسماء الشهداء المحليين من سكان الجيتول في الجنوب [٨٨].

وأظهرت الكثير من الحفريات التي أجريت في الكثير من المناطق في البروقنصليّة ونوميديا أسماء لكثير من الشهداء الذين كانوا ضحايا للسلطة الإمبراطورية، كما عثر

على قوارير بالمذابح يحتمل أنها تحمل دماء الشهداء أثناء عهد القديس "قبريانوس".كما تذكر النقوش التي عثر عليها بمنطقة "ميلاف" بنوميديا اسم شهيدين.الأول وهو قس نوميدي حكم عليه بالعمل الشاق في المناجم عام ٢٥٧ م، والثاني نقش اسمه على شاهدة يتبيّن من اسم أبيه أنه نوميدي [٨٩].

ثم حدثت فترة سلم ما بين الكنيسة والسلطة دامت قرابة الأربعين سنة مكّنت المسيحيين من إعادة تنظيم أمورهم ونشر عقيدتهم. وتمكنت السلطة من الاستفادة من هذه الديانة، بمحاولتها امتصاص العناصر المؤثرة ماديا بإعفاء طبقة الأشراف من واجب عبادة الإمبراطور[٩٠] كما غضّت الطرف عن حريتهم في إقامة شعائرهم ،وإنشاء الكنائس ونشر معتقداتهم [٩١]. وانخرط الكثير من المسيحيين في الجيش، وفي الوظائف العامة دون أي معارضة من طرف الكنيسة ولم يعد المسيحيون كما كانوا في بداية القرنين الأول والثاني لا يعيشون واقع حياتهم و ينتظرون -فقط - يوم القيامة [٩٢].

٢- فترة العداء الشديد

- تغيّرت الأمور أثناء حكم الإمبراطور دقلديانوس(*Diocletianus*)[٩٣]، والذي ألغى فجأة سياسة التسامح التي انتهجها سلفه تجاه المسيحيين بعد أن لاحظ تنامي المسيحيّة وكُثرة أعداد معتنقيها، في المدن وفي مختلف فرق الجيش[٩٤].

وأصدر أمرا إلى الجيش بأن يدين جميع عناصره بالوثنيّة وفرض عبادته على الجميع بلا استثناء.وكان من نتيجة ذلك أن فرّ من صفوف الجيش كل من يدين بالمسيحيّة. ابتداءً من سنة ٢٩٥م سجلت حالة من حالات رفض الخدمة العسكرية المورّثة في مدينة " تفست" - تبسة بالشرق الجزائري- لما صرخ أحد أبناء الجنود القدامى في وجه البروقنصل:" **لا يمكن أن أخدم الجنديّة.لا يمكن أن آتي الشر.إني مسيحي...لا يمكن أن أخدم الجنديّة إني مسيحي لن أكون جنديا..اقطعوا رأسي..إنّي لست جنديّ**

الحكم القائم (النظام)، إنّي من جند الله...لا يمكن أن أكون جنديا في دنيّاكم، كما قلت لكم...إنّني مسيحي." ولم يحتمل البروقنصل ردّه،وأمر بقطع رأسه.

ومن حالات رفض التجنيد أيضا حالة المُجند القديم الذي دخل المسيحيّة في منطقة موريطانيا القيصرية (بحوض الشلف) الذي رفض الجندية وقال لقائد الجيش:-"**إنّي مسيحي، ولا يمكن أن أقاتل تحت قيادتك.**" ليُهلك بضربات السيف. لقد لقي الرافضون للخدمة العسكرية اضطهادات عنيفة، فكثر بذلك عدد الشهداء في مناطق متعددة. (٩٥)

ونعتقد أن المسيحيين قد طبقوا نظرة "ترتليانوس" القائلة:-" **إن المسيحي لا يدخل الجيش ولا يمكن أن يكون جنديا، وإذا اعتنق جندي الدين المسيحي فإن خير ما يمكن أن يفعله هو الفرار.**" (٩٦). وإن كانت هذه الدعوة إلى التمرد على أوامر السلطة الزمنية سابقة في الزمن عن هذه الفترة المتصفة بفرض الوثنيّة في الجيش بعد فترة من الوئام والتعايش. فإنها وبلا شك كان لها دور تحريضي على عصيان السلطة الإمبراطورية الوثنيّة. وتتماشى مع التعاليم المسيحيّة الداعيّة إلى التسامح والتآخي والتخلي عن الأسلحة والرافضة للعنف تحت أي شكل من الأشكال (٩٧).

وكانت الكنيسة المسيحيّة تنظر إلى كل ما هو وثّني وكأنه عميل للشيطان،مع اعتقادها بأنها تمثل مستودعا للحقيقة الإلهية.وترفض فكرة المساواة مع الوثنيّة لأن في ذلك مسبّة لها (٩٨).

ومن الطبيعي أن تقابل السلطة هذا التمرد بشيء من الحزم والشدّة لأنه يهدد هيبّة ورمز قوّة الدولة التي أخضعت الكثير من شعوب العالم القديم للسيطرة على خيّراته. صارت الآن مهددّة من الداخل ومن طرف أبنائها وفي اعتقادي أن غياب الحوار ما بيّن السلطة ورعاياها وسيّادة تأليه الإمبراطور وعدم تنازله عن ذلك. قد أدى إلى حالة الانسداد تلك.

في وقت كانت الدولة مهددّة من طرف أعدائها من الشمال من الجرمان.صارت مهددّة أيضا من طرف مواطنيها الذين يرفضون تأمين الدفاع عنها [٩٩].لأن السلطة أصبحت تنظر إلى المسيحيّة على أنها معول هدم لوحدّة الدولة. وربما سوف تشكل خطرا مستقبليًا بعدما بدأت تنتشر في بلاد فارس التي تعد من أعداء روما التقليديين [١٠٠].

لكن الاضطهاد الأكبر بدأ في ربيع ٣٠٣ للميلاد، بعد أن طلب القيصر "كاليريوس" (*Calerius*)من الإمبراطور إصدار أمر بهذا الشأن واشترط الإمبراطور أن لا تراق فيه الدماء على ما يبدو ولكن بعد حادثة إشعال النيران في القصر الإمبراطوري[١٠١]. ازدادت حدّة الاضطهاد وخصوصا بعد الحريق الثاني الذي اندلع بعد ١٥ يوما من الأول مما يرجح الاعتقاد بأن ذلك كان بفعل فاعل لدفع الإمبراطور إلى الموافقة على تلك القرارات. وحمّل المسيحيين تهمة الحريق.وبدا "دقلديانوس" مرعوبا من أن المسيحية قد وصلت إلى قصره، ولم يستثن أحدا وتبيّن الأخبار أن زوجته "بريسكا"(*Prisca*) وابنتها "فاليريا")*Valeria*) كانتا من أولى ضحايا الاضطهاد، إذ أرغمهما على تقديم القرابين الوثنيّة.لأنهما مسيحيّتان لتبدأ حملة تعذيب مريع[١٠٢].

وأصدر الإمبراطور "دقلديانوس" في ٢٣ فيفري ٣٠٣ م المرسوم الأول الذي أمر بهدم الكنائس المسيحية وإحراق الكتب الدينية،ومنع المسيحيين من الاجتماعات واعتبارهم خارجين عن القانون لا يحق لهم الاستفادة من الدفاع أمام المحاكم [١٠٣] وما يشكله ذلك من خطر على إمبراطورية ديانتها الوثنية.و تلى ذلك مجموعة مراسيم ما بين سنتي ٣٠٣و٣٠٥ م معاديّة للمسيحيّة وتطلق اليد لاضطهاد المسيحيين.

وفي نفس السنة اصدر المرسومين الثاني و الثالث.و أمر المرسوم الثاني بسجن المتهمين بالديانة المسيحيّة. والذين لم يستجيبوا للمرسوم الأول.وأمر المرسوم الثالث بوجوب تقديم القرابين والأضاحي بحسب ما تتطلبه العبادة الوثنيّة الرومانية، ومن

يرفض ذلك يتعرض لتعذيب شديد ولكن ذلك زاد من إصرار الكثيرين علـى ديـنهم لتمتلئ السجون. وتبدأ سلسلة من الإعدامات الرهيبة.

وأمر المرسوم الرابع لسنة ٣٠٤ م بأن يقدم جميع سـكان الإمبراطوريـة القـرابين للإمبراطور (١٠٤).و كان لهذه القرارات الأثر البالغ فـي نفـوس عـدد كبيـر مـن المسيحيّين الذين دفعهم الخوف على أنفسهم من السلطة،أو من أعدائهم المُندسين مـن طرف السلطة إلى إعلان تخليهم عن عقيدتهم، وبالمقابل تمكن الكثير من رجال الـدين من حَمل الكتب المقدسة والحفاظ عليها(١٠٥).

والمهم في هذا الواقع هو نتائج ذلك على المغرب القديم، وكيف تعامل المسيحيون مع هذا الواقع ؟.

وما هي نتائج ذلك في المد ى القريب والبعيد؟

تبيّن المكتشفات الأثرية أن عدد ضحايا تلك الاضطهادات كان كبيرا وبيّنـت النـصب التي عثر عليها في ميلاف بنوميديا أسماء البعض من شهداء نوميديا وهم من مختلف المنـاطق مـنهم،من كالامـا (*Calama*) و"تفـست" و "روسـيكادا".و"مـيلاف" وحتى"ستيفيس"(*Sitifis*). وذكرنصب عثر عليه في" أمود يرة "

(*Ammoedara*) العديد من الشهداء ولكن بأسماء غير واضحة(١٠٦).

وبيّنت نقيشة"ميلاف"تعرض النوميديين للاضطهاد الدقلديانوسي الـذي مـرّ بحـسب النقيشة بمرحلتين.هما:-

-مرحلة التفتيش، ومرحلة تقديم القرابين للآلهة الوثنيّة،خلال الفترة الممتدة من شـهر ماي ٣٠٣ م و٢٠ نوفمبر ٣٠٣ م(١٠٧).

وبالتزامن مع تاريخ نقيشة ميلاف عثر على نصب إهـدائي بماسـكيلا (*Mascula*) "(خنشلة الحالية) "مهدى إلى شهداء مدينة قرطاج "أبتينـا"[١٠٨] بتـاريخ ١٢ فيفـري ٣٠٤م[١٠٩].

ويبيّن لنا ذلك قوّة تلك الاضطهادات وتأثيراتها في توحيد الصف الاجتماعي المسيحيّ، وروح التضامن في المغرب القديم واستمرار التنصر كـشكل مـن أشـكال التـآزر والرفض للسياسة الإمبراطورية. وبالرغم من المطاردات والقمع.فإن سكان المنطقة قد تولّدت لديهم روح التعاطف والتآزر.لأن الكثير من رجال الدين المسيحي،المتمـسكين بعقيدتهم مدينون بحياتهم لبعض رجال الوثنيّة التقليديـة -الرافـضة أيـضا لعبـادة الإمبراطور- والذين تستروا عليهم وحَمـوهُم، كمـا حَمُّـوا كتـبهم المقدسـة مـن الحرق[١١٠].

وفي نوميديا قام بروقنصل المقاطعة " فلوريس" (*Florus*) بتنفيذ أوامر القمع بنوع من المغالاة والقسوة في جوان ٣٠٣م و نفذ أوامر سجن المسيحيين وقـتلهم مـا لـم يقدموا القرابين للإمبراطور، كما هدّم الكنائس المنتشرة في المدن النوميدية و حطّـم أثاثها، وجمع الكتب المقدسة وأحرقها.و لقد قاوم الكثير من رجال الدين بعد أن ذاقـوا العذاب أو الموت. والبعض منهم ارتد وسلم الكتب المقدسة وزخارف القديـسين إلـى الحاكم فنال صفة الخائن(*Traditeur*) [١١١]. وهذا لا يعني فشل سياسة الاضطهاد في حَمل المسيحيين على الردة.

لقد تمكنت سياسة الاضطهاد إلى حدّ بعيد من زرع الرعب في نفوس الكثيرين الـذين لم يستطيعوا المقاوّمة والصمود أمام تلك الظروف و أعلنوا تخلـيهم عـن عقيـدتهم وسلموا الكتب المقدسة إلى السلطات التي أمرت بحرقها،وأدى ذلك إلى خلاف ما بـين المسيحيين أنفسهم في نظرتهم إلى المرتدين والسلطة[١١٢].

واعتبر قسم من المسيحيين أن المرتدين قد حُمِلوا على التظاهر بالكفر واعتبرهم قسم آخر من فئة الخونة المارقة على الدين،ويظهر ذلك من خلال الأحداث اللاحقة، التي تميّزت بالصراع المسيحيّ المسيحيّ.

ومهما يكن من أمر "فدقلديانوس" يظهر أنه كان مدفوعا إلى اتخاذ مثل تلك القرارات(١١٣)، التي لم تحقق غاياتها في القضاء على المسيحيّة. وسوف يكون لها الأثر الكبير في مستقبل الإمبراطورية ككل. وعلى منطقة المغرب القديم خصوصا.التي أراد المسيحيّون الحفاظ فيها على الطابع الاجتماعي الخاص بها.لتبقى إحدى أهم وسائل المقاومة وديانة الطبقة المسحوقة من الناس -رغم أن بعض الأغنياء قد اعتنقوها في المنطقة - إلا أن معاملة السلطة مع مسيحيي المغرب القديم كانت قاسية وعنيفة مقارنة مع تعاملها مع مسيحيي المناطق الأخرى(١١٤)

ب- مرحلة الاحتواء وتنصر السلطة

في ٣٠ أفريل٣١١ م أصدر الإمبراطور "جاليريوس" قرارا بوقف جميع أعمال العنف الممارس ضد المسيحيّين،في الوقت الذي يعاني فيه من مرض شديد ملتمسا من المسيحيّين الصلاة من أجله ومن أجل الإمبراطورية (١١٥). ويعد هذا القرار فاصّل تحوّل في رأينا وانقلابا مفاجئا في تعامل السلطة مع هذه العقيدة وسعيّها لاستقطاب أتباعها بعد أن فشلت القرارات السابقة الذكر في القضاء عليها،وربما أدرك هذا الإمبراطور جدوى هذا الدين.ولكن التحوّل الأكبر في نظرة السلطة إلى المسيحيّة حدّث بعد أزمة العرش (١١٦)، التي كادّت أن تعصف بالإمبراطورية الرومانية واعتراف قسطنطين(١١٧) بالديانة المسيحية أثناء حربه على خصمه "مكسنتيوس" سنة ٣١٢ م، وتروي الدعاية أن "قسطنطين" رأى صليبا على شمس الغروب م[illegible]ا عليه " **بهذا تنتصر**" (*Hoc Vince*) وفي تلك الليلة رأى في منامه المسيح، وأم[illegible] ضُباطه بأن يكون الصليب رايتهم في الحرب.(١١٨). وهذه الحادثة قد تكون م[illegible]ب الدعايّة،

وليحقق توازنا في الإمبراطورية ويَكسِب حمّاسة المسيحيّين إلى صفِه، لأن قسطنطين كان من عُبّاد الشمس ولم يدين بالمسيحيّة إلا في أواخر أيامه.

وبعدما تخلص قسطنطين من خصومه أصدر مع زميله في الحكم "ليكينيوس" *(Licinius)* أغسطس الشرق براءة ميلان *(Milan)* سنة ٣١٣ م،والتي أقرت مبدأ التسامح الديني وأهم ما جاء فيها:-

" نحن الأُغسطين قسطنطين و ليكينيوس:

وبعد تبادل الآراء في ميلانو، أتضح لنا أن مصلحة الدولة تقتضي منّا وَضع تسويّة لبعض المسائل، وخاصة منها تلك المتعلقة بأمور الدين واحترام العبادة. واتفقنا على منح الناس حرية الدين الذي يختارونه، وقررنا،وبمحض إرادتنا حرية الناس في اعتناق الدين المسيحي.ولن نمنع أحدا من ذلك.والجميع أحرارا في متابعة عباداتهم وطقوسهم الخاصة المنتهجة في أمور العبادة،ومتابعة النهج المختار ليرضى عنّا الإله وننال بركته."[١١٩].

وبعد ٣٢٤م وقضى قسطنطين على غريمه "ليكسوس " أصبحت المسيحيّة الديانّة الرسمية للإمبراطورية.ثم الديانة الوحيدة في جميع أرجائها[١٢٠].

ويبدو أن" قسطنطين" بعد الحرب على خصومه الذين نازعوه الملك قد اقتنع بأن مصلحة الدولة تقتضي منه أن يعترف للمسيحيين بحرية عبادتهم، ليزيد من الوعاء الشعبي في صفّه،وهو المُتهم بأنه ذ وشرعية حُكم ناقصة،لأنه اغتصب السلطة،وألغى مرسوم دقلديانوس لسنة ٢٩٣ م.

وأصدر "قسطنطين" بعد ذلك مرسوما استعاد بموجبه المسيحيون كنائسهم وأملاكهم المُصادرة، وتعويض المتضررين من صندوق الدولة[١٢١].

ونقرأ ذلك من رسالة قسطنطين إلى أسقف قرطاج بعد براءة ميلانو والتي جاء فيها :

"أنا قسطنطين أغسطس، إلى أسقف قرطاج ،قَررنا:- أن نُخصص في كل ولايات: "أفريقيا ونوميديا وموريطانيا " منحًا يستفيد منها خُدّام الكنيسة.وأمرتُ مأمور الحسابات في أفريقيا أن يدفع إلى فطنتكم ثلاثة آلاف فلس...ولك أن تطلُب من وكيل أملاكنا -بلا تردد- ما أنت في حاجة إليه، لقد أمرتُ شخصَه أن يُقدم دون تأخير أي مبلغ يطلبُ جَنابكم."(١٢٢).

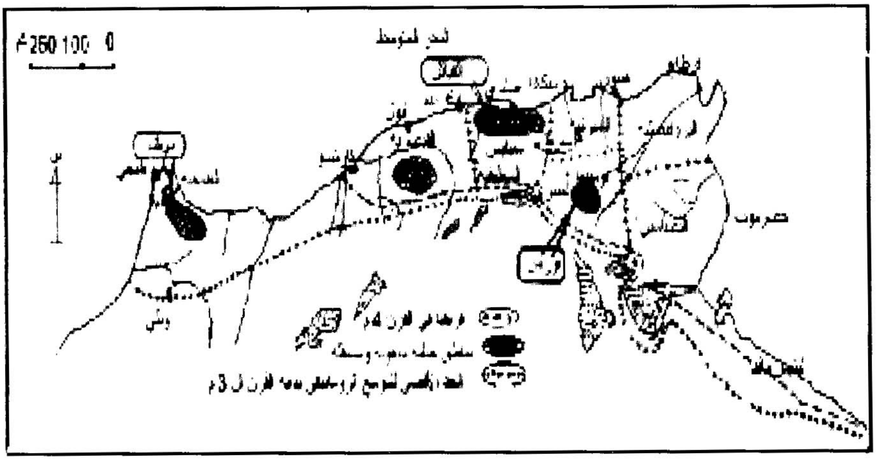
ومن خلال هذه الرسالة يتبيّن لنا بأن الدولة تسعى لأجل استمالة المسيحيّين في هذه المنطقة،والعمل من أجل استغلال المنطقة في الوقت الذي كانت فيه الإمبراطورية بحاجة إلى المزيد من الرجال ومن المنتجات.

ففي حرب "قسطنطين "على خصومه تم تجنيد قُرابة الأربعين ألف(٤٠,٠٠٠) مجندٍ في صفوف الفرسان من مختلف مقاطعات المغرب القديم و ألغى" قسطنطين" ضريبة إنتاج القمح والزيتون على المزارعين (١٢٣)، ليتزايد الإنتاج لتموين روما باحتياجاتها.

وفي تطور لاحق أصدر قرارات تمثلت في حرية المعتقد المسيحي كما الوثنّي والهدف من ذلك حمايّة الوثنيّين من أي انتقام أو عنف قد يتعرضون له على يد المسيحيّين.والخطوّة الأكثر أهمية تمثلت في تقديم المساعدات المالية والماديّة لبناء الكنائس.ومنح الأساقفة سلطات قضائية إذ أجاز لأي من طرفي الخصومة تحويل قضيّته من المحاكم المدنية إلى المحاكم الدينية،وأعطى الأساقفة صلاحيات قضائية واسعة،لأن أحكام الأسقف تعد نهائية وغير قابلة للاستئناف.كما سعى إلى ترتيب العلاقات الأسرية من خلال تحديد حالات الطلاق، ومنع الآباء من معاملة الأبناء بقسوّة،ومنع الإساءة إلى العبيد (١٢٤).

وبقراءتنا لمحتوى هذه القرارات نجد الإمبراطور قد أعطى للكنيسة سلطةً مدنية وقضائية،وزاوّج ما بين السلطتين السياسية والدينية،وحَمّل الكنيسة مسؤولية مدنيةً لتتفرغ السلطة للمسائل الأكثر أهمية في بناء الدولة.

وربط الدين بالسياسة ومن ثمة سهولة مراقبة النشاطات الدينية وتوجيهها. ومن جانب آخر شَكّلت هذه القرارات إغراءً للطبقة الغنية من الملاكين وأصحاب النفوذ لاعتناق المسيحيّة بهدف التقرب من السلطة والحفاظ على المراكز، والاستفادة من الوضع الجديد.وسوف ينجر عن ذلك آثار على الطبقات الاجتماعية التي كانت تعتقد بالدين لأجله لا من أجل السلطة أو الامتيازات وبالخصوص الطبقة المحرومة التي كانت تجد في المسيحيّة المتنفس والملاذ. ويتولّد عن ذلك آثار على شعوب مستعمرات الإمبراطورية- كما سنرى- والتي ظلّت تعاني من قسوّة واضطهاد الأباطرة على مدار ثلاث قرون من الزمن تقريبا.



[illegible]

الهوامش

1 المسيحية: – هي التعاليم الدينية التي جاء بها السيد المسيح "عيسى بن مريم" عليه السلام، وكان مُبشرا برسالته الدينية التي أ مره بها الله، وظهرت رسالته في فلسطين التي كانت ولاية رومانية في زمانه،وتوفي " عليه السلام" في الثلاثة والثلاثين من عمره، اتخذت ولادته فيما بعد بداية للتاريخ الميلادي، وتابع رسله وتلامذته (١٢ رسولا و٧٢ تلميذا) نشر رسالته في فلسطين ثم في أنحاء الإمبراطورية فيما بعد لما روي عنه:"أذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها،" للمزيد من المعلومات أنظر:– نعيم (فرح)، تاريخ بيزنطة،ج.١،(ق ٤ –٨ م)، مطبعة طربين، دمشق،١٩٨٤،ص، ١٠.

2 تبريوس (*Tiberius Claudius NERO*) ولد بروما في حدود ٤٢ق. م،وهو ابن تيبريوس كلاوديوس، قبل أن يتبناه زوج أمه "أغسطس"و يجعله خليفة له ، عرفت الإمبراطورية أثناء فترة حكمه نوعا من الاستقرار وأصبح بعدسنة ٢٧ م إمبراطورا دمويًا وامتدت فترة حكمه من سنة ١٤م. إلى سنة٣٧ م.للمزيد من المعلومات أنظر:–
ENCYCLOPEDIEGenerale,Larousse,T.1,libraire,Larousse,Paris,1967 p.p .228-230.

3 جنيبر(شارل)، **المسيحية، نشأتها وتطورها**، ترجمة محمود عبد الحليم، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، بلا.تا، ص.ص.٢٢ –٢٣

4 محمد(بن مبارك الميلي)، **تاريخ الجزائر القديم و الحديث**،ج.١،مطابع بدران، بيروت،١٩٦٣،ص.٢١٧

5 بولس (القديس)، من أسرة يهودية كانت تقيم في مدينة طرطوس وهي مدينة نشطة تمثل حلقة وصل بين هضبة آسيا الصغرى وبلاد الشام ومفترق للطرق التجارية الهامة، ازدهرت بها المدارس اليونانية والدراسات الفلسفية والتي عاش القديس

بولس (القديس) شبابه في كنفها وكان يتقن اليونانية وورث عن أبيه لقب المواطن الروماني ، وحمل عداء عنيفا للمسيحيين ثم ناصرهم بعد أزمة نفسية فيما يبدو. للمزيد من المعلومات أنظر:-

- جينيير(شارل)، المرجع السابق،ص.ص.٦٨-٦٩.

6 نفسه، ص.ص.٦٤-٦٥

7عبد الحميد(رأفت)، **الدولة والكنيسة**، ج،١، كلية الآداب عين شمس،القاهرة،بلا.تا.ص.٢٧.

8 TERTULLIEN, Apologétique ,établi et traduit par WALTZING(Jean Pierre) , Coll. < les belles lettre> , Paris,1938,XL، -٢،٨٦.

9 - هـ. ادرس(بل)،**مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربي**، عربه و أضاف إليه، عبد اللطيف أحمد علي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٣ ،ص.١٢٨.

10 - الباز(العريني)، **تاريخ أوربا في العصور الوسطى**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٨،ص.٦٩.

11 نعيم(فرح)، المرجع السابق ،ص.١٠.

12 -TURTULLIAN,V,3;4,13.

13 نعيم(فرح)،المرجع السابق، ص. ص. ١٠-١١.

14 شنيتي(محمد البشير)، **التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤،ص.٢٦٦

15 MESNAGE, (J,P),le Christianisme en Afrique, (origines , Développements , extension) Alger- Paris, 1914, p 30.

16 شنيتي(محمد البشير)، المرجع السابق، ص.ص.٢٦٦-٢٧٦

17 MESNAGE,(J.P.) ,op-cit., p.p.36-37.

18 TERTULLIEN,V,2,13

19 جوليان(شارل أندري)، **تاريخ أفريقيا الشمالية** (تونس، الجزائر، المغرب الأقصى)،من الفتح الإسلامي إلى ٦٤٧ م،تعريب البشير بن سلامة و محمد مزالي، ط.٤، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٣، ص. ٢٥٥.

20 عبد الحميد (سعد زغلول)،،**تاريخ المغرب العربي**،ج.١، منشأة المعارف،الإسكندرية،١٩٩٥،ص.١١٧.

21 TERTULLIEN ,I,3,2.

22 –شهداء شيلي منهم سبع نساء وخمسة رجال،والذين حكم عليهم القنصل سايورنوس (*Saiurninus*)،وكان أغلبهم من أصول بونيّة وليسوا من اللاتينيين مثلما أشارت إلى ذلك أسماءهم. للمزيد من المعلومات،أنظر:-

-VAULTRIN,<Les Basiliques chrétiennes de Carthage >R.AFR,N°,74,1933 p.140 ;

23 –الإمبراطور"كومودوس" ورث العرش عن أبيه " مارك أورال " (*Marc Aurèle*، الذي تميز بالشجاعة والقوة، امتد حكم "كومودوس" ما بين سنتي (١٨٠م-١٩٢ م)،وتميز بالخلاعة وفساد الأخلاق، وهدم مجد والده ومارس حملة اغتيالات واسعة،مستعينا بمعاونين غير مؤهلين،تعرضت في عهده الخزينة للسلب، وانتشرت المؤامرات، والتي قمع عدد منها، وكذا الأزمات الاقتصادية والدينية، لمزيد من المعلومات أنظر:- Encyclopédie Générale, Larousse,T.1,p.p.147-149.

24 TERTULLIEN,XII,4,31.

25 Cyprien(Saint),correspondance, T.1 ,traduit ,le Chanoine Bayard, «les belles lettres »,Paris,
1945 ,lettre, XVII,1,49.

26 VAULTRIN,op.cit. ,p.264.

27 BERTHIER,les vestiges du christianisme Antique dans la Numidie centrale ,Alger,1944, p.37.

28 تروي بربوتيا قصة استجوابها التي رويت عنها فيما بعد قائلة:-"وما إن وصـلنا إلى السوق العامة (*FORUM*) حتى أنتشر الخبر في الأحياء المتاخمة،واحتـشدت جموع غفيرة من الناس صَعدنا إلى المحكمة،وهناك تم استجوابنا ولما جـاء دوري أطّل والدي ومعه ابني،وجذبني من حَضرة المتهمين وقال لـي:"ارحمـي ولـدك الرضيع"،وقال لي وكيل الإمبراطـور فـي الولايـة والـذي لـه سـلطة العفـو والإعدام:"ارحمي أباك الذي خطّ الشيب رأسه، ارحمي ولـدك الرضـيع وقـدمي القرابين من أجل سلامة الأباطرة"، فأجبته:" أنا مسيحية"،وعنـدما هـمّ والـدي أن يسحبني أمر الوكيل بجره إلى أسفل وضربه بعصا،وقد حز في نفسي ما لحق بأبي من أذى كما لو كنت أنا،وغمرني الأسَى على شيخوختِه التعِسة،ثم قـضى وكيـل الإمبراطور بإدانة الجميع،وحكم برميّنا طُعمة إلى السباع.ونزلنا الطريق مبتهجين." لمزيد من المعلومات أنظر:- هـ ادرس بل،المرجع السابق،ص.١٢٩،حاشية،٢.

29 جوليان(شارل أندري)، المرجع السابق، ص. ٢٥٧.

30 TERTULLIEN,XI,9,6

31 جوليان(شارل أندري)، المرجع السابق، ص. ٢٥٥

32 LARTHAGE(E.Thepenier) , « Romaine Chrétienne, Vandale et Byzantine », R. S.A.C. Vol.12,1923-1924.p,109.

33 DICTIONNAIRE de Conciles, rédigé par M.L abbé ad.-CH.Peltier , Catholiques, Paris, 1847, p.460.

34 Cyprien(Saint) ,lettre ;XII,2 ;3,34

35 GSEEL,(Stéphane) ,L ‘Algérie dans l’antiquité, imprimerie, libraire éditeur ,Alger,1903. p.91

36 شنيتي(محمد البشير)،"حول الدوناتية وثورة الريفيين بنوميديا خلال القرن أل ٤ م "، مجلـة الأصـالة، العـدد،٦٠-٦١، وزارة الأوقـاف والـشؤون الدينيـة، الجزائر،١٩٧٨، ص.٢٥.

37 ALBERTINI(Eugène),l' Afrique romaine, impremerie officielle, Alger,1950 p. 106
38 AUDOLLENT (Auguste),Carthage romaine (146 av. JC_698 JC) , édit ,A.fonctionnel , Paris ,1901, p, 505.
39 BERTHIER(André), op-cit. ,p.99
40 الميلي(محمد بن مبارك)،المرجع السابق، ص. ٢٢٠.
41 Cyprien(Saint)، lettre؛ X,1٣،٢٤؛
42 دسيوس إمبراطور روماني، ولد سنة ٢٠١ م وتولى العرش الإمبراطوري فيما بين سنتي (٢٤٨-٢٥١ م)، بدعم من الجيش الروماني، أقر الإصلاح الديني للوثنية واضطهد المسيحيين، لمزيد من المعلومات أنظر:- Nouveau Larousse Universel,T.1,p.460.
43 عبد الحميد (سعد زغلول)، المرجع السابق،ص. ١١٧.
44 VAULTRIN,op-cit. ,p.201.
45 MESNAGE,op-cit. ,p.114.
46 كرم (يوسف)، **تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط**،دار العلم، بيروت، بلا تا، ص.ص. ١٠-١١.
47 TERTULLIEN,XXXIX,10 ;11,83.
48 Cyprien(Saint) ,lettre ;XII,2 ,35.
49 شنيتي(محمد البشير)، **التغيرات الاقتصادية والاجتماعية**...ص.٢٦٨.
50 بيرنان(أندري) وآخرون، الجزائر بين الماضي والحاضر،ترجمة رابح اسطنبولي و آخر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،١٩٨٤، ص. ٨١
51 الميلي (محمد بن مبارك)، **الجزائر في ضوء التاريخ**،دار البعث، قسنطينة، ١٩٨٠، ص. ١٥٠
52 DESPOIS (Jean), < la Bordure daharienne de l'Agérie Orientale>,R.AFR.N° 390-391, p. 201.
53 RAGOT (w.),«le Sahara de la Provence de Constantine », R.S.A.C,17eme VOL.,1875_ 1876, N°60, 1919,p.380

54 -STANISLAS(Millot),«l'insurrection de253,daprès une inscription de Milliana»,R.AFR , N°60, 1919,p.380

55 فاليران(*Valérien*)، إمبراطور روماني (٢٥٣-٢٥٩م)، خلف والده في الغــرب، اضطهد المسيحيين، وصادر أموال الأغنياء، أُسر من قبل ملك الفرس وتوفى فـــي أسره، لمزيد من المعلومات أنظر:-Nouveau Larousse Universel,T.2,p.799.

56 GSEEL,(St.) , op-cit., p. 91.

57 Id, « Observation sur l'inscription des Martyrs de Constantine » , R.S.A.C, N°, 09,1895-1896,p.p.212, 213

58 شنيتي(محمد البشير)، **التغيرات الاقتصادية والاجتماعيـــة**...ص. ص. ٢٧٠-٢٧١.

59 نفـــسه،"حـــول الدوناتيـــة وثـــورة الـــريفيين بنوميـــذيا خـــلا ل القـــرن أل ٤ م"...ص.ص.٢٦.-٢٧.

60 جوليان(شارل أندري)،المرجع السابق،ص.٢٧١.

61 برينان(أندري)،المرجع السابق،ص.٨٠.

62 GAUTIER (E.F.),le passé de l'Afrique du nord ,Payot, Paris ,Lyon, 1942, p.p.258-259.

64 YVONNE Allais,<les Greniers publics de Djemila(Cuicul)>,R. AFR,N°,74,1933, p.p ٢٦٧-٢٦٦

65 Albertini ;Harcais(G.),l'Afrique de Nord Française dans l'histoire ,Paris-Lyon,1937,p.111

66 -CORCOPINO Jérôme, « les Castella » de la plaine de Sétif d'après une inscription Latine », R.AF.,N°,59,1918, p.17

67 TERTULLIEN,XXXIX.,16؛ ١٧ ؛ ١٨ ؛ ١٩ ؛ ٢٠ ؛ ٢١،

68 -قداش(محفوظ)، **الجزائر في العصور القديمة** ترجمة صالح عيـــاد، المؤســـسة الوطنية للكتابة، الجزائر،١٩٩٣، ص.١٧٠.

69 الكنيسة لفظ مأخوذ من الكلمة اليونانية(إكليزيا) والتي تعني مجلس الجماعة، وهي مكان العبادة عند المسيحيين، كما تطلق على جماعة من المؤمنين بالدين المسيحي.ويوجه الكنيسة أسقف منتخب من المؤمنين بالمسيحية .وبمرور الزمن حدثت تقسيمات جديدة من رئيس الأساقفة والأسقف ثم البطريك كما يخدم الكنيسة كهنة وشمامسة.للمزيد من المعلومات أنظر: فرح(نعيم)،المرجع السابق، ص. ٩٤.

70 MESNAGE (P.J.),op-cit., p. p.104-105.

71 TERTULLIEN,XXXIX.,٨٢،٨٣ ؛ ٨ ؛

72 هـ ادرس بل، المرجع السابق، ص.ص.١٥٨،١٥٩.

73 ديورانت (وول)، المرجع السابق، ص.١٧٧.

74 جينيبر(شارل)، المرجع السابق،ص.١٦٦

75 -LEBRETON (J.) et autre ,histoire de l'Eglise , T.2 , bland et GAY, Paris, 1948,p.136.

96 -Cyprien(Saint) ,lettre ;XIV,2 ,41.

77-TERTULLIEN,XI,2 ,3 ,4,60.

78 -LE BRETON (J.) ,op-cit 1948 ,p.137.

79 -VAULTRIN,op-cit.,p.201.

80 نعيم (فرح)،المرجع السابق، ص.١٢.

81 -DUNAN (Marcel), et Autres, histoire Universelle,T.1,Libraire Larousse,Paris,1960, p. 158

82 جوليان(شارل أندري)، المرجع السابق، ص.ص.٢٨٢-٢٨٤.

83 هـ ايدرس بل، المرجع السابق، ص.١٣٠.

84 جنيبير(شارل)، المرجع السابق، ص.ص.١٦٩-١٧٠.

85 شنيتي(محمد البشير)، **التغيرات الاقتصادية والاجتماعية**...ص.٢٧٥

86 Cyprien(Saint) ,lettre, LXXI,3.

87- البابا إيتيان الأول، ترأس البابوية ما بين سنتي ٢٣٥-٢٣٧ م، طرحت أثناء بابويته مسألة صحة التعميد من قبل المبتدعة، لمزيد من المعلومات أنظر:-- Dic. Unv. De hist. ,géo., p.584.

88 Dict. de Con. ،p.p. 261- ٢٦٨

89 -MESNAGE, op-cit. ,p.114.

90 Monceaux (Paul),enquête sur l'épigraphie chrétienne d'Afrique, imprimerie retend ,Paris, 1897.p.51

91 شنيتي (محمد البشير)، **التغيرات الاقتصادية والاجتماعية**...ص.٢٧٥.

92 جوليان(شارل أندري)، المرجع السابق،ص.٢٨٦.

93 جنيبير(شارل)، المرجع السابق، ص.١٧١.

94 دقلديانوس(*Caius Aurelius Dioclétianus*)ولد في حوالي ٢٤٥ م،وفي خريف ٢٨٤ للميلاد خلف الإمبراطور كارينوس(*Carnus*).ودقلديانوس من أسرة قليلة الحال،تميز بأنه جندي متزن ومُخيف،وسياسي واسع الأفق،وخصب التفكير قادر على الإبداع،ألقيت على عاتقه إنقاذ الإمبراطورية من الانحلال فقام بإصلاحات شاملة ونظم الإدارة وأصلح النقد والاقتصاد، وارتبطت فترة حكمه بالاضطهادات التي تعرض لها المسيحيون، واستعان بزميل له وهو ماكسيميان (*Maximianus*) وجعله إمبراطورا شريكا معه في الحكم،وعين مساعدين لهما برتبة قيصر وهما:- جاليروس (*Calerus*)في الشرق، وقسطنطينيوس (*Constantinus*) في الغرب،أصابه مرض خطير وتنازل عن العرش عام ٣٠٥للميلادوتوفي عام ٣١٣م.للمزيد من المعلومات أنظر:-

هسي (ج.هـ)،العالم البيزنطي،ترجمة وتعليق،عبد الحميد رائف،عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة،١٩٩٧، ص.٨٠؛ هـ ادرس بل، المرجع السابق، ص.ص. ١٤٧-١٤٨؛- DUNAN(Marcel), op-cit.,p.p.157-158.

95 -MERMEUX, histoire romaine ,Arthene Fayard et Cie éditeurs ,Paris , 1930 , p.639.

96 -Albertini ;Harcais(G.),op-cit.,p.110.

97 جوليان (شارل أندي)، المرجع السابق، ص.ص.٢٨٧-٢٨٨.

98 شنيتي(محمد البشير)، **التغيرات الاقتصادية والاجتماعية**...ص.٢٧٧.

99 جنيبير(شارل)، المرجع السابق، ص.١٧٣.

100-LATOUCHE (R),les grandes invasions et la crise de l'occident au V° siècle, Aubier ,
éditeurs ,Montaigne, Paris, 1946,p.63.

101 فرح(نعيم)،المرجع السابق،،ص.١٣.

102 هــ ادرس بل، المرجع السابق، ص.١٥٨.

LE BRETON (J.) ,op-cit.,p..464 103

104 فرح (نعيم)،المرجع السابق،ص.١٣؛ الميلي(مبارك)،الجزائر فــي ضــوء التاريخ...ص.١٦٠.

105 -LE BRETON (J), op-cit.,p.465-466.

106 -AUDOLLENT(Auguste),Carthage romaine (146 JC-698 JC),edit.A.fontiè moing,Paris, 1901,p.507

107LE BRETON (J.),op-cit.,p.467.

108-MONCEAUX (Paul), op-cit.,p.105.

109 أبتينا، قرية قريبة من مقر البروقنصلية امتنع الكثير من أهاليها عــن الاســتجابة لأوامر السلطات الداعية إلى تسليم الكتب المقدســة والالتــزام بالديانــة الوثنيــة، وفضلوا العقاب الشديد على التعامل مع السلطة، التي قتلت منهم ١٩ امــرأة و٩٠ رجال و ٥٠أطفال، وقد مات هؤلاء تحت التعذيب في السجن واعتبــروا شــهداء عقيدة.لمزيد من المعلومات أنظر:-

-MARTROYe(F.), « une tentative de révolution sociale en Afrique. Donatiste et circoncell-ions. » ,R.Q.H.,T.32,1904,p.365.

110 LESCHI(Louis), «Basilique et Cimetière Donatistes de Numidie(Ain Ghorab)»,R.AFR, N°,77,1936,p.34.

111 WELTER (G.), histoire des sectes chrétiennes (des origines a-nous jours), Payot, Paris,
1950,p.67.

112 RAGOT (w), op-cit., p.232.

113 GSEEL, (St.) ,L 'Algérie dans l'antiqutie … p. 113.

114 يذهب المؤرخ هـ.ادرس بل إلى عدم تحميل المسئولية كاملة على دقلديانوس، ويحمل جزءا كبيرا منها إلى القيصر جاليريوس، الذي يكون قد أوعز بذلك إلى الإمبراطور ليصدر أوامره، واشترط الإمبراطور عدم إراقة الدماء قبل حادثة حرق القصر الإمبراطوري ، وأن قرار فرض عقوبة الإعدام قد فرضه القيصر مستغلا إصابة الإمبراطور بمرض خطير والذي يكون غير راض عن تلك السياسة فتنازل عن العرش سنة ٣٠٥للمبلاد.للمزيد من المعلومات أنظر:– هـ آدرس بل، المرجع السابق، ص. ١٥٨.

115 شنيتي(محمد البشير)، "حول الدوناتية وثورة الريفيين بنوميديا خلال القرن ال ٤ م"...ص.٢٨.

116 هـ ادرس بل،المرجع السابق، ص.١٦٠.

117 في سنة ٣٠٥ م استقال الإمبراطوران دقلديانوس ومكسميانوس (*Maximianus*) فآل العرش من بعدهما إلى القيصرين المساعدين بموجب مرسوم ٢٩٣ م.وهما جاليريوس في الشرق وكونستانيوس كلوروس (*Constanius Clorus*) في الغرب وعينّا قيصرين مساعدين وفق المرسوم السابق الذي يعطي الحق للقيصر بأن يتولّى العرش في حال استقالة الإمبراطور أو وفاته،وفي سنة ٣٠٦ توفي إمبراطور الغرب كونستانيوس في بريطانيا، وفي هذه الحالة فإن العرش يؤول إلى مساعده القيصر فلافيوس سويريوس (*Flavius Soirius*). لكن قسطنطين ابن الإمبراطور كونستانيوس أعلن نفسه قيصرا على إسبانيا وغاليا وبريطانيا بدون تعيين من أحد مما أدى إلى أزمة سلطة.واضطرابات واغتيالات ليؤول العرش بعد ذلك إلى قسطنطين وليكينيوس (*Licinius*) سنة ٣١١م، ثم نشأ خلاف بينهما عام ٣٢٣م انتصر فيه قسطنطين وأمر بقتل غريمه،وأعلن نفسه حاكما فردا.للمزيد من المعلومات أنظر:–فرح(نعيم)، المرجع السابق، ص. ٩؛

-DUNAN Marcel) ,op-cit.,p.158.

١١٨ قسطنطين الأكبر (٢٧٤-٣٣٧م) ابن كوستونتينوس كلوريس،استولى على الإمبراطورية كاملة (٣٠٦-٣٢٤م)كرس مبادئ التسامح مع المسيحيّة وكان له دور بارز في عقد مجمع آرل سنة٣١٣ م، انتصر على جميع خصومه، وأحدث توازنا للإمبراطورية، أسس القسطنطينية ثم أبقى على روما داخل الإمبراطورية البيزنطيّة إلى غاية القرن الخامس عشر للميلاد.للمزيد من المعلومات أنظر:-

-Dict.Unv. de hist. Et géo.p.p.415-416.

119 فرح (نعيم)،المرجع السابق،ص.١٤.

120 هـ آيدرس بل، المرجع السابق، ص. ١٦١.

121 -MERMEUX,op-cit.,p.716.

122 DUNAN(Marcel) ,op-cit.,p.159.

123 بورج (ج. دي)، تراث العالم القديم،ترجمة، سوس زكي، دار النهضة المصرية، القاهرة،١٩٦٥،ص.٢٣٣.

124 RAGOT (w.), op-cit., p.p. 228-229

125 فرح (نعيم)،المرجع السابق،ص.١٧.

المنجزات العربية في مجال هندسة الري وأثرها في ازدهار الزراعة وظهور بعض المدن في العصور الوسطى

الدكتور علي أحمد
قسم التاريخ
جامعة دمشق

ارتبط الاهتمام العربي بهندسة الري والسقاية في العصور الوسطى، بالحاجة الماسة إلى المياه في مجال الشرب والنظافة وتطوير الزراعة وازدهارها، وذلك لأن الزراعة في العصور الوسطى،كانت تشكل مصدراً هاماً من مصادر الاقتصاد العام في الدولة العربية، ثم تليها الصناعة والتجارة ففي المناطق التي توجد فيها انهار دائمة الجريان،عمل المهندسون العرب على شق ترع أو فروع من هذه الأنهار،لإيصال الماء إلى أكبر مساحة من الأرض القابلة للزراعة والمؤهلة للإنتاج الوفير وهذا ما حدث في العراق على ضفاف دجلة والفرات، وفي مصر والسودان على طول مجرى نهر النيل، وعلى نطاق أضيق في مناطق عربية أخرى كبلاد الشام والمغرب الأقصى.

أما في المناطق التي لا توجد فيها انهار ولا عيون، وكان من الضروري الإقامة بها لموقعها الاستراتيجي الهام، فقد نجح المهندسون العرب بشكل لافت في التغلب على

مشكلة الحاجة إلى الماء، فاستطاعوا بجدارة إيصالها إلى كل هذه المناطق عبر تقانة هندسية متقدمة، قلّ نظيرها عند كثير من الأمم والشعوب في العصور الوسطى،وهذا ما أدى إلى ازدهار مناطق ومدن في مشرق الوطن العربي ومغربه، ومازالت متألقة حتى يوم الناس هذا، وهو ما سنفصل فيه في الصفحات الآتية.

ففي العصر الأموي،اهتم الخلفاء والولاة الأمويون بالمسألة الزراعية اهتماما بالغاً،مما جعلهم يهتمون بتقانة الري والسقاية،لذلك فقد أحدثوا العديد من المشاريع الإنشائية الهامة في مجال الري والسقاية، مثال ذلك أن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، أمر بحفر قناة تتفرع من نهر بردى في منطقة الربوة بغرب مدينة دمشق، سميت بنهر يزيد أو قناة يزيد، وسمي يزيد بن معاوية تبعاً لهذه القناة بمهندس بني أمية(١).

كذلك فقد ركّز الوليد بن عبد الملك على العناية الفائقة بتطوير وصيانة وسائل الري في ولاية العراق، التي كانت تمثل أهم المناطق الزراعية في الدولة الأموية، وذلك لتوفر المياه بصورة مستمرة وكافية لقيام زراعة متطورة، من أهم نهرين في المنطقة العربية وهما دجلة والفرات. وقد أدت هذه العناية بوسائل الري، إلى زيادة في الإنتاج الزراعي بصورة عامة، انعكست إيجاباً على الوضع الاقتصادي العام في الدولة الأموية، الذي كان في أحسن حالاته في عصر الوليد بن عبد الملك. ومن أهم الوسائل المتطورة في مجال الري في العراق وفي مصر أيضاً، هو شق العديد من الأقنية المائية، التي عرفت بالعراق (النواظم)، ذلك لأنها نظمت توزيع المياه في سهول العراق الفسيحة. واشتهر هذا الأمر بشكل خاص في ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي على العراق، فقد أنجزت عملية حفر بعض الأنهار الصغيرة في المنطقة المحصورة بين مدينتي البصرة والكوفة، كان من هذه الأنهار نهر النيل، ونهر الزابي، ونهر الصين. كما أجريت عمليات تجفيف لمناطق مستنقعية في المنطقة سابقة الذكر، وبخاصة في المنطقة التي كانت تعرف بالبطائح بجنوب العراق(٢).

استمرت هذه المسيرة الطيبة في العصر العباسي بزخم، لا يقل عما حدث في العصر الأموي، وبخاصة في العصر العباسي الأول، الذي كان عصراً مزدهرا بكل المقاييس. فقد اهتم الخلفاء العباسيون بمسألة تطوير الري وصيانتها، وكانت الذروة في هذا المضمار في عصر الخـليفة العباسي هارون الرشيد(٣)، الذي أمر بحفر نهر القاطول والعديد من القنوات والجداول، مما أسهم في زيادة الإنتاج الزراعي آنذاك بصورة كبيرة. وفي عصرا لخليفة المعتصم، انصب الاهتمام بشكل خاص على عملية تجفيف المستنقعات في منطقة البطائح، على غرار ما كان يجري في العصر الأموي، لكن بتقانة متقدمة تجسدت باستخدام واعتماد نظام الترشيح(٤).

وحفرت فروع عديدة على نهر دجلة بشكل خاص لري الأراضي والبساتين، والتي استجدت حول العواصم العباسية في داخلها، وبخاصة بغداد وسامراء والمتوكلة وغيرها من البلدات والقرى المجاورة. وفي مصر جرت محاولات لكبح جماح فيضان نهر النيل، لكن هذه المحاولات باءت بالفشل. كذلك اهتمت الدول المنفصلة في شؤون الري في مناطق نفوذها، للأهمية البالغة التي كانت تشغلها الزراعة في حياة واستمرارية هذه الدول،فقد اهتم على سبيل المثال قادة الدولة الحمدانية بحلب وما حولها اهتماماً مركزاً بالزراعة، فأمر مؤسس هذه الدولة سيف الدولة الحمداني، الذي كان يعتمد على تمويل مشاريعه السياسية والحربية من واردات الزراعة، والتي كانت كبيرة بفعل القنوات المائية التي أحدثها في ميافارقين وما حولها، وفي مدينة حلب حيث جرت قنوات كثيرة إليها من نهر قويق، ووصلت مياه هذا النهر إلى الأراضي الزراعية حول المدينة وكذلك إلى داخلها، وبخاصة إلى قصر سيف الدولة بالحلبة(٥).

وفي عصر الفاطميين بمصر، كانت هناك اهتمامات كبيرة في مجال تطوير وسائل الري وهو أمر لابد منه في بلد كمصر، ذلك لأن الحياة فيها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنهر النيل، الذي يعد شريان الحياة فيها. طوّر الفاطميون العديد من وسائل وتقانات السقاية والري، بعد أن اقتنعوا أن مصر هي المستقر الرئيس لدولتهم، وأن هذه الدولة لن

تستمر إلا من خلال الاعتماد على زراعة كثيفة ومتطورة. من الوسائل التي استخدمت من اجل تسهيل عملية الري، كانت العجلات المائية لرفع الماء إلى الأعلى، وكذلك السواقي والطنبور والقادوش والشادوف(٦).

لكن الذي يدعو للفخر والاعتزاز هو، أن العرب في العصور الوسطى طوروا هندسة متقدمة، كانت لها نتائج ايجابية عملاقة، هذه الهندسة هي هندسة جر المياه من مناطق الوفرة إلى مناطق الندرة والحاجة، وكذلك خزن المياه في خزانات كبيرة،ثم شق العديد من القنوات والترع من الأنهار الكبرى، وفي النهاية توزيع المياه إلى البيوت في المدن الكبرى وما إلى ذلك من أمور.

بدأ الإقلاع في هذا المشروع الحضاري في العصر الأموي، حينما وجه يزيد ابن معاوية ابن أبي سفيان بضرورة استكمال نظام الري بغوطة دمشق، وقد تم ذلك بحفر قناة جديدة على نهر بردى عند مدخل دمشق الغربي، عرفت بقناة يزيد كما ذكرنا. وفي زمن الخليفة هشام بن عبد الملك الأموي، بدأت مشاريع تمديد قنوات الري لمسافات طويلة لجر المياه في المغرب الكبير، وتخزين المياه في خزانات كبيرة، لم يكن المغرب الكبير قد شهدها قبل العصر الأموي، وكان ذلك بشكل خاص في المغرب الأدنى (تونس الحالية – والمغرب الأقصى) (المملكة المغربية اليوم)(٧).

وفي العصر العباسي شهد العراق وبعض المناطق الأخرى نهضة هندسية رائعة في مجال الري، كانت في طليعة المنجزات الحضارية العباسية، وهي امتداد حضاري بالغ الأهمية لما كان قد حصل في العصر الأموي، وهي أعمال ليست غريبة على ثقافتنا العربية، أو على منطقتنا التي شهدت العديد من الحضارات المتقدمة، ونخص بالذكر منها الحضارة الآرامية، التي تميزت بهندسة نقل المياه عبر أنابيب فخارية وغيرها إلى مسافات هائلة في طولها وصعوبة تضاريسها. وقد أخذ الرومان هذه الهندسة عن الآراميين، ونسبوها ظلماً وبهتاناً لحضارتهم لدرجة، إن الغالبية العظمى

من شعبنا العربي ينسبها إلى الرومان [٨].

كان من أهم ما أنجزه العرب في العصر العباسي، حفر آبار فرعية على نهر دجلة بشكل خاص لري الأراضي والبساتين، التي استجدت حول العواصم العباسية وحول البلدات والقرى المجاورة، كذلك قاموا بمشاريع هامة مماثلة.

وفي مصر جرت محاولات لكبح جماح فيضان النيل، ومنها تلك التي قام بها بعض علماء بغداد في عصر الحاكم الفاطمي[٩]. وفي المغرب الأدنى (تونس)، قام الاغالبة وهم أتباع العباسيين الوحيدين في الجناح الغربي من الوطن العرب الكبير، ببناء العديد من الخزانات المائية التي تسمى في المغرب الكبير (المواجل) وفي المشرق (الصهاريج) للوفاء بعملية السقاية والري وتوفير مياه الشرب وما إلى ذلك، وهي هندسة متقدمة قياساً على تقانات ذلك العصر، أنشئت للتغلب والسيطرة على مظاهر الجفاف في مناطق شبه صحراوية أو قريبة من الصحراء[١٠].

وفي الأندلس بدأت ثمار هذا النظام الهندسي المتقدم، تظهر منذ القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي. ففي هذا القرن توصل المهندسون العرب إلى ابتكار من أعظم الابتكارات العربية في ميدان هذه الهندسة الراقية، تجسد هذا الابتكار في نظام القنوات الجوفية، الذي ساعد على إيصال المياه إلى مدينة مجريط (مدريد الحالية)، على أثر الانتهاء من بنائها من وادي الرمل المجاور لها من جهة الشمال. فقد حفرت آبار غزيرة المياه، ووضع في قعرها قنوات تمتد حتى تصل إلى مدريد، وهي تنحدر من الأعلى إلى الأسفل. وقد انتشر هذا النظام فيما بعد بالعديد من مناطق الأندلس والمغرب الكبير، وتتألف القنوات لجوفية من قناة ضخمة، تعد هي آلام، ومنها تتفرع في داخل المدينة شبكة معقدة من قنوات صغيرة فرعية، وفي كل عقدة يتجمع عدد من تلك الفروع مقام خزان أو مستودع، يجتهد في حماية ووقايته بالطوب والفخار، وهذه الخزانات هي التي يتحكم منها المهندسون والخبراء في توزيع الماء توزيعا

عادلاً بين الأحياء والمنازل والحدائق العامة والخاصة، وتبنى عليها صهاريج مقفلة بأبواب وقضبان من الحديد، لا يسمح بدخولها إلا للقنواتي، الذي يوكل إليه الصهريج ويكون مسؤولاً عنه ويحتفظ بمفتاحه. وهناك صهاريج عامة في الشوارع لسقيا الناس والبيوت، تكون وأحياناً على ظهر الأرض وأحياناً أخرى في باطن الأرض، إذا كانت القناة التي تمده على عمق شديد، وحينئذ لا يوصل إليها إلا بسلالم، تصل في بعض الأحيان إلى نحو عشرين درجة(١١).

وفي عصر المرابطين(١٢) اشتهر في ميدان هذه الهندسة، المهندس عبد الله بن يونس الأندلسي، الذي نقله المرابطون من الأندلس إلى المغرب بعد فترة وجيزة من دخولهم الأندلس، ليعمل على تنفيذ العديد من المشاريع المائية في المغرب الأقصى، وبخاصة في مدينة مراكش عاصمة دولة المرابطين. ففي هذه المدينة قام هذا المهندس بابتكار نظام جديد لجر المياه من الأماكن البعيدة في جوف الأرض، ذلك لان مدينة مراكش كانت تفتقر إلى المياه، حيث لم يكن فيها سوى بعض الآبار، فقام المهندس ابن يونس بدراسة طبقات الأرض هناك، وتوصل بعد جهود مضنية إلى اختراع طريقة المجاري الجوفية، فتوجه إلى طرف من أطراف المدينة يعلو فيه مستوى الأرض على مثله في داخلها، ثم حفر بئراً كبيراً ثم أوصل من قاعها قنوات تسير تحت الأرض في انحدار، حتى تصل الماء إلى مختلف أحيائها قريباً من سطح الأرض. ويذكر الجغرافي الإدريسي، إن السلطان المرابطي أعجب بهذا الانجاز الهندسي ومنح صاحبه ابن يونس عطاءً كبيراً ومنذ ذلك الحين بدأ أهل المدينة في بناء قنوات فرعية، تستمد من تلك القناة الأم، وهذا ما ساعد على اتساع عمران مدينة مراكش، وزيادة مروجها وحدائقها، وأصبحت قاعدة للدولتين المرابطية والموحدية وقد سمي هذا النظام من القنوات الخطارة(١٣)، ومازالت هذه الشبكة الواسعة من القنوات الجوفية باقية بمدينة مراكش، ويبلغ عددها نحواً من ثلاثمئة وخمسين قناة، يصل طول كل منها إلى نحو خمسة كيلو مترات، غير أن الإهمال لحقها أخيراً.

أما في عصر الموحدين فقد امتاز المهندسون الأندلسيون بمقدرة فائقة في عمليات تسريب المياه في أجواف الأرض حسب أصول حسابية دقيقة. وأن الذي يطالع ما ورد بخصوص إيصال الماء إلى مدينة الرباط بالمغرب الأقصى من عيون غبولة[١٤] التي تبعد عنها مسافة تسعة عشر كيلو متراً إلى الجنوب الغربي، وحينما تقرر جر الماء لسقي إقليم البحيرة باشبيلية، وكذلك حينما أمر الخليفة الموحدي أبو يعقوب المنصور سنة ٥٨٠ هـ/١١٨٥م بجلب الماء إلى مدينة سبته من قرية بليونش، وحينما تقرر جلب المياه لميضأة جامع القرويين من مدينة فاس أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، ليشهد بما للمهندسين الأندلس من باع طويل في هذا الميدان الهام[١٥].

وبالاعتماد على نظام الفقارات والخطارات، فقد تمكن المهندس الأندلسي الحاج يعيش المالقي، من بناء خزان للماء داخل مدينة اشبيلية، كما نجح في تسريب المياه لسقي وتزويد قصور البحيرة الملكية توصيله إلى داخل المدينة من منطقة مجاورة، هي قلعة جابر[١٦] وكان الخزان المائي الذي بناه في وسط مدينة اشبيلية بحارة كانت تدعي (ميور).

ويبدو أن هذا النظام الهندسي الراقي في ميدان نقل المياه وتوزيعها، قد انتشر بكل المناطق الأندلسية في ميدان الري وسقاية الأرض الزراعية والدليل على ذلك تلك الآثار الكثيرة، التي ما زالت باقية حتى اليوم كمحكمة المياه، التي ما زالت تعقد بمدينة بلنسية بشرق الأندلس، وهي محكمة أهلية لا تتدخل فيها الحكومة، ومهمة هذه المحكمة توزيع المياه بالتساوي والعدل بين الفلاحين عبر قنوات دقيقة، تفي بأغراض الري والسقاية من كافة الجوانب.

وقد وصل العرب إلى هذا المستوى الرفيع من التقدم في مضمار هندسة الري، بفضل وعناية عدد من المهندسين المتفوقين وبخاصة في المغرب والأندلس الذين امتازوا

بمقدرة فائقة في عمليات تسريب المياه في أجواف الأرض حسب أصول حسابية دقيقة. ومن هؤلاء المهندسين محمد بن المعلم، الذي ذكره صاحب كتاب المن بالإمامة، على أنه هو الذي قام بإيصال المياه إلى قصور الموحدين بمدينة أشبيلية[١٧] والحاج يعيش المالقي، الذي كان من أشهر وألمع المهندسين، الذين تألق نجمهم في عصر الموحدين، فهو الذي أنجز عملية تسريب وإيصال المياه إلى قصر البحيرة باشبيلية. كما قام ببناء خزان للماء داخل المدينة،ومنه وزعت المياه إلى كافة أحياء المدينة. ومثله كان المهندس أحمد بن باسه[١٨]، الذي ساهم في إيصال المياه إلى مدينة سبته المغربية، التي جرت إليها المياه من قرية بليونش، التي تبعد عنها ستة أميال في فناء تحت الأرض على نظام الفقارات سابق الذكر[١٩].

وفي القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، اشتهر في مجال هندسة المياه العالم المرموق أبو بكر محمد بن الحسن المعروف بالكرخي. وتعود شهرته إلى تقدمه اللافت في عصره في ميدان علم استنباط المياه، الذي جسده في كتابه الهام (أنباط المياه الخفية) الذي ألفه بمدينة الموصل.وفي هذا الكتاب يقوم الكرخي بوصف الماء وتوزيعه وطبيعته السائلة والغازية وأشار إلى ملاحظة علمية متقدمه، هي أن توزع الماء يختلف بين منطقة وأخرى، حتى يتحقق ما نسميه اليوم بالتوازن البيئي العام. كما تحدث عن المياه الجوفية، وأشار إلى أن هذه المياه، لا تتجدد رغم سقوط أمطار غزيرة، وهي حقيقة أثبتتها العلم المعاصر. وفي مكان آخر من كتابه، يشير إلى أن النباتات تكون في الغالب دليلاً على وجود الماء في أمكنة معينة، كما أشار إلى أن المياه الجوفية هي عدة أنواع من حيث صلاحيتها للاستخدام البشري، فقد صنفها في عدة أصناف منها الثقيلة والخفيفة والرقيقة والساخنة والعذبة والكريهة. وفي نهاية الأمر نوّه بضرورة معرفة الانخفاض والارتفاع في حال جر المياه عبر قنوات خاصة من منطقة إلى أخرى، وكذلك طرق صيانتها وحمايتها من وقوع المحاذير وما إلى ذلك[٢٠].

كان من نتيجة هذه المنجزات، أن ازدادت المساحات الزراعية، ولاسيما في العراق في مناطق عبور نهري دجلة والفرات، وفي وادي النيل في مصر والسودان، وفي الشام والأندلس وبعض المناطق المغربية وانتشر نوع من المزارع الملكية وكانت الأندلس هي السباقة في هذا الميدان، فقد قام الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل بإنشاء رصافة (مزرعة أو منية) بقرطبة تيمنا برصافة جده هشام بن عبد الملك على الفرات، وكانت هذه الرصافة على بعد ثلاثة كيلو مترات إلى الشمال من قرطبة، سماها منيه الرصافة، وهي عبارة عن قصر ريفي، يتألف من بناء صغير مع حدائق واسعة، احتوت الكثير من النباتات والأشجار التي عرفت بالمشرق، وبخاصة منها الأشجار المثمرة. ومنذ ذلك الوقت بدأت المنى.تنتشر بكثرة في كل أنحاء الأندلس. قام بإنشاء هذه المنى مجموعة من الوزراء والموظفين الكبار. وكانت هذه المنى توضع تحت إشراف بعض العلماء الزراعيين المختصين، فزرعوها في مختلف النباتات، وكانت هذه المنى بمثابة المشاتل التي نعرفها اليوم. وكانت هذه المنيه تؤدي وظيفة هامة بالنسبة لعبد الرحمن الداخل، وهي الرغبة في الابتعاد عن أماكن الازدحام والخلود إلى حياة الهدوء والاستمتاع بمباهج الطبيعة غير المتكلفة أو المصطنعة. كما قام ابنه عبد الله ببناء منيه أخرى ببلنسية، سماها أيضا منية الرصافة، وهيما تزال موجودة حتى اليوم[٢١].

تتالى بعد ذلك ظهور هذه المنى أو المزارع، وذلك تقليداً لعبد الرحمن الداخل لذي يعدّ الرائد في مجال نقل الكثير من مظاهر الحياة المشرقية إلى الأندلس فقد بنى الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط منية جديدة بجوار قصر الإمارة بقرطبة، قريباً من الوادي الكبير بمكان كان يطل على هذا الوادي، ويسمح للمتفرج برؤية السفن والقوارب تسير فيه[٢٢].

وكثرت هذه المنى في عصر الطوائف بالأندلس، فقد بنى محمد بن صمادح حاكم المرية بجنوب الأندلس منية في وسطها قصر، اشتهر بفخامته وتكلفته العالية، وقد

اختار لهذه المنية موقعاً متوسطاً بين الجبل والبحرة وأن تكون في وسط بستان ذي أرض خصبة، تجود فيه كل الثمار التي جلبت إليه من المشرق والمغرب(٢٣).

وحينما انفرد المأمون بن ذي النون بحكم مدينة طليطلة في عصر الطوائف، بنى لنفسه قصراً بديعاً للغاية في وسط مزرعة كبيرة، تجود فيها كل زراعات البحر الأبيض المتوسط(٢٤).

كما بنى المعتمد بن عباد بإشبيلية قصراً مماثلاً، ولكنه جاء متميزاً من ناحية مظاهر الترف والبذخ والاتساع والزينة، وكذلك من حيث الأرض الزراعية التابعة له، التي تميزت هي الأخرى برقعتها الواسعة، وصلاحية تربتها لاعتماد زراعات مختلفة ذات إنتاجية عالية، ودليل ذلك أنها أصبحت في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي من أهم المراكز الزراعية البحثية في الأندلس، التي عملت على تطوير الزراعة من ناحية اعتماد العلم القائم على البحث والتجربة، من أجل زيادة الإنتاج الزراعي العام على صعيد الكم والنوعية الجيدة. وكان يشرف على هذه الأمور مجتمعة مجموعة من العلماء الزراعيين المتفوقين، نذكر منهم على سبيل المثال العالمان الشهيران ابن البصال وابن العوام، اللذان وضعا قواعد وجذور ثورة علمية حقيقية في مجال التطوير الزراعي بالأندلس، ساعدهما في ذلك أن القصور، وبخاصة بإشبيلية وطليطلة كانت تتبع لها أراضٍ خصبة كما نوهنا، شكلت على الدوام بيئة مناسبة في كل المقاييس لإجراء تجارب متطورة على مدار شهور وأيام السنة(٢٥)، فقد عمل ابن البصال في بداية حياته العلمية في مدينة طليطلة بمنية المأمون بن ذي النون، الذي ألف له كتاباً سماه (المجموع في الفلاحة)، ثم عاد فاختصره في كتاب سماه (القصد والبيان). وقد غادر ابن البصال مدينة طليطلة قبل سقوطها(٢٦)، فاستقر بمدينة إشبيلية إلى جانب حاكمها المعتمد بن عباد، الذي نظم له مزرعة كبيرة. وقد وجد ابن البصال بإشبيلية بيئة مناسبة لممارسة أبحاثه ونشاطاته الزراعية، لما تحتويه من سهول زراعية خصيبة وواسعة بالقرب من الوادي الكبير، وفيها أيضاً منطقة

مشهورة بنباتاتها وأعشابها الأصلية والمجلوبة[٢٧]، وعاش مع ابن البصال بإشبيلية العالم الزراعي أحمد بن الحجاج الإشبيلي، صاحب كتاب (المقنع)، الذي ألفه سنة ٤٦٦ هـ/١٠٧٢م. وقد نبه ابن الحجاج هذا إلى ضحالة آراء ومعارف المزارعين المحترفين، وتجرأ على وصفهم بالغفلة والغباء، لكنه من جهة أخرى اعتمد على كتابات وأقوال بعض المؤلفين اللاتين، لكن ذلك الاعتماد لم يكن كلياً، ذلك لأنه اعتمد في المقام الأول على النتائج، التي حصّلها من خلال تجربته العلمية الشخصية في أراضي الشرف بإشبيلية[٢٨]. وهكذا تتابعت سلسلة العلماء بإشبيلية طوال القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، واستمر ذلك خلال النصف الأول من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي. من هؤلاء العلماء العالم الزراعي محمد ابن مالك المعروف بالتفتري نسبة إلى قرية تيغتار بالقرب من غرناطة، الذي وضع رسالة في الزراعة سماها (زهرة البستان ونزهة الأذهان). ومنهم أيضاً العالم المتميز يحيى ابن العوام الإشبيلي، الذي ألفا كتاباً مطولاً سماه كتاب (الفلاحة) في خمسة وثلاثين باباً، وهو موسوعة زراعية اشتملت على نتائج القدماء من اليونان و اللاتين، وكذلك على نتاج من سبقه من الأندلسيين، هذا بالإضافة إلى نتاج تجربته الشخصية، وهو ما كان يشير إليه في آخر كل باب من أبواب كتابه سابق الذكر مثل قوله (وهذه لي) قد اشتهر هذا الكتاب عند كل المهتمين في الفترات اللاحقة بالأندلس والمغرب على حد سواء، إلى درجة أن ابن خلدون لم يرَ بين علماء الأندلس،من يستحق أن يتحدث عنه في سياق كلامه عن علم الزراعة في مقدمته سوى ابن العوام [٢٩] هذا وقد كان مثار اهتمام المستشرفين الأوربيين وذلك لأن كتابه ترجم إلى لغاتهم في وقت مبكر.

فابن بصال تبعاً لذلك. يكاد ينفرد بمزية خاصة تتجلى باعتماده شبه الكلي على التجربة والتطبيقات العملية، مما ساعده على الفصل بين علم الزراعة البحت وبين الطب والصيدلة والتنجيم والسحر. وهذا بدوره أدى إلى نتائج علمية باهرة، أكدها العلم الحديث وأقرها حقيقة ثابتة مثل قوله عن الخضراوات، إنها إذا غمرت في الأرض

وهي خضراء طرية، فإنها تتحول إلى أفضل أنواع السماد الذي يجدد حيوية وقدرة الأرض على الإنتاج الوفير، ثم أنه نصح بإحراق الأشجار المريضة في مكان وجودها وعدم نقلها إلى مكان آخر، حتى لا تنتقل العدوى إلى مناطق أخرى خالية من المرض، وهذا ما أثبته العلم الحديث أيضاً(٣٠). هذا التفوق العلمي البارز في الحقل الزراعي، الذي مثله بجدارة ابن البصال كان حافزاً للعديد من علماء الأندلس وغيرها من علماء أوروبا، أن يركزوا على الأساليب العلمية والتجريبية، التي تقود إلى أحسن النتائج وأنجعها، لذلك فإنهم أكثروا من النقل عن كتبه واقتدوا بمنهجه وتجاربه، كما فعل ابن العوام الإشبيلي في كتابه، فهو ينوه في كل مواضع الكتاب بالأساس العلمي التجريبي، الذي سلكه كمنهج ثابت في حياته العلمية الفنية. ولكن أهم تأثير لابن البصال، كان تأثيره في عامة المزارعين والفلاحين، الذين اهتدوا بتجاربه الإيجابية الناجحة، وكان ذلك في الأندلس والمغرب الكبير وأوروبا على حد سواء (٣١).

وفي المراحل الأخيرة من أيام العرب في العصور الوسطى في المشرق والمغرب والأندلس، ندرت المؤلفات المبتكرة والمعتمدة على التجربة والواقع البحثي، والدليل على ذلك أن سعد بن ليون التجيبي المتوفى سنة ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م، الذي ألف كتاب {إبداع الملاحة وإنهاء الرجاحة في أصول صناعة الملاحة. وقد كتب على هيئة منظومات وأراجيز شعرية، وهو كتاب يعتمد كلياً على معلومات مؤلفين سابقين مثل، ابن بصال والتفتري إضافة إلى معلومات أخرى استقـــاها من هنا وهناك(٣٢).

مهما كانت صورة الأمر، فإننا نلحظ أن قاسماً مشتركاً يجمع بين كل العلماء الزراعيين، وبخاصة في مجال المصادر التي اعتمدوا عليها، وفي مجال المنهج العلمي الذي اتبعوه. فمن ناحية المصادر نرى أنهم جميعاً، اعتمدوا على الكتب القديمة المحلية و غير المحلية، وكذلك على الكتب التي كانت ترد تباعاً من المشرق العربي. أما من ناحية المنهج في التأليف، فقد كان على طريقة أصحاب المصادر القديمة، مع بعض الإضافات الجديدة، التي كانت عبارة عن نتاج خاص لتجارب العلماء خلال

حياتهم العلمية، سواء كان ذلك في بلدانهم أو في البلاد، التي ارتحلوا إليها من أجل البحث والمعرفة. والدليل على ذلك ما يذكره ابن أبي أصيبعة في كتابه طبقات الأطباء عن بعض الأطباء الأندلسيين، مثل محمد بن مفرج النباتي المعروف بابن الرومية، الذي أثار انتباه الناس وإعجابهم في أثناء وجوده في المشرق العربي،من خلال علمه المتطور في النبات كزراعة وخواص دوائية وعلاجية، فقد وصل إلى مصر سنة ٦١٣ هـ/ ١٢١٧م وبقي فيهما نحو من سنتين،اطلع خلالهما على العديد من أنواع النبات الذي لا يوجد بالأندلس والمغرب الكبير [٣٣]. وابن بصال سابق الذكر، الذي زار الشام وصقلية وشاهد الكثير من أصناف النبات فيهما، نوه بها في كتبه وشرح طريقة زراعتها والأرض المناسبة لها وكذلك الطقس. ساعد هذا الواقع الايجابي على صعيد تقانة الري المتقدمة، وعلى صعيد المعرفة العلمية الواسعة، على اعتماد زراعات إستراتيجية. كان لها دورها الكبير في دعم مسيرة الاقتصاد العام في الدولة العربية في العصور الوسطى. ويعد القطن من أهم الزراعات الإستراتيجية، التي نقلت من الهند إلى المنطقة العربية، والى كل المناطق الأخرى التي حكمها العرب في العصور الوسطى. فمن الهند انتقلت هذه الزراعة إلى بلاده فارس ومنها إلى العراق، حيث سهول الرافدين المناسبة لهذه الزراعة الكثيفة، التي تحتاج إلى ارض خصبة وإلى مياه وافرة. ومن العراق انتقلت إلى بلاد الشام بداية من مناطق الخابور وحوض الفرات إلى حلب ودمشق وفلسطين، ثم إلى مصر والمغرب وإسبانيا، ومن اسبانيا وصقلية انتقلت زراعة القطن إلى أوربا وغيرها[٣٤].

وقد أصبحت زراعة القطن من الزراعات المستوطنة في المنطقة العربية، منذ القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي/كما أصبح من المحاصيل الاقتصادية في هذه المنطقة في العصور الوسطى، وقد استمرت هذه الأهمية حتى الوقت الحاضر، ولاسيما في مصر وسورية والعراق.

كما اشتهرت زراعة قصب السكر في المنطقة العربية، التي عرفت زراعة القطن.

فزراعة قصب السكر كانت من الزراعات الإستراتيجية، التي تشبه زراعة القطن من كل النواحي، فزراعته لم تكن معروفة في المنطقة العربية قبل القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي/حينما قرر العرب نقله من الصين إلى منطقتهم، فقد بدأت زراعته في العراق، ثم انتقلت إلى بلاد الشام ومنها إلى مصر والأندلس، لكن زراعته على نطاق واسع واقتصادي، لم تتم إلا في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي/ وكانت سهول الرافدين في العراق من أغزر المناطق إنتاجا لقصب السكر، تلتها سهول بلاد الشام ومصر (٣٥)، وذلك لتوفر المياه في الأوقات الضرورية لعملية الري والسقاية.

هذا وقد برهن العرب في العصور الوسطى على مدى تقدمهم الحضاري في مجال الزراعة، إضافة إلى كل ماتقدم من منجزات كبيرة، برهنوا على ذلك من خلال تصنيفهم للأرض إلى عدد من الأصناف، من حيث خصوبتها وإنتاجها ومن حيث ملكيتها وتبعيتها، وهذا التصنيف يعد خطوة على طريق تجسيد العدل والنظام في الحياة العامة. وهذه الأرض هي، أرض الخراج التي بقي أصحابها على دينهم، ولم يدخلوا الإسلام وقد كلفوا بدفع مبلغ سنوي يتفق عليه، والأرض العشرية، وهي الأرض التي دخل أصحابها الإسلام، وبقيت في أيديهم مقابل دفع ضريبة العشر، وأرض الصوافي، وهي الأرض التي هجرها أصحابها فأخذها المسلمون، وكان التصرف بها من صلاحية الحاكم، يستغلها أو يعطيها للآخرين أو غير ذلك، وأرض العنوة، وهي الأرض التي حارب أصحابها المسلمون، ولكنهم في النهاية هزموا وتركوها فوزعها المسلمون فيما بينهم، وأرض الإقطاع، وهي الأرض التي كان يقطعها الحكام من أرض الموات ومن أرضي الصوافي لمجموعة من الناس مقابل تأدية خراج معين أو العشر، وأرض الموات، وهي أرض كانت مشاعاً بدون ملاك، فآلت ملكيتها للدولة، التي كانت توزعها على الناس لزراعتها واستصلاحها، وأرض الوقف التي وقفها أصحابها لأهداف إنسانية بحتة، مثل دعم الفقراء والمحتاجين وأصحاب الحاجة على اختلاف أنواعهم إلى غير ذلك(٣٦).

زاد العرب على ذلك أنهم ذكروا، أنه بالإمكان زراعة الأرض المروية أكثر من مرة في السنة، وهو ما يسمى في المصطلح الحديث بالزراعة المكثفة، وهذا ما كان يجري بالفعل في مصر وغرناطة ومناطق الجزيرة والفرات لتوفر المياه الكافية لعملية الري[٣٧]. لقد كانت هذه الطرائق نتيجة طبيعية لتجاب طويلة، أثمرت في آخر المطاف بحوثاً علمية هامة، كان لها تأثيرها الكبير في مسيرة العالم العلمية في ميدان الزراعة. قام بإنجاز هذه الأبحاث علماء متفوقون، استطاعوا أن يخدموا الإنسانية من خلال معرفتهم بالخواص الدوائية العلاجية للعديد من النباتات والأعشاب مثل، حنين بن اسحق المتوفى سنة ٢٦٠ هـ/٨٧٤م، الذي ألف وترجم العديد من الكتب الزراعية ذات الخواص العلاجية، وأبو بكر الرازي المتوفى سنة ٣٢٠هـ/٩٣٣م صاحب كتاب الحاوي في الطب، الذي خصص فيه جزءاً كبيراً لبحث الخواص الدوائية لعدد من النباتات وابن سينا المتوفي سنة ٤٢٨ هـ/١٠٣٧م، الذي تعرض بالبحث والدراسة لخواص عدد من النباتات في ميدان الدواء والعلاج، وعبد الرحمن بن الهيثم الذي ألف في مجال الأدوية المفردة، وترجم كتاباً في الأدوية لديوسقوريدس، وعبد الرحمن بن وافد الذي ألف كتاباً كبيراً في الأدوية المفردة، وأحمد بن محمد الغافقي الذي ألف كتاب جامع الأدوية المفردة، وابن البيطار صاحب كتاب الجامع في الأدوية المفردة[٣٨].

كذلك فقد توصل العرب إلى أنهم استطاعوا بنجاح باهر التوصل إلى معرفة البيئة الصالحة لعدد من المحاصيل الزراعية الهامة، التي لم تكن معروفة في المنطقة العربية، فعمدوا إلى توطين هذه إلى المحاصيل، التي شغلت دوراً عظيماً في تقدم الصناعة، ثم انتقلت هذه المحاصيل بعد فترة وجيزة إلى مناطق أوروبا عن طريق الأندلس وغيرها. وكان من أهم مناطق هذه المحاصيل إضافة إلى المناطق سابقة الذكر، منطقة قصر الحير الشرقي في وسط سورية، الذي أمر ببنائه الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، وألحق به حديقة واسعة لتكون مصدر تموين يكفي ساكني هذا القصر. واشتهرت مدينة البصرة بجنوب العراق بكثرة قنواتها المائية، وبغزارة

زراعاتها وإنتاجيتها الوفيرة، وبساتينها المزدهرة. ومثلها كانت مدينة دمشق، التي اشتهرت بفوطتها الغناء، ومدينة نصيبين، التي احتوت على عشرات الآلاف من البساتين الغنية بالزراعات والأثمار، ومدينة تلمسان بالمغرب الأوسط (الجزائر)، ومدينة مراكش، وغيرها ومزرعة الخليفة العباسي المعتصم بسامراء شمال مدينة بغداد بالعراق، ومزارع الأغالبة بتونس، ومزارع الفاطميين بالقاهرة وما حولها إلى غير ذلك من هذا القبيل وهو كثير جداً [٣٩].

وبالجملة فقد نجح العرب في العصور الوسطى موضوع هذا البحث ،في ميدان تطوير تقانات ووسائل مختلفة في مجال هندسة الري والسقاية وإيصال الماء إلى المناطق المحتاجة، كما نجحوا في الوصول إلى ثقافة راسخة وغنية، عززت خبراتهم في المسائل الزراعية المتنوعة، وهي خبرة شاملة حصلوها عبر تجارب طويلة الأمد، أجروها في الحقول والمزارع فبحثوا وراقبوا تطور النبات عبر كل المراحل، وكانت النتائج مبهجة في كثير من الأحيان، تجسدت في العديد من الطرق والأساليب الزراعية المتطورة المؤدية في النهاية إلى إنتاج وفير ومأمون، ودعموا ذلك باستخدام تقانات متقدمة في توفير مياه الري، كحجز المياه وتجميعه في سدود أو مستودعات ورفعه بعد ذلك عبر قنوات مفتوحة أو مطمورة تحت الأرض، أو بواسطة النواعير أو دواليب الماء أو الشادوف وما إلى ذلك. وقد نقلت هذه التقانات لعظمتها إلى أوربا، فوصلت إلى هولندا وبلجيكا اعتباراً من بداية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي[٤٠].

هذه الحالة الطيبة من التقدم العلمي الكبير في ذلك الوقت، جعلت العرب يلتفتون إلى مسألة الاهتمام بالمنهج التجريبي العلمي، فاهتموا بطرق التهجين النباتية لتحسين بعض خصائص النباتات وبشكل خاص الفواكه منها، وأولوا أهمية كبيرة لعمليات التطعيم المتنوعة. ودرسوا البيئات الجغرافية المناسبة لكل نبات، وعلى ضوء ذلك قاموا بنقل بعض أهم النباتات الاقتصادية الهامة كنقلهم البرتقال من البرتغال إلى المنطقة العربية

والمناطق المجاورة لها. ونقلوا الكستناء والطماطم (البندرة) من إيطاليا، ونقلوا التوت والفجل من الصين، والخيار والبهار من الهند. وقد استطاع العالم العربي المتفوق ابن العوام سابقة الذكر، من خلال عمليات التطعيم والتهجين، أن ينتج تفاحاً في غير موسمه، وكذلك ورداً في غير أيامه(٤١). هذا وقد كان من أعظم النتائج، التي ظهرت من جراء النظام الهندسي المعروف بنظام الفقارات أو الخطارات، الذي سمح باستجرار المياه إلى مناطق فقيرة بالمياه في مشرق الوطن العربي الكبير ومغربه، هي قيام مدن جديدة لم تكن موجودة قبل فترة هذا البحث، أو بالأحرى قبل تطور هندسة استحرار المياه إلى المناطق والبلدان المحتاجة. وإلى هذا النظام الهندسي يعود أمر بقائها واستمرارها متألقة حتى يوم الناس هذا. ولعل أهمها وأقدمها هي مديـــــنة مجريط (مدريد)، التي بنيت كحصن متقدم من أجل ممارسة أعمال الرباط والمثاغرة ضد المتربصين بالوجود العربي بالأندلس ولاسيما أتباع حركة الاسترداد الإسبانية، التي بدأت تظهر بقوة في أواخر القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، وهو الزمن الذي بنيت فيه مدينة مدريد، التي زودت بالمياه من منطقة جبال الرمل إلى الشمال بنحو مئتي كيلو متر(٤٢).

وما ينطبق على مجريط، ينطبق على مدينة مراكش بالمغرب الأقصى (المملكة المغربية)، فقد بنيت في منطقة فقيرة بالمياه، لكن تقدم هندسة الري وبخاصة بالأندلس، أمكن تزويدها بالمياه من منطقة مجاورة، فاستمرت على أثر ذلك عاصمة سياسيه للدولة المرابطية وبعدها للدولة الموحدية، التي أصبحت في عصرها من أهم مدن المغرب الكبير(٤٣).

وكذلك الأمر كان بالنسبة لمدينة الرباط عاصمة المملكة المغربية اليوم، حيث أقيمت في منطقة فقيرة بالمياه، لكن المهندسين زودوها بالمياه من منطقة قريبة، وكان ذلك في عصر الدولة الموحدية، التي كانت بالنسبة لها ذات أهمية كبيرة، ذلك لأنها كانت منطقة حشد للقوات العسكرية، التي كانت ترسل إلى الأندلس لضبط الأمور فيها،

وحمايتها من الاعتداءات الخارجية على حدٍ سواء(٤٤).

وهذا ما حدث أيضاً في مدينة سبته بشمال المملكة المغربية، التي زودت بالمياه من قرية بليونش، التي تبعد عنها ستة أميال في فناء تحت الأرض ومثلها منطقة البحيرة سابقة الذكر باشبيلية (٤٥) وغيرها من المناطق الأخرى، التي ازدهرت واستمرت في الحياة حتى الوقت الحاضر.

ولم تنحصر فائدة هذه المنجزات العلمية الطبية على المنطقة العربية فحسب، بل عمت فائدتها القارة الأوربية، وقد تجسدت هذه الفائدة في نقل طريقة حجز الماء وتجميعه في سدود أو مستودعات، ونقله بعد ذلك عبر قنوات مفتوحة أو مطمورة تحت الأرض. كما تعلم الأوروبيون من العرب كيفية حفر الترع والقنوات، وانتشار المجاري المعقوفة، التي كانت مجهولة من قبلهم، وطوروا إلى جانب ذلك الدورات الزراعية، ومن استخدام الأراضي الزراعية على الوجه الصحيح من أجل محصول وافر وغزير(٤٦).

من ناحية ثانية فقد استفادت أوروبا من التقدم العربي الزراعي، من خلال ما انتقل إليها من زراعات عبر الأندلس، وأصبحت هذه الزراعات من الأنواع المستوطنة البلدية، كالزيتون والحمضيات والخضراوات، وأنواع أخرى من الفواكه مثل، التين والعنب و المشمش والتفاح والأجاص والخوخ والسفرجل والكباد وحب الصنوبر، وقد ظهر ذلك جليا في فرنسا مقاطعات البروفانس ومونبلييه والرون (٤٧).

وهكذا فقد تقدمت وازدهرت وتطورت زراعة العرب في العصور الوسطى، وأنتجت ثمراً طيباً ووافراً، وانتشرت ثقافتها خارج أرض العرب، لأنها كانت ثقافة تعتمد على العلم الدقيق والتجربة الجادة والمثابرة النقية البريئة، واستخدام التقنيات المتطورة، التي ساعدت على انتشار الخضرة الدائمة في المنطقة العربية وغير العربية في العصور الوسطى. فبالإضافة إلى معرفة علماء العرب ومهندسيهم في توفير المياه بصورة

دائمة، ومعرفتهم بأنواع النبات والتربة وطرق التسميد والعناية بحقول الحبوب والخضراوات، فقد اهتموا بمسائل هامة اتصلت بطريقة أو بأخرى بالزراعة مثل تربية وتهجين الحيوانات، والحديث عن طريق رئيسة في مجال الاقتصاد الريفي، مثل إدارة الحقول، وخزن المحصول بعد عمليات الجني والحصاد، وأوقات الزراعة لكل محصول، واختيار العاملين والمشرفين على حقول الزراعة إلى غير ذلك من أمور، كانت في العصور الوسطى موضوع هذا البحث هي المعوّل عليها في مجال تقنيات الزراعة وأثرها في الإنتاج الزراعي.

الهوامش

(١) علي أحمد – **تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري** طبعة دمشق ٢٠٠٨ص٢٣.

(٢) عواد الاعظمي ــ **تاريخ الري في سهول الرافدين** ــ بحث القي في الندوة المالمية الثالثة لتاريخ العلوم ــ الكويت ١٩٨٣

(٣) شغل منصب الخلافة من سنة ١٧٠الى ١٩٢ الهجري

(٤) حسن إبراهيم حسن ــ **النظم الإسلامية** ص ٢٦٠

(٥) الروزراوي ــ ذيل كتاب تجارب الأمم ٣٦٠ص ٦٨ وما بعدما

(٦) انظر كتاب **مظاهر الحضارة العربية الإسلامية في العصور الوسطى** ص٢٩٦

(٧) البكري ــ **المغرب في ذكر افريقية والمدرب** ــ تحقيق دي هلان طبعة الجزائر ١٩١١ ص٢٦ علي الأحمد ــ **تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري** ص٧٨ وما بعد

(٨) علي الأحمد ــ **تاريخ المغرب القديم والإسلامي** في طبعة جامعة دمشق ٢٠٠٧ ص ٧٠ ومابعد

(٩) اشتهر في هذا المجال العام المتفوق محمد بن حسن البصري المعروف بابن الهيثم الذي حاول إيجاد طريقة ناجحة تساعل على حجز مياه نهر النيل بمصر ولكنه فشل في ذلك

(١٠) علي أحمد ــ **تاريخ المغرب القديم والإسلامي** ص ٧٠

(١١) انظر خايمة اوليفراسين ــ **تاريخ اسم مدريد** ص ــ ٨٩ وكذلك

(١٢) f.w.robins.the story of water supply –oxford univer sity

press. 1946. pp.116-118

(١٣) بدأ عصر المرابطين سنة ٤٨٤ وانتهى سنة ٥٤٦

(١٤) محمود علي مكي ــ مدريد العربية طبعة وزارة الثقافة بمصر ص٥٢.
الادريس ــ **نزهة المشتاق** ــ نشر رانيهات دوزي خويه ص ٦٨

(١٥) تقع عيون غبولة في الجنوب الغربي من مدينة الرباط بالمغرب الأقصى وكانت تسريب الماء منها إلى الرباط سمة ٥٤٥

(١٦) ابن صاحب الصلاة ــ **المن بالإمامة** ج٢ص٤٤

(١٧) تقع هذه القلعة إلى الجنوب من اشبيلية على مقربة من قرمونة ــ انظر ابن صاحب الصلاة ــ المصدر السابق ج٢ص٤٦٨ وما بعدها

(١٨) ابن صاحب الصلاة ــ المصدر السابق ج٢ص٤٦٤

(١٩) ابن صاحب الصلاة ــ المصدر السابق ج٢ص١٣٨ وما بعدها

(٢٠) الحميري ــ **الروض المطار** ص ٥٤٠

(٢١) انظر كتاب **مظاهر الحضارة العربية الإسلامية** طبعة جامعة دمشق ٢٠٠٦ ص ٢٢٦ وما بعدها

(٢٢) احمد مختار العبادي ــ في **التاريخ الأندلسي و المغربي** ص ١٠٨

(٢٣) انظر **مظاهر الحضارة العربية الإسلامية** ص٢١٩

(٢٤) العذري ــ ترصيع الإخبار ص٨٤ــ٨٥

(٢٥) ابن بسام ــ **الذخيرة في محاسن هل الجزيرة** قسم ٤ ج١ص١٠٢

(٢٦) المقري–**نفح الطيب** ج٥ص٣٩٣ ومابعدها. ابن بسام–المصدر السابق قسم

٤ ج١ص١٠٢

(٢٧) كان سقوط مدينة طليطلة بيد حركة الاسترداد الاسبانية سنة ٤٧٨ هجري ولم يتمكن العرب من استعادتها

(٢٨) انظر **معجم أطباء المغرب والأندلس** طبعة دمشق ١٩٩٤ص١٤

(٢٩) **معجم أطباء المغرب والأندلس** ص١٤ ـ ١٥ تاريخ النشر الأندلسي ص ٤٧٢

(٣٠) انظر حول ذلك **مقدمة ابن خلدون**

(٣١) احمد بدر ـ **الحضارة العربية الإسلامية** طبعة ثالثة جامعة دمشق ١٩٩٦ ص٤٨

(٣٢) انظر **كتاب مظاهر الحضارة العربية الإسلامية في العصور الوسطى** ص١٠٩ وما بعدها

(٣٣) **مظاهر الحضارة العربية الإسلامية في العصور الوسطى** ص١٠٦ـ١٠٧

(٣٤) ابن الخطيب ـ **الإحاطة في أخبار غرناطة** ١٢٠ص٢٧ـ علي احمد **معجم أطباء المغرب والأندلس في العصور الوسطى** ـ ترجمة ابن الرومية وابن البصال ص٢٦

(٣٥) ابن حوقل ـ **صورة الأرض** ص٧٠ـ الإدريسي ـ **نزهة المشتاق** ص ١٠٩ الدوري ـ **تاريخ العراق** ص٣٢ وما بهدها

(٣٦) ابن حوقل ـ المصدر السابق ص٢٥٠ـ الدوري ـ **تاريخ العراق** ص٥٩

(٣٧) أبو يوسف ت **كتاب الخراج** ص٧٥ ـ الدوري ـ **العرب وارض في العراق في صدر الإسلام** ص ١٢٧ كلود كاهن ت **تاريخ العرب والشعوب الإسلامية** ص١٨٤ محمد نصر الله ـ **تطور نظام ملكية الأرض** ص١٥٨

(٣٨) النويري ــ **نهاية الأرب** ج٨ ص٢٥٧

(٣٩) عادل أبو النصر ــ **تاريخ الزراعة القديمة** ص٣٢١

(٤٠) الإدريسي ــ **نزهة المشتاق** ص١١٠ **ورحلة ابن بطوطة** ــ عبد القادر ريحاوي **العمارة العربية الإسلامية** طبعة دمشق وزارة الثقافة ١٩٧٩ ص ٧٣ وما بعدها

(٤١) حسين مؤنس ــ **تاريخ الجغرافيين بالأندلس** طبعة القاهرة ١٩٨٦ص١٣٣

(٤٢) عبد الحليم منتصر ــ **تاريخ العلم ودورا لعلماء العرب في تقدمه** ص ٢

- f. w.robins the story of water supply.oxford university press 1946-pp-116-118

(٤٣) مؤرخ مجهول - **الحلل الموشية** ص١١. المراكشي - **المعجب في تلخيص أخبار الأندلس والمغرب** ص ٢٨٧.

(٤٤) الحميري - **الروض المعطار** ص٥٤٠ - أحمد بدر - **تاريخ المغرب والأندلس** ص٢٥٦

(٤٥) ابن صاحب الصلاة - المصدر السابق ج٢ ص١٣٨ وما بعدها.

(٤٦) سعيد عبد الفتاح عاشور - **أوروبا العصور الوسطى** ج١ ص٢٦٢ وما بعدها.

(٤٧) سيمون ذاكري - **علم الزراعة عند العرب**. بحث منشور في مجلة التراث - اتحاد الكتاب العرب بدمشق العدد ٣٧ سنة ١٩٨٩ ترجمة سلمان حرفوش ص١٠٤ وما بعدها.

المصادر والمراجع

- ابن أبي أصيبعة – عيون الأنباء في طبقات الأطباء – تحقيق نزار رضا طبعه بيروت مكتبة الحياة،
- أحمد بدر – تاريخ الأندلس – طبعة دمشق ١٩٨٣.
- أحمد مختار العبادي – في التاريخ الأندلسي والمغربي – طبعة دار المعارف بدون تا.
- الإدريسي – وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس عن كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق – تحقيق دوزي ودي خوبه طبق ليدن ١٨٦٦ م
- أنخل جنثالث بالنثيا – تاريخ الفكر الأندلسي – ترجمة حسين مؤنسى طبعة أولى القاهرة ١٩٥٥
- أنور الرفاعي – الإسلام في حضارته ونظمه طبعة دار الفكر دمشق ١٩٧٣.
- البكري (عبد الله بن عبد العزيز) المغربفي ذكر بلاد إفريقية والمغرب تحقق دي سلان طبعة الجزائر ١٩١١.
- ابن بسام الشنتريني – الذخيرة في مجلس أهل الجزيرة – القسم الأول والثاني – الجزء الأول طبعة القاهرة ١٩٤٥.
- ابن جبير – الرحلة طبعة بيروت ١٩٥٩.
- جورج حداد– المدخل إلى تاريخ الحضارة طبعة الجامعة السورية ١٩٥٨.
- حسين مؤنس – تاريخ الجغرافيين في الأندلس طبعة ١٩٦٧.
- الحميري – الروض المعطار في خبر الأقطار – تحقيق إحسان عباس طبعة بيروت ١٩٧٥.

- ابن حوقل - صورة الأرض - طبعة بيروت بدون تا.

- ابن الخطيب - الإحاطة في أخبار غرناطة - طبعة القاهرة ١٩٧٣.

- ابن خلدون- كتاب العبر طبعة بيروت دار الفكر بدون تا.

- سعيد عاشور - حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى طبعة بيروت دار النهضة ١٩٧٦.

- ابن صاحب الصلاة - المن بالإمامة طبعة بغداد ١٩٧٩

- عبد القادر ريحاوي-العمارة العربية الإسلامية- طبعة دمشق وزارة الثقافة ١٩٧٩.

- عبد المنعم ماجد- تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في العصور الوسطى بدون تا.

- علي أحمد - معجم أطباء المغرب والأندلس - طبعة دمشق ١٩٩٥.

- كرد علي - خطط الشام طبعة دمشق ١٩٢٦.

- محمود علي مكي - مدريد العربية - طبعة مصر وزارة الثقافة بدون تا.

- المقري-نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب- طبعة دار صادر بيروت ١٩٦٨.

- نبيه عاقل-تاريخ العرب القديم وعصر الرسول طبعة ٣ بيروت دار الفكر ١٩٧٥.

- ول ديورانت - قصة الحضارة - ترجمة زكي نجيب محمود - طبعة القاهرة ١٩٦٥.

. -f.w.robin the story of water supply-okford university-press 1946

-hiti- history of the arab – 5 th. ed London 1951.

-The new encyclopedia 15 the end ed –vol4. the univ ersty of clic aco

المراسلات والمعاهدات والاتفاقيات بين مملكة غرناطة ومملكتي أرغون وقشتالة ٦٩٥ – ٨٩٧هـ / ١٢٩٦ – ١٤٩٢م

الدكتورة أحلام حسن النقيب
أستاذ مساعد
قسم التأريخ
كلية التربية
جامعة الموصل

ملخص البحث:

شهدت الساحة السياسية الأندلسية في نهاية القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي تطورات واضحة في سياسة بعض الممالك الإسبانية من جهة ومملكة غرناطة من جهة ثانية أدت إلى قيام علاقات بينهما اتسمت بطابع الصداقة في أغلب أوقاتها بعد أن كانت حالة الحرب هي السائدة .

وهدف بحثنا هو تتبع العلاقات السياسية بين مملكة غرناطة العربية الإسلامية وجارتيها مملكتي أرغون وقشتالة النصرانيتين للفترة من ٦٩٥-٨٩٧هـ / ١٢٩٦-١٤٩٢م من خلال رسائل صدرت عن بلاط غرناطة إلى بلاط أرغون وقشتالة في

شأن العلاقات بينهما فضلاً عن الاتفاقيات والمعاهدات التي أُبرمت بين هذه الأطراف .

ويحاول البحث أيضاً كشف الأسباب التي تقف وراء استمرار تلك العلاقات أو انقطاعها من خلال التعرف على الظروف التي تحكم المنطقة بشكل عام وأثر ذلك على هذه الممالك بالاعتماد على ما جاء في المصادر التاريخية المعاصرة للحدث أو القريبة منه .

هذه العلاقات اتسمت بطابع السلم وحرص أطرافها على استمراريتها بما يخدم مصالحها السياسية على الرغم مما كان يشوبها من فتور ناجم أحياناً عن اضطرابات داخلية أو مشكلات خارجية قد ينجر لها أحدهم فتنعكس سلباً على الآخر .

المقدمة:

قامت علاقات سياسية بين مملكة غرناطة العربية الإسلامية ومملكتي أرغون وقشتالة النصرانيتين لأكثر من قرنين من الزمان، وقد وقفنا على طبيعة هذه العلاقات من خلال الرسائل التي تبودلت بين هذه الممالك فضلاً عما أشارت إليه المصادر التاريخية، هذه العلاقات لم تقتصر في ضوء المراسلات على ملوك هذه الممالك فحسب وإنما شملت بعض وزراء غرناطة وقادتها، وأكدت في موضوعاتها على تعميق روح الصداقة والمودة مع بعضها البعض.

وقد حرصت هذه الأطراف على عقد اتفاقيات ومعاهدات صلح جديدة وتجديد معاهدات أخرى كانت قد أبرمت وأُقرت من قبل بين غرناطة وأرغون وقشتالة وحسبما أظهرته الاتفاقيات .

وقد اعتمدت مملكة غرناطة في مراسلاتها على شخصيات وزارية قوية وصفت بالدقة والمهارة في العمل واتسمت بسمات فكرية مقرونة بكفاءة إدارية عالية، وفقاً

لمستجدات الأحداث واستجابةً لمتطلبات الظرف وصولاً لتحقيق أهدافها وسيادتها، وفي مضمون البحث سنتعرف على أبرز شخصيات غرناطة الوزارية ممن كان لها الدور الكبير والمؤثر في مراسلات غرناطة مع مملكتي أرغون وقشتالة.

الرسائل المتبادلة بين هذه الأطراف أكدت على العلاقات الوطيدة الطيبة المقرونة بالمودة والصداقة فضلاً عن استخدام ألقاب التفخيم للملك جيمس الثاني ملك أرغون (٦٩٠-٧٢٧هـ / ١٢٩١-١٣٢٧م)[١]، وهو سياق تقتضيه بطبيعة الحال العلاقات الدبلوماسية بين هذه الأطراف والتي تحرص على ديمومة مصالحها مع الطرف الآخر .

وفي ضوء هذه المراسلات شهد عهد السلطان محمد بن محمد بن يوسف الشهير بالفقيه[٢] (٦٧١-٧٠١هـ / ١٢٧٢-١٣٠١م) أول رسالة حملت في مضمونها نص المعاهدة التي أبرمت مع مملكة أرغون على عهد ملكها جيمس الثاني في ١١ رجب سنة ٦٩٥هـ / ١٥ أيار ١٢٩٦م[٣] فاعتبرت هذه الرسالة بداية مرحلة جديدة في العلاقات وإقرار الصلح الذي تقرر سريانه في المملكتين بحسب ما أظهرته الاتفاقية .

وهنا لابد من سؤال يطرح نفسه وهو لماذا حرص الطرفان في ذلك الوقت بالذات على عقد صلح بينهما ثم ما هو أثر ذلك على علاقة الممالك المجاورة من جهة وغرناطة وأرغون من جهة ثانية؟ .

وقبل أن نجيب عن ذلك لابد لنا من الإشارة إلى أن ما تحفظه المصادر التاريخية القريبة إلى عهد السلطان محمد الفقيه نؤكد بأنه كان "ممهد الدولة ... أقام رسوم الملك فيها .. مستظهراً على ذلك بسعة الصدر وأصالة السياسة ورصانة العقل.. وطول الحنكة .. وتملؤه التجربة "[٤] .

وهذا يعني أن المدة الطويلة التي أمضاها قبل عقد الاتفاقية والتي بلغت عشرين سنة كانت كافية لتعطيه رؤية شاملة وتهديه إلى سياسة صائبة تعزز من دولته ومصالحها

خاصة أحس بفداحة الخسارة التي لحقت بغرناطة يوم ارتضى أن ينحاز إلى ملك قشتالة سانشو الرابع ٦٩٥-٧١٢هـ / ١٢٩٥-١٣١٢م ويتفق على وضع خطة للسيطرة على جزيرة طريف Tarifa كإجراء لإبعاد المرينيين عن شؤون غرناطة(٥) . فتعهد إبن الأحمر في وقتها لملك قشتالة بالإنفاق على جيشه مدة الحصار لقاء أن يسلمها إليه بعد سقوطها، وبعد أربعة أشهر من الحصار المفروض عليها والذي اشترك فيه الملك جيمس الثاني بموجب الاتفاق القائم مع قشتالة آنذاك ضد المرينيين سقطت في شوال سنة ٦٩١هـ / ١٢٩١م وكانت المصيبة أعظم عندما رفض ملك قشتالة التنازل عنها رغم استلامه ستة حصون من ابن الأحمر لقاء تعاونه(٦) . فذهبت طريف المعبر الاستراتيجي الذي يتم منه جواز المغاربة، والقاعدة التي تشكل عيناً على من يفقدها من الاثنين المغاربة والغرناطيين(٧) .

وكرد فعل لما جرى عبر السلطان محمد الفقيه إلى المغرب ليعتذر للمرينيين عما حدث وليعيد المياه إلى مجاريها وتحقق له ما أراد(٨) . لكنه من جهة ثانية واصل جهاده في جبهة قشتالة محققاً انتصاراً عسكرياً مهماً حين تمكن من فتح مدينة قيجاطة* والحصون التابعة لها وذلك في محرم سنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م(٩)، كما نازل مدينة القبذاق من أعمال قرطبة فدخلها في شوال سنة ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م(١٠) .

أما فيما يتعلق بالأسباب التي دفعت مملكة أرغون إلى توثيق صلاتها مع غرناطة هي أنها أدركت على عهد ملكها جيمس الثاني أن صلاتها مع العالم الإسلامي بوجه عام يكفل لها رفاهاً اقتصادياً ويعينها على حاجاتها، وهو منهج اعتمده الملك منذ السنة الثانية من حكمه ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م(١١). يضاف إلى ذلك أن مملكة أرغون كانت تجد في نفسها المنافس القوي لقشتالة فسعت إلى تقوية نفسها بالتدخل في شؤون قشتالة خاصةً بعد وفاة ملكها سانشو الرابع لتزيد من أوضاع قشتالة سوءاً من جهة(١٢)، ولتعزز تواصلها مع غرناطة من جهة ثانية فبادرت إلى عقد اتفاقية جديدة وقعت في

أواخر ربيع الثاني سنة ٧٠١هـ / كانون الأول ١٣٠١م أي قبل وفاة السلطان الغرناطي محمد الفقيه ببضعة أشهر(١٣)، حيث نصَّت هذه الاتفاقية على ما يأتي :

- أن يكون أصحاب غرناطة أصحاب لأرغون وأعداءهم من أهل قشتالة أعداءً لأرغون.
- أن يدفع الضرر والفساد بين البلدين ولا سبيل لأحد في ذلك لا في البر ولا في البحر .
- يتعهد سلطان غرناطة بمعاونة أرغون ضد ملك قشتالة إذا ما شنَّ الأخير غاراته على منطقة مرسية .
- أن لا يعقد أي طرف صلحاً أو هدنة مع قشتالة إلا بموافقة حليفه .
- يتعهد سلطان غرناطة بإعانة ملك أرغون بفرسان من عنده في أرض مرسية شريطة أن يضمن لهم المأكل والعلف من يوم خروجهم ويتم تعويض الفرسان بالمال في حالة موت دوابهم .
- أن لا يعترض سلطان غرناطة على كل موضع تحصل عليه أرغون من قشتالة شرط أن لا يكون تابعاً لغرناطة وتتكفل أرغون بمساعدة غرناطة في استرجاع أراضيها التي احتلتها قشتالة إن كانت تحت حكم ألفونسو حاكم قشتالة أو أخيه الدوق فراندة .

فالظروف الداخلية التي عاشتها غرناطة بعد وفاة السلطان محمد الفقيه تعكس حالة الاضطراب الداخلي التي عاشتها تاركةً الاهتمام بالشؤون الخارجية إن لم نقل أن الممالك الإسبانية لم تعد تنظر إليها نظرة القوي الذي يحسب له حساب، المهم أنه ما أن نصّب السلطان محمد الثالث* الشهير بالمخلوع ٧٠١-٧٠٨هـ / ١٣٠٢-١٣٠٩م الذي بدأ عهده بمحاربة مملكة قشتالة التي عقدت معه هدنة أمدها ثلاث سنوات(١٤)

حتى بدأت الأحوال تتدهور شيئاً فشيئاً بسبب الأوضاع الداخلية التي اتسم بها حكمه كالفتن التي انتهت الأمور في واحدة منها إلى خلعه ونُقل على أثرها إلى مدينة المنكب Almunecar فنصّب أخوه بدلاً عنه(١٥) وتوقع الناس أن أحوال البلاد ستتحسن والفتنة ستهدأ غير أن الواقع أثبت عكس ذلك فما أن تولى السلطان نصر بن محمد المعروف بأبي الجيوش ٧٠٨-٧١٣هـ / ١٣٠٩-١٣١٤م السلطة حتى عصفت بالبلاد أوضاع جديدة هي أكثر سوءاً من التي قبلها فكانت أيامه كما وصفها ابن الخطيب " كما شاء الله أيام نحس مستمر "(١٦) بسبب فساد تدبيره وسوء سيرته حتى وصل به الحال إلى الخضوع لملك قشتالة فرناندو الرابع (٧١٢-٧٥١هـ / ١٣١٢-١٣٥٠م) وتعهده له بدفع الجزية،(١٧) الأمر الذي أثار غضب الناس عليه فقامت الثورة ضده بقيادة ابن عمه صاحب مالقة* الرئيس أبو سعيد فرج ابن إسماعيل الذي تحرك نحو غرناطة وهزم قوات السلطان النصري الذي تنازل عن الحكم ليتولى أمر غرناطة بدلاً عنه السلطان إسماعيل ابن فرج الشهير بالأول ٧١٣-٧٢٥هـ / ١٣١٤-١٣٢٥م الذي اشتهر بالعدل والعفة(١٨) .

أما على صعيد الأوضاع الخارجية فقد حدث العدوان القشتالي الأرغوني الجديد على غرناطة(١٩) بعد أن تقرر في سنة ٧٠٨هـ / ١٣٠٩م حيث عقد تحالف بين فرديناند الرابع Frdenand IV ملك قشتالة وجيمس الثاني ملك أرغون برعاية البابوية للقيام بحملة صليبية على غرناطة وشرع الملكان في تنفيذ اتفاقهما عملياً وتقرر احتلال الجزيرة الخضراء ALgeciras وجبل طارق Gibraltar فضلاً عن الشروع في احتلال المرية ALmeria من قبل أرغون التي تناسى ملكها العهود والمواثيق التي أبرمها مع سلاطين غرناطة قبل ذلك وبدأت القوات في محاصرة المرية وجبل طارق، ولكن القوات الغرناطية استطاعت إلحاق الهزيمة بقوات الملك جيمس الثاني المحاصرة للمرية بينما شددت القوات القشتالية الضغط على الجبل براً وبحراً فسقط في أواخر سنة ٧٠٩هـ / ١٣١٠م(٢٠) . وزيادة في تدهور أوضاع غرناطة الخارجية

ما قامت به من تحريض لشيخ الغزاة القائد عثمان بن أبي العلاء* ودفعه للسيطرة على سبتة بل ودعمه في معارك مباشرة خاضها ضد أبناء عمومته حكام المغرب في شمال العدوة المغربية تلك الرواية التي ابتدأت منذ سنة ٧٠٥هـ / ١٣٠٥م ولم تنته إلا عندما تمكن المرينيون من إلحاق الهزيمة بعثمان بن أبي العلاء وتحرير سبتة في ١٠ صفر ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م[٢١] .

ومهما يكن من أمر فإن عهد السلطان إسماعيل الأول شهد جهداً كثيفاً ونشاطاً واضحاً في العلاقات السياسية مع مملكة أرغون فقد سجلت أول رسالة بعثها إلى ملكها جيمس الثاني في ٢٣ من صفر سنة ٧١٤هـ / ٢٩ أيار ١٣١٤م وهي جواب على رسالة وصلت إليه وعكست الود الذي يكنّه الطرفان لبعضهما فضلاً عن المشاعر المطمئنة التي قدمها سلطان غرناطة لملك أرغون بشأن رعاياه حيث قال (... وذكرتم أن كل من عندكم بجميع بلادكم من ناسنا وأهل بلادنا محمول على الأمن والحفظ على النفس والمال وجميع الأحوال ... فقابلناه بمثله ...)[٢٢]، وقد سجلت الرسالة المؤرخة في ١٧ ذي القعدة سنة ٧١٤هـ / ٢٤ آذار ١٣١٥م تطوراً مهماً في العلاقات بين البلدين فقد جاءت في مضمونها استجابة السلطان إسماعيل الأول لرغبة الملك جيمس الثاني في تجديد الصلح معه، (... إذا أردتم صحبتنا وتجديد العهود التي كانت بينكم وبين جدنا ... فنحن نريد من ذلك ما تريدون، ونوافقكم على ما يكون فيه الخير والصلاح للطرفين فلا تمنعوا رسولكم من الوصول إلينا فلا موجب لمنعه...) .

كما أشارت الرسالة إلى قرار غرناطة بإيقاف العمليات العسكرية من جهتها في جبهة أرغون (... لما ظهر لنا من مقاصدكم الحسنة ولما تضمنته كتبكم من الأغراض المشكورة أن منعنا جيشنا الذي بحضرتنا أن يقف على شيء من أرضكم أو يتعرض لبلد من بلادكم فما وقف لكم علمنا على موضع، مع كثرة المرغبين لنا في ذلك والطالبين له...)[٢٤] .

وقد كشفت الرسالة المؤرخة في ١٢ شوال ٧١٦هـ / ٢٨ كانون الأول ١٣١٦م المرسلة من السلطان إسماعيل الأول عن طبيعة المباحثات الدائرة بين البلدين بشأن الصلح المقرر إبرامه مع أرغون، كما كشفت عن وجود مساع أخرى كانت حثيثة بشأن الصلح نفسه، كما أكدت أيضاً على طبيعة العلاقات القائمة بين المملكتين وأوضحت بأنه لا وجود لصلح بينهما منذ عهد السلطان محمد الفقيه ثاني سلاطين غرناطة(٢٥) .

وهنا لابد أن نوضح أمراً مهماً يتعلق بالممالك الإسبانية التي عانت في تلك المدة من غموض في أوضاعها يرجع إلى المناورات والمطامع الشخصية والصراعات التي نجمت بينها فحال ذلك من إبرام علاقات مع غرناطة بينما سعت الأخيرة إلى الاهتمام بشؤونها الداخلية وعدم استغلال فرصة الفتن الناشبة في تلك الممالك(٢٦) . وهذا الأسلوب في جوهره كان على النقيض مما تفعله تلك الممالك التي ما أن تلحظ اضطراباً أو تناحراً داخل غرناطة حتى تشن حملاتها إمعاناً في إيذائها واستحواذاً على أراضي جديدة .

وبحلول سنة ٧٢١هـ / ١٣٢١م عقد السلطان إسماعيل الأول معاهدة مع الملك جيمس الثاني مدة خمسة أعوام من تأريخ الرسالة المؤرخ في ١٧ ربيع الثاني سنة ٧٢١هـ / ١٦ أيار ١٣٢١م التي حملها سفير أرغون سيمون دي طوبية Simon de Tobiya بصحبة سفير غرناطة الحسن علي حسن الغراف مؤكدةً في نصوصها على ما يلي:

- أن يعقد بين الطرفين (صلح ثابت محفوظ العهد مؤكد العقد) مدة خمسة أعوام .
- تؤمن به أراضي المملكتين أماناً تاماً براً وبحراً سراً وجهراً .
- أن يعادي كل طرف عدو الطرف الآخر ولا يقبله ولا يعينه كائناً من يكون .

- أن لا يمنع ملك أرغون من يريد الخروج من أرضه من المدجنين إلى أرض المسلمين بأهلهم وأموالهم آمنين (موفوعاً عنهم الاعتراض من غير شيء يلزمهم إلا المغرم المعتاد)(٢٧) .

وقد كانت الرسالة التي بعثها إسماعيل الأول في ٣ محرم سنة ٧٢٣هـ / ١٢ كانون الثاني ١٣٢٣م بصدد موضوع أسر جفن بلنسي يدعى صاحبه برنقير قلفاط فسرح ثمانية أشخاص منهم وأبقى ثلاثة هم : ابن البقيق الحجام من غرناطة، وأحمد الأعرج من وادي أشن، وأحمد البحري من المنكب وذكرت حادثة الاعتداء التي وقعت على الغليوط* galeota الخارج من المرية متجهاً إلى لقنت فهاجمته قرقورة* أُسرت شخصاً منه ثم هاجمه شيطي* بالقبطة وأسر امرأتين وصبيتين وصبياً بيعوا بعدها في جزيرة اليابسة(٢٨) .

وقد تناولت الرسالة المؤرخة في ١٧ جمادى الثاني سنة ٧٢٣هـ / ٢٣ حزيران ١٣٢٣م من قبل السلطان إسماعيل الأول إلى الملك جيمس الثاني الصلح الذي عقد مع أهالي لورفة ومرسية في ضوء المعاهدة التي أبرمت مع ملك أرغون ومع ذلك فقد أظهروا غدرهم وفسادهم بسبب عدوانهم على موفدي ملك غرناطة إلى أرغون وقتلهم ونهب أموالهم وفيها يطالب السلطان إسماعيل باتخاذ الإجراءات بحقهم(٢٩) .

وفي سنة ٧٢٤هـ / ١٣٢٤م صدرت خمس رسائل من بلاط السلطان إسماعيل الأول إلى أرغون كانت مضامينها تتعلق بتجاوزات وقعت مخالفةً للصلح المبرم بينهما مطالبةً بمعالجة تلك التجاوزات(٣٠)، وكانت رسالة ٢٩ من ذي الحجة سنة ٧٢٤هـ / ١٧ كانون الأول ١٣٢٤م إلى الملك جيمس الثاني تحتوي على ذكر عدد من الأحداث منها إطلاق سراح الصبي الذي أُخذ في الإيركة* التي أقلعت من إشبيلية .

وقد تضمنت رسالة السلطان الموجهة إلى الملك جيمس الثاني في ١٧ شعبان سنة ٧٢٤هـ / ٩ آب ١٣٢٤م شكره لإطلاق سراح المسلمين الستة المأسورين في زمن

الصلح بصحبة رسول أرغون، بينما أشارت الرسالة الموجهة إليه في جمادى الثاني سنة ٧٢٤هـ / أيار ١٣٢٤م عن بعض الشكايات التي استفسر عنها رسول أرغون الذي وصل إلى غرناطة والمدعو غليم سمنويه Guillem de saynuwiye ومنها طلب اثنين من رعايا أرغون أُسرا في بلش وقد أخبر السلطان ملك أرغون بأنه أرسل أصحابه الثلاثة مع شمون طوبية فتعرضوا في طريق العودة إلى اعتداء من قبل الجواسيس الذين أُلقي القبض عليهم وقتلوا في غرناطة، ويختم السلطان رسالته بجملة شكايات حملها نيابةً عنه سفيره يحيى بن ذنون لغرض حلها عملاً بالمثل ويبدي في آخر الرسالة ارتياحه من السفير الأرغوني غليم على ما ظهر منه، وامتعاضه الشديد من موفده المرافق لغليم بيرو روبرت Pero Robert لارتكابه أموراً منكرة وغير صحيحة[٣١] .

وبحلول السادس والعشرين من رجب سنة ٧٢٥هـ / يونيو ١٣٢٥م أُعلن عن مقتل السلطان إسماعيل الأول على يد ابن عمه محمد بن إسماعيل ليخلفه ولده السلطان محمد الرابع ٧٢٥-٧٣٣هـ / ١٣٢٤-١٣٣٣م فكان أديباً شجاعاً ذا مروءة فتح حصن قبرة ومنع الأسبان بسياسة وملاينة من جبل الفتح[٣٢]، ثم راح يرتب أوضاع بلاده فانصرف إلى أرغون راغباً في تجديد الصلح مع ملكها جيمس الثاني وبعث له برسالة في ١١ جمادى الآخر سنة ٧٢٦هـ / ١٧ أيار ١٣٢٦م ذكر فيها استلامه لكتابه من يد رسوله جوان إنريق juan Enric ورفيقه جيمس من قلعة أبوب متضمناً رغبة الملك في تجديد الصلح الذي كان سارياً مع والده مدة خمسة أعوام فأكد موافقته على ذلك، وقد تضمنت المعاهدة البنود التالية :

- تجديد الصلح الذي كان سارياً بين المملكتين مدة خمسة أعوام أولها نصف شهر أيار سنة ١٣٢٦م / أواسط جمادى الآخر سنة ٧٢٦هـ .

- أن لا يعين أحد على آخر عدواً في البحر ولا في البر بـأي وجـه مـن وجـوه الإعانة .
- إذا خرج أحد على طاعة بلده فلا يضم إلى ذلك البلد ولا يقدم له العون في قوت أو أي شيء آخر .
- أن لا يمنع المسلمون المدجنون بمملكة أرغون من الخروج إلـى أرض غرناطـة بأموالهم وعيالهم من غير أن يتعسف عليهم في شيء ولا أن يطلب منهم مغرماً إلا على وفق ما جرت به العادة[٣٤] .

أما نهاية السلطان محمد الرابع فلم تكن أفضل من نهاية أبيه فاغتيل هو الآخر أيـضاً فخلفه أخوه يوسف الأول أبو الحجاج أعظم سـلاطين غرناطـة ٧٣٣-٧٥٥هـ / ١٣٣٣-١٣٥٤م والذي حدثت في عهده وقعة طريف[٣٥]، وعلى أثرها عقدت معاهدة مع بيدرو الأول ملك قشتالة ٧٥١-٧٦٩هـ / ١٣٥٠-١٣٦٩م ووضـعت قواعـد لافتكاك الأسرى[٣٦] .

ومما يلفت النظر أن العلاقات السياسية لم تقتصر في ضوء المراسلات علـى ملـوك البلاد فحسب بل شملت بعض وزراء غرناطة ممن تميزوا بالدقة في العمل واحتـرام الأمانة التي كلفوا بها، وعدم استغلال المنصب الوظيفي للأمور الشخصية، فاستعانت مملكة غرناطة بشخصيات وزارية قوية لها سمات فكرية محددة مقرونة بكفاءة إدارية لاحقة لابد أنها كانت ترمي من ذلك أن تكتسب سياستها اتجاهاً فكريـاً قـادراً علـى الاستجابة لمتطلبات الظرف وصولاً لتحقيق أهدافها وسيادتها .

وفي السابع والعشرين من ذي القعدة من سنة ٧٣٥هـ / ١٣٣٥م أوفد السلطان أبـو الحجاج يوسف بن إسماعيل سفيره ووزيره أبا الحسن كماشة إلى ألفونس الرابع ملـك أرغون ٧٣٦-٧٨٩هـ / ١٣٣٦-١٣٨٧* يطلب تجديد معاهدة الصلح المعقودة بـين الطرفين فأجابه في ذلك ونجح الوزير في مهمته[٣٧] .

وفي الخامس عشر من ذي الحجة من العام نفسه أرسل السلطان أبو الحجاج يوسف كبير وزرائه الحاجب أبو النعيم رضوان إلى ملك أرغون ألفونسو الرابع يطلب تسريح الأسرى الموجودين عنده وإعادتهم إلى ذويهم، وقد استجاب ملك أرغون لطلب غرناطة وقام بتسريح الأسرى وأرسلهم إلى ذويهم(٣٨) .

وفي الرابع من ذي الحجة من عام ٧٣٦هـ / ١٣٣٦م أرسل سلطان غرناطة المذكور كبير وزرائه أبو النعيم رضوان إلى الملك الأرغواني بيدرو الرابع ٧٨٩هـ / ١٣٨٧م سلطان بلنسية وسردينيا وقمط برجلونة فكان اسمه يذكر مع الأقاليم الخاضعة لحكمه(٣٩)، لتجديد معاهدة السلم والصداقة وتجديد الصلح الذي كان قائماً بين أسلاف سلطان غرناطة وأسلاف ملك أرغون وقد جدد الطلب بين الطرفين وعاد الحاجب رضوان إلى غرناطة(٤٠)، محققاً النتائج التي من أجلها ذهب نظراً لشخصيته القوية المؤثرة فأكتسب رضى الطرفين عنه .

وفي أواخر سنة ٧٤٥هـ / ١٣٤٥م عقد السلطان أبو الحجاج مع بيدرو الرابع ملك أرغون معاهدة صلح ومهادنة جديدة في البر والبحر لمدة عشر سنوات على يد سفيره ووزيره أبا الحسن كماشة والذي قام عن السلطان بهذه المهمة إلى بلاط أرغون حيث تمت الموافقة على الصلح بتأريخ ٧٤٦هـ / ١٣٤٥م، وفي ٤ ربيع الأول من سنة ٧٤٦هـ / ١٣٤٥م أرسل السلطان المذكور وزيره أبا الحسن كماشه إلى ملك أرغون بيدرو الرابع لعقد صلح بين الطرفين وعدم الإغارة على سواحل المسلمين وإلحاق الضرر بها وانعقد الصلح بين الجانبين واستقامت الأحوال(٤١) .

وبعد اغتيال السلطان أبي الحجاج يوسف الأول عام ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م، وهو سابع ملوك بني نصر(٤٢)، مرَّت مملكة غرناطة بوضع مضطرب توالى على عرشها أمراء ضعاف لم يكونوا بمستوى المسؤولية فقد خُلع بعضهم أكثر من مرة فقد برز للحكم السلطان محمد الغني بالله ٧٥٥-٧٦٠هـ / ١٣٥٤-١٣٥٩م، وقد رافق عهده حوادث

واضطرابات فعُزل في سنة ٧٦٠هـ / ١٣٥٩م وغادر الأندلس إلى المغرب ثم عاد إلى الأندلس واستلم ملكه ثانيةً وفي سنة ٧٦٥هـ / ١٣٦٣م أرسل السلطان المذكور، ابن خلدون سفيراً عنه لملك قشتالة بيدرو الأول(٤٣) واستمر ملكه حتى سنة ٧٩٣هـ / ١٣٩٠م وفي نهاية عهده عقد صلحاً مع قشتالة(٤٤) .

وفي عهد السلطان أبي الحجاج يوسف الثاني ابن الغني بالله ٧٩٣-٧٩٧هـ / ١٣٩١-١٣٩٤م أرسل وزيره ابن زمرك* على رأس وفد إلى ملك قشتالة هنري الثالث في سنة ٧٩٣هـ / ١٣٩١م لعقد معاهدة صلح معه(٤٥)، وفي عهد السلطان يوسف الثالث ٨١٠-٨٢٠هـ / ١٤٠٧-١٤١٧م جدد الهدنة مع مملكة قشتالة لمدة سنتين(٤٦) .

وفضلاً عن مهمة ابن زمرك السياسية كانت مهمة الوزير يوسف بن كماشة* حينما أرسلته السلطانة عائشة الحرة* على رأس وفد عام ٨٩٠هـ / ١٤٨٥م إلى ملك قشتالة فرناندو الخامس ليفاوض في الإفراج عن ابنها السلطان (أبو عبد الله محمد)* آخر سلاطين غرناطة أثناء وقوعه أسيراً في معركة عند قلعة اللسانة Lacena جنوب شرق قرطبة ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م خلال ولايته الأولى في حكم غرناطة ٨٨٧-٨٨٨هـ / ١٤٨٢-١٤٨٣م حيث انتهت المفاوضات بين الطرفين بإطلاق سراح السلطان أبو عبد الله محمد سنة ٨٩٠هـ / ١٤٨٥م بعد شروط اتفق عليها الطرفان(٤٧)، وتولى أمر غرناطة أبو عبد الله الزغل ٨٩٠-٨٩٢هـ / ١٤٨٥-١٤٨٧م ثم عاد السلطان أبو عبد الله الصغير إلى عرشه مرةً ثانية ٨٩٢-٨٩٧هـ / ١٤٨٧-١٤٩١م وأثناء ذلك عقد الزغل معاهدة مع ملك قشتالة(٤٨) .

وفي عهد السلطان أبي عبد الله الصغير وخلال ولايته الثانية ٨٩٢-٨٩٧هـ / ١٤٨٧-١٤٩٢م كلف وزيره أبو القاسم عبد الملك* بمهمة التفاوض مع ملك قشتالة سنة ٨٩٦هـ / ١٤٩١م حول تسليم غرناطة (قصر الحمراء) وكان يعاونه في

المفاوضة الوزير يوسف بن كماشة فقد كان مثله ومن خاصة السلطان ومن أنصار سياسة التسليم(٤٩) .

وفي العام نفسه ٨٩٦هـ / ١٤٩١م كلف السلطان المذكور وزيره أبو القاسم عبد الملك بعقد اتفاقية بينه وبين ملكي قشتالة فرناندو وإيزابيلا باعتباره كان (أبو القاسم عبد الملك) مندوب السلطان أبو عبد الله المفوض(٥٠) وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على أن الوزير الغرناطي كان ذو مقدرة سياسية عالية في تعامله مع الأمور والمواقف ومستجدات الأحداث.

ولم تقتصر الرسائل على الوزراء فقط بل كان من حصة والي قصبة المرية(٥١) يوسف بن محمد بن كماشة* رسالة واحدة من بين تلك الرسائل خص بها الدون أرنوطراش Arnau Torres والي أريولة بعثها له في ١٨ جمادى الثانية سنة ٧١٦هـ / ٨ أيلول ١٣١٦م تضمنت الإجابة عن تساؤلات الأخير بشأن الصلح المقرر عقده بين المملكتين (غرناطة وأرغون) والطلب منه إيقاف عمليات الإغارة مدة عشرين يوماً حتى يتوضح الأمر بشكل نهائي .

وأخيراً فإن المراسلات الغرناطية مع مملكتي أرغون وقشتالة قد أغنت المصادر التاريخية التي تناولت تلك الفترة حيث أنها قدمت معلومات جديدة عن العلاقات بين هذه الممالك وضمّنت تفصيلات عما جرى بينها تختلف عما ألمحت إليه تلك المصادر بصورة عاجلة ومتسرعة بل وأضافت إليها الشيء الكثير .

هوامش البحث

(١) Las Documentos Arabs Diplomaticas Del Archivo Dela aragon by Ramon Garcia De linars (madrid - 1940) No. 8, 9,10,11 .

(٢) إسماعيل بن يوسف بن الأحمر، **نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان**، تحقيق : محمد رضوان الداية، بيروت، دار الثقافة للطباعة والنشر – ١٩٦٧، ص١٧ .

(٣) Documentos Arabs Diplomaticas No.1 .

(٤) لسان الدين ابن الخطيب السلماني، **اللمحة البدرية في الدولة النصرية**، بيروت،دار الآفاق الجديدة – ١٩٧٨، ص٥٠ .

(٥) أبو الحسن علي بن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وأخبار مدينة فارس**، الرباط – ١٩٧٢، ص٣٨٠-٣٨١ ؛ يوسف شكري فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، بيروت – ١٩٨٢، ص٣٦ .

(٦) **الأنيس المطرب** ص٣٨٠-٣٨١ .

(٧) عبد الرحمن بن خلدون، **العبر وديوان المبتدأ والخبر**، بيروت – ١٩٥٩، ١٧٣/٤ .

(٨) **الأنيس المطرب** ص٣٨٣-٣٨٤ .

* قيجاطة Quesada مدينة بالأنداس من عمل جيّان تقع على مقربة من أبدة، محمد ابن عبد المنعم الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تح : إحسان عباس، بيروت – ١٩٧٥، ص٤٨٨ .

(٩) ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تح: محمد عبد الله عنان، القاهرة – ١٩٧٦ ١/٥٦٩ .

(١٠) المصدر نفسه ١/٥٦٩، ٥٧٠ .

(١١) عبد الرحمن علي الحجي، **العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الإسبانية**، الكويت – ١٩٨٠، ص٦٥-٦٦ .

(١٢) ماريانو أريباس بالاد، **بنو مرين في الاتفاقيات المبرمة بين أرغون وغرناطة**، مجلة تطوان، العدد الثامن الرباط سنة ١٩٦٣، ص١٩٢ .

(١٣) توفي في ٨ شعبان من عام ٧٠١هـ / ١٣٠١م على مصلات ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص٥٨ .

* يكنى أبا عبد الله نصب ليلة الأحد الثامن من شعبان سنة ٧٠١هـ / ١٣٠٢م فتح مدينة المنظر عنوةً وكان فتحاً عظيماً ثم خلع في عيد الفطر من عام ٧٠٨هـ / ١٣٠٨م وتوفي في الثالث من شوال سنة ٧١٣هـ / ١٣١٤م .

ابن الخطيب، **الإحاطة** ١/٥٥٢-٥٦٤ ؛ **اللمحة البدرية**، ٦٠-٦٩ .

(١٤) ابن الأحمر، **نثير فرائد الجمان** ص١٨ ؛ ابن خلدون، **العبر**، ٦/٢٢٨ ؛ فرحات، غرناطة ص٣٧ .

(١٥) ابن الأحمر، **نثير فرائد الجمان** ص١٨ ؛ ابن الخطيب، **الإحاطة** ١/٥٦٠-٥٦١؛ اللمحة البدرية، ص٦٦-٦٧ .

(١٦) ابن الخطيب، **اللمحة البدرية**، طبعة القاهرة – ١٣٤٧هـ ص٥٧ .

(١٧) المصدر نفسه، بيروت – ١٩٧٨، ص٧٥؛ الحجي، **التأريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة**، دمشق – ١٩٧٦ ص٥٤٨ .

وقد ذكر أن نصر بن محمد قد سعى لعقد معاهدة مع مملكتي قشتالة وأرغون فرفضتا سعيه في ذلك .

ضياء باشا، **الأندلس الزاهية**، تعريب عبد الرحمن أرشيدات، عمان، نشر وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٨٩، ١٦٥/٣ .

* مالقة: مدينة بالأندلس قديمة أزلية عامرة آهلة كثيرة الديار تقع على شاطئ البحر عليها سور صخر وقصبتها في شرق مدينتها وهي غاية في الحصانة والمنعة وحصونها كثيرة ومنيعة وجامعها في المدينة ولها خمس أبواب وفيها مبان ضخمة وحمامات حسنة وأسواق جامعة كثيرة في الربض والمدينة، كثيرة التين والزيتون واللوز والعنب والرمان .

– مجهول، ذكر بلاد الأندلس، تحقيق : لويس مولينا، مدريد – ١٩٨٣ ص٦٨ .

– الحميري، **الروض المعطار**، ص٥١٧، ٥١٨ .

(١٨) نثير فرائد الجمان ص١٨-١٩؛ **اللمحة البدرية**، ٧٥-٧٦؛ محمد بن عثمان المكناسي، **الأكسير في فكاك الأسير**، تح: محمد الفاسي، مطبعة الحدال، الرباط – ١٩٦٥، ص١٨٠ .

(١٩) مارمول كرنجال، **أفريقية**، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي وآخرون، الرباط – ١٩٨٤، ٣٩٦/١ .

(٢٠) ابن الخطيب، **اللمحة البدرية** ص٧٥ ؛ فرحات، ص٤٠ ؛ شارل أندري جوليان، **تأريخ أفريقيا الشمالية**، تعريب محمد مزالي والبشر بن سلامة تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٥، ٢٢٧/٢ . ومن المفيد أن نذكر أن حصارهم للجزيرة الخضراء قد فشل بعد تراجع القشتاليين عنها في شعبان ٧٠٩هـ / ١٣١٠م بعد أن عقد صلح بين ابن الأحمر وملك قشتالة .

ابن خلدون، **العبر**، ٢٤٠/٧ ؛ فرحات، **غرناطة**، ص٣٩ .

* تولى منصب شيخ الغزاة في الأندلس منذ يوم استشهاد أخيه في سنة ٦٩٣هـ / ١٢٩٣م بعد أن كان مرابطاً في مالقة، وأبلى في معارك كثيرة بلاءاً حسناً كالمعركة التي خاضها ضد قوات قشتالة سنة ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م المتوجهة نحو مرشانة ثم في معركة إسطبونة التي قتل فيها قائد الجيش القشتالي بيرش وأعداد كبيرة من قواته، أما أبرز معركة خاضها فهي في سنة ٧١٩هـ / ١٣١٩م قيادته لجنده وقيامه باختراقه صفوف قوات قشتالة التي قدرت أعدادها بأكثر من خمسة وثلاثين ألفاً وأعداداً أخرى من المشاة لسقطت غرناطة توفي في سنة ٧٣٠هـ / ١٣٢٩م وخلفه ولده عامر للمزيد عنه ينظر :

ابن خلدون، العبر ٢٤٩/٧، ٣٧١-٣٧٢ ؛ أحمد بن خالد الناصري، **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تح : جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء – ١٩٥٤، ١٠٩/٣-١١٠ .

(٢١) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص٣٨٧-٣٩٣ .

(٢٢) Documents Arabs Diplomaticas, No. 10 .

(٢٣) Ibid No. 8 .

(٢٤) Documents Arabs Diplomaticas , No. 8 .

(٢٥) Ibid No.12 .

(٢٦) جوليان، **تاريخ أفريقيا الشمالية**، ٢٣٠/٢ ؛ ضياء باشا، **الأندلس الزاهية**، ١٦٦/٣ .

(٢٧) Documei Arabs Diplomaticas , No. 12 .

* الغليوط : يعرف بـ غيلاطة من مراكب الأسطول المصري عرف واستخدم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تميز بسرعته نظراً لضيق عرضه وكبر طوله.

ينظر: سعاد ماهر، **البحرية في مصر الإسلامية**، القاهرة، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧، ص٣٦١ .

* القرقورة : سفينة أصل أسمها بالإسبانية كاراكا ذات حجم كبير مخصصة بحمل المؤن للأساطيل البحرية لها ثلاثة أشرعة ولها القدرة على السير في الرياح الشديدة العاصفة .

محمد المنوني، **ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين**، الرباط ١٩٧٩، ص٧٨ .

* الشيطي: مركب بثمانين مجذافاً مهمته استطلاع واستكشاف الموانئ يتميز بسرعته الفائقة .

المنوني، **ورقات عن الحضارة المغربية** ص٧٨ ؛ سعاد ماهر، البحرية في مصر، ص٣٥٢ .

(٢٨) Documents Arabs Diplomatics , No. 5

(٢٩) Ibid No.16 .

(٣٠) Ibid No.11 .

* الأبركة: من السفن الخفيفة التي كانت تستخدم منذ القدم ماهر، البحرية في مصر، ص٣٣٤ .

(٣١) Documents Arabs Diplomatics , No. 24 .

(٣٢) ابن الأحمر، **نثير فرائد الجمان**، ص١٩ .

(٣٣) Documents Arabs Diplomatics , No. 26 .

(٣٤) Ibid No.27 .

(٣٥) ابن الخطيب، **اللمحة البدرية**، ص١٠٦ ؛ ابن خلدون، **العبر**، ٣٧٥/٤ ؛ المكناسي، **الأكسير**، ص١٧٧ ؛ شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تح : إحسان عباس، بيروت ١٩٦٨، ٤٥٢/١ ؛ أحلام حسن النقيب، **دور الوزير أبو النعيم رضوان في سياسة غرناطة الداخلية والخارجية**، مجلة التربية والعلم، جامعة الموصل، مج١١، العدد ٣، سنة ٢٠٠٤، ص٢، ٥ .

(٣٦) المقري، **نفح الطيب**، ٤١٣/٥ .

(٣٧) أحلام حسن النقيب، **وزراء غرناطة ومهامهم في عهودها المتأخرة**، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، مج١٢، العدد٩ لسنة ٢٠٠٥، ص٣٤ .

(٣٨) أحلام حسن النقيب، **دور الوزير أبو النعيم رضوان في سياسة غرناطة الداخلية والخارجية**، مجلة التربية والعلم، مج١١، العدد٣ ص٦-٧ .

(٣٩) Documentos Arabs Diplomaticas , No. 32,46 .

(٤٠) ابن الخطيب، **كناسة الدكان بعد انتقال السكان**، تح: محمد كمال شبانة، القاهرة – ١٩٦٦، ص١٦٢-١٦٦ ؛ Documts Arabs No. 46

(٤١) Documentos Arabs Diplomaticas , No. 41,56,96,66

وانظر: عنان، **دولة الإسلام في الأندلس، نهاية الأندلس وتأريخ العرب المتنصرين**، القاهرة – ١٩٨٨، ص١٤٨؛ أحلام النقيب، **وزراء غرناطة**، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، مج١٢، العدد٩ سنة ٢٠٠٥، ص٢٧ .

* ابن زمرك : هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الشريحي المعروف بابن زمرك وهو تلميذ ابن الخطيب وخلفه في الوزارة وهو آخر علم من أعلام الشعر الأندلسي درس على يد شيخ النحاة بالأندلس أبو عبد الله محمد بن علي بن الفخار الألبيري، ولإبن زمرك قطع شعرية في وصف الحمراء وقصورها وبساتينها وقد نقشت بعض أبيات شعره على جدران الحمراء وهي جزء لا ينفصل عن زخارف قصور بني نصر، وقد إشتهر بعنفه وإستبداده فنكبه السلطان الغني بالله ونفاه من الحضرة ولم يمكث في الوزارة في عهد ولاية الغني بالله الثانية سوى أشهر قلائل، أساء فيها السيرة وكثر خصومه وفي أواخر سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٥م دهمه جماعة من المتآمرين بمنزله وقتلوه وأهله وكان مولده سنة ٧٣٣هـ / ١٣٣٣م .

ابن الخطيب، **الإحاطة** ١/٧٩، ٥٧، ٤٧؛ **نفاضة الجراب في علالة الاغتراب**، دار النشر المغربية، لا.ت ص٦٦؛ انخل جنتالت بالنثيا، تأريخ الفكر الأندلسي، ترجمة : حسين مؤنس، القاهرة – ١٩٥٥، ص١٣٩-١٤١؛ وانظر ترجمته في بحثنا الموسوم (وزراء غرناطة ومهامهم في عهودها المتأخرة ٧٣٣-٨٩٧هـ / ١٣٣٣-١٤٩٢م) مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، مج١٢، العدد٩، لسنة ٢٠٠٥، ص٣٤ .

(٤٢) المكناسي، **الأكسير في فكاك الأسير** ص١٧٧ .

(٤٣) ابن الأحمر، **نثير فرائد الجمان** ص٢٢-٢٣ .

(٤٤) فرحات، **غرناطة في ظل بني الأحمر** ص٥٢ .

(٤٥) ابن الأحمر، **نثير فرائد الجمان**، ص٢٤ ؛ المقري، **نفح الطيب**، ١٠/٢٨ ؛ فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص٧٥ .

(٤٦) عبد الرحمن الحجي، **التأريخ الأندلسي** ص٥٤٩ ؛ فرحات، غرناطة ص٥٢-٥٣ .

* يوسف بن كماشة : الوزير الماكر وزير السلطان أبو عبد الله محمد ومن خاصته ومن أنصار سياسة التسليم حيث قام بتقديم مفاتيح قصر الحمراء إلى الملك فرناندو الذي سلّمها بدوره إلى قائده لويث دي مندوسا الذي عينه حاكماً عسكرياً على غرناطة وقد تنصر ابن كماشة وانتظم في سلك الرهبان، وباع أملاكه قبل مغادرته غرناطة .

عنان، **نهاية الأندلس وتأريخ العرب المتنصرين**، ص٢٤٤، ٢٦٦، ٢٧٦، ٢٧٧، ٣١٥؛ وانظر ترجمته في بحثنا الموسوم (وزراء غرناطة ...)، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، ص٣٥ .

* عائشة الحرة: عرفت بالحرة تمييزاً لها عن الجارية الرومية المعروفة باسم ثريا، وهي ابنة السلطان الأيسر عبد الله بن محمد بن يوسف (٨٢٠-٨٣١هـ / ١٤١٧-١٤٢٧م) وزوجة السلطان أبو الحسن علي بن سعد الذي حكم مرتين الأولى (٨٦٨-٨٨٧هـ / ١٤٦٣-١٤٨٢م) والثانية (٨٨٨-٨٩٠هـ / ١٤٨٣-١٤٨٥م) وقد أنجبت له ولدين هما أبو عبد الله محمد وأبو الحجاج يوسف وكان للسلطانة عائشة دور في المفاوضات التي جرت بين قشتالة ومملكة غرناطة أثناء وقوع ابنها السلطان أبي عبد الله محمد في الأسر في إحدى المعارك التي كان يقودها ضد العدو القشتالي وكانت جهودها متميزة في ذلك الوقت فقد نجحت في فك ولدها من الأسر بعد أن توصل الطرفان بعقد اتفاقية بينهما .

مجهول، **نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر**، تح: محمد رضوان الداية، دمشق دار حسان للطباعة والنشر – ١٩٨٤، ص٣١، ٤٧-٤٩، ٦١ ؛ فرحات، **غرناطة في ظل بني الأحمر**، ص٥٧-٥٨ ؛ عنان، **نهاية الأندلس**، ص١٩٦-٢٠٦ محمد عبدة حتاملة، **محنة مسلمي الأندلس عشية سقوط غرناطة وبعدها**، ط١، الأردن – ١٩٧٧، ص٧ .

* السلطان أبو عبد الله محمد هو آخر سلاطين مملكة غرناطة وهو ابن السلطان أبو الحسن علي بن سعد والسلطانة عائشة، حكم غرناطة مرتين المرة الأولى (٨٨٧-٨٨٨هـ / ١٤٨٢-١٤٨٣م) والثانية (٨٩٢-٨٩٧هـ / ١٤٨٧-١٤٩٢م) وعلى عهده تم تسليم مفاتيح قصر الحمراء وبذلك ينتهي حكم العرب المسلمين في الأندلس حيث غادرها هو وحاشيته إلى المغرب .

المقري، **نفح الطيب** ٤/٥١٥ ؛ فرحات، **غرناطة في ظل بني الأحمر**، ص٩٢ .

(٤٧) المرجع نفسه، ص٦١ .

(٤٨) المقري، **نفح الطيب** ٤/٥٢٢ .

* أبو القاسم عبد الملك: هو وزير السلطان أبي عبد الله محمد ومندوبه المفاوض في معسكر الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيلا، وقد إضطلع أبو القاسم فضلاً عن المفاوضة في تسليم غرناطة بالمفاوضة في سائر الاتفاقات اللاحقة التي عقدت بين الطرفين ويبدو أن اسمه مذكوراً في معظم الوثائق القشتالية الغرناطية التي أبرمت في هذه الفترة باعتباره مندوب السلطان المفاوض، ولم نعثر على تفاصيل تخص شخصية هذا الوزير أو نشأته ولكن الذي يبدو لنا من مواقفه وتصرفاته أنه كان سياسياً عملياً يؤمن إيماناً قوياً بسياسة التسليم والخضوع للنصارى، وقد ورد اسمه في الوثائق الغرناطية محرّفاً مثل أبو القاسم عبد المليح والأكثر شيوعاً

هو أبو القاسم المليخ، ومن الغريب أن هذا التحريف غلب فيما بعد على كتابة اسمه بالعربية .

عنان، **نهاية الأندلس**، ص٢٤٣-٢٤٤، حتاملة، **محنة مسلمي الأندلس**،ص٢٤، ٥٥ .

(٤٩) مجهول، **نبذة العصر**، ص٤٨-٤٩ ؛ حتاملة، **محنة مسلمي الأندلس**، ص٥٥ ؛ عنان، **نهاية الأندلس**، ص٢٤١، ٢٤٤ .

(٥٠) عنان، **نهاية الأندلس**، ص٢٤٣ .

(٥١) Documentos Arabs Diplomaticas No. 4 .

* لم نعثر له على ترجمة، ولم يذكره ابن الخطيب إلا في إشارة سريعة وردت عن ولده الذي إستوزره فيما بعد السلطان محمد بن يوسف الغني بالله (٧٥٥-٧٦٠هـ / ١٣٥٤-١٣٥٩م) وقد وجدناه غير راضي عنه وقد حفظت الرسائل الغرناطية الصادرة بين عامي ٧٣٥-٧٣٧هـ نصيباً للولد المذكور بعثه إلى ملك أرغون وبعض ولاته .

قارن باللمحة البدرية، ص١٢٦ .

Communications , Institutions and Agreement Between Granada I'slamic Kmgdom and Aragon and Kashtalah

Christion Kingdoms

695-897 A.H. / 1296-1492 A.D.

Abstract :

The Andolosion political field in the end of the 7 th A.H. / 13 th A.D.century has witnessed clear development in the policy f some of the Spanish kingdoms on one hand and Granada kingdom on the other hand , which led to make relationships with them characterized with Friend ship feature . in most time , where it was suffering from war in the past .

The aim of our research is to follow these political relation ships between the Islamic Arabic Granada and its two nerghbors Aragon and kashtalah christion kingdoms. From 695- 897 A.H. / 1296 – 1492 A.D. by letters came from Granada to Aragon and kashtalah regardingt the relation ships between them , as well as in institutions and agreements which have been made between them .

The present research tries also to investigate the reasons behind the continuity of these relation ships or its separation through investigating the conditions which govern the region generally and its effect on these two kingdoms depending on what is written in the contemporary historical resources .

This relation ships were characterized with peace and the care of its sides to keep them on to serve their political interests despite the internal un stabilities or the foreign problems which may be reflected negativelly on the other side .

المؤسسات الوقفية الجزائرية في العصر العثماني ودورها في الحياة الاجتماعية والاقتصادية (أوقاف المساجد التابعة لمؤسسة سبل الخيرات نموذجاً)

الدكتور أعقيل نمير

قسم التاريخ

جامعة دمشق

أولاً: المقدمة

الوقف تعريفاً هو عمل خير دائم ريعه لصالح الجهة الموقوف لأجلها سواء أكان شخصاً أم مؤسسة وذلك بشكل منتظم.

إن فكرة الوقف كانت موجودة في حضارات العرب قبل الإسلام، وبشكل خاص في القانون البابلي الذي سنه حمورابي(١). عرف العرب قبل الإسلام أشكالاً مختلفة من الأوقاف حيث كان الوقف معروفاً في بداية الإسلام تحت اسم صدقة(٢). ثم أخذت كلمة الوقف معناً أخر حيث حث الإسلام المؤمنيين على المساعدة فيما بينهم والعمل على تقديم المساعدات الاجتماعية من أجل تحقيق الرفاهية للمسلمين، بالإضافة إلى أماكن العبادة التي كان يقدم إليها المساعدة من قبل الأوقاف، كالمساجد على سبيل المثال، وكان هناك مؤسسات أخرى تقدم الخدمات العامة لأفراد المجتمع مثل المدارس الدينية، البيمارستانات، وسبل المياه...إلخ(٣). كان هناك شروط وقواعد ضابطة تخص الوقف والواقف وذلك حسب المذاهب الإسلامية ففي الجزائر –كون الدراسة

مكرسة- كان يسود المذهبين الحنفي (مذهب الطبقة العثمانية الحاكمة) وهو الأقل شعبية في هذه الولاية، والمذهب المالكي (مذهب سكان الولاية). ونظراً لشروط الوقف وفق المذهب الحنفي فقد تبين لدينا من الوثائق المتعلقة بذلك إن غالبية سكان الولاية المالكيين وضعوا أوقافهم بحسب المذهب الحنفي حيث يحق للواقف أن يتراجع عن وقفه أو يعدّله. فالجزائر عرفت الوقف قبل مجيءالأتراك العثمانيين إليها في الربع الأول من القرن السادس عشر، إلا إن الوقف اتخذ في الجزائر في العهد العثماني شكل مؤسسة حقيقية لها موظفين يتولون إدارتها، وكان يدير هذه المؤسسة ناظر الوقف يساعده عدد من الموظفيين تتمحور مهمة الجميع في المحافظة على الوقف وصيانته والسهر على ممتلكاته، بما يعود بالنفع الأكبر لصالح الأسخاص أو المؤسسات المستفيدة من هذا الوقف، وقد وجدنا في مدينة الجزائر أن كل طائفة لها مؤسسة خاصة بها تشرف عليها وتدير أملاكها(٤).

فهذا البحث مكرس للحديث عن المساجد التابعة لمؤسسة سبل الخيرات وأملاكها الوقفية سواء داخل مدينة الجزائر أم خارجها كنموذج للمؤسسات الوقفية الجزائرية. ولكن لابد من التعرف على أهم المؤسسات الوقفية في كدينة الجزائر قبل دراسة أوقاف المساجد التابعة لمؤسسة سبل الخيرات وتقديم عدد الأوقاف التابعة لها بالأرقام.

ثانياً- المؤسسات الوقفية في مدينة الجزائر:

لعبت هذه المؤسسات دوراً هاماً في إدارة الأوقاف التابعة لها سواء أكانت أوقاف خيرية أم أوقاف ذرية، وقد تعددت المؤسسات الوقفية بتعدد الأهداف المرجوة منها والمهمات التي أوكلت إليها. ويمكن أن نذكر هنا المؤسسات الوقفية ونرتبها بحسب الأولوية ، وذلك من حيث تغطية الخدمات الاجتماعية والاقتصادية لمدينة الجزائر في العهد العثماني (٥). وأهم هذه المؤسسات الوقفية الخيرية في مدينة الجزائر هي:

١- مؤسسة الحرمين الشريفين:

تعتبر هذه المؤسسة من أهم المؤسسات الوقفية في مدينة الجزائر سواء من حيث المكانة التي تتمتع بها لدى السكان من جهة، أم من حيث عدد الأوقاف التي تعود إليها وتشرف عليها من جهة أخرى. كانت هذه المؤسسة تمتلك حوالي ثلاثة أرباع الأوقاف في إيالة الجزائر بشكل عام، وفي مدينة الجزائر بشكل خاص(٦)، وقد قدر عدد الأوقاف الخيرية لهذه المؤسسة في مدينة الجزائر وضواحيها في السنوات الأولى للاحتلال الفرنسي بـ ١٤١٩ ملكية زراعية وعقارية (٧)فإذا أضفنا إلى هذه الملكيات عقود استئجار ٢٠١ حانوتاً لصلح هذه المؤسسة فيصبح العدد الكلي لأوقافها ١٥٥٨ ملكية بغلة سنوية قدرها ٤٣٢٢٢٧٠ فرنكاً فرنسياً. وكانت غلة هذه الأوقاف تصرف على :

- إصلاح مباني الأوقاف العقارية داخل المدينة.
- إصلاح مكاتب هذه المؤسسة.
- دفع نفقات موظفي هذه المؤسسة.
- إرسال جزء من هذه الغلة إلى فقراء الحرمين في مكة والمدينة وذلك عن طريق قافلة الحج المغربي المصري.
- نفقات أخرى تخص الفقراء في مدينة الجزائر وكذلك الإنفاق على ثلاثة مساجد حنفية في المدينة(٨).

٢- مؤسسة الجامع الأعظم:

تحتل هذه المؤسسة المكانة الثانية، من حيث الأهمية وعدد الأوقاف، بعد مؤسسة الحرمين حيث وجد في مدينة الجزائر ٨٩ مسجداً خاصاً بأتباع المذهب المالكي، وتذكر بعض المصادر إن عددها وصل إلى ٩٢ مسجداً أو ١٠٧ مسجداً حسب

التقديرات الفرنسية(٩)، أما ألبير دوفولكس فقد أحصى في مدينة الجزائر ١٠٩ مسجداً مالكياً و ١٣ مسجداً حنفياً(١٠). ويأتي في مقدمة هذه المساجد المالكية، من حيث الأهمية التاريخية والوقفية، الجامع الكبير أوالجامع الأعظم (كما ورد اسمه في معظم الوثائق المتعلقة بالإوقاف)، وكان القيميين عليه يتولون إدارة أوقافه سواء داخل مدينة الجزائر من حوانيت وبيوت وغيرها من العقارات أم خارج المدينة كأوقاف زراعية مثل بساتين، جنات مزارع....(١١).

٣- مؤسسة سبل الخيرات:

تأتي هذه المؤسسة في المرتبة الثالثة بعد المؤسستين السابقتين وقد بلغت عدد أوقافها حوالي ٣٣١ وقفاً بدخل سنوي قدر عام ١٨٣٧ بـ ١٣٦٣٩فرنكاً فرنسياً(١٢). وكانت هذه المؤسسة مسؤولة أيضاً عن الإدارة والإنفاق على ثمانية مساجد حنفية داخل مدينة الجزائر حيث كان لكل من هذه المساجد أوقافه الخاصة به(١٣).

٤- مؤسسة فقراء الأندلس:

أسست هذه المؤسسة عام ١٥٨٤، وذلك بحسب عقد يشير إلى ذلك، وهو عقد لجزء من حانوت في سوق الصباغيين وقد اعتبر أقدم عقد يؤرخ لهذه المؤسسة(١٤). وقد تضاءلت أهمية هذه المؤسسة في أواخر العهد العثماني، ويدل على ذلك تناقص عدد أوقافها التي كانت ومنذ تأسيسها أوقافاً عقارية داخل مدينة الجزائر،حيث سجلنا ١٠١ وقفاً يعود ريعها للإنفاق على الأسر المنحدرة من من أصل أندلسي وكان يتولى الأشراف على هذه المؤسسة موظف خاص يعرف بوكيل الأندلس(١٥). بالإضافة إلى أوقاف جامع الأندلس وزاويته والبالغة ٤٠ ملكية و ٦١ عناء (١٦) وضعت تحت تصرف وكيل الأندلس (١٧).

٥- مؤسسة الأولياء والمرابطين:

كانت أوقاف هذه المؤسسة موزعة على عدد من الأولياء للإنفاق على أضرحتهم. ففي مدينة الجزائر كانت تتوزع أوقاف الأولياء على تسعة أضرحة، ثمانية منها تقع داخل المدينة وواحد منها وهو سيدي عبد الرحمن الثعالبي يقع خارج المدينة، وأحصينا لهذا المرابط ٤٤ وقفاً عقارياً (حوانيت) وزراعياً (جنات، قطع أرض...) داخل مدينة الجزائر وخارجها(١٨). ولكن في دراسة إحصائية أخرى بلغ عددأوقاف هذا المرابط ٦٩ وقفاً بمدخول سنوي قدره ٦٠٠٠ فرنك فرنسي وذلك عام ١٨٣٧ (١٩)، حيث كانت تنفق على القائمين على الضريح ويوزع قسم منها على فقراء مدينة الجزائر كل يوم خميس بنسبة فرنك إلى ثلاثة فرنكات لكل فرد.

٦- مؤسسة الأشراف:

كان عدد أسر الأشراف في مدينة الجزائر حوالي ٣٠٠ أسرة وقد وجدنا بعض الأوقاف التابعة لهذه المؤسسة في معظم الوثائق التي درسناها في أرشيف ماوراء البحار في فرنسا ولكن عددها قليل جداً إذا ماقارناها مع غيرها من المؤسسات الوقفية التي درسناها.

٧- أوقاف الجند والثكنات والمرافق العامة:

كان هناك عدد من الأوقاف، سواء داخل مدينة الجزائر أم خارجها، مخصص ريعها للإنفاق على المرافق العامة، كالطرق والعيون والسواقي والقنوات(٢٠)، وكذلك بعض الأوقاف الخاصة باجند والثكنات والتي بلغ عددها في مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني بحوالي سبع ثكنات (٢١)وكان لكل مصلحة من هذه المرافق وكيل خاص بها يرعى أوقافها ويتعهد شؤونها مثل وكيل العيون والسواقي.

ثالثاً- مؤسسة سبل الخيرات كنموذج للمؤسسات الوقفية:

يعود تأسيس هذه المؤسسة إلى سنة ١٠٧٣هـ/١٦٦٢م(٢٢)، ولكن رجح بعض المؤرخين أن تأسيسها يعود إلى سنة ٩٩٩هـ/١٥٨٤م على يد شعبان خوجه (٢٣) وتمتعت بمكانة مرموقة في أواخر العهد العثماني حيث أصبحت تحتل المرتبة الثانية بعد مؤسسة الحرمين من حيث وفرة مداخيلها وكثرة أوقافها، ويعود ذلك إلى دعم الطبقة الحاكمة العثمانية والكراغلة (٢٤) الذين كانوا يوقفوا أملاكهم لصالح المساجد الحنفية. بالإضافة إلى ذلك كانت هذه المؤسسة مسؤولة عن إدارة وإصلاح أوقاف ثمانية مساجد حنفية تابعة لها مع العلم أن مساجد المذهب الحنفي في مدينة الجزائر هي أربعة عشر مسجداً (٢٥)، أما المساجد التي تتولى هذه المؤسسة إدارتها والإنفاق عليها فهي:

١- الجامع الجديد
٢- جامع صفر
٣- جامع شعبان باشا
٤- جامع كجاوه(٢٦)
٥- جامع حسين داي أو موزومورطو في باب عزون(٢٧).
٦-جامع علي خوجة
٧- جامع دار القاضي
٨- جامع الشبارلية(٢٨).

1- الأوقاف العامة المسجلة باسم مؤسسة سبل الخيرات:

بلغ عدد الأوقاف العقارية من الحوانيت التي أحصيناها في مدينة الجزائر والتي تعود لمؤسسة سبل الخيرات ٩٢ حانوتاً بغلّة سنوية قدرها ٤٤٥٥ ريالاً جزائرياً، وقد وزعنا هذه الحوانيت بحسب الأحياء التي كانت توجد فيها كما يبين الجدول التالي:

اسم الحي	عدد الحوانيت	الغلة السنوية بالريال	ملاحظات
سوق باب عزون	٦	٣٧٦	
سوق عمور	٥	٢٧٥	
سوق السمن	٢	١٤٣	
حومة السلاوي	٢	١٠٧	
كجاوه	٩	٦٠٦	ثلاث حوانيت مستأجرة من قبل شخص واحد
سوق جامع السيدة	٨	٣٨٠	
سوق القيسارية	٩	٣٤٣	أمكنة الحوانيت غير محددة في الحي
سوق الصاغة	٦	٤٦٨	
سوق الشماعين	٨	٢١٧	هذه الحوانيت مخصصة لصناعة الشمع وتجارته
القهوة الكبيرة	٤	١٠٧	
كوشة النصارى	٥	٢٥٦	حانوتان بنفس المكان
سوق البلاغجية	٣	١٥٣	
سوق اللوح	٤	٢٩٣	
البادستان	٦	٢٤٢	
سوق العزارة	٣	٥٤	
الرحبة القديمة	٨	٣١٠	
الحكورة	٢	٦٢	
١٧ حياً	٩٠ حانوت+ وقف لحانوتين	٤٤٥٥ ريال سنوياً	

2ً- المساجد الخاصة بمؤسسة سبل الخيرات وأوقافها:

كانت مؤسسة سبل الخيرات مسؤولة عن الأوقاف الخاصة بالمساجد العثمانية الحنفية التابعة لها وعن إدارة أوقافها. وفيما يلي لمحة تاريخية عن كل مسجد منها وعن أوقافه والتي توصلنا إليها من دراسة الوثائق الموجودة في أرشيف إكس-إن-بروفانس في فرنسا ونبدأ بالجامع الجديد الخاص بالفئة الحاكمة العثمانية في الجزائر.

١- الجامع الجديد:

أ- لمحة تاريخية:

بني هذه المسجد نحو سنة ١٠٧٠هـ/١٦٦٠م وذلك بعد قرن ونصف تقريباً من وصول الأتراك العثمانيين على المسرح السياسي لإفريقيا الشمالية، وقد أنجز هذا الجامع بناء على أوامر انكشارية(٢٩) مدينة الجزائر وذلك من أموال سبل الخيرات، وكان هذا الجامع مكرس للعثمانيين القاطنين داخل مدينة الجزائر، فمن المحتمل إن هذه الطائفة بنت هذا المسجد من أجل إعطائه أهمية تنافس بها الجامع الأعظم المخصص لسكان مدينة الجزائر الأصليين(٣٠).

ب- أوقاف الجامع الجديد داخل مدينة الجزائر:

يمكن أن نذكر هذه الأوقاف بحسب وثيقتين مختلفتين هما: الدفتر رقم ١٥٣ من الميكرو فيلم رقم ٢٩ (٣١)، والتي بلغت أوقاف هذا الجامع بموجبه٦٧ حانوتاً و ٣٠جزء من حانوت بغلة سنوية قدرها ١٢٩٠ ريالاً، وكانت هذه الأوقاف تأتي من المساعدات والهبات التي يقدمها أفراد الطبقة الحكمة العثمانية.والوثيقة الثانية هي الدفتر رقم ٢٠ من الميكرو فيلم رقم (٣٢)٧٠ حيث أحصينا داخل المدينة عقوداً تمثل الأنواع الوقفية التالية :٧ حانوت، ٤ دار، ٣ جزء من الدار، ٣ علوي،١ اسطبل، ١ فندق و٢ قهوة.

٢- جامع صفر:

أ- لمحة تاريخية:

يحتل هذا الجامع المرتبة الثانية بين المساجد التي تديرها وترعى أوقافها مؤسسة سبل الخيرات. بني هذا الجامع سنة ٩٤١هـ/١٥٣٤م من قبل رجل مسيحي دخل الإسلام حيث كان في السابق عبداً لدى خير الدين بربا روس، وتلقب بعد دخوله للإسلام

بالقائد صفر بن عبد الله ولانعرف اسمه الأصلي أواسم عائلته قبل دخوله في الإسلام(٣٣).

ب- الأوقاف العقارية والزراعية المسجلة باسم جامع صفر:

سجلنا بحسب الوثيقة (دفتر رقم ٢٠ من الميكرو فيلم رقم ٧٠)(٣٤) ٢٦ عقد أصل ونسخة تعود إلى جامع صفر سواء داخل مدينة الجزائر أم خارجها وذلك على النحو التالي : ٨ حانوت، ٣ جزء من حانوت، ١ دار، ٢ جزء من دار، ٣ علية، ٢ بيت، ٢ مخزن، ١ كوشة، ٣ جنات، ٢ بلاد.

٣- جامع شعبان باشا:

أ- لمحة تاريخية

بنى هذا الجامع الوالي الحاج شعبان باشا في باب الجزيرة (٣٥) وذلك سنة ١١٠٥هـ/١٦٩٣-١٦٩٤م، وكان هذا الجامع من المساجد المخصصة لخطبة الجمعة وهذا يعطي دليل قاطع على أهمية هذا المسجد في تلك الفترة، عين شعبان باشا من قبل الانكشارية سنة ١١٠١هـ/١٦٨٩م وقتل بعد سنة فقط من بناء هذا الجامع (٣٦). أما موظفو هذا الجامع فهم: مؤذن، إمام، حزاب(من يقرأ القرآن) وأشخاص مكلفين بتنظيف الجامع وإضاءته(٣٧).

ب- أوقاف جامع شعبان باشا :

بلغت أوقاف هذا الجامع عشرة وقفيات على النحو التالي:٣ حانوت، ١ جزء من حانوت، ٢ مخزن، ٢ دار، ١ جزء من دار ، علوي (٣٨).

٤- جامع كجاوه

أ- لمحة تاريخية:

إن أول إشارة إلى هذا الجامع تعود إلى سنة ١٠٢١هـ/١٦١٢-١٦١٣م وهذا التاريخ يؤكد بناء هذا الجامع في حي كجاوه وحمل اسمه، ولكن في نهاية القرن الثامن عشر

وبالتحديد ١٢٠٩هـ/١٧٩٤م أعاد الباشا حسين بناء هذا الجامع ووسعه بشكل كبير(٣٩).

ب- أوقاف جامع كجاوه:

أحصينا داخل مدينة الجزائر ٢٤ ملكية عقارية مسجلة باسم هذا الجامع بحيث لم نجد أية ملكية زراعية مسجلة باسمه، وكانت هذه الملكيات العقارية موزعة على النحو التالي:

٢٤ جلسة (٤٠)، ٤ حانوت، ٦ دار، ٢ علوي، ١ قهوة، ٢ زندانة(٤١)، ١ عنا (٤٢)، حمام.

٥- جامع حسين داي:

أ- لمحة تاريخية

بني هذا الجامع نحو سنة ١٠٩٧هـ/١٦٨٥-١٦٨٦م من قبل الباشا الحاج حسين داي وكان يتميز بمنارته وقبته، فالمؤسس رجل مسيحي اسمه موزومورطو إيطالي، دخل الإسلام في زمن لاتشير إليه الوثائق التي درسناها. كان المسجد يعرف باسم مؤسسه ويعرفه سكان مدينة الجزائر بأسميين هما:

الأول: مسجد حسين باشا وهو الاسم الذي حمله مؤسسه بعد دخوله الإسلام.

الثاني: مسجد موزومورطو وهو اسم مؤسسه الأصلي قبل دخوله الإسلام.(٤٣).

ب- أوقاف جامع حسين داي:

بلغ عدد ماوقف عتى هذا الجامع من الملكيات العقارية أربعة عشر وقفية موزعة على النحو التالي: ٥ دار، ٢ جزء من دار، ١ كوشة، ١ حمام، ٢ مخزن، ١ جلسة حانوت، ١ حانوت وكانت جميع هذه الأوقاف موجودة داخل مدينة الجزائر(٤٤).

٦- جامع علي خوجة:

أ- لمحة تاريخية:

كان هذا الجامع واحداً من الجوامع المخصصة لإقامة شعائر خطبة الجمعة، مما يـدل على إنه كان يتمتع بأهمية كبيرة بين المباني الدينية الموجودة في مدينة الجزائر.بنـي هذا الجامع سنة ١١٦٤هـ/١٧٥٠-١٧٥١م أي منتصف القرن الثامن عشر المـيلادي، وكان بناؤه من قبل الباشا علي خوجة في مكان زاوية سيدي الأكحل(٤٥) ويشهد على ذلك نقش موجود على واجهة المسجد (٤٦).

ب- أوقاف جامع علي خوجة:

بلغ مجموع هذه الأوقاف ٢٥ وقفية وهي على النحو التالي: ٨ دار، ٣ أجـزاء مـن دور، ٩ حانوت، ١ جزء من حانوت، ١ جزء من فندق، ١ كوشة، بيت داخل مدينـة الجزائر ونصف حوش خارج مدينة الجزائر وجميع هذه الأوقاف بغلة سنوية مقدارها ٥٤٢ ريال جزائري(٤٧).

٧- جامع دار القاضي:

بني هذا الجامع سنة ١٢٠٩هـ/١٧٩٥م وفق عقد يتحدث عن حانوت وهب مـن قبـل مؤسسه.

٨- جامع الشبارلية:

بني هذا الجامع سنة ١٢٠١هـ/١٧٨٦-١٧٨٧م من قبل الحاج محمد خوجة مقاطعجي.

في الحقيقة لم نجد في الوثائق التي درسناها أوقافاً مـسجلة باسـم هـذين المـسجدين العائدين لمؤسسة سبل الخيرات ، وربما يعود ذلك إلى صغرهما مقارنة مع المـساجد الأخرى التي درسناها والتي تعود إلى هذه المؤسسة(٤٨).

رابعاً- دور المؤسسات الوقفية في الحياة الاجتماعية والاقتصادية لمدينة الجزائر

كانت الأوقاف في مدينة الجزائر ومن خلال مؤسساتها التي ذكرناها تتحكم في النشاط الاقتصادي وتلعب دوراً هاماً في العلاقات الاجتماعية بين الفئات التي تشكل مجتمع مدينة الجزائر ويمكن أن نلخص ذلك في النقاط التالية:

١- **تقديم العون والانفاق على رجال العلم والمدرسين والطلبة** وذلك من مردود هذه الأوقاف، حيث تمكن حكام الجزائر العثمانية من إيجاد وسيلة ملائمة لتقديم منح للطلاب وأجور للمدرسين ودفع رواتب للقائمين على شؤون العبادة بالمدارس والزوايا والمساجد والأضرحة مثل الخطيب والإمام والحزاب(٤٩)، وكان مردود هذه الأوقاف يشكل المصدر الوحيد -باستثناء المناطق الجبلية والنائية- لرعاية المصالح الثقافية والدينة. وكان فائض مردود الأوقاف يستخدم في كثير من الأحيان في بناء أماكن جديدة للعبادة والتعليم ومنها على سبيل المثال زاوية الجامع الأعظم في مدينة الجزائر التي بنيت بفضل مردود الأوقاف وذلك سنة ١٠٣٩هـ/١٦٢٩-١٦٣٠م(٥٠).

٢- **تقديم العون للفقراء والمعوزين:** حيث كان وكلاء مؤسسات الأوقاف يتكفلون بتقديم مبالغ مالية ومساعدات عينية إلى هؤلاء المحتاجين مثل صدقة بيت المال التي كانت توزع على ٢٠٠ فقير كل يوم خميس (٥١).

٣- **الحد من المظالم والأحكام التعسفية للحكام:** كان الوقف يحافظ على الثروات والأملاك والأراضي الزراعية الموقفة من خلال عدم إمكانية بيعها أو شراءها أو حتى مصادرتها من قبل السلطات الحاكمة(٥٢).

٤- **كثرة عدد النساء اللواتي وضعن أملاكهن لصالح المؤسسات الخيرية**، الأمر الذي يعكس قيام المرأة الجزائرية بدورها الفاعل في المجتمع الجزائري، وتمتعها

بحرية التصرف فيما تملك من جهة، ودحض مزاعم المؤرخين الأجانب الذين كانوا يبخسون دورها في المجتمع العربي بشكل عام ومجتمع الجزائر بشكل خاص من جهة أخرى وذلك في عهد الإحتلال العثماني(٥٣).

٥- **رعاية وصيانة المرافق العامة:** ساهمت الأوقاف بفضل مايتوفر لديها من عوائد وغلة في المحافظة على بعض المرافق العامة مثل العيون والسواقي واطرق والأبار.

٦- **إنشاء وترميم الثكنات والتحصينات المختلفة:** لعبت الأوقاف أيضاً دوراً هاماً في تشييد العديد من الثكنات والحصون والأبراج وذلك للدفاع عن البلاد ضد الهجمات البحرية الأوربية.

٧- **لاحظنا مشاركة جميع فئات مجتمع مدينة الجزائر في هذه الأوقاف** مما يعكس الانسجام بين جميع هذه الفئات ودورها الاجتماعي في المساهمة في تقديم العون إلى المحتاجين والفقراء(٥٤).

٨-**إن وثائق الوقف بما حوته من سجلات وقيود وقوائم** مكنتنا من الإطلاع على أسماء الملكيات والدكاكين والفنادق والقاهي والكوشات وأفران الخبز وأفران الجير التي تعود إلى مؤسسات الوقف، كما أعطتنا فكرة هامة وأساسية عن عدد الملكيات الموقوفة ومقارنتها بالملكيات الخاصة الأمر الذي ينعكس على الحياة الاقتصادية في البلاد من حيث نوعية الملكية وطرق استثمارها والقضايا المتعلقة بمبادلة الوقف. وبالتالي يمكن من خلال وثائق الوقف رسم لوحة مفصلة للبنية الاقتصادية الداخلية للمدن.

٩- **يمكن التعرف من خلال وثائق الوقف على الحياة الاجتماعية** وبالتالي أخذ فكرة عن الأوضاع الصحية والديمغرافية وما يتصل بها من تجمعات سكانية داخل المدينة أو خارجها.

خاتمة

نستنتج من هذا الدراسة النقاط الرئيسة التالية:

١-إن المؤسسات الوقفية تعتبر إلى حد بعيد عاملاً متحكماً في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ويتجلى ذلك من خلال ماتوفره من مصادر دخل وماتساهم به من نفقات وماتضمه من وظائف وخدمات. وبالرجوع إلى إحصائيات الإدارة الفرنسية لعامي ١٨٣٠ و١٨٣٧ الخاصة بالمؤسسات الوقفية تمكنا من تحديد بعض أملاك مؤسسات الوقف الرئسية وقدرنا ريعها كما عرضناها في سياق البحث(٥٥).

٢- تحكمت نوعية الوقف في نوعية الملكية وطريقة استثمارها، فقد تقلصت أراضي الدولة بسبب انتشار الوقف وأدى بدوره إلى تفتيت وحدة القبيلة وتلاشي روح الجماعة لتحل محلها مجموعات سكانية ذات انتماءات عرقية مختلفة(٥٦).

٣-يعتبر الوقف من حيث كونه تعاملاً شرعياً وإجراءاً قانونياً عاملاً مؤثراً في الإدارة العثمانية في الجزائر وكذلك في الحياة الثقافية والروحية فهو أساس كل دراسة جادة لأوضاع مدينة الجزائر واقتصادها.

هوامش البحث

(١) جواد علي: **تاريخ العرب قبل الإسلام**، بيروت ١٩٧٢، ص٦٥، أنظر أيضاً عبد العزيز بن عبد الله: **الوقف في التشريعات الإسلامية القديمة**، مجلة دعوة الحق، اعدد ١٣١، الرباط١٩٨٣، ص٧٦.

(٢) محمد مصطفى شلبي: **أحكام الوصايا والأوقاف**، بيروت دار الجامعة ١٩٨٢، ص٣١٩، أنظر أيضاً جوزيف لوكسيوني: **الحبوس أو الأوقاف حسب المذاهب المالكية أو الحنفية**، رسالة دكتوراه في القانون، الجزائر ١٩٤٢، ص١٤.

(٣) حسن عبد الأمين: **وقائع الحلقة الدرسية لتثمير ممتلكات الأوقاف** المنعقدة في جدة ١٩٨٤-١٩٨٥،ص١٣.

(٤) أعقيل نمير : **المؤسسات الخيرية في مدينة الجزائر**، دراسة مقارنة للوقف، رسالة دكتوراه، الترجمة العربية، دمشق ٢٠٠٤، ص٣٢.

(٥) ناصر الدين سعيدوني: **دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية**(الفترة الحديثة)، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ٢٠٠١، ص٢٠٧.

(٦) نمير: المرجع السابق، ص٣٣.

(٧) لوحة المؤسسات الفرنسية بالجزائر، ١٨٣٠-١٨٣٧، ص٢١٨.

(٨) نمير: المرجع السابق، ص٣٥.

(٩) سعيدوني: المرجع السابق، ص٢٦٨.

(١٠) ألبير دوفولكس: **لمحة تاريخية عن المساجد وغيرها من الأبنية الدينية في الجزائر، المجلة الأفريقية**، مجلد رقم ٦، ١٨٥٩-١٨٦٠ص٢٨.

(١١) سعيدوني: المرجع السابق، ص٢٤١.

(١٢) سعيدوني: المرجع السابق، ص٢٠٨.

(١٣) نمير: المرجع السابق، ص٢٩١.

(١٤) أرشيف ماوراء البحار في مدينة إكس-إن-بروفنس، فرنسا، ميكرو فيلم رقم ٧٠ دفتر رقم ٢٠، ص٢.

(١٥) سعيدوني: المرجع السابق، ص٢٠٨.

(١٦) العنا: هي تأجير العقار لأمد طويل وكانت الصنف الأكثر انتشاراً في الجزائر في العهد العثماني.

(١٧) لوحة المؤسسات الفرنسية بالجزائر، ص٢٢٢.

(١٨) أرشيف ماوراء البحار، ميكرو فيلم رقم ٦٩، بدون ترقيم، أنظر أيضاً بيير بواييه: **الحياة اليومية في الجزائر عشية التدخل الفرنسي**، باريس، أشيت ١٩٦٣، ص ٨٣.

(١٩) بوسون جانسيين: **مساهمة في الحبوس العامة الجزائرية**، رسالة دكتوراه في القانون، الجزائر ١٩٥٠، ص ٣٥.

(٢٠) سعيدوني: المرجع السابق، ص ٢٤٣.

(٢١) سعيدوني: المرجع السابق، ص٤٦٨.

(٢٢) نمير: المرجع السابق، ص ٢٩١.

(٢٣) لوحة المؤسسات الفرنسية بالجزائر ١٨٣٠-١٨٣٧، ص٢٢٣.

(٢٤) ناصر الدين سعيدوني: **النظام المالي في الجزائر في أواخر الفترة العثمانية ١٨٠٠-١٨٣٠**، الجزائر ١٩٧٩، ص١٤٢.

(٢٥) ج.ف.أوميرات: **الملكية المدنية ومكتب سبل الخيرات**، الجزائر ١٩٠٠، ص ٣٢٧.

(٢٦) كجاوه: تعني طريق الماعز وقد حمل الحي اسم هذا الجامع فسمي بحي كجاوه وهو من أحياء مدينة الجزائر.

(٢٧) باب عزون: وهو من أبواب مدينة الجزائر ويقع في الزاوية الجنوبية الغربية من المدينة.

(٢٨) نمير: المرجع السابق، ص٢٩١، أنظر أيضاً دوفولكس: المرجع السابق، ص٦٧.

(٢٩) الانكشاري: هو العسكري الأكثر أهمية في الجيش العثماني وكانت الانكشارية تشكل القوة العسكرية الرئسية في الدولة العثمانية.

(٣٠) نمير: المرجع السابق، ص٣٠١-٣٠٢.

(٣١) أرشيف ماوراء البحار، ميكرو فيلم رقم ٢٩دفتر رقم ١٥٣، بدون ترقيم.

(٣٢) ميكرو فيلم رقم٧٠، دفتر رقم، ٢٠، بدون ترقيم.

(٣٣) نمير: المرجع السابق، ص٣١٣.

(٣٤) أرشيف ماوراء البحار، ١ ميكرو فيلم رقم ٧٠، دفتر رقم ٢٠ ، بدون ترقيم صفحات.

(٣٥) نمير : المرجع السابق، ص٣١٦.

(٣٦) دوفولكس: المرجع السابق، ص٣٣.

(٣٧) نمير: نمير المرجع السابق، ص٣١٦.

(٣٨) دوفولكس: المرجع السابق، ص ٣٦.

(٣٩) ميكرو فيلم رقم٧٠ ، دفتر رقم ٢٠، بدون ترقيم.

(٤٠) الجلسة: هي المال المقطوع سلفاً قبل استئجار أو استثمار الوقف.

(٤١) الزندانة: مكان لصنع الخمر أوحانة ليليةحيث كان الأسرى الأوربيون يشترون منه الخمر ويشربون.

(٤٢) العنا: أجر لأجل طويل وهو الصنف الأكثر انتشاراً في الجزائر في العهد العثماني.

(٤٣) نمير: المرجع السابق، ص ٢٢٤.

(٤٤) نمير: المرجع السابق، ص٢٢٥.

(٤٥) زاوية سيدي الأكحل: بنيت في القرن السادس عشر وكان لها من عدداً من الأوقاف، لمزيد من المعلومات أنظر دوفولكس: المرجع السابق، ص١٧٠.

(٤٦) دوفلكس: المرجع السابق، **الأبينة الدينية**، ١٨٧٠، ص ١٧٠.

(٤٧) أرشيف ماوراء البحار: ١٥ ميكرو فيلم رقم ٣٥، دفتر رقم،٢٠٢، ص ١٢٢-١٢٣-١٢٤.

(٤٨) نمير: المرجع السابق، ص٣٣٠-٣٣١.

(٤٩) سعيدوني: **دراسات تاريخية**..... مرجع سابق، ص٢٤٦.

(٥٠) م.أومرت: **الحياة الثقافية للجزائر عام ١٨٣٠**، مجلة التاريخ الحديث والمعاصر ١٩٥٤، ص ٢٠٣.

(٥١) ج.ف.أومرت: المرجع السابق، ص٦-٧.

(٥٢) سعيدوني: المرجع السابق، ص٢٤٧.

(٥٣) نمير: المرجع السابق، ص٣١٠.

(٥٤) نمير: المرجع السابق، ص٣٦٠.

(٥٥) لوحة المؤسسات الفرنسية، ص٣٤٠.

(٥٦) سعيدوني: المرجع السابق، ص١٨٣-١٨٤.

(٥٧) دوفولكس: المرجع السابق،٤٣.

المصادر والمراجع المعتمدة بالبحث:

١-أرشيف ماوراء البحار في مدينة إكإن-بروفانس في فرنسا.

- ١٥ ميكرو فيلم رقم ٢٩ دفتر رقم ١٥٣.

- ١ ميكرو فيلم رقم ٦٩.

-١ ميكرو فيلم رقم ٧٠، دفتر رقم ٢٠.

٢- ألبير دوفولكس:لمحة تاريخية عن المساجد وغيرها من الأبنية الدينية في الجزائر، المجلة الأفريقية، مجلد رقم ٦ ١٨٥٩-١٨٦٠.

٣- ألبير دوفولكس: لمحة عن المؤسسات الدينية في الجزائر، الجزائر ١٩١٢.

٤- أندريه ريمون: المدن العربية الكبرى في الفترة العثمانية، مطبعة سندباد، باريس ١٩٨٥.

٥- بيير بوييه: الحياة اليومية في الجزائر عشية التدخل الفرنسي، باريس ١٩٦٣.

٦- بوسون جانسيين: مساهمة في دراسة الحبوس العامة في الجزائر، رسالة دكتوراه في القانون، الجزائر ١٩٥٠.

٧- ج.ف.أوميرات: الملكية المدنية ومكتب سبل الخيرات، الجزائر ١٩٠٠.

٨- جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت ١٩٧٢.

٩- جوزيف لوكسيوني: الحبوس أو الأوقاف حسب المذاهب المالكية أو الحنفية، رسالة دكتوراه في القانون، الجزائر ١٩٤٢.

١٠- حسن عبد الله الأمين: وقائع الحلقة الدراسية لتثمير ممتلكات الأوقاف المنعقدة في جدة، المملكة العربية السعودية ١٩٨٤-١٩٨٥.

١١- عقيل نمير: المؤسسات الخيرية في مدينة الجزائر في القرن الثامن عشر (دراسة مقارنة للوقف)،الترجمة العربية، دمشق ٢٠٠٤.

١٢- لوحة المؤسسات الدينية في الجزائر ١٨٣٠-١٨٣٧.

١٣- ناصر الدين سعيدوني: دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية (الفترة الحديثة)، دار الغرب الإسلامي بيروت ٢٠٠١.

١٤-ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي في الجزائر في الفترة العثمانية، الجزائر ١٩٧٩.

١٥-م.أوميرت:الحياة الثقافية للجزائر عام ١٨٣٠، مجلة التاريخ الحديث والمعاصر ١٩٥٤.

إسهامات العرب في النهضة الأوروبية الحديثة

رؤية جديدة

الدكتور محمد أحمد*

أستاذ في قسم التاريخ

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة دمشق

مقدمة:

أولاً- عصر النهضة الأوروبية الحديثة (١٤٩٢-١٦١٠).

ثانياً- ميادين اللقاء بين أوروبا والثقافة العربية.

ثالثاً: إسهام العرب في النهضة الاقتصادية الأوروبية.

رابعاً- دور العلوم التطبيقية العربية في الفكر الأوروبي الحديث.

خامساً: رحلة الأدب العربي إلى أوروبا وتأثيرها.

سادساً: المؤثرات العربية الفنية في النهضة الأوروبية الحديثة.

خاتمة :

مقدمة:

إن التواصل والعطاء بين الحضارات قديم، فحركة الحضارة حركة بندولية، أخذ وعطاء وتأثير وتأثر، والحضارة هي بساط ساهمت في نسجه أيدٍ كثيرةٍ وإن معرفتنا بحضارتنا في الشرق القديم أثبتت أن ليس هناك (معجزة يونانية) كما يدعِّي الغرب لأن الحضارة اليونانية أخذت الكثير من الحضارة العربية في مصر والشام والعراق وبلاد فارس، ويذكر المؤرخ ويل ديورانت أن الإغريق لم يبدعوا الحضارة لأن ما ورثوه أكثر مما ابتدعوه وقد ورثوا ذخيرة من العلم والفن عمرها ثلاثة آلاف سنة وصلت إليهم عن طريق الحروب والتجارة والأمثلة على ذلك كثيرة فالعالم اليوناني طاليس (٦٢٤-٥٣٦ق.م) زار مصر عدة مرات ونقل معه العلوم الهندسية من مدرسة الإسكندرية، وفيثاغورس (٥٧٢-٤٩٧ ق.م) تعلم الرياضات في مصر وبابل، ونقل اليونان الأبجدية الفينيقية من أوغاريت بين عامي ٨٥٠-٧٥٠ ق.م، ومن ثم انتقلت الأبجدية إلى الرومان وكُتبت بها اللغة اللاتينية ومنها انتشرت في العالم الغربي.[١]

لقد كان لظهور الإسلام أكبر الأثر على أوروبا، وساهم العرب حملة الرسالة بالحضارة الإنسانية منذ نزول الوحي على النبي محمد ($) بسورة (إقرأ) فنقلوا وترجموا ثم أضافوا وأبدعوا واقتبس الغرب عنهم في بداية عصر النهضة الأوروبية كل هذه العلوم، والشواهد على هذا كثيرة وباعتراف شخصيات أوروبية مرموقة، فها هو الأمير تشارلز ولي عهد بريطانيا يقر بإسهام العرب الحضاري: إذ قال في محاضرة له(لقد تم الاعتراف منذ عهد طويل بمساهمة إسبانيا في ظل الحكم الإسلامي في الحفاظ على العلوم والمعارف الكلاسيكية خلال عصور الظلام، وفي وضع اللبنات الأولى للنهضة الأوربية الحديثة[٢]

وها هو المستشرق الإيطالي فرانسيسكو غابريللي (Francessco Gabrielli)

يعترف في كتابه (محمد في أوروبا) بإسهام العرب في النهضة الأوربية الحديثة، وينصف العرب حينما يقول بأنهم قدموا للحضارة الإنسانية الكثير وخاصة في حوض البحر المتوسط، وأنهم أثَّروا في كل ميادين الحياة في أوروبا، بل أن إنتاج العرب وأفكارهم وإبداعاتهم الفنية تشهد بأنهم كانوا أساتذة لأوروبا.[٣]

يقول الكاتب والسياسي الإنكليزي ت ب ماكوليه (١٨٠٠-١٨٥٩):

«إن التاريخ المتكامل هو نسيج من الشعر والفلسفة، لإيصال الحقائق بطريقة جذابة»، ولذا فإن الهدف الرئيس من هذا البحث هو محاولة الوصول إلى رسم صورة لإسهامات العلماء العرب في الحضارة الأوروبية الحديثة والمعاصرة بشكل يقترب من الحقيقة.

وخصوصاً في عصرنا الحاضر حيث تشتد الهجمة الشرسة على أُمتنا العربية والإسلامية من قبل بعض العلماء ورجال الإعلام في العالم الغربي، وهي هجمات مغرضة وموجهة في سياق ما يسمى بمكافحة ((الإرهاب)) بعد أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١ ، وتهدف هذه الحملات إلى جعل العرب والمسلمين يفقدون الثقة في أنفسهم، كما تهدف إلى التحريض على إرهاب قوى المقاومة في العالمين العربي والإسلامي وإخضاع كل المنطقة للمشاريع الاستعمارية الجديدة، وتنكراً لحقائق التاريخ والتي تعترف بفضل الحضارة العربية على الحضارة الأوروبية الحديثة في جميع فروع المعرفة.

لقد أشعل الغرب الأوروبي سراج حضارته ونهضته من ضياء حضارتنا العربية الإسلامية وهذا ما سنحاول تقديمه في هذا البحث.

هذا وستعتمد الدراسة منهجاً علمياً هو الوصفي التحليلي ويمكن أن يضم أبعاداً منهجية أخرى مثل الطريقة التاريخية والطريقة المقارنة فضلاً عن آليات منهجية مثل التحليل والتركيب والتعميم والتجريد.

أما المصادر التي اعتمدت عليها الدراسة فهي أولاً مجموعة الدراسات التي نشرت بإشراف الأستاذ فرانسيسكو غابريللي أستاذ اللغة العربية في جامعة روما في كتاب صدرت طبعة الأصلية في مدينة ميلانو عام ١٩٨٢، وترجمت إلى الألمانية وهي الطبعة التي بين يدينا فقد صدرت عام ١٩٩٧ ، وثانياً، الموسوعة البريطانية وبقية المصادر والمراجع العربية، فقد كُتب وقيل الكثير عن أثر العرب على الحضارة الأوروبية، والموضوع واسع ومتشعب، لذلك من الصعب تناول جميع جوانبه في بحث مختصر كهذا الذي بين أيدينا، لذلك سنقوم بمعالجة الموضوعات التي أسهم العرب فيها بشكل جلي وهي مجالات الاقتصاد والعلوم والآداب والفنون والمنهج العلمي الذي هو أفضل هدية قدمتها الحضارة العربية الإسلامية إلى العالم.

أولاً- عصر النهضة الأوربية الحديثة (١٤٩٢-١٦١٠):

من الواضح أن ما حصل في الفترة التي بدأت من نهاية النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي إلى بداية القرن السابع عشر (١٤٩٢-١٦١٠) الذي يبدأ برحلة كولومبوس في العالم الجديد وينتهي بموت ملك فرنسا هنري الرابع يسمى عصر النهضة الأوربية. كان عبارة عن انفجار بركاني حضاري هائل ضخم ومدوٍ حدث في التاريخ الأوروبي، وليس مجرد عصر نهضة ثقافية وعلمية ناعمة، ففي هذه الفترة اكتشف البحارة العالم الجديد، وكان كريستوف كولومبوس (١٤٥١-١٥٠٦) قد بدأ رحلاته التي غيّرت وجه التاريخ باكتشاف أمريكا في العالم ١٤٩٢، واكتشف مع أمريكا المحيطين الباسفيكي والأطلسي، وأصبح العالم كله بعد ذلك معروف الحدود، وغدت أوروبا مركز العالم، كما أصبح بالإمكان الإبحار حول العالم بعد أن أتم فاسكو دوغاما (١٤٦٠-١٥٢٤) اكتشافاته الآسيوية الشرقية ووصل إلى مزارع التوابل في الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح في العام (١٤٩٧-١٤٩٨)[٤] .

يمثل عصر النهضة الأوروبية الحديثة فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة، وقد تعددت آراء المؤرخين حول معنى النهضة فالمهتمون بالفنون تعني لهم النهضة الثورة في مجالات التطوير والنحت والعمارة، حيث تحرر الفن من قيود العصور الوسطى، أما المهتمون بالآداب والفلسفة فتعني لهم ثورة فكرية تبدت باكتشاف المخطوطات وتقدم علم اللغة وتذوق الشعر، أما بالنسبة للعلماء فالنهضة هي الاكتشافات الحديثة والتقدم الحثيث في ميادين العلم.(٥)

أما معنى النهضة الأوروبية فقد جاء به مؤرخو الغرب الذين استخدموا هذا المصطلح باللغة الفرنسية ((La Renaissance)) أي بمعنى البعث الجديد، أو بالمعنى الحرفي ((الولادة الجديدة))، ولاسيما من قبل المؤرخ الفرنسي ميشيله عام ١٨٥٥ والمؤرخ السويسري بوركهارت ((Burckhardt))، فهما جعلا من النهضة مرحلة من مراحل التاريخ الإنساني لها صفات خاصة، ومن كون هذه النهضة تشكل نواة أساسية لفهم التاريخ العالمي في العصور الحديثة، ولانعكاس الأحداث التاريخية والتطورات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية على أوروبا وعلى معظم دول العالم، ويقصد بعصر النهضة الأوروبية مجموعة الحركات الثقافية والفكرية التي انتشرت في أوروبا الغربية، حيث شهدت تغيرات جوهرية من أهمها ظهور الآداب القومية الحديثة، وحركات الاستقلال القومي، وكذلك تبلور الكنائس القومية وتنصلها من الكنيسة الكاثوليكية وتقلص سلطة البابوية، وما يتبع ذلك من سيادة الدولة على الدين، وحلول فكرة الحق الطبيعي مكان الحق الإلهي، وما ترتب على ذلك من حلول القانون الوضعي وحقوق الإنسان مكان القانون السماوي، كما حدث في تلك الفترة انهيار النظام الإقطاعي نتيجة للحركات القومية وظهور الملكية المطلقة وبعدها الديمقراطيات الحديثة، وقد نجحت حركات الإصلاح الديني بإعادة باب الاجتهاد في الدين على أساس إحلال العقل وإلغاء الاحتكار الديني المقصور على الكهنة، وانتشار فكرة الإيمان بأن الإنسان قيمة في حد ذاته وسيد مصيره.

ومن أهم سمات عصر النهضة الأوروبية الحديثة إحياء التراث القديم (العربي واليوناني والروماني) الذي سبق المسيحية بوصفه جزءاً لا يتجزأ من تراث الإنسانية، وازدهار الإبداع الديني والفكري نتيجة لذلك، وكذلك اختراع غوتنبرغ للطباعة في ألمانيا التي حلت محل النسخ اليدوي، واكتشاف أمريكا عام ١٤٩٢م. وبداية عصر الاستعمار الاستيطاني.(٦)

ثانياً- ميادين اللقاء بين أوروبا والثقافة العربية:

انتقلت الحضارة العربية إلى أوروبا بعلومها وآدابها ومصنوعاتها ومحاصيلها الزراعية عبر قنوات متعددة وميادين واسعة، وكانت ميادين اللقاء فسحة عملية للتأثير والعطاء العربيين، وكثر الاحتكاك الأوروبي والنقل والاقتباس، ومن أهم تلك الميادين الأندلس وصقلية والشرق العربي ومناطق التوسع العثماني، ونبدأ بأولها وأهمها:

١- الأندلس:

إن الدور الهام يرجع بلا شك إلى عرب إسبانيا في تقديم خلاصة الفكر العربي في العلوم والآداب والفلسفة إلى غرب أوروبا والإسهام في النهضة الأوروبية الحديثة، فضلاً عن تعريف الأوروبيين بكثير من تراث اليونان القديم الذي زال من الوجود، ولم يبق إلا في التراجم العربية.

بعد أن فتح العرب الأندلس في أوائل القرن الثامن الميلادي وبقوا فيها حوالي ثمانية قرون من (٧١١-١٤٩٢م) نقلوا إليها الاستقرار، واتجهوا إلى إحياء الأرض الزراعية، وإعمار المدن، وتنشيط التجارة، وإنعاش الصناعة، حتى أصبحت الأندلس في ظل الخلافة الأموية أغنى البلدان الأوروبية وأكثرها ازدحاماً بالسكان، إذ بلغ عدد سكان قرطبة مليون نسمة، وأصبحت من أعظم مدن العالم ، ويكفيها فخراً أن أهلها كانوا يمشون في شوارعها بعد غروب الشمس في ضوء المصابيح العامة، في حين

ظلت مدينة لندن سبعة قرون بعد ذلك لا يوجد في طرقاتها مصباح عام واحد يضيء ليلاً[٧] .

إن المفردات الكثيرة الباقية في اللغتين الإسبانية والبرتغالية والمتصلة بالحياة المادية تبيِّن مدى ما تدين به إسبانيا والبرتغال للعرب في الأمور الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فقد توافد على الأندلس طلاب العلم المتعطشون إلى المعرفة من كثير من البلدان الأوروبية لتعلم اللغة العربية، وتلقي العلوم العربية، ومنهم الراهب غربرت (Gerbert) الفرنسي الذي رحل إلى قرطبة طلباً للمعرفة وقضى فيها ثلاث سنوات (٩٦٧-٩٧٠م)، نهل خلالها من العلوم العربية ثم عاد منها ليتوج بابا باسم (سلفستر الثاني)، الذي ساهم في نقل العلوم العربية إلى أوروبا. وقد قام بالدور نفسه مطران مدينة طليطلة ريموندو، الذي عمل مع مجموعة من المطارنة على ترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية بعد أن استرد الإسبان المدينة من العرب كما كانت قرطبة في القرن العاشر الميلادي أكثر مدن أوروبا تمدناً (مثل فيينا في القرن التاسع عشر)، وكان القادمون من الشمال الأوروبي يسمعون بشيء من الرهبة عن المدينة التي احتوت على عشرات المكتبات وعلى مئات الحمَّامات العامة.[٨]

وقد أثرت الأندلس تأثيراً كبيراً في أوروبا، إذ كانت هي الكعبة التي يقصدها الأوروبيون، ليتثقفوا على أيدي العرب، وأقبلوا في شغف على محاكاة النماذج العربية وتأثروا بها بدرجة كبيرة في بناء النهضة الأوروبية الحديثة.

وهذه شهادة من عالم أوروبي غير مسلم يقول ريتشارد كوك، حول دور العرب في الأندلس:

((تدين أوروبا بالشيء الكثير لإسبانيا العربية، إذ حملت قرطبة مصباح العلم وضاء في زمان كان العلم فيه في بلدان أوروبية خافتاً كبصيص نار مختنق، إن التطور الخلاق الذي استطاع أن يقيم صرحاً كالحمراء، ويبني مسجداً للعبادة كجامع قرطبة،

إنما يعطينا مثلاً للفارق البعيد، بين هؤلاء والهمجية الطليقة التي كان يتردى فيها الفرنجة والنورمان، بما فيها من غليظ الأخلاق وفظاظة المزاج، والميل الشديد نحو خشونة العيش، ولقد استطاع نظام الحكم العربي أن يخلق طرازاً من المدنية كان نسيجاً وحده في أوروبا، حتى لقد هُيأ لإسبانيا أن تكون الدولة الوحيدة في أوروبا، التي أفلتت من عصور الظلام))[٩].

أما المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه فقد اعترفت بفضل عرب الأندلس على النهضة الأوروبية إذ تقول:

((ولم يبدأ ازدهار الغرب ونهضته إلا حين بدأ احتكاكه بالعرب سياسياً وعلمياً وتجارياً.واستيقظ الفكر الأوروبي على قدوم العلوم والآداب والفنون العربية من سباته، الذي دام قروناً ليصبح أكثر غنىً، وجمالاً وأوفر صحة وسعادة.[١٠]

ولم يقتصر إسهام العرب في النهضة الأوروبية الحديثة على إسبانيا فقط، بل امتد أثره في اتجاهين إلى القارة الأوروبية حينما أقامت امبراطورية سيطرت على الشطر الأكبر من أوروبا في ظل الأسرة النمساوية، ثم نحو أمريكا التي كان من عجيب الصدف التاريخية.أن الكشف عنها تم في سنة ١٤٩٢م، سنة سقوط غرناطة في أيدي الإسبان.

ولم تمض سنوات على هذا الكشف حتى كانت إسبانيا والبرتغال تسيطران على القسم الأعظم من القارة الأمريكية من كاليفورنيا في الشمال حتى أرض الغار في أقصى جنوب القارة، وكان من الطبيعي أن يحمل الفاتحون الجدد كثيراً مما استقر في دمائهم ونفوسهم من عناصر عربية ومن رواسب حضارية عربية.[١١]

٢ - صقلية:

وأما الميدان الثاني للقاء العرب بغيرهم من الأمم الأوروبية فقد كانت جزيرة صقلية والشطر الجنوبي من شبه الجزيرة الإيطالية، لقد جاء العرب إليهما من تونس عام ٨٢٧ م، وبقيت جزيرة صقلية تحت السيادة العربية أكثر من قرنين ونصف حتى عام

١٠٩١م عندما استعادها النورمانديون لأوروبا، وقد تكررت في صقلية ظاهرة التأثير العربي الإسلامي على أوروبا، على نحو ما رأيناه في الأندلس وإن كان على مستوى أقل.

ومما يذكر، أن سكان صقلية تحسنت أحوالهم في فترة السيادة العربية على الجزيرة، وازداد عدد المسلمين في الجزيرة بعد الفتح لتدفق المستوطنين من شمال أفريقيا، وكذلك نتيجة لاعتناق معظم سكان الجزيرة للدين الإسلامي، ولما زار الرحالة المشرقي (ابن حوقل) صقلية في منتصف القرن العاشر الميلادي أي بعد قرن ونصف القرن من بداية الفتح الإسلامي لاحظ أن في "مدينة بلرم(باليرمو) ثلاثمائة مسجد ونيفاً" مما يدل على مدى التسامح الديني والارتقاء الحضاري، كما تميزت بالازدهار الزراعي والنشاط التجاري.(١٢)

أحدث العرب تغييراً مهماً في نظام ملكية الأرض وتوزيعها والمفردات العربية الكثيرة في اللهجة الصقلية شاهد على اهتمام العرب بالزراعة، فقد أدخلوا إلى الجزيرة عدد من النباتات الجديدة، كما وسّعوا من رقعة الأراضي المزروعة باستخدام وسائل الري وعندما استولى النورمان على صقلية، كانوا حديثي العهد بالحضارة، فإنهم اعتمدوا على المسلمين في الإدارة والدواوين والبلاط الملكي، وفي أعمال البناء والتشييد وكان ملك صقلية (روجر الثاني) معجباً بالحضارة العربية، وكان يلبس عباءة ملكية صنعت بدار الطراز في باليرمو طرّزت على حاشيتها كتابة عربية بالخط الكوفي والتاريخ الهجري ٥٨٢(١١٣٤م) وتحت رعاية روجر الثاني صنّف الجغرافي العربي الشريف الإدريسي كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) كما صنع له كرة أرضية من الفضة وظلت العملة العربية وهي المعروفة بالرُباعي العملة المتداولة في صقلية وجنوب إيطاليا، تماماً كما كانت المثاقيل المرابطية والموحدية العملة المتداولة في ممالك إسبانيا المسيحية حتى بعد تقلص نفوذ المسلمين وأراضيهم في الأندلس.(١٣)

وفي سنة ١١٨٥م، مر الرحالة الأندلسي ابن جبير بجزيرة صقلية على عهد ملكها النورماني وليم الثاني أي بعد نحو قرن من خروج السيادة على الجزيرة من أيدي العرب فذكر: (أن الملك يقرأ ويكتب بالعربية، وعلامته... الحمد لله حق حمده وكانت علامة أبيه: الحمد لله شكراً لأنعمه).[١٤]

وبعد النورمان، وفي عهد الإمبراطور فريدريك الثاني (حكم من ١٢١٥-١٢٥٠م) وكان محباً للثقافة العربية فحافظ على تراثها،وأقام الصلات الواسعة مع سلاطين المسلمين، وأسس فريدريك في سنة ١٢٢٤ جامعة في نابولي وجعل منها أكاديمية لنقل العلوم العربية إلى العالم الغربي: وانتشر تأثير الفلسفة الرشدية في شمال شرقي إيطاليا بما في ذلك البندقية وفرارا، واستمر هذا التأثير حتى نهاية القرن السابع عشر.

أما في جنوب إيطاليا فكان أول رائد لحركة الترجمة في جنوب إيطاليا تاجراً تونسياً اهتم في الطب وزار سورية والعراق والهند وجمع الكثير من الكتب التي تتعلق باهتمامه، ثم أبحر إلى جنوبي إيطاليا حاملاً معه شحنته النفيسة من المخطوطات ودخل سلك الرهبنة وأطلق على نفسه اسم «قسطنطين الإفريقي» عام ١٠٨٧ ثم اعتكف في دير قرب بالرمو، وانكب على ترجمة الكتب من العربية إلى اللاتينية وكان هذا عمله أساساً لمدرسة سالرنو في الطب التي اتجهت إلى دراسة الطب العربي، وقد ترجم قسطنطين قسماً كبيراً من كتاب (الملكي) لعلي ابن عباس وكتاب طب العيون لحنين بن إسحاق، كما ترجم عن العربية كتباً يونانية الأصل كشروح أبقراط وجالينوس.[١٥]

إن دور صقلية في انتقال التراث الفكري العربي إلى بقية بلدان أوروبا كان له الشأن الكبير، وبعد خروج العرب منها ظلت صقلية تعيش فسحة اللقاء وظهرت عظمة مملكة صقلية النورمانية في القرن الثاني عشر الميلادي إذ ساعدت بفضل العرب المسلمين على قيام حركة النهضة الإيطالية مبكراً في أوروبا.

٣- الشرق العربي:

وإذا كان الميدانان السابقان على الأرض الأوروبية، فإن الميدان الثالث كان جزءاً من الوطن العربي نفسه حيث دارت الحروب الصليبية مدة تقرب من قرنين كاملين بين عامي (١٠٩٥-١٢١٩١).

لقد أنشأ الصليبيون في الشرق العربي ممالك ودويلات على طول المنطقة الساحلية من بلاد الشام وفي الداخل، وعلى الرغم من أن الصليبيين قصدوا الشرق العربي للحرب لا لطلب العلم، فقد أتاحت الحروب الصليبية فرصة ممتازة للتعارف بين الجانبين ويبدو أن الصليبيين الأوروبيين فوجئوا بأن الشرق العربي الذي أرادوا (حسب زعمهم) إنقاذ مهد المسيح منه، كان على درجة كبيرة من الرقي والتقدم في مختلف ميادين الحضارة.

وفي هذا السياق يذكر غوستاف لوبون بأن الحروب الصليبية لم تكن سوى نزاع عظيم بين أقوام من الهمج وحضارة تعدّ من أرقى الحضارات التي عرفها التاريخ.[١٦]

وتجلّت التأثيرات الحضارية العربية المشرقية في الغرب الأوروبي في تطور فن الحرب لاسيما فيما يتعلق ببناء القلاع ذات الجدران المزدوجة، كما أخذوا عن العرب طريقة جعل المدخل الموصل من باب القلعة إلى داخلها على شكل زاوية قائمة أو جعله ملتوياً بحيث لا يمكن للعدو الذي بباب القلعة رؤية الفناء الداخلي لها وقد شيدت القصور في فرنسا في القرن الرابع عشر على هذا الطراز إضافة إلى أن الصليبيين أخذوا عن العرب صناعة الورق واستخدام البوصلة والاسطرلاب وآلات الرصد واستعمال المجانيق والكباش الهادمة وإرسال الرسائل الحربية عن طريق الحمام الزاجل، ومن الممكن أن يكون المشرق العربي إبّان الحروب الصليبية، هو المصدر الذي أخذ عنه الغرب الأوروبي ألعاب المبارزة، كذلك نلاحظ كثرة استعمال الشارات والرنوك في الغرب الأوروبي نتيجة للاتصال بالعرب في بلاد الشام.[١٧]

ونقل الصليبيون معهم تقنيات جديدة مثل طاحونة الهواء وصناعة الزجاج الملون وأخذوا زراعات جديدة أيضاً مثل القطن والمشمش والأرضي شوكي والأرز وقصب السكر.(١٨)

أما في المجال الثقافي، فقد كانت التأثيرات تسير باتجاه واحد، تأثير الشرق على الغرب، ولعل أبرز ما يمكن أن يكونوا قد استفادوا من الشرق هو سماعهم لبعض القصص العربية مثل كليلة ودمنة، أو فصول من القصص الشعبية التي قدر لها أن تُدرج بعد ذلك في مجموعة ألف ليلة وليلة، ويجدر بنا أن نشير إلى أن غيوم التاسع أول شعراء أوروبا الغنائيين، كان قد أمضى ما يقرب من سنة ونصف في بلاد الشرق في مغامراته الصليبية الفاشلة، وقد كان ذلك كله تأثيره الواضح فيما كان ينظم من شعر ينشده ندماءه وأصدقاءه في مجالسه اللاهية المرفهة.(١٩)

٤ – التوسع العثماني:

أما الميدان الرابع من ميادين الاحتكاك الحضاري بين الحضارة العربية الإسلامية وأوروبا فهو ميدان متأخر وغير مباشر، تمثل بامتداد الدولة العثمانية منذ منتصف القرن الخامس عشر في شرق أوروبا (دول البلقان) وصولاً إلى قلب أوروبا في القرن السابع عشر وحصار العثمانيين لعاصمة الإمبراطورية الجرمانية المقدسة فيينا عام ١٦٨٣م. وما حمله هذا الامتداد إلى دول أوروبا الشرقية من مظاهر حضارية طابعها عربي إسلامي في الأساس، وبقيت هذه الآثار حتى يومنا هذا شاهدة في اليونان، وموستار، وكريت، والبوسنة، والهرسك، على إسهامات العرب في صنع عصر النهضة الأوروبية الحديثة.(٢٠)

لقد أتاحت ميادين اللقاء الأربعة في الأندلس، وصقلية، والمشرق العربي، ومناطق التوسع العثماني، والتي امتدت قروناً عديدة، فرصاً عديدة للمجتمع الأوروبي للنهوض من عصور الظلام التي سادت في العصور الوسطى والانطلاق والمشاركة في مختلف

ميادين الفكر والعلم، وأبرز ما يستوقف الباحث في مشاركة العرب التاريخية في صنع عصر النهضة الأوروبية هي الأمور التالية وأهمها مجالات الاقتصاد والفكر والأدب والفن.

ثالثاً: إسهام العرب في النهضة الاقتصادية الأوروبية:

لقد أثرى العرب الحياة في شبه الجزيرة الايبرية في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة، وأن المفردات الكثيرة الباقية في الإسبانية والبرتغالية والمتصلة بالحياة المادية تبين إلى أي مدى أسهم العرب في الأمور الاقتصادية ومنها:

أ- الزراعة والتقنيات الزراعية:

أحدث العرب في أوروبا (ثورة زراعية) حينما أدخلوا إلى حقول الأندلس الخصبة زراعات جديدة من بينها القطن والأرز والذرة والقمح وقصب السكر والتوت والموز والبرتقال والليمون، وأصبحت إسبانيا جنة واسعة بفضل أساليب العرب الزراعية الجديدة.(٢١)

وأدخل العرب نظام الدورات الزراعية كزراعة الذرة بعد زراعة القمح شتاءً، واستخدموا الوسائل الحديثة للري فحفروا الآبار وشقوا القنوات ووسعوا شبكتها، فازدادت بالتالي مساحة الأراضي المروية والمحاصيل الزراعية، وزادت مداخيل الفلاحين وارتفع مستوى المعيشة، كما برع العرب في تأليف الكتب الزراعية وتصنيفها وفقاً لأنواع التربة وما يصلح للزراعة فيها.كما استصلح العرب المرتفعات وسفوح الجبال في الزراعة، ولم يتركوا شبراً إلا واستثمروه.(٢٢)

وفي اللغة الإسبانية الكثير من الكلمات العربية التي لها علاقة بوسائل الري كالساقية Acequia والبركة Alberca والناعورة Noria، والسد Azud، ويلاحظ أن اسم شجرة الزيتون بالبرتغالية لاتيني الأصل Olivera، بينما ثمرها وزيتها من العربية , Azeite

azeitona. وأدخل العرب إلى أوروبا القمح الصلب، وهو المعروف باسم ((دَرْمَــق)) والذي انتقل إلى القشتالية باسم adargama ، ومن مزاياه تحمله للحرارة والجفاف.(٢٣)

إن أولى الحدائق النباتية الملكية (Royal Bitanical Gardens) في أوروبا ظهرت في الأندلس في القرن الحادي عشر للميلاد في طليطلة، ثم في اشــبيلية، وهــي مــزارع مدادية لتأقلم النبات التي كانت تجلب من المشرق العربي، أما في أوروبا الغربية فلــم تعرف مثل هذه الحدائق إلا في منتصف القرن السادس عشر، حين بدأت تظهر بتأثير النمط العربي في المدن الإيطالية.(٢٤)

واهتم العرب بشكل خاص بتربية الأغنام والخيول فاشتهرت في إسبانيا أغنام المرينــو التي تعتبر اليوم في مقدمة أغنام العالم من حيث جودة صوفها وبفضل احتكار اســبانيا لهذا النوع من الأغنام، فإنه سيطرت على السوق العالمي من منتصف القرن الخــامس عشر حتى القرن الثامن عشر، إن أغنام المارينو أدخلت إلى إسبانيا من خلال المغرب العربي، وسمّيت باسم قبيلة بني مرين، إحدى قبائل زناتة في المغرب الأوسط.(٢٥)

إن نظام الرعي في إسبانيا من أصل مغربي، وترى المستشرقة الألمانية هونكه بــأن العرب أول من أجرى التجارب على الإبل والخيل، ومارسوا التفريخ الصناعي، ممــا نعرفه نحن اليوم في القرن الحادي والعشرين.(٢٦)

وبالنسبة لجزيرة صقلية، فإن الحكم العربي للجزيرة كان في رأي المستشرق الإيطالي غابرييلي إيجابياً ومفيداً، بفضل التغييرات التي أدخلها على الأوضاع الاقتصادية فــي الجزيرة، حيث ألغى نظام الإقطاع، وشجع على تملك مساحات زراعية صغيرة، وأحيا الزراعة وأغناها بأساليب ومحاصيل جديدة، ففيها غــرس العــرب أشــجار الليمــون والنارنج، كما أدخلوا زراعة قصب السكر والأرز والقطن وأشجار التوت وتربية دودة القز والفستق الحلبي والبطيخ، وما زال النارنج يعرف في صقلية naranzu ، وتــشهد بالدور الكبير الذي قام به العرب في الاقتصاد الزراعي في صقلية الألفــاظ العربيــة

العديدة المتعلقة بالزراعة والباقية في اللهجة الصقلية مثل المعصرة mazzara، والساقية zachia، والناعورة noria [٢٧]

ب- النهضة الصناعية:

تُعدّ صناعة الورق التي ساهم فيها العرب في تطور النهضة الصناعية الأوروبية من أهم المساهمات الهامة، إذا لولا الورق لما استطاعت المطابع أن تقوم بعملها، ولا انتشرت الكتب والمعرفة بين الأوروبيين.لقد أخذ العرب صناعة الورق عن الصينيين، وأنشأ أول مصنع للورق في بغداد في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد في أواخر القرن الثامن الميلادي، وسرعان ما انتشرت صناعته في المغرب والأندلس وصقلية، وكانت مدينة شاطبة(قرب بلنسية) بشرق الأندلس تشكل أهم مراكز صناعة الورق في الأندلس، وما زال الورق الجيد يُعرف في المغرب العربي بالورق الشاطبي، ويذكر الإدريسي صناعة الكاغد (الورق) بمدينة شاطبة، فيقول: إنه يُعمل من الكاغد، ما لا يوجد له نظير بمعمور الأرض ويعمَّ المشارق والمغارب.[٢٨]

وجدير بالذكر أن الكلمة العربية (رِزمْة) أي حزمة من الورق– انتقلت إلى الإسبانية فأصبحتRESMA، ومنها إلى الفرنسية القديمة RAYEME، ومن هذه إلى الإنكليزيةream.

كما أخذت أوروبا صناعة المنسوجات الحريرية عن العرب، وأنشئت مصانع في فرنسا وألمانيا وإيطاليا لهذه الغاية، وكانت مدينة المريّة المركز الرئيس لصناعة المنسوجات في الأندلس، وكان على منتجاتها طلب كبير من جانب الملوك والنبلاء في أوروبا يقول الإدريسي: إنه كان بمدينة المريّة ((من طُرز الحرير ثمانمائة طراز، يُعمل بها الحلل، والديباج، والأصبهاني، والجرجاني، والستور المكللة، والثياب المعينة، والخُمُر والعتابي والمعاجُر أنواع الحرير)).[٢٩]

وانتقلت صناعة تكرير السكر من بلاد الشام إلى أوروبا عن طريق الحروب الصليبية، وكان الأوروبيون يستعملون قبل ذلك العسل للتحلية، ولم يعرف الأوروبيون السكر إلا في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي، وفي تسميات السكر بمختلف اللغات الأوروبية (zucker) مع بعض التحريف إلا دليل على انتقاله إلى أوروبا عن طريق العرب.(٣٠)

كما انتقلت صناعة الزجاج والصباغة المتقنة وصناعة السلاح تدريجياً إلى أوروبا ولو أتيحت لنا فرصة التجوال في المتاحف العالمية لوجدنا التحف الفنية من الزجاج العربي كالآنية على صورة الديك مع الأظافر المعكوفة ونقش عليها اسم الخليفة العزيز بالله الفاطمي والموجودة في كنيسة (القديس ماركو) في البندقية، ويوجد في المتحف البريطاني وفي متحف فكتوريا وألبرت نماذج عربية من الزجاج يمكن دراستها والإطلاع على تطور الصناعة العربية ومدى إسهامها في النهضة الصناعية الأوروبية.(٣١)

ج- التجارة:

إن من أهم عوامل ازدهار التجارة في الدولة العربية المترامية الأطراف الموقع الاستراتيجي الهام على الطرق التجارية العالمية، واتساع رقعة الدولة، وما يتبع ذلك من تنوع في الإنتاج الصناعي والزراعي، إن وحدة النقد واستعمال الدينار والدرهم من الذهب والفضة وعدم وجود حواجز جمركية، كل ذلك كان حافزاً قوياً على النشاط التجاري، ومن المهم أن نقدّر دور التجار العرب وما أسدوه من أعمال ممتازة على صعيد النهضة التجارية في أوروبا، وأصبح من المؤكد ما كان للنقود العربية من أهمية بالغة في تبادل السلع بين التجار العرب وبين الفايكنغ في شمال أوروبا (منطقة بحر البلطيق) بعد العثور على كميات كبيرة من الدنانير العربية في هذه المنطقة.لقد كان للدينار العربي أثر كبير على اقتصاد أوروبا، ولعب دوراً رئيساً في المبادلات

التجارية الدولية، وقلّده الأوروبيون في عملاتهم كالفلورين والدوقة الإيطاليتين، كما قلد الصليبيون في المشرق الدنانير الفاطمية.(٣٢)

أما في شمال إسبانيا فقد ظهرت عُملة تعرف باسم maneusos (من العربية المنقوش) وهي تسمية شاعت في بعض ممالك إسبانيا المسيحية للدينار العربي في فترة ملوك الطوائف.ويؤكد غوستاف لوبون المؤرخ الفرنسي بأن لصلات البندقية التجارية الوثيقة بالمشرق العربي هو سبب عظمتها وتقدمها في التجارة بين أوروبا والمشرق.(٣٣)

إن وجود عدد من المفردات العربية الاقتصادية في مختلف اللغات الأوروبية دليل على أنه كان للتجارة والتقاليد العربية تأثير عميق على الحياة الاقتصادية وتطورها في البلدان الأوروبية، فالكلمة الإيطاليةzecca مشتقة من (دار السكة)، وكلمة cheque مشتقة من العربية (صك) والكلمة الهولندية wissal من (وُصْل) والمصطلح الجمركي الألماني Tariff من العربية (التعرفة).(٣٤)

رابعاً- دور العلوم التطبيقية العربية في الفكر الأوروبي الحديث

إن أبرز ما قدمه العرب في تكوين الفكر الأوروبي في مختلف فروع العلم هو الرياضيات والفلك، والطب والصيدلية والفيزياء والكيمياء والجغرافية والملاحة البحرية وعلم النبات وغيرهم مما دفع الحضارة الأوروبية إلى الأمام.

أ- في مجال الرياضيات والفلك:

كان للعرب الفضل الأكبر في إدخال النظام العشري للعدد إلى أوروبا وقد دخلت الرياضيات العربية إلى أوروبا على يد (ليوناردو دي بيزا) في القرن الثالث عشر عرف العرب الصفر ومنه اشتقت كلمتا Zero و Cipher قبل أن يعرفه الغرب بثلاث قرون، وأقر علماء الغرب أن فكرة الصفر، تعد من أغلى الهدايا الفكرية، التي قدمها العرب إلى الغرب الأوروبي، وكان العرب قد استخدموا لفظ (الصفر) للدلالة على (لا

شيء) منذ العصر الجاهلي، وقام العرب باستخدامه في القرن الثامن الميلادي في عمليات الحساب فكانوا يرسمونه على هيئة حلقة أو دائرة كما ذكر الخوارزمي، الذي قام بشرح كيفية استخدام الأعداد الجديدة بما فيها الصفر، في بحث له ترجمه الأوروبيون إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر، إن الخوارزمي كان أول من برز في علمي الرياضيات والفلك، وقد عرف عند الأوروبيين باسم Algorismus وكلمة (الجبر Algebra) مشتقة من أحد مؤلفاته وقد اقتبس العالم الأوروبي الكسندر دي فيلادي نحو سنة ١٢٢٠ م، من مؤلفات الخوارزمي علم الحساب، كما استفاد من الخوارزمي عامل الرياضيات حنا الهالفسكي نحو سنة ١٢٥٠م وبقي إنتاجهما العلمي مرجعاً لتلقين الحساب في غرب أوروبا عدة قرون من السنين كما ترجم جيرار الكريموني كتاب (الجبر والمقابلة) للخوارزمي الذي عاش في عصر المأمون وتوفي عام ٨٤٩ م وعاش في الأندلس عالم الرياضيات الكبير أبا القاسم مسلمة المجريطي ت ١٠٠٧م، نسبة إلى مجريط أي مدريد، فكان إمام الرياضيين في الأندلس في وقته، وكان يُلقب بالحاسب.(٣٥)

واشتُهر جابر بن أفلح بما قدمه في ميدان علم المثلثات، وهو علم حقق فيه العرب تقدماً كبيراً وكان الإنجليزي روبرت أوف تشستر أول من استعمل في القرن الثاني عشر المصطلح العربي (جَيْب) في علم المثلثات مترجماً إلى Sine ،أما في علم الفلك فقد طبق العرب حسابات على الأرصاد الفلكية، وصنعوا آلات جديدة للرصد، مما أدى بهم إلى كثير من الاكتشافات وإلى تعديل شامل لفلك بطليموس ووضعوا كتباً في ذلك ترجمها الأوروبيون واستخدموا المصطلحات العربية مثل الاسطرلاب وأسماء النجوم ومجاميعها.(٣٦)

وتركزت أعمال علماء الفلك العرب حول الزيج- الجداول الفلكية- وأعدّ البتاني، Albateginus في حدود سنة ٩٠٠ م جداول دقيقة إذ اكتشف تغيير أوج الشمس وحَسَبَ السنة بمقدار ٣٦٥ يوماً وخمس ساعات و ٤٦ دقيقة و٢٤ ثانية، وقد

أُستخدمت ملاحظاته عن الخسوف والكسوف لأغراض المقاربة حتى عـــام ١٧٤٩ م في أوروبا.[٣٧]

ومن أهم الفلكيين العرب المسلمون الذين أفادوا علماء أوروبا بعلمهم وإبداعهم العـــالم الأندلسي الزرقالي Arzachel (ت ١٠٨٧م)، وهو الذي اخترع الاسطرلاب المعروف بالصفحة وله رسالة في الموضوع ترجمت إلى اللاتينيـــة فـــي مونبيلييـــه، واقتـــبس كوبرنيك عن كل من البتاني والزرقالي في كتابه في (دورة الأفلاك) وقد ترك العرب أثارهم الخالدة في أسماء كواكب، ومعظمها باللغات الأوروبية تحمل أســـماء عربيـــة كالعقرب، والجدي ، والطائر، والذنب، والفرقد.[٣٨]

ب- في مجال الطب والصيدلة:

قام الأطباء العرب باكتشافات بارزة في الطب، جعلت طـــلاب الطـــب فـــي أوروبـــا يعتمدون عليهم لعدة قرون، فقد نقل العرب الطب اليوناني وطوّروه وعَـــرَف الطـــب العربي موسوعات طبية تُرجمت كاملة إلى اللاتينية وفي مقدمتها كتاب (القانون) لابن سينا، الذي جمع خلاصة الطب عند العرب، واليونان، والسريان، والأقبـــاط، وضـــم ملاحظات جديدة عن الالتهاب الرئوي والسل، وقد ترجم الأوروبيون هذا الكتاب فـــي القرن الثاني عشر وبقي يدُرَّس في جامعة يينا (Jenna) بألمانيا حتى القـــرن التاســـع عشر.[٣٩] ونود الإشارة أيضاً إلى أن ابن رشد كان أول من قال: إن بعض الأمراض المعدية مثل الجدري الأسود قد تمنح الجسم حصانة مدى الحياة.

ويُعدُّ الرازي Rhazes أول وأعظم أطباء المدرسة الطبية العربية، وله أكثر من مئتي مصنف في الطب، أشهرها مقالته عن الجدري والحصبة التي تُرجمت إلى اللاتينية في فترة مبكرة، وطُبعت في أوروبا أكثر من أربعين مرة ما بين عـــامي ١٤٩٨-١٨٦٦ وأعظم مؤلفاته (الحاوي) وهو موسوعة عن سائر العلوم الطبية، وقد ترجمـــت فـــي

صقلية عام ١٢٧٩م إلى اللغة اللاتينية، وطبع مراراً حتى منتصف القرن السادس عشر، وذلك فإن تأثيره في الطب الأوروبي كان كبيراً جدا.(٤٠)

وفي الأندلس اشتهر من بين أطبائها الزهراوي، وابن زهر، وابن الخطيب ويعد ابو القاسم الزهراوي (ت ١٠١٣م) رائد علم الجراحة، وكان لمصنفاته في الجراحة أثر كبير في أوروبا حتى القرن الثامن عشر، حيث عُرف باسم Albucasis المحرفة عن كنيته (أبو القاسم) ويعتبر كتابه ((التعريف لمن عجز عن التأليف)) موسوعة طبية، وقد ترجم إلى اللاتينية، وظل قروناً الكتاب المعتمد في الجراحة في سالرنو ومونبيلييه وغيرهما من مدارس الطب في أوروبا، والكتاب يشتمل على ثلاثين مقالة، أشهرها المقالة الثلاثون عن الجراحه التي ترجمها إلى اللاتينية جيرارد الكريموني في طليطلة في أواخر القرن الثالث عشر، وكان لها تأثير كبير على الجراحين الإيطاليين والفرنسيين. إن كتاب الجراحة هذا كان أهم كتاب في الطب، وصاحبه أول مؤلف جعل الجراحة علماً قائماً بذاته مستقلاً عن الطب، قائماً على أساس التشريح، ووصف للآلات الجراحية والعمليات الجراحية، ومن طريف ما يذكر أن ملكة البشكتس- طوطة- اضطرت إلى زيارة قرطبة في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر عام ٩٥٨م مصحوبة بحفيدها غرسيه بن شانجه، الذي كان يشكو من بدانة مفرطة مما نفر منه رعيته، فعالجه طبيب الناصر مما كان يشكو منه، ولم يكن له ليعالج في غير قرطبة، وهكذا استعاد غرسيه على حد قول المستشرق الهولندي دوزي، وسامته وعرشه.(٤١)

وعلى أثر انتشار وباء الطاعون في أوروبا ومنطقة البحر المتوسط في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، عزا الأوروبيون انتشار الوباء إلى اليهود، أو إلى الأجرام السماوية، أو إلى غضب الله من آثام البشر، إلا أن ابن الخطيب، العالم والوزير الغرناطي الشهير المتوفى سنة ١٣٧٤م كتب رسالة أكد فيها أن الوباء ينتقل عن طريق العدوى، وفي عام ١٣٨٢م نشر أستاذ بجامعة مونلييه، المتأثرة بمعارف

الأندلس، كتاباً عن الطاعون، قال فيه بانتشار الوباء عن طريق العدوى، ونفى التـأثير المزعوم للنجوم وغيرها.[٤٢]

وقد ساهم أطباء بالرمو في نمو وتطور أقدم مدرسة للطب في أوروبا، وهي مدرسة سالرنو بجنوب إيطاليا، وبدأت بترجمة المؤلفات الطبية العربية في إيطاليا منذ مطلع القرن الحادي عشر الميلادي، ويذكر اسطفان الأنطاكي سنة ١١٢٧م أن علماء الطب يوجدون في الدرجة الأولى في صقلية وسالرنو، إن حرص فريدريك الثاني ملك صقلية على صحته جعله يولي عناية خاصة للجراحة والطب وهو الذي أحيا مدرسة الطب العربي في سالرنو، وأنشأ فيها قسم للتشريح كما أسس جامعة نابولي سنة ١١٢٤م وأودع فيها مجموعة من المخطوطات العربية.[٤٣]

إن أشهر علماء النباتات والصيدلة في الأندلس- بل في العالم العربي الإسلامي كان ابن البيطار الذي ترك لنا كتابين عن الحشائش الطبية أودع فيها حصيلة بحوثه وتجاربه وملاحظاته، تناول فيها نحو ١٤٠٠ مادة نباتية من بينها ٣٠٠ مادة جديدة.

ج- في مجال الفيزياء والكيمياء:

وفي الكيمياء والفيزياء فللعرب أثر واسع في تكوين الفكر الأوروبي، وأشهر علماء العرب في هذا المجال هو الحسن بن الهيثم (٩٦٥-١٠٣٩م)، وتعد كتبه من أوائل الكتب التي ترجمت إلى اللاتينية وخصوصاً كتابه (المناظر)، الذي تضمن نظريات عن العدسات والبصريات والمرايا السنوية والمخروطية وضوء القمر، وكان لكتابات ابن الهيثم تأثير كبير على علماء الغرب الناشئين لاسيما روجر بيكون كما نقد نظرية اليونان عن آلية الرؤية.

وكان ابن الهيثم أول من استخدم الغرفة المظلمة لرصد الخسوف، ونقد نظرية أن الشعاع ينبعث من العين بنظرية تقول: إن الأجسام هي التي تبعث ضوءها الخاص أو المنعكس في كل اتجاه، وما تتلقاه العين هو الذي يجعلها تبصر.[٤٤]

وفي الكيمياء، قام العرب باكتشافات هائلة من بينها الماء الملكي، وحمض الكربون، وحمض الآزوت، ونترات الفضة، وكان جابر بن حيان (ت ٧٧٦م)، أشهر الكيمائيين العرب الذي عرفتهم أوروبا فقد ترجمت كتبه إلى اللاتينية وظلت تعتمد كمراجع حتى القرن السابع عشر، وهو صاحب الفضل في معرفة أوروبا لملح النشادر وماء الذهب والبوتاس، وزيت الزاج، ومن كتبه التي ترجمت كتاب(السبعين)، وكتاب (الخواص الكبير)، كذلك الأمر بالنسبة لكتب الرازي، والتي أخذ منها الأوروبيون تقسيم المواد الكيمائية إلى نباتية وحيوانية ومعدنية ومشتقة ومن أهم كتبه التي ترجمت كتاب (سر الأسرار).(٤٥)

د- في مجال الجغرافية والملاحة البحرية:

استفاد الأوربيون كثيراً من كتب الجغرافيا والرحلات العربية، فلم تعرف أوروبا ما في داخل قارة إفريقيا إلا عن طريق الكتابات العربية، التي ظلت مرجعهم الوحيد عن هذه المناطق حتى القرن التاسع عشر، وكروية الأرض لم تكن أمراً مسلماً به عند الأوربيين في الوقت الذي كان فيه الجغرافيون العرب يُجمعون على هذه الحقيقة فلو لم يُشع العرب نظرية كروية الأرض، لما خطر ببال كريستوف كولومبوس، أن الاتجاه غرباً يمكن أن يؤدي به إلى الهند، ولما اكتشف بالتالي العالم الجديد، وللإدريسي فضلٌ كبير إذ حصل الأوربيون من كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) على معلومات دقيقة نسبياً عن الهند، والصين، والنصف الشمالي من أفريقيا، مما استمده الإدريسي من كتب الجغرافيين والرحالة المسلمين، ومما دوّنه نتيجة لرحلات قام بها هو شخصياً ومما أخذه الأوروبيون عن العرب في علوم الملاحة هبوب الرياح الموسمية في المحيط الهندي في اتجاهين مختلفين في موسمي الصيف والشتاء، سموها (Monsoon) (من مَوسْم)، فاستفادوا بذلك في حركة الكشوف البحرية والوصول إلى الهند من ساحل إفريقيا الشرقي.(٤٦)

أما البوصلة فقد تمَّ تطويرها على أيدي العرب والأوروبيين، وكان يعتقد إلى عهد قريب أنها من اختراع الصينيين، ولكنه تبين أن الملاحين الصينيين استعملوها نحو سنة ١١٠٠ م بعد أن أخذوها عن العرب، إذ كان الصينيون يتاجرون منذ القرن التاسع الميلادي، مع منطقة الخليج والبحر الأحمر.

وبالنسبة لأشرعة المراكب، نقل العرب إلى البحر المتوسط حصيلة تجاربهم في المحيط الهندي ففي ملاحة المحيط الهندي عُرف الشراع المثلث الشكل المسمى Lateen، فأدخل العرب إلى البحر المتوسط المراكب التي تستعمل هذا النوع من الشراع، Lateen – caravel ومن مزاياها قدرتها على السير في مواجهة الرياح، بينما المراكب التي تستخدم الأشرعة المربعة فإنها لا تصلح للسير إلا في اتجاه الرياح فأخذ بناة السفن في أوروبا ذلك عن العرب وطوروه بحيث تسنى بناء سفن كبيرة تجتاز المحيط الأطلسي، ولاسيما من قبل الإسبان، والبرتغاليين، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، ومزجوا بين النوعين من الأشرعة، كما أن الخرائط الملاحية المعروفة باسم Portoland فقد طورها الجنوبيون أخذاً عن خرائط العرب المسلمين ومما ذكر في هذا الصدد أن (دار الصناعة) وهي دار بناء المراكب عند العرب– انتقلت إلى معظم اللغات الأوروبية بهذا المعنى، فهي بالألمانية Arsenal في الإيطالية Arsenale وفي الإسبانية Larsena لقد تسنى للبرتغاليين إحراز كشوفاتهم البحرية بفضل اقتباس طريقة بناء المراكب العربية التقليدية في غرب الأندلس، فعلى أساسها استطاع الأمير البرتغالي هنري الملاح بناء المراكب السريعة المسماة Caravels ، وهي مراكب شراعية سريعة ومن المعروف أن الأمير هنري الملاح استعان بأحد رسامي الخرائط اليهود واسمه ابراهام كربسك– من جزيرة ميورقة استدعاه إلى لشبونة لهذا الغرض ولاشك أن هذا الرسام اليهودي كان على إطلاع على الخرائط العربية في المغرب والأندلس.(٤٧)

ولابد من الإشارة إلى كتاب (وصف إفريقيا) للحسن الوازن- المعروف بليو الأفريقي-، الذي ألفّه بالإيطالية معتمداً على مسودة للكتابات العربية كانت في حوزته حينما أسره القراصنه الإيطاليون قرب جزيرة جربة التونسية عام ١٥١٨م، ومنذ ظهور الكتاب أدرك الأوروبيون أهميته وأفادوا مما فيه من معلومات أوردها شاهد عيان عن أراضي- وبخاصة السودان الغربي- كانوا يجهلونها تماماً، والكتاب منجم عن المعلومات الجديدة التي طالما كان يبحث عنها الأوروبيون، وظل مدى قرنين ونصف القرن لا غنى عنه لكل مكتشف أوروبي له اهتمام بأفريقيا.[٤٨]

كما لا ننسى في هذا السياق أن نعطي نموذجاً رائعاً لمدى تأثير العرب في الملاحة الأوروبية في عصر النهضة أشهر ملاحي العرب(شيخ علم البحر) أحمد بن ماجد، الذي عاش في الفترة ما بين (١٤٢٤-١٥٠١م) وكان ربان سفينة فاسكو دوغاما البرتغالي في رحلاته الاستكشافية في أعالي البحار، وتمكن من الوصول إلى الهند في آب ١٤٩٨.[٤٩]

ولد أحمد بن ماجد في جلفار (رأس الخيمة) حوالي عام ١٤٣٤ وقضى معظم حياته أستاذاً ومرشداً ملاحياً في غرب المحيط الهندي والبحر الأحمر، وعندما وصل أوائل الملاحين البرتغاليين الذين بدءوا عصر الاكتشافات الجغرافية الأوروبية إلى سواحل أفريقيا الشرقية عام ١٤٩٨م ذُهلوا من المستوى الحضاري الذي بلغته هذه المناطق، وكان فاسكو دوغاما وبحارته يشاهدون معالم الحضارة. وفي ماليندي لقي فاسكو دوغاما ورجاله ترحيباً من حاكمها المحلي فقرروا الإقامة هناك إلى أن يجدوا مرشداً يمكن الاعتماد عليه ليقودهم إلى سواحل الهند.[٥٠]

وتشير المصادر العربية إلى أن أحمد بن ماجد تصادف وجوده في أثناء زيارة فاسكو دوغاما، وإن الملاح البرتغالي أُعجب بغزارة علمه وشجاعته، وبما لديه من الخرائط والآلات، وطلب إليه أن يقوده في أول رحلة تتم عبر المحيط بين أوروبا والهند، وقد

كانت الدوافع العلمية هي الحافز الأساس لقبول أحمد بن ماجد بهذه المهمة، التي فتحت آفاقاً جديدة في تاريخ العالم البحري، والتي جعلت من أحمد بن ماجد شخصية تاريخية اسطورية[٥١].

ويذكر كراتشكوفسكي بأن أحمد بن ماجد قد اكتسب شهرة كبيرة في سواحل الجزيرة العربية استمرت إلى ما بعد عصره بقرون عديدة حيث اعتمد الملاحون في أوروبا على كتاب ((الفوائد في أصول علم البحار)) حتى نهاية القرن الثامن عشر، واستفادوا من مؤلفاته وخرائطه في تطوير وازدهار علم الملاحة والبحار.[٥٢]

وهكذا كان لعلم الملاحة البحرية العربي الأثر البارز للتقدم العلمي في أوروبا في عصر النهضة، وبدون هذا العلم لما استطاع الأوروبيون أن يقوموا بتلك الرحلات الطويلة والكشوفات الجغرافية عبر الأطلسي، واكتشاف أمريكا، والدوران حول رأس الرجاء الصالح، والوصول إلى الهند.

خامساً: مرحلة الأدب العربي إلى أوروبا وتأثيرها:

أما الحديث عن أثر الأدب العربي في نهضة أوروبا فأرى أن نبدأ بالمستشرقة الألمانية زيغريد هونكه، وهي التي أُعجبت بالحضارة العربية، وقامت بدراسة بعض جوانبها، وجعلت موضوع رسالتها لنيل درجة الدكتوراه في جامعة برلين بعنوان: ((أثر الأدب العربي في الآداب الأوروبية))، وقد أكدت على فضل العرب على حضارة أوروبا بخاصة وعلى الحضارة الإنسانية بعامة في كتابها الشهير الذي ترجم إلى العربية بعنوان: ((شمس العرب تسطع على الغرب))، وتقول في هذا الكتاب:

((إن الناس عندنا- أي في ألمانيا- لا يعرفون إلا القليل عن جهود العرب الحضارية الخالدة ودورها في نمو حضارة الغرب)). وتضيف أنه حان الوقت ((للتحدث عن شعب قد أثَّر بقوة على مجرى الأحداث العالمية، ويدين له الغرب، كما تدين له الإنسانية كافة بالشيء الكثير)).[٥٣]

إن أثر الأدب العربي بدأ واضحاً في الشعر الغنائي الإسباني والفرنسي الذي قلد فيه الشعراء والمغنون نماذج الزَّجَّاجين والوشَّاحين الأندلسيين فظهر ما يسمى بشعراء التروبادور، ومن بين أوائل شعراء التروبادور غيوم التاسع، دوق أكتين المجاورة للأندلس، ثم ماركابرو، وسيركامون، من منطقة غسقونية، المتاخمة لشمال إسبانيا، وعلى ذلك فإن اتصال الجيل الأول من الشعراء الأوروبيين بالحضارة العربية في الأندلس كان اتصالاً مباشراً ولعل لكتاب(طوق الحمامة) لابن حزم القرطبي (ت ١٠٦٣م)، أثراً قوياً في نشأة شعر التروبادور والذي اتسم شعره بالعفة والرقة. وعكس وجهي الحضور العربي وتقاليد شعر الغزل العربي في أرق شعر غزل عرفته أوروبا في مطلع عصر النهضة الحديثة.[٥٤]

ومما يلفت النظر في غزل شعراء التروبادور عاطفة الحب المميزة التي تقترب من العبادة الرومانسية للمرأة، وتعبر عن حالة غرامية شبه مرضية تنشد مثلها الأعلى في السيدة لا في العذراء، وهذا الاتجاه يناقض كما يراه عبد النبي اصطيف ((فيما نعرفه عن الآداب الشعبية الأوروبية، وكذلك يناقض معتقدات الكنيسة ومثلها الأعلى في السيدة العذراء[٥٥]))

ومن الثابت أن دانتي الشاعر الإيطالي كان قد استمد معظم أفكاره في (الكوميديا الإلهية) من مصادر إسلامية كرسالة الغفران لأبي العلاء المعري و((الفتوحات المكية)) لابن عربي، وقد نشطت في قشتالة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر في عهد الفونس العاشر المعروف بالفونس الحكيم، وتحت رعايته كتابة التاريخ على الطريقة الحولية، اقتداءً بالطريقة الإسلامية في تدوين التاريخ، فدونت حوليات من أشهرها الحولية التاريخية الكبرى لإسبانيا، وقد اعتمد واضعوها على مصادر تاريخية عربية ككتب الرازي، وتاريخ ابن علقمة الذي كان في بلنسية، وشهد أحداثها ودّون ذلك في كتابه (البيان الواضح في العلم الفادح) الذي لم تصل إلينا من سوى نتف في المصنفات العربية.[٥٦]

كما نشير هنا إلى مكانة اللغة العربية وأهميتها وسرعة انتشارها في أوروبا، إذ أقبل على تعلمها الكثيرون من طالبي العلم في أوروبا، وخير دليل على هذا هو ما قاله الفرو القرطبي(Alvaro Cordobe)، عندما خاطب أبناء بلده الإسبان محذراً من انتشار العربية إذ قال: ((إن إخواني في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلاسفة المسلمين، لا ليردوا عليها وينقضوها، وإنما لكي يكتسبوا من ذلك أسلوباً عربياً جميلاً))، كما أن رئيس دير كلوني كان يأسف أثناء إقامته في الأندلس، لما كان يشاهد من تهافت الطلبة من فرنسا وألمانيا وانكلترا على مراكز العلم العربية هناك.[٥٧]

ولا ننسى في نهاية رحلة الأدب العربي السريعة إلى أوروبا أن نذكر تأثيرها الواضح في المفردات العربية في اللغات الأوروبية الحديثة الألمانية والإسبانية والإيطالية والإنكليزية، والتي لا تعد ولا تحصى، يقول الأستاذ تريند Trend من جامعة كمبردج: إنه ((لا شيء أوضح دلالةً على ما تدين به إسبانيا للمسلمين من وفرة المفردات العربية في لغتها)) [٥٨]. وقد جمع دوزي وانغلمان ما يزيد على ١٤٥ مفردة إسبانية وبرتغالية مشتقة من العربية في قاموسهما.[٥٩]

لقد كان ما تقدم من حديث حول رحلة الأدب العربي إلى أوروبا سريعاً، كان دليلنا فيها طائر حلق عالياً في ربوع أوروبا، بحثاً عن عبق الأندلس، الذي فتن أوروبا عصر النهضة شكلاً غنائياً مثيراً وحباً رفيعاً ومكانة لا تضاهى.

سادساً: المؤثرات العربية الفنية وأثرها في النهضة الأوروبية:

اكتسب الإنتاج العربي المبتكر على الصعيد الفني إعجاب واحترام وتقدير الأوروبيين فكان التأثير في الفنون الجميلة كالعمارة والرسم والنحت والزخرفة بالإضافة للموسيقى.

فأول ما أثار إعجاب الأوربيين فن الزخرفة العربية على صعيد الخط العربي مثال ذلك تلك القطعة من النقود التي سكها حاكم مرسيه بالأندلس تحمل اسمه أوفاح Offa) (٧٥٧-٧٩٦ م)، وما تزال هذه القطعة محفوظة في المتحف البريطاني وهناك صليب إيرلندي مطلي بالبرونز يرجع عهده إلى القرن التاسع الميلادي، وكتبت عليه عبارة البسملة بالخط الكوفي، وهناك أمثلة كثيرة في هذا المجال، قام الأوروبيون بنقلها إلى بلدهم لتزيين قصورهم على الرغم من أنهم لم يفهموا ما تحتويه من كلمات وكتابات، من ذلك كتابة عربية حول رأس السيد المسيح المصور فوق الأبواب التي أنشأها البابا ايو جنيوس الرابع(١٤٣١-١٤٤٧ م) في كنيسة القديس بطرس في روما.(٦٠)

وفي ميدان العمارة والبناء،تأثرت بلدان الغرب الأوروبي تأثراً فعالاً وظاهراً بالعمارة العربية فكان الشمال الإسباني من أولى المناطق الأوروبية المتأثرة بهذا الفن حيث تمثل التأثير العربي في نوافذ العمائر المزدوجة والعقود المنفوخة والعقود الثلاثية الفتحات والعقود المفصصة والعقود الصماء إلى غير ذلك، وكذلك الشرفات البارزة فوق البوابات في الحصون الفرنسية والإنكليزية في القرن الرابع عشر الميلادي، كبوابة حصن افينيون في فرنسا.(٦١)

ومن أروع نماذج فن العمارة العربي في الأندلس جامع قرطبة ومنارة الخيرالدا في إشبيلية التي أقيمت في القرن الثاني عشر الميلادي، وقصر الحمراء في غرناطة، وقصر الزهراء الذي صنعت أبوابه من الحديد أو من النحاس المموه بالذهب والفضة.(٦٢)

وانتقل الأثر العربي في الفن المعماري من إسبانيا إلى فرنسا، ومن فرنسا انتقل وانتشر في سائر بلاد أوروبا، وبدأ هذا الأثر خصوصاً بعد أن استعاد الإسبان طليطلة سنة ١٠٨٥م، واستمر ينمو ويزداد وكلّما تقدّم الإسبان جنوباً حتى أواخر القرن الخامس عشر.

أما في مجال الموسيقى فقد أدخل العرب إلى شبه الجزيرة الإيبرية عدداً كبيراً من الآلات الموسيقية التي ما زالت تعرف في الإسبانية بأسمائها العربية، ومنها الدف Adafe، والشبابة Ajababe، والبوق Albogey، والطبل Atabal، والعود Laud، والصنجات Sonjas، والقيثارة Guitar، والربابة Rebee.(٦٣)

ولم يتوقف ذلك على الآلات الموسيقية فقط إنما على الألحان الموسيقية والشعر المغني، فقد كتب الكندي عدة رسائل في الموسيقى، منها رسالة في ترتيب النغم ورسالة في الإيقاع ورسالة في المدخل إلى صنعة الموسيقى وكذلك الفارابي الذي كتب في هذا المجال على سبيل المثال(الموسيقى الكبير) و(كلام في الموسيقى) وكتاب (إحصاء الإيقاع) وكذلك ساهم ابن سينا بقسط جيد في دفع حركة الموسيقى قدماً إلى الأمام.

وأنشأ زرياب أول مدرسة في الأندلس لتعليم الموسيقى والغناء، وكان عماد هذه المدرسة أبناؤه وبناته وجواريه، وما تبعها من مدراس أخرى في إشبيلية وطليطلة وبلنسية وغرناطة كان استمراراً لمدرسته، ويعتبر زرياب واضع حجر الأساس في فن الموسيقى في قرطبة، وقام بزيادة أوتار عوده وتراً خامساً، أحمر متوسطاً فاكتسب به عوده ألطف معنى وأكمل فائدة.(٦٤) كما عمل عازفون مسلمون في بلاطات الأمراء المسيحيين في شمال إسبانيا، لا بل أن رجال الكنيسة كانوا يطربون لسماع الأغاني الشعبية العربية.

وينتشر في لشبونة بالبرتغال لون من الغناء الشعبي البرتغالي المرافق لعزف القيثارة Guitar وهو غناء شجي يشوبه الحنين ويعُرف باسم Fado، والكلمة من العربية الحدو أي الحداء إن هذا اللون من الغناء الشعبي البرتغالي كما يقول المؤرخ حسين مؤنس (حداءٌ بدونا عبر البحار والعصور وصل إلينا في غلاف برتغالي).(٦٥)

خاتمة:

وخلاصة القول فإن تأثير العرب في قيام النهضة والحضارة الأوروبية كان هائلاً في نواحي العلوم المختلفة من طب وصيدلة ورياضيات وفلك وفلسفة وأدب، وكذلك في الصناعة والزراعة فقد قام العرب باستنباط خلاصة المدنيات القديمة من هندية ويونانية وفارسية وتطويرها باتجاه الوجهة البعيدة عن الخيال وبالتالي ترجمتها إلى اللاتينية، مما كان له أكبر الأثر في توسيع مدارك الأوروبيين، وأخذهم بأسباب وعوامل النهضة الشاملة في مطلع العصر الحديث التي أينعت وأثمرت ثمراً طيباً تجسد بما يشهده العالم العربي المتقدم من إنجازات حضارية لم تكن متوقعة، ويجب أن نعلم أن أجدادنا ساهموا بأكبر نصيب في بناء مسرح الحضارة الراهنة وهي مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني، وامتازت حضارتنا العربية بأمور خمسة يتضح فضلها على الحضارة العالمية هذه الأمور هي: احترام الإنسان، والتمسك بالمثل العليا، وحرية الفكر والعقيدة، وإتباع العقل وتجديده والإيمان بالتقدم.

الهوامش

(١) انظر الكسندر سيتبفتش: **تاريخ الكتاب**، ترجمة محمد الأرناؤط- سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٣، ص٢٤٦.

(٢) هاني مبارك وشوقي ابو خليل: **دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوروبية**، دمشق، دار الفكر ، ١٩٩٦، ص١٨.

(٣) Francessco Gabrielli: Mohammed in Europa, 1300 Jahre Geshichte Kunst, Kulter. Weltbild Verlag, GmbH, Augsburg 1997 S.7

(٤) Encyclopeacdia Bcitanica, London 1982, Volume 19, P. 123

(٥) جلال مظهر: **مآثر العرب على الحضارة الأوروبية**، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٦ ، ص٢٨.

(٦) انظر سعيد عبد الفتاح عاشور: **حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى**، دار النهضة ، بيروت، ١٩٧٦ ص٢٦٠.

(٧) عاشور، المرجع السابق، ص٢٦٦.

(٨) أمين الطيبي: **الإسلام في الأندلس وصقلية**، مجلة كلية التربية- جامعة الفاتح، العدد ١٣ (١٩٨٠-١٩٨١)، ص٨٤.

(٩) انظر جلال مظهر، المرجع السابق، ص١٧.

(١٠) زيغريد هونكه: **شمس العرب تسطع على الغرب**، نقله عن الألمانية فاروق بيضون، دار صادر للنشر، بيروت، الطبعة التاسعة، ٢٠٠٠، ص٥٤١.

(١١) عبد النبي اصطيف: **من الأندلس إلى أمريكا الموشحات الأندلسية وأثرها في الشعر الغنائي العربي**- الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق ٢٠٠٧، ص٢٩.

(١٢) إبراهيم زعرور وعلي أحمد: **المؤثرات الحضارية العربية الإسلامية في الغرب الأوروبي خلال العصور الوسطى**، دمشق، د.ت، ص١٢.

(١٣) أمين الطيبي، المرجع السابق، ص٨٦.

(١٤) محمد ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، بيروت، ١٩٦٨، ص٧.

(١٥) Francessco Gaberielli. P.96

(١٦) غوستاف لوبون، **حضارة العرب**، ترجمة عادل زعيتر، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٥٦، ص٣٤٧.

(١٧) سهيل زكار وشكران خربوطلي: **الحضارة العربية الإسلامية**، جامعة دمشق، ٢٠٠٥ ، ص٣٦٦.

(١٨) جوزيف بورلو: **نتائج الحروب الصليبية**، ترجمة ديمة الفوال، دمشق، ٢٠٠١، ص٢٣٠.

(١٩) انظر عبد النبي اصطيف المرجع السابق، ص٣٢.

(٢٠) Francessco Gaberielli. P.159

(٢١) غوستاف لوبون: المراجع السابق، ص٢٧٤.

(٢٢) زيغريد هونكه: المرجع السابق، ص٤٩٧.

(٢٣) أمين الطيبي، المرجع السابق، ص٨٧.

(٢٤) أمين الطيبي، المرجع السابق، ص٨٨.

(٢٥) أمين الطيبي، المرجع السابق، ص٨٩.

(٢٦) زيغريد هونكه: المرجع السابق، ص٤٩٧.

(٢٧) Francessco Gaberielli. P.161

(٢٨) محمد الإدريسي: صفة جزيرة الأندلس(قطعة مستخدمة من كتاب **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)** تحقيق دوزي ودي خوية، ليدن، ١٨٦٦، ص١٩٢.

(٢٩) الإدريسي، المرجع السابق، ص١٩٢.

(٣٠) Glick. Th. f. Islamic and Christian in The Early Middle Age. Princeton U.P. 1979. P.245.

(٣١) انظر محمد فائز القصري: **النهضة الأوروبية**، دمشق، د.ت. ص١٤٣.

(٣٢) Francessco Gaberielli. P141.

(٣٣) غوستاف لوبون: المرجع السابق، ص٣٣٥.

(٣٤) Francessco Gaberielli. P.145.

(٣٥) دونالد هيل: **العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية**، ترجمة أحمد فؤاد باشا، الكويت، ٢٠٠٤، ص٣١.

(٣٦) Francessco Gaberielli. P.168

(٣٧) سهيل زكار، المرجع السابق، ص٧٥.

(٣٨) دونالد هيل، المراجع السابق، ص٢١.

(٣٩) زكريا هاشم زكريا: **فضل الحضارة الإسلامية العربية على العلوم**، القاهرة، ١٩٧٠، ص٣١٤.

(٤٠) Francessco Gaberielli. P.175

(٤١) Dozy,R.A History of the Moslems of Spain, London- 1913. P.444.

(٤٢) هاني المبارك وشوقي أبو خليل ، المرجع السابق، ص١٠٢.

(٤٣) مورينو مارتينو ماريو- **المسلمون في صقلية** - بيروت، ١٧٦٨- ص٥٠.

(٤٤) سهيل زكار، المرجع السابق، ص٣٦٧.

(٤٥) دونالد هيل: المرجع السابق، ص١٨١.

(٤٦) Norwich,J The Kingdom in The Sun , London- 1976. P.102

(٤٧) أمين الطيب: **مدينة لشبونة الإسلامية**، جامعة الفاتح، العدد ١١ ، ١٩٧٩، ص٢٣٠.

(٤٨) أمين الطيب: المرجع السابق، ص٢٣١.

(٤٩) فريد جحا: **ابن ماجد الملاح والشاعر والعالم العربـــي**، منـــشورات وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٢، ص١٨.

(٥٠) ضويحي القحطاني: **عُمان وبحريتها مابين احتلالين** – اطروحة دكتوراه – جامعة دمشق ٢٠٠٦.

(٥١) سالم بن حمود السيابي: **عُمان عبر التاريخ** – سلطنة عُمان ١٩٨٢ ص٣٤.

(٥٢) اغناطيوس كراتشكوفسكي: **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**– ترجمة صـــلاح هاشم، لينينغراد ١٩٥٧، ص١٢٢.

(٥٣) زيغريد هونكه، المرجع السابق، ص٩.

(٥٤) عبد النبي اصطيف، المرجع السابق، ص٨.

(٥٥) انظر عبد النبي اصطيف، المرجع السابق، ص٩.

(٥٦) انظر أمين الطيبي، **الإسلام في الأندلس**، ص٩٣.

(٥٧) علي دياب:**انتقال العلوم العربية من الشرق إلى الغرب وتأثيرها في أوروبا** بحث في : دراسات تاريخية، العدوان ٥٣/٥٤ ١٩٩٥، ص٨٨.

(٥٨) **تراث الإسلام**، تصنيف شافت وبوزورت، القسم الثالث، ترجمة حسين مؤنس وإحسان صدقي العمد، الكويت، ١٩٧٨، ص٢٢٢.

(٥٩) DOZY and Engelmann: Glossaire de L'Arabe. Amsterdam 1982.

(٦٠) غوستاف لوبون، المرجع السابق، ص٢٨٢.

(٦١) سعيد عبد الفتاح عاشور: **حضارة ونظم أوروبا فـــي العـــصور الوســـطى**، بيروت، ١٩٧٦، ص٣٢٤.

(٦٢) غوستاف لوبون: المرجع السابق، ص٢٩٠.

(٦٣) حسين مؤنس: رحلة الأندلس، القاهرة، ١٩٦٣، ص٤٠١.

(٦٤) علي دياب: المرجع السابق، ص٨٥.

(٦٥) حسين مؤنس: المرجع السابق، ص٤٠٢.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع باللغة العربية

١- إبراهيم زعرور وعلي أحمد: المؤثرات الحضارية العربية الإسلامية في الغرب الأوروبي خلال العصور الوسطى، دمشق، د.ت.

٢- الكسندر سيتبفنتش: تاريخ الكتاب، ترجمة محمد الأرناؤط- سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٣.

٣- أمين الطيبي: الإسلام في الأندلس وصقلية، مجلة كلية التربية- جامعة الفاتح الليبية العدد ١٣ (١٩٨٠-١٩٨١).

٤- أمين الطيب: مدينة لشبونة الإسلامية، جامعة الفاتح الليبية ، العدد ١١ ، ١٩٧٩.

٥- جوزيف بورلو: الحضارة الإسلامية، ترجمة ريما الفوال، تقديم:د. سهيل زكار، دمشق، ٢٠٠١.

٦- دونالد هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ترجمة أحمد فؤاد باشا- سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ٢٠٠٤.

٧- حسين مؤنس: رحلة الأندلس، القاهرة، ١٩٦٣.

٨- زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون وكمال الدسوقي، بيروت،١٩٦٤.

٩- سعيد عبد الفتاح عاشور: حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى ، بيروت، ١٩٧٦.

١٠- سهيل زكار وشكران خربوطلي: الحضارة العربية الإسلامية، جامعة دمشق، ٢٠٠٥-٢٠٠٦.

١١- غابريللي: تراث الإسلام، تصنيف شاخت وبزورث، ترجمة محمد زهير السمهوري، الكويت، ١٩٧٨.

١٢- غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، ١٩٥٦.

١٣- محمد ابن جبير، رحلة ابن جبير، بيروت، ١٩٦٨.

١٤- الشريف الإدريسي: صفة الأندلس(قطعة مستخرجة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) تحقيق دوزي ودي خوية، ليدن، ١٨٦٦.

١٥- محمد فائز القصري: النهضة الأوروبية، دمشق، د.ت.

١٦- مورينو مارتينو ماريو- المسلمون في صقلية - بيروت، ١٧٦٨.

١٧- هاني مبارك وشوقي ابو خليل: دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوروبية، دمشق، دار الفكر، ١٩٩٦.

١٨- ويل ديورانت: قصة الحضارة، الجزء الثاني- بيروت، ١٩٧٩.

١٩- جلال مظهر: مآثر العرب على الحضارة الأوروبية، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٦٠.

٢٠- عبد النبي اصطيف: من الأندلس إلى أمريكا الموشحات الأندلسية وأثرها في الشعر الغنائي العربي- الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق،٢٠٠٧.

٢١- فريد جحا: ابن ماجد الملاح والشاعر والعالم العربي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٢.

٢٢- ضويحي القحطاني: عُمان وبحريتها ما بين احتلالين- أطروحة دكتوراه- جامعة دمشق ٢٠٠٦.

٢٣- سالم بن حمود السيابي: عُمان عبر التاريخ – سلطنة عُمان، ١٩٨٢.

٢٤- اغناطيوس كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي- ترجمة صلاح هاشم، لينينغراد، ١٩٥٧.

٢٥- علي دياب: انتقال العلوم العربية من الشرق إلى الغرب وتأثيرها في أوروبا بحث في : دراسات تاريخية، العددان ٥٣/٥٤ ، ١٩٩٥.

ثانياً: المراجع الأجنبية

1- Dozy,R.A History of the Moslems of Spain, London- 1913.
2- Glick. Th. f. Islamic and Christian Spain in The Early Middle Age. Princeton U.P. 1979.
3- Encyclopeacdia Bcitanica, London 1942, Volume 19.
4- Francessco Gabrielli: Mohammed in Europa, 1300 Jahre Geshichte Kunst, Kulter. Weltbild Verlag, GmbH, Augsburg 1997.
5- Norwich,J The Kingdom in The Sun , London- 1976.

العلاقات بين الإمام يحيى حميد الدين إمام اليمن وأمراء الأدارسة في تهامة عسير ١٩١٠-١٩٢٥

الدكتورة حنان ملكاوي*

قسم التاريخ

الجامعة الأردنية

ملخص:

تسلط هذه الدراسة الضوء على العلاقات بين الإمام يحيى حميد الدين إمام اليمن وأمراء الأدارسة في تهامة عسير ١٩١٠-١٩٢٥م، من خلال بيان الأسباب التي أدت لتحالفهما ضد الدولة العثمانية ١٩١٠-١٩١١م، وتناول أثر الصلح الذى عقدته الدولة العثمانية مع الإمام يحيى سنة ١٩١١، على العلاقات بينهما. وموقف كل منهما من الاعتداء الايطالي على ليبيا سنة ١٩١٢، ثم تتبع موقفهما من الأطراف المتنازعة في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨، وأثر ذلك عليهما.

وأخيراً تناول أسباب توسع الإمام يحيى على حساب الإمارة الإدريسية بعد وفاة مؤسسها السيد محمد بن علي الإدريسي سنة ١٩٢٣.

* أستاذ مساعد، الجامعة الاردنية، قسم التاريخ.

تمهيد

دخلت عسير [١] تحت الحكم العثماني عندما سيطر العثمانيون على شبه الجزيرة العربية بعد استيلائهم على مصر عام ١٥١٧م، واقترن مصيرها بمصير الحجاز واليمن. وعندما انتشرت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية، وجدت لها قبولاً في عسير منذ عام ١٨٠٠م، وأصبحت مركزاً لنشر الدعوة الوهابية، وأدى ازدياد انتشار الدعوة الوهابية في الجزيرة العربية إلى إثارة الدولة العثمانية، التي طلبت من واليها على مصر محمد علي باشا القضاء عليها، وفعلاً تمكن من تدمير عاصمتهم الدرعيه عام ١٨١٧م.

انشغلت منطقة عسير خلال الفترة (١٨١٧-١٨٢٢م) بحروبها مع محمد علي باشا وأشراف مكة، لم يتسلم حكمها شخص محدد، إلى أن تولى الحكم فيها سعيد بن مسلط (١٨٢٢-١٨٢٦م)، الذى كان من أنصار الدعوة الوهابية، حيث تمكن من تقليص الحكم المصري في عسير، واستلم الحكم بعده ابن عمه علي بن مجثل (١٨٢٦-١٨٣٣م)، الذي عمل على تقليص الحكم العثماني مستغلا انشغال الدولة العثمانية بحروبها مع محمد علي باشا في بلاد الشام.

وجاء بعده الأمير عائض بن مرعي (١٨٣٤-١٨٥٦م)، وهو المؤسس لأسرة آل عائض في عسير، حيث انسحب المصريون في عهده من عسير، واستلم الحكم بعده ابنه الأمير محمد (١٨٥٦-١٨٧٢م)، وقد حاولت الدولة العثانية دخول عسير في عهده، لكنها فشلت في البداية، إلى أن أرسلت حملة سنة ١٨٧٢م تمكنت من دخول عسير وقتل محمد بن عائض.

أنشأت الدولة العثمانية إثر ذلك متصرفية في عسير مركزها أبها، وقواعد عسكرية لتثبيت الحكم العثماني، وكانت هذه المتصرفية تابعة لولاية اليمن المقسمة إلى أربع متصرفيات هي: عسير، وصنعاء، والحديدة، وتعز.

ظلت أحوال عسير بالرغم من ذلك، مضطربة والسلطة العثمانية اسمية، وسلطة المتصرف لا تتجاوز المناطق العسكرية، والسلطة الفعلية بيد آل عائض والقبائل.

تولى الحكم بعد مقتل محمد بن عائض أخوه الأمير ناصر (١٨٧٢-١٨٧٨م)، الذي حاول إخراج العثمانيين من عسير ومحاصرة حاميتهم في أبها. ولما توفي استلم الحكم بعده أخوه الأمير عبد الرحمن بن عائض (١٨٧٩-١٨٨٧م)، الذي سار على نهج أخيه فحاصر الحامية العثمانية والمتصرفية في أبها، ولم يفك عنها الحصار إلاّ بعد أن عقدت معه الدولة العثمانية اتفاقاً تضمن تعيينه معاونا لمتصرف عسير. وعندما استلم الحكم علي بن محمد بن عائض (١٩٠٠-١٩٠٦م)، تعاون مع الإمام يحيى لإخراج العثمانيين من بلادهم، فحاصر ابن عائض ابها، وحاصر الإمام يحيى صنعاء، فأرسلت الدولة حملتين تمكنتا من فك حصار صنعاء وهرب الإمام يحيى إلى الجبال، كما تمكنت الحملة الثانية من فك حصار أبها ودخول عسير وأسر آل عائض وإرسالهم إلى صنعاء، فتوسط والي اليمن أحمد فيضي باشا للعفو عنهم وإعادتهم إلى عسير، وحتى تضمن ولاءهم قامت بتعيين عبدالله بن محمد بن عائض معاوناً لمتصرف عسير. واستمر التعاون بين آل عائض والدولة العثمانية حتى خروج العثمانيين من المنطقة بنهاية الحرب العالمية الأولى.

استمرت الفوضى والاضطراب في تهامة عسير، حتى ظهور السيد محمد بن علي الإدريسي فيهاعام ١٩٠٦م، ويذكر أن صلة الأدارسة بالمنطقة تعود إلى فترة مبكرة عندما قدم جدهم السيد أحمد بن إدريس، وهو شريف حسني من سلالة الأشراف الإدارسة في المغرب، كان مهتماً بالعلوم الدينية والتصوف، قام بزيارة كل من مصر والسودان، ثم استقر في مكة عام ١٧٩٩م، فعمل على نشر دعوته وأفكاره الصوفية، وأسس فيها طريقته التي عرفت بالاحمدية، وكانت شهرته سبباً في وفود الطلاب عليه من مختلف المناطق، خاصة من تهامة اليمن وصبيا وأبو عريش، فدعاه بعض تلاميذه من تلك المنطقة لزيارة اليمن، فتوجه عام ١٨٢٨م إلى تهامة اليمن التي بقي فيها عدة

اشهر وانتقل بعدها إلى صبيا واستقر فيها مع عائلته عام ١٨٢٩، وبدأ بنشر دعوته فأصبحت تلك المدينة مقصداً لطلاب العلم، ولكنه توفي عام ١٨٣٧م، فأصبح قبره مزاراً لأتباعه من مختلف المناطق، مما أكسب أسرته مكانة دينية مرموقة.

حاول حفيده السيد محمد بن علي الإدريسي – الذي ولد في صبيا عام ١٨٧٦م، ودرس العلوم الدينية واللغة العربية، ثم أكمل دراسته في الأزهر، وعاد بعدها إلى صبيا عام ١٩٠٦م، فأقام بجوار مسجد جد العائلة – استغلال مكانة أسرته في تثبيت مركزه، فتقرب من الناس وبدأ يدعو إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما توسط للصلح بين القبائل المتخاصمة، فانتشر صيته ووفد عليه الكثيرون يقدمون له الولاء والإخلاص.

سعت الدولة العثمانية لمعرفة حقيقته، فأرسلت إليه وفداً عام ١٩١٠م، فالتقى معه في بلدة الحفائر، وعُقد بينهما اتفاقاً تضمن اعتراف الإدريسي بالتبعية للدولة العثمانية وتعيينه قائم مقام على صبيا والمخلاف السليماني، على أن يقوم بجمع الزكاة مقابل أخذ الثلث منها، ويؤلف جيشاً وطنياً لإقرار الأمن في المنطقة. ازداد نفوذه بعد اعتراف الدولة العثمانية به، وكان الإمام يحيى يراقب باهتمام كبير ظهوره وزيادة نفوذه في تهامة عسير، والأعمال التي قام بها، واعتراف الدولة به، وبالرغم من أنه كان يعتبر تهامة عسير جزءاً من اليمن، وأن الإدريسي دخيل على المنطقة، إلاّ أنه رغب في التحالف معه للعمل معاً ضد الدولة العثمانية وإخراجها من عسير واليمن(*).

▪ العلاقات بين الإمام يحيى حميد الدين إمام اليمن وأمراء الأدارسة في تهامة عسير ١٩١٠-١٩١٤م:

أدى ضعف السيطرة العثمانية على اليمن وعسير إلى انتشار الفوضى والثورات، وقد أكدّ على ذلك ما ذكره أحد أعيان اليمن عندما زار مصر عام ١٩٠٩ بقوله: "اليمن الآن ليس دار توطن بل هو دار حرب وقتال بين هيئتين تديران أمورها، وأهالها

ضياع بن الهيئتين لا يعرفون إلى أية حكومة يركنون : حكومة الإمام أو الدولة العلية" [٢].

كما أشار الإدريسي إلى تلك الأوضاع في المنشور الذي وزعه مبيناً فيه أسباب ثورته عام ١٩١١م حيث ذكر: "إننا لما عدنا من طلب العلم بالديار المصرية وغيرها من بلاد اليمن وجدنا الناس على أسوأ مما تركناهم عليه من شدة النفرة بينهم وبين رجال الحكومة، والامتناع عن دفع الأعشار، والمحاكمة إلى الطواغيت، واختلال الأمن في جميع الأنحاء بسبب المطالبات بالثأر وترك الحكومة حبل الناس على غاربهم، ذلك الأمر الذي أوقف جميع الأعمال والحركات سواء التجارية أو الزراعية إلى حد أن الرجل كان لا يمكنه أن يخرج من محلة قيد شبر إلا إذا كان معه من عشيرته من يجيرونه، ومن الأسلحة ما يدفع به القتلة، ... فالمساجد معطلة، والأرض قاحلة، والمصائب متواصلة" [٣].

حاولت الدولة العثمانية إصلاح أوضاع اليمن، خاصة بعد عجزها عن القضاء على الثورات المستمرة فيه، لذلك وضع مجلس المبعوثان العثماني مشروعاً إصلاحياً تضمن [٤]:

١- تقسم اليمن إلى ولايتين : ساحلية وجبلية، حيث تفوض الولاية الجبلية للإمام يحيى حميد الدين، والساحلية إلى شخص يتمتع بالقدرة والكفاءة.

٢- على مسؤولي الإدارة في الولايتين انتخاب القضاة والعمال وفقاً لأحكام الشريعة وانتخاب رجال الدرك من الأهلين.

٣- يكون قضاء مناخة مركزاً للجيش مع إبقاء قوة كافية في صنعاء تحت إمرة أحد القادة للإشراف على الأمن العام، وتوضع قوة عسكرية في تهامة لفرض الأمن العام.

٤- يطلب من الأشخاص الذين يعيّنون في الولايتين أن يقدموا لمركز السلطة في نهاية كل سنة ميزانية تبين فيها الإيرادات والنفقات.

وكان مجلس الوزراء قد أقره وتم نشره في الجرائد لكن طلعت بك وزير الداخلية اعترض عليه، مؤكداً لحكومته أن حل مشكلة اليمن لن يتم إلا باستخدام القوة ولذلك سحب المشروع وألغي (٥).

وتماشياً مع رأي طلعت بك، أرسلت الدولة والياً جديداً إلى اليمن عام ١٩١٠ عُرِف بشدته وقسوته في قمع كل اضطراب، هو محمد علي باشا وهو أحد أعضاء جمعية الاتحاد والترقي وصفه الواسعي بقوله: "وكان فكره أنه لا يصلح اليمن إلا الشدة والقسوة، فما زال يحبس هذا ويضرب هذا من دون سبب" (٦).أدت تلك السياسة إلى تجدد الثورات في اليمن، حيث تحالف الأمام يحيى والإدريسي وأعلنا ثورتهما، رغبة في التخلص من العثمانيين في اليمن وعسير ومحاولة الاستقلال.

ونتيجة لتحالف الطرفين أعلن الإمام يحيى ثورته وحاصر صنعاء، مقر الوالي والحامية العثمانية كما حاصر الإدريسي أبها، مركز المتصرف والحامية العثمانية، ونقلت " " المؤيد" ذلك بقولها: "الإمام يحيى أشهر الحرب على الأتراك وقطع اسلاك التلغراف بين صنعاء والحديدة،...، والسيد الإدريسي هاجم الأتراك في عاصمة عسير أبها وأصبح المتصرف والجنود فيها مسجونين" (٧). وأرسلت الدولة إمدادات عسكرية وأسلحة كثيرة إلى اليمن بهدف القضاء على تلك الثورات (٨).

وحاولت "المؤيد" الإشارة إلى أن تلك الثورتين أفشلتا المشروع الإصلاحي الذي قدمته الدولة فذكرت : "أن السلطان العثماني أبلغ الصحف تأكيده على بدء الإصلاحات في اليمن، وذكر أن الإمام يحيى والسيد محمد الإدريسي قد مالا إلى العصيان على الرغم من دلائل الرغبة للإصلاح من جانب الحكومة (٩). وربما تكون هذه المعلومات غير

دقيقة، لأن الدولة لو كان لديها رغبة في الإصلاح لماذا أرسلت ذلك الوالي إذا؟أو ربما رغبة في إبعاد مسؤولية تلك الثورات عنها؟؟

وكان الإدريسي قد أكّد تحالفه مع الإمام يحيى ضد الدولة بقوله: "واعلموا هدانا الله وإياكم أن ابن حميد الدين لما رأى الدولة بصدده وأخذت تهتم باستئصاله التجأ إلينا بإرسال أحمد بن يحيى عامر وحسين العرشي للتفاهم معنا، في أن نكون يداً واحدة وأن نساعده في مقاومة الدولة بالحرب، فوافقناه على ذلك" (١٠). وأضاف الإدريسي حول دوافعه من التحالف "عقدنا محالفة معه لمحاربة الأتراك وطردهم من اليمن، ولما جاءوا يمرون من بلادنا ليضربوه من جهة الشمال أوقفناهم وقلنا لهم كيف نقبل وبيننا وبينه عهد الله، وصل الترك بعد ذلك إلى صنعاء فهموا بضربنا من الجبال فلم يمنعهم ابن حميد الدين حليفنا، كأن العهد عنده قصاصة ورق"(١١). وحول تزامن الثورتين ذكر عبدالله بن الحسين: "أن حصار أبها مركز المتصرفية وقت حركة الإمام يحيى وحصاره صنعاء اليمن" (١٢). وأكدت بعض المصادر الأجنبية أن التقاء مصلحة الزعيمين المتمثلة بالتخلص من السيطرة العثمانية دفعتهما للتحالف معاً، وتناسي خلافاتهما (١٣).

مما سبق نلاحظ أنه بالرغم من النظرة العدائية للزعيمين (الإمام يحيى والإدريسي) سياسياً واختلافهما المذهبي إلاّ أنهما تحالفا، لأن مصلحتهما كانت واحدة وهي التخلص من المنافس الأخطر والأقوى وهو الدولة العثمانية، ومن ثم الاستقلال، ومحاولة كل طرف منهما إن أمكن القضاء على الآخر أو على الأقل التوسع على حسابه.

كان لا بد للدولة من اتخاذ خطوات وإجراءات سريعة للقضاء على تلك الثورات، لذلك جهزت حملة عسكرية بقيادة عبدالله باشا أرسلتها إلى اليمن، لكنه توفي في الطريق، فعينت مكانه أحمد عزت باشا (١٤)، الذي توجه من الحديدة إلى اليمن، وقد حدثت بين تلك القوات والثائرين معارك كثيرة، وفي ظل تحالف الزعيمين نلاحظ أن قوات محمد

الإدريسي حاولت عرقلة تقدم تلك القوات إلى داخل اليمن من خلال قطع مياه الشرب عن المدن والقرى التي تنزل فيها[١٥]، وخاصة أن سير الحملة كان يخترق منطقة المخلاف السليماني أو إمارة الإدريسي من الشمال إلى الجنوب لذلك حاول إعاقة تلك القوات من الوصول إلى صنعاء وبالتالي القضاء على ثورة حليفه الإمام يحيى.

وقد واجهت حملة عزت باشا مجموعة من الصعوبات أثناء تقدمها نحو صنعاء ولكنها تغلبت عليها وتمكنت من إلحاق الهزائم بالثائرين الذين كانوا غالباً يقومون بمناوشات خفيفة ثم يتراجعون إلى الوراء نحو المناطق الجبلية، وأخيراً تمكن عزت باشا من دخول صنعاء بتاريخ ٥ نيسان ١٩١١ وفك حصارها، وقد انسحب الإمام يحيى وقواته نحو الجبال، وأقيمت الاحتفالات وأقواس النصر بتلك المناسبة [١٦].

كانت مهمة عزت باشا بعد فك حصار صنعاء صعبة جداً، لأنه كان من الصعب عليه ملاحقة الثوار إلى المناطق الجبلية، فذلك يتطلب استعدادات عسكرية كبيرة ويكلف الدولة الكثير، إضافة إلى صعوبة المنطقة جغرافياً، فكان الخيار الأفضل هو اللجوء إلى التفاوض مع الإمام يحيى لعقد صلح بينه وبين الدولة، وقد بذل جهوداً كبيرة من أجل ذلك، فسافر إلى الآستانة لإقناع المسؤولين بذلك، كما حاول أيضاً التفاهم مع الإمام يحيى والثائرين ويذكر أنه قدم الكثير من الهدايا من أجل تحقيق هدفه، كما ساهم كل من الشريف حسين بن علي أمير مكة والسلطان أحمد فضل العبدلي سلطان لحج في إقناع الإمام يحيى بقبول الصلح مع الدولة [١٧].

وأخيراً نجحت تلك الوساطات في إقناع الإمام يحيى بعقد صلح مع الدولة العثمانية، ولإتمام ذلك التقى الإمام وعزت باشا ممثل الدولة في قرية دعان [١٨]، وانتهت المفاوضات بعقد صلح (دعان) بتاريخ ١٩١١/١٠/٩، وقد تضمن مجموعة من البنود التي نظمت العلاقة بين الدولة العثمانية والإمام يحيى نذكر منها [١٩]:

١- ينتخب الإمام حكام المذهب الزيدي وتبلغ الولاية بذلك.

٢- تشكل محكمة استئنافية للنظر في الشكاوي التي يعرضها الإمام، ويكون مركزها صنعاء، ويعين الإمام رئيسها وأعضاءها، شريطة مصادقة الدولة على ذلك.

٣- إذا أساء أحد من الموظفين العثمانيين من ولاة وحكام في وظيفته يحق للإمام أن يرفع ذلك للدولة.

٤- تكون مسائل الأوقاف والوصايا من اختصاص الإمام.

٥- يسلم الإمام عُشر حاصلاته للدولة.

٦- يقوم الإمام بإخلاء سبيل الرهائن الموجودين لديه من أهالي صنعاء وحراز وعمران.

٧- أن تكون المحافظة على هذه البلاد من الاعتداءات الخارجية راجع للدولة العثمانية.

٨- أن لا يولي أحداً من أهل الكتاب على المسلمين.

٩- إعلان العفو العام في البلاد كي لا يسأل أحد عن ماضيه.

وكان الإمام قد أشار إلى أهمية الصلح مع الدولة في رسالته إلى صديقه السلطان أحمد فضل العبدلي حيث ذكر: "هو ثمرة ما خلفه أجدادنا العظام، وما زرعه سلفنا الصالح، والذي يعتبر منا وإلينا، ونحن وذريتنا سنحافظ على عظمة سلطنته، ونقدم لهم كل المساعدات الضرورية والتعاون الممكن،...، لقد تمت المعاهدة ونحن بصرف النظر عن الاختلافات المذهبية اتجهنا بأفكارنا إلى الوجهة الإسلامية، وإلى توحيد كلمة المسلمين وصد اعتداءات الأجانب" (٢٠).

والسؤال الذي يُطرح، لماذا أقدمت الدولة على عقد الصلح مع الإمام؟ ولماذا قَبِل الأخير بذلك؟ ربما ذلك يعود لاعتقاد الدولة بأن سياسة القوة التي استخدمتها للقضاء على الثورات في اليمن ومحاولة فرض سيطرتها بالقوة قد فشلت، واستنزفت جزءاً

كبيراً من إمكانياتها العسكرية والاقتصادية، وخاصة أنها كانت مهددة بالخطر الإيطالي على طرابلس الغرب (ليبيا)، فكان الأسلم لها هو أن توجه معظم قواتها لمواجهة ذلك الخطر وهذا لن يتم إلاّ إذا ضمنت الهدوء والاستقرار في اليمن. وإذا نظرنا بتمعّن في رسالة الإمام السابقة لصديقه السلطان فقد أشار إلى ذلك الخطر وأنه كان من ضمن الأسباب التي دفعته لعقد الصلح.

وبالنسبة للإمام يحيى، فقد كانت جميع ثوراته منذ استلامه الحكم عام ١٩٠٤، حتى يجبر الدولة على الاعتراف بوضعه الخاص في اليمن، ويثبت مركزه أمام منافسيه من زعماء القبائل اليمنية وأمام محمد الإدريسي. وبالنسبة للقوة العسكرية للإمام يحيى فكان يعتمد على القبائل في ذلك، التي كانت تقاتل إلى جانبه من أجل الحصول على الغنائم والأموال، وبالتالي فارتباطها به ارتباط مؤقت وليس دائماً، فإذا ما حصلت على امتيازات أفضل من أحد آخر سوف تبتعد عنه، كما أنه كان على قناعة أن تلك الثورات استنزفت موارده الاقتصادية هو ومؤيديه، فبالصلح حصل على دعم مالي من الدولة العثمانية.

يذكر أنه بالوقت الذي كانت الدولة مشغولة بعقد الصلح مع الإمام يحيى كان السيد محمد الإدريسي حليف الإمام مستمراً في ثورته وحصاره أبها، لذلك طلبت الدولة من الحسين بن علي شريف مكة التوجه على رأس حملة للقضاء عليه، حيث تمكنت الحملة من دخول أبها وفك حصارها في ١٦ تموز ١٩١١م، وهرب الإدريسي إلى الجبال وتحصن بها مع أتباعه (٢١). لم تقض تلك الحملة على السيد محمد الإدريسي الذي جدد ثورته بعد عودة الشريف حسين إلى مكة.

لقد تعاملت الدولة العثمانية باسلوبين مختلفين مع الإمام يحيى والإدريسي وذلك بسبب نظرتها لكليهما التي عبّر عنها عزت باشا بقوله: "الإمام ينحدر من السلالة الهاشمية، بينما الإدريسي حديث في رئاسته الدينية ظهر فجأة، بينما الإمامة وراثية في الإمام،

ولو حدث الاعتراف بدعواه لاستدعى الحال قيام متظاهرين ودعاة ينتقـون لأنفـسهم ألقاباً وصفات مثله [٢٢].

أدى عقد الصلح إلى إنهاء تحالف الإمام والإدريسي، وظل الإدريسي وحيداً فـي مواجهة عدوين هما الدولة والإمام حليفه بالإمس. وقد غضب الإدريسي كثيراً علـى الإمام الذي تخلى عنه، وازداد عداؤه للدولة التي تمكنت من التفريق بينهما، لذلك قطع خطوط الهاتف (التلغراف)، وأسر عدداً من الأتراك، واستولى على الكثير من الأسلحة ونقلها إلى عاصمته صبيا[٢٣]. ومن جانب آخر استفاد الإدريسي من ذلك الـصلح، إذ انفصلت عن الإمام مجموعة من القبائل التي كانت تعتمد في رزقها على الغنائم التـي تكتسبها من الحروب التي كانت تخوضها إلى جانبه، فانضمت للإدريسي الـذي كـان مستمراً في ثورته[٢٤]. وبذلك ازداد نفوذ الإدريسي بمقدار ما قل نفوذ الإمام يحيـى، كما أدى شعوره بالانفراد في مواجهة عدوين إلى الاستماتة بالقتال والبحث عن حليف جديد يساعده في ذلك. وأكد الإدريسي أن ذلك الصلح ساهم في العداء بينه وبين الإمام بقوله: "استماله الأتراك وجعلوا له ثلاثين ألفاً من الريـالات وغيـر ذلـك العُـشْريْن والنِّصَابيْن المكلف بإدائها الأهالي في جهة صنعاء وما والاها فوافقهم على ذلك ليكون ضدنا،..، فقد قام بإعانة العدو علينا" [٢٥].

ويذكر أن إيطاليا شنت هجومها على طرابلس الغرب (ليبيا) في ٢٩ أيلول ١٩١١، أي قبل حوالي خمسة عشر يوماً من عقد صلح دعان سابق الذكر. لذلك خافـت الدولـة العثمانية من حدوث تقارب بين الإدريسي الثائر في عسير وإيطاليا، فطلبت من حليفها الإمام يحيى مراسلة الإدريسي لجذبه بجانب الدولة في محنتها تلك، وأبدى الإدريـسي استعداده للتفاهم مع الدولة بنفس الشروط التي أعطتها للإمام بصلح دعـان، لكنهـا رفضت ذلك ففشلت المفاوضات [٢٦].

ثم أعادت الدولة المحاولة من خلال متصرفها على عسير سليمان شفيق الذي أرسل خطاباً للإدريسي حثه على الوقوف إلى جانب الدولة العثمانية جاء فيه: "فبادر لدفع هذه البلية ونكون يداً واحدة،.. فإن أحببت فأرسل إلينا بسرعة هيئة تعتمدون عليها". وقد حاول استثارة مشاعر الإدريسي الدينية، بأن إيطاليا كدولة نصرانية اعتدت على دولة الخلافة الإسلامية [٢٧]. لكن تلك المحاولات فشلت وربما ذلك لعدم جدية الدولة في عروضها للإدريسي، وإنما كانت تقصد المماطلة والمراوغة حتى تمنعه من التحالف مع إيطاليا.

يذكر أن الاتصالات بين إيطاليا والإدريسي، كانت قد بدأت بفترة مبكرة عندما كان طالباً في القاهرة عام١٩٠٥ م. وعندما عاد إلى صبيا عام ١٩٠٦ أمدته بالإموال لينظم المنطقة [٢٨]. وقد توجت تلك الاتصالات بالتحالف معه عام ١٩١١ [٢٩]، فماهي دوافع إيطاليا في ذلك ؟

كانت إيطاليا تتطلع إلى السيطرة على الساحل الغربي للبحر الأحمر، وكان ذلك منذ عام ١٨٧١ عندما طلبت من بريطانيا السماح لها بشراء جزيرة سقطرى اليمنية، ولكن بريطانيا رفضت ذلك، لأنها كانت حريصة على إبعاد أية منافسة أوروبية لها في جنوب البحر الأحمر. ومنذ ذلك الوقت ركزت إيطاليا جهودها للحصول على مستعمرات لها على الساحل الغربي للبحر الأحمر، فعندما قامت الحرب الإيطالية – الليبية في أيلول ١٩١١، أسرعت إلى فتح جبهة حربية جديدة في ولاية اليمن لإشغال الدولة العثمانية وإضعاف مقاومتها بتشتيت مجهوداتها الحربية. فحالفت الإدريسي، الذي هدف من جانبه الحصول على الدعم والمساعدة العسكرية لإخراج العثمانيين من عسير والاستقلال بحكم المنطقة [٣٠]. وهكذا التقت مصلحة الطرفين آنذاك فتحالفا معاً ضد الدولة العثمانية.

قدمت إيطاليا الأسلحة والذخائر الكثيرة لحليفها الإدريسي [٣١] مقابل قيامه بعمليات عسكرية ضد العثمانيين في عسير وفعلاً تمكن من السيطرة على العديد من المدن ومنها حرض وميد، ورازح، وخولان الشام، وجازان، وأبو عريش، بمساعدة الاسطول الإيطالي[٣٢]، الذي قام أيضاً بقصف ميناء الحديدة، وتخريبه وميناء الشيخ سعيد، المقابل لجزيرة بريم ومحاصرة جميع الموانئ اليمنية الواقعة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر- ما عدا موانئ الإدريسي- بهدف بسط سيطرتها على البلاد اليمنية المواجهة لمستعمراتها في أرتيريا على الساحل الغربي للبحر الأحمر [٣٣].

انتقد الإمام يحيى الإدريسي لوقوفه إلى جانب إيطاليا بقوله: "هل تأمل أن تكسب لنفسها النفوذ والسيطرة بعد أن جعلت من الإدريسي طعماً وذريعة، وهو الذي محى الله اسمه من سجل المؤمنين،... إن على إيطاليا كدولة مصلحة وناهضة أن تكف عن تشجيع الإدريسي، وإذا لم تكف إيطاليا بعد الآن وتوقف الحرب الجديدة فإنها سترى جميع المسلمين على اختلاف جنسياتهم يهبون متحدين لحماية الكعبة المشرفة والدفاع عنها" [٣٤].

ويذكر أن الإمام يحيى قد أعلن وقوفه إلى جانب الدولة إثر الهجوم الإيطالي على طرابلس وأعلن أنه على استعداد لإرسال قوات عسكرية لمساعدة دولة الخلافة الإسلامية[٣٥]. وهكذا اختلف موقف الزعيمين فالإمام وقف إلى جانب دولة الخلافة بينما حالف الإدريسي ايطاليا.

سعت الدولة إثر ذلك للقضاء على الإدريسي، فحاولت تطويقه من خلال إرسال حملة بقيادة فيصل بن الحسين من الشمال، وحملتين عثمانيتين من صنعاء واللحية، لكنها فشلت وأثبت الإدريسي تفوقه عليها، وألحق بها العديد من الهزائم [٣٦].

رأت الدولة بعدما فشلت في القضاء عليه مفاوضته لعقد صلح معه كالذي عقدته مع الإمام يحيى عام ١٩١١!! ومن أجل ذلك طلبت عام ١٩١٢ من محمود نديم واليها

على اليمن ومن الإمام يحيى عام ١٩١٢، مفاوضة الإدريسي، فتوجه محمود نديم ومندوب من قبل الإمام هو قاسم العزي ناظر الأوقاف في صنعاء، والتقوا مع الإدريسي في صبيا، فوافق على الصلح ضمن شروط الاستقلال الإداري عن الدولة، وأن لا تتدخل في شؤون موظفيه، والاكتفاء بالجنود المحليين لحماية البلاد، وقد رُفضت تلك المطالب مما أدى إلى فشل المفاوضات [٣٧] وكانت هذه آخر محاولة تقوم بها الدولة قبل بداية الحرب العالمية الأولى. وكان معنى قبول العثمانيين بما عرضه عليهم الإدريسي الاعتراف باستقلاله وخروج عسير من السيطرة العثمانية.

أعاد محمود نديم سبب الفشل إلى الإدريسي فذكر: "فتارة يدعى التقشف والولاية، وآونة أخرى يرتدي برداء الكبرياء والجبروت، إن هذا المخذول قد جعل الملّة الكفرية ملجأ وعوناً على قتال المسلمين، وعلمنا أنه لا سبيل لقبول النصح عند هذا الرجل الذي استحوذ عليه الشيطان" [٣٨]. أما الإدريسي فأعاد فشلها إلى اشتراط الدولة إتمام ذلك الصلح بذهابه إلى الآستانة.

وانتهت الحرب الإيطالية الطرابلسية بتوقيع صلح اوشي في ١٥ تشرين أول١٩١٢، حيث تنازلت فيه الدولة العثمانية عن طرابلس الغرب (ليبيا) إلى إيطاليا [٣٩]. ويذكر أن إيطاليا بعد أن حققت هدفها تخلت عن حليفها الإدريسي وتركته وحيداً في مواجهة الدولة العثمانية والإمام يحيى، وظل في حروب مستمرة معهما حتى بداية الحرب العالمية الأولى ١٩١٤.

▪ العلاقات بين الإمام يحيى حميد الدين إمام اليمن وأمراء الأدارسة في تهامة عسير ١٩١٤-١٩١٨م:

بدأت الحرب العالمية الأولى في آب ١٩١٤، أعلنت الدولة العثمانية بدايةً حيادها، ثم دخلت الحرب إلى جانب ألمانيا في تشرين الثاني من العام نفسه، وكان في الجزيرة العربية خمس أسر حاكمة هي: الإمام يحيى حميد الدين في اليمن، ومحمد الإدريسي

في صبيا (تهامة عسير)، وعبدالعزيز آل سعود في نجد، والشريف حسين بن علي في الحجاز، وابن رشيد في حائل [٤٠].

سعت الدولة العثمانية إلى جذب أولئك الأمراء إلى جانبها، فأرسلت للبعض منهم الرسل محملين بالهدايا، وتمكنت بتلك السياسية، من كسب ابن رشيد في حائل [٤١]، أمّا الأمراء الآخرون فأعلن بعضهم الحياد والبعض الآخر الوقوف إلى الطرف المعادي للدولة العثمانية وهي بريطانيا. ويذكر أن محمود نديم والي اليمن قد قام بنشاط مكثف لكسب الإدريسي إلى جانب الدولة العثمانية لكنه فشل. وقد عقد اجتماع مع الإمام يحيى في مدينة عمران من أجل التعاون لمحاربة القوات البريطانية في عدن والمحميات [٤٢]، وأشار مصطفى سالم مؤلف كتاب تكوين اليمن الحديث إلى أن الإمام تعهد بإقراض العثمانيين اثني عشر ألف قدح من الحبوب وتجهيز ٣٠٠٠ مقاتل[٤٣]. فهل كان لدى الإمام القدرة الاقتصادية والعسكرية لذلك، مع العلم أنه كان يتقاضى راتباً شهرياً من الدولة العثمانية، كما أن الحروب المستمرة الدائرة في اليمن بينه وبين الإدريسي أنهكته اقتصادياً وعسكرياً.

كما بذلت الحكومة البريطانية من جابنها أيضاً محاولات مكثفة لكسب أولئك الأمراء، فأهمية كسب الإدريسي تتمثل في سيطرته على الساحل التي يستطيع أن يحول دون استخدام العثمانيين له كقاعدة معادية، ويعطل خطوط المواصلات العثمانية بين الحجاز واليمن ويهدد مؤخرة العثمانيين إذا هاجموا عدن [٤٤].

أما بالنسبة للإمام يحيى فإذا ما قرر الوقوف إلى جانب بريطانيا فإن مركز العثمانيين في جنوب غرب الجزيرة العربية سيصبح صعباً، خاصة إذا قرروا مهاجمة عدن والمحميات [٤٥].

نجحت مفاوضات بريطانيا مع الإدريسي بعقد معاهدة، بينهما بتاريخ ٣٠ نيسان ١٩١٥، التزم فيها الإدريسي بمحاربة العثمانيين في اليمن والتوسع على حسابهم،

والامتناع عن أي عمل عدائي ضد الإمام يحيى ما دام لم يحالف العثمانيين، والتزمت بريطانيا من جانبها بتقديم الأسلحة والذخائر له، والمحافظة على موانئه سليمة وضمان حرية التجارة، وتعهدت كذلك بمحاولة التوفيق بينه وبين الإمام يحيى (٤٦). اعتبرت بريطانيا تحالفها مع الإدريسي إجراء وقائي ضد أية محاولات عدائية قد يقوم الإمام بها ضد قواتها في عدن والمحميات، أما الإدريسي فهدف من تحالفه تقوية نفسه عسكرياً ومحاولة الحصول على الاستقلال في عسير وإخراج العثمانيين منها، وكذلك التوسع على حساب الإمام يحيى.

وجدير بالذكر أن الحكومة البريطانية بذلت طوال فترة الحرب، محاولات عديدة لكسب الإمام يحيى إلى جانبها، فقد حاولت استغلال علاقات الصداقة الجيدة بينه وبين الشريف حسين بن علي أمير مكة، وأحمد فضل العبدلي سلطان لحج لتحقيق ذلك الهدف (٤٧). لكن ذلك لم يغير من موقف الإمام وإعلانه الحياد.

أعلن الإمام يحيى وقوفه على الحياد، متمسكاً بصلح دعان الذي عقده مع الدولة العثمانية سنة ١٩١١، أمام الضغوط البريطانية للانضمام إليها خوفاً أن يصبح حاكما تحت التاج البريطاني (٤٨). أما جورج انطونيوس مؤلف كتاب يقظة العرب، تاريخ حركة العرب القومية فأعاد سبب موقف الإمام ذلك إلى وجود قوات عثمانية ترابط حوله (٤٩)، أما عزيز برديف خودا فذكر في كتابه الاستعمار البريطاني وتقسيم اليمن، أن ذلك يعود لأن الإمام كان يسيطر على المنطقة الجبلية في اليمن والتي كانت بعيدة عن مجريات الحرب (٥٠). وهكذا مهما كانت الأسباب التي دفعت الإمام لذلك فهو لم يحالف بريطانيا ولا الدولة العثمانية وإنما حرص على وجود علاقات جيدة بينه وبين الطرفين، على أمل إذا ما انتهت الدولة العثمانية أن يكون الوريث لأملاكها في اليمن. وأن لا يعادي بريطانيا بنفس الوقت.

بدأ الإدريسي عملياته العسكرية ضد القوات العثمانية في حزيران ١٩١٥، فهاجمت قواته ميناء اللحية، لكنها فشلت في السيطرة عليها [٥١]. وأعادت التقارير البريطانية أسباب ذلك، إلى قلة المساعدات العسكرية والمالية التي قدمتها بريطانيا له، إضافة إلى اعتماده على قوات غير مدربة على الأسلحة الحديثة وخاصة المدفعية، كما أن قواته في غالبيتها تتكون من رجال القبائل، الذين لا يستطيعون القتال لفترات طويلة [٥٢].

ويذكر أن الإدريسي عندما فشل في السيطرة على اللحية أوقف معظم عملياته العسكرية ضد العثمانيين في عسير حتى بدأت ثورة الشريف حسين علي في حزيران ١٩١٦، خوفاً من اعتداء الإمام يحيى والعثمانيين عليه [٥٣].

وأشارت معظم التقارير البريطانية خلال فترة الحرب إلى العلاقات العدائية بين الإدريسي والإمام يحيى، والتي أثرت على فعالية الإدريسي خلال السنة الأولى من حيث التركيز على مواجهة الإمام أكثر من القيام بعمليات عسكرية تجاه العمثانيين [٥٤]. وأوضح كلايتون (Clayton) في رسالة بعثها إلى الحاكم العام في السودان بتاريخ ١٣ أيار ١٩١٦ موقف الإدريسي من الإمام يحيى بقوله: إن الشريف والإمام يحيى لم يكونا يوماً أعداءه الشخصيين، لكنهما وضعا قدرهما في أيدي الأتراك الذين كان على عداء معهم لمدة ثماني سنوات، إنه يصلى لله لأن ينضم إليه الشريف حسين والإمام يحيى وكل زعماء العرب ضد الأتراك [٥٥].

وذكر هاردلدف يعقوب (Jacob) في كتابه ملوك شبه جزيرة العرب أن الإدريسي سعى عام ١٩١٦، لجذب أتباع المذهب الإسماعيلي في منطقة نجران إلى جانبه على اعتبار أنهم معادين مذهبياً للإمام يحيى [٥٦]. في محاولة منه للتوسع على حساب الإمام، وحصره في مناطق محددة.

كما أعدت دار الإعتماد البريطاني في القاهرة بتاريخ ٢٣ كانون أول١٩١٧ مذكرة أشارت فيها إلى تخوف الإمام من ازدياد نفوذ الإدريسي الذي لم تكن له فعالية كبيرة

في مقاومة العثمانيين مقارنة مع أقواله خوفاً من هجوم الإمام عليه(٥٧). وأكد تقرير آخر أن الإدريسي كان يريد انضمام الإمام يحيى إليه في حربه ضد العثمانيين، ولكنه ذكر بأن العثمانيين جعلا كلاً من الشريف حسين والإمام يحيى يقفان ضده، الأول من خلال القوة والثاني من خلال إغداق الأموال عليه (٥٨).

أظهرت التقارير البريطانية تناقضاً في سياسة الحكومة البريطانية تجاه الأمراء العرب، فقد أكدت بعض التقارير البريطانية رغبة بريطانيا في تسوية الخلافات الدائرة بين الإمام يحيى والإدريسي (٥٩)، وظهر في تقارير أخرى رغبتها في ترك الخلافات الناشئة بين الشريف حسين والإمام يحيى والإدريسي دون حسم لأن عدم حسمها هو خير ضمان لبريطانيا خوفاً من وجود قوة عربية موحدة ربما تشكل تهديداً للمصالح البريطاينة (٦٠). وهكذا كان الساسة البريطانيون يتحركون وفق المصالح البريطانية أولاً وأخيراً.

استفاد الإدريسي من تحالفه مع بريطانيا، فقد بقيت جميع موانئه مفتوحة وخاصة مينائي جيزان وميدي للتجارة طوال فترة الحرب، بعكس الإمام يحيى الذي عانى وأتباعه من ضيق اقتصادي، بسبب قيام بريطانيا بمحاصرة جميع المواني اليمينة، مما دفع أتباعه للعمل بالزراعة لتوفير المواد الأساسية (٦١).

أدت ظروف الحرب وخاصة الضغط الاقتصادي الذي مارسته بريطانيا تجاه الإمام يحيى إلى إرساله مبعوثا من قِبَله إلى عدن للتفاوض مع الحكومة البريطانية بتاريخ١٩١٧ على شروط هي:

١- للإمام جميع اليمن، وأن تعاد إليه جميع الموانئ البحرية التي هي من ممتلكات أسلافه الأئمة.

٢- طرد الإدريسي من عسير والجزيرة العربية.

٣- أن يتم اتصال بريطانيا مع الشعب اليمني من خلال الإمام فقط.

٤- تقوم بريطانيا بتزويده بالأسلحة والذخائر.

وأثناء المفاوضات بين الطرفين اعتذرت بريطانيا عن القبول بتلك الشروط لكونها مرتبطة باتفاق (معاهدة) مع الإدريسي(٦٢).

وقد حاولت بريطانيا من جانبها عام ١٩١٨ عرض مشروع للاتفاق مع الإمام تضمن:

١- استقلال الإمام بحكم اليمن، كما سبقت للحكومة البريطانية أن وعدت الإدريسي في تهامة عسير.

٢- تزويد الإمام بالأسلحة والذخائر لمحاربة العثمانيين.

٣- فتح الموانئ اليمنية التي لا يسيطر عليها الإدريسي للتجارة، شريطة التزام الإمام العمل ضد العثمانيين، وعدم القيام بأي اعتداء على الإدريسي، ولكنها فشلت أيضاً كسابقتها بسبب رفض الإمام يحيى (٦٣).

وهكذا استمرت المحاولات البريطانية للتفاهم مع الإدريسي، بدون التوصل إلى نتيجة حاسمة للطرفين، وذكر يعقوب (Jacob) مؤلف كتاب شبه الجزيرة العربية ، أن الإدريسي حاول بكل الوسائل منع أي تقارب بين الإمام يحيى وبريطانيا (٦٤).

ولم يغتنم الإمام الفرصة خلال فترة الحرب للقيام بأي عمل عسكري توسعي على حساب الإدريسي (٦٥). واثنى يعقوب(Jacob) على موقف الإمام خلال الحرب بقوله: "إن حياد الإمام بالرغم من أنه كان بين فكّي كماشة قد برهن على قوته وكشف ضعف الأتراك، وكانت خدمته لنا (بريطانيا) كمتفرج سلبي لا تقل فائدة من الإدريسي، الذي قام بهجمات هنا وهناك، أما الإمام فأعلن حياده ومارسه عملاً وقولاً (٦٦) وذكر أنه حاول القيام بعقد صلح بين الإمام والإدريسي، لكنه فشل، مشيراً إلى النسب العريق للإمام يحيى بينما الإدريسي متطفل ظهر فجأة في اليمن، كان يسخر من مطالب الإمام

في المناطق السهلية والساحلية في اليمن، وكان يوجه اللوم والانتقاد للإمام لأنه نقض عهده معه وحالف الأتراك [٦٧].

حرصت بريطانيا قبيل نهاية الحرب على الضغط على الإمام يحيى من خلال قصف ميناء اليمن الرئيس (الحديدة)، بالمدافع في ٣٠ كانون الأول ١٩١٨، ثم قامت باحتلاله، فقد ذكر الوشلي صاحب كتاب نشر الثناء الحسن : "قام الإنكليز بضرب الحديدة بالمدافع فخربوا محل الحكومة وبعض بيوت التجار، وهدموا قصورها، وأحرقوا الكثير من بيوتها فهرب أهل الحديدة"[٦٩]. وكان احتلالها قد حرم المناطق الداخلية اليمنية من أي منفذ بحري، وعانى سكان المدينة اقتصادياً، حتى قيل أن عدد سكانها نقص من ٣٠ ألف نسمة إلى ١٠ آلاف[٧٠]. بررت الحكومة البريطانية ذلك للإمام برسالة جاء فيها: "دخلنا الحديدة لحفظ الأمن والنظام فيها وسنعيدها قريباً لكم"[٧١].

وبعث الإمام من جانبه كتاب احتجاج إلى ملك بريطانيا بتاريخ ١٩١٨/١٢/٢٢ ، طلب فيه ضرورة إعادة المدينة حقاً لإراقة دماء المسلمين [٧٢]. كما بعث رسالة احتجاج أيضاً إلى الجنرال ستيوارت (Stewart) بنفس الوقت جاء فيه: "لقد علمنا بالهجوم الذي قامت به القوات البريطانية ضد ميناء اليمن واحتلالها القسري وترك مثل هذا العمل المفاجئ انطباعاً سيئاً أدى إلى هيجان وثورة وغضب بين سكان اليمن عامة، رغم أننا قد بيّنا لكم سابقاً عدم رغبتنا في إراقة الدماء وإثارة ما قد يؤدي إلى إفساد العلاقات الودية بيننا ولنا رغبة أكيدة في استمرار العلاقة مع بريطانيا" [٧٣].

تباينت آراء المؤرخين في الأسباب التي دفعت بريطانيا لذلك، فذكر مصطفى سالم صاحب كتاب تكوين اليمن الحديث ، أن احتلال الحديدة يُعد ورقة رابحة في يد الحكومة البريطانية للضغط على الإمام يحيى من أجل تسوية مسألة الحدود بينهما [٧٤]. أما أباظة، فذكر في كتابه سياسة بريطانيا في عسير خلال الحرب العالمية الأولى

١٩١٤-١٩١٨م، أن ذلك للوقوف في وجه توسع الإمام يحيى حتى لا يهدد المصالح البريطانية في اليمن [٧٥]. أما أحمد شرف الدين مؤلف كتاب اليمن عبر التاريخ فذكر أن هدف بريطانيا هو السيطرة على منطقة أخرى من اليمن تكون تابعة لعدن [٧٦]. ربما اعتبرت بريطانيا سيطرتها على ميناء اليمن الرئيسي ورقة رابحة وضاغطة تستخدمها ضد الإمام يحيى إذا ما هدد مصالحها خاصة في المحميات، بعد أن فشلت في كسبه إلى جانبها خلال الحرب كما رأينا.

عجزت الحكومة البريطانية عن فرض الأمن والاستقرار في الحديدة، وفشلت في استرضاء أهلها مما دفعها لتغير ثلاث قناصل خلال وقت قصير لعجزهم عن إدارة المدينة[٧٧]، لذلك قامت باستفتاء الأهالي حول من يرغبون أن يحكمهم، فطالبوا بعودة الدولة العثمانية وعندما أكّد لهم القنصل البريطاني استحالة ذلك، عرضوا عليه الانضمام للحكومة المصرية، فرفض أيضاً [٧٨]. وبقيت المدينة تحت السيطرة البريطانية حتى عام ١٩٢١ عندما قامت بريطانيا بتسليمها للإدريسي كما سنرى.

مما سبق نلاحظ أن الإدريسي وقف إلى جانب بريطانيا خلال فترة الحرب العالمية الأولى بينما أعلن الإمام يحيى حياده. واستفاد الإدريسي عسكرياً وسياسياً واقتصادياً، بعكس الإمام الذي تضرر وأتباعه كثيراً خاصة بعد قيام بريطانيا بمحاصرة جميع الموانئ اليمنية التابعة له، وإبقاء موانئ الإدريسي مفتوحة للتجارة مع عدن وجيبوتي.

العلاقات اليمنية- الإدريسية ١٩١٨-١٩٢٣م:

عقدت الدولة العثمانية بعد نهاية الحرب هدنة مودرس (Modros) مع الحلفاء بتاريخ ٣١ كانون أول ١٩١٨، تضمنت استسلام القوات العثمانية في الحجاز وعسير واليمن وسوريا ولبنان وفلسطين والعراق إلى الحلفاء دون قيد أو شرط وجلاؤهم عنها [٧٩].

وترتب على ذلك بأن أصدر السلطان العثماني محمد وحيد (١٩١٨-١٩٢٢) أوامره لمحي الدين باشا متصرف عسير الانسحاب وتسليم جميع الأسلحة والذخائر لمعاونيه

من آل عائض [٨٠]. كما طلب من محمود نديم والي اليمن الانسحاب من اليمن وتسليم جميع الممتلكات العثمانية من أسلحة ومدافع وذخائر إلى الإمام يحيى حميد الدين باعتباره الوريث الشرعي للدولة العثمانية في اليمن [٨١]. وهكذا استثنت الدولة الإدريسي وعدّت آل عائض الورثة الشرعيين لها في عسير، والإمام يحيى في اليمن، وقد قام الإدريسي بتجريد العثمانيين في منطقته من أسلحتهم وارسلهم بالقوارب إلى جزيرة كمران التابعة لبريطانيا، والتي بدورها ارسلتهم إلى مصر [٨٢]. وظل الإدريسي مخلصاً للحكومة البريطانية بعد نهاية الحرب، وظل يتلقى الدعم المالي منها حتى حزيران سنة ١٩١٩، عندما أوقفتها بريطانيا[٨٣].

ازداد الخلاف والعداء بين الإمام يحيى والإدريسي بعد نهاية الحرب وخاصة بعد أن قامت بريطانيا بتسليم بعض المناطق للإدريسي في تهامة اليمن ومنها الصليف وباجل وبيت الفقيه [٨٤].

ذكرنا سابقاً أن آل عائض أصبحوا حكام عسير السراة بعد الانسحاب العثماني، فاختاروا حسن بن عائض أكبرهم سناً أميراً عليهم [٨٥]، وشكلوا مجلساً لدراسة أوضاع بلادهم، وضرورة إيجاد علاقات مع جيرانهم. وإثر ذلك قرروا إرسال ثلاثة وفود إلى كل من الشريف حسين بن علي والإدريسي والإمام يحيى [٨٦].

فتوجه حسن بن عائض على رأس وفد لمفاوضة الإدريسي، وبعد وصوله صبيا وإجراء المباحثات معه، اقترح الإدريسي عقد اتفاقية بينهما تتضمن:

١- تنضم عسير السراه إلى السيادة الإدريسية، ويصبح حسن حاكماً عليها بوصفه نائباً عن الإدريسي.

٢- يكون للإدريسي مندوب في أبها عاصمة عسير السراة إلى جانب حسن بن عائض لمساعدته في إدارة الأمور.

٣- يتقاضى حسن بن عائض مرتباً شهرياً من الإدريسي قدره خمسة آلاف ريال.

٤- يتقاسم الإدريسي مع آل عائض الأسلحة التي تركها العثمانيون.

٥- إنشاء قوات مشتركة من الطرفين تحت قيادة الإدريسي تتوجه لمحاربة الإمام يحيى والشريف حسين بن علي لوضع حد لتدخلاتهم.

٦- حرية التجارة بين المنطقتين، وإلقاء القبض على المجرمين من أي طرف كانوا ومحاكمتهم، ولكن الحسن بن عائض اعترض على بعض مطالب الإدريسيين وعاد إلى أبها من أجل عرض مشروع تلك الاتفاقية على مجلس الشورى (٨٧).

أما بالنسبة للوفد الذي وصل صنعاء لمفاوضة الإمام يحيى فكان برئاسة محمد ابن ناصر بن عائض، حيث أظهر الإمام أثناء المفاوضات رغبته في التعاون مع آل عائض للقضاء على الإدريسي إذ ذكر للوفد: "لا نريد القضاء على الإدريسي لأن وراءه من تعرفون (الإنكليز)، وإنما نسعى لإجهاض حركته واستعادة موانئ اليمن وطرده من تهامة في المستقبل، فهذا الدخيل عدو لنا ولكم، فإذا ما سعينا معاً للانتهاء منه والخلاص من فتنته عاشت المنطقة في استقرار، وخاصة أنه كما تعلمون يتحرك بقوة كافرة، ويعمل الآن لتحريض أمير نجد علينا وعليكم ويغريه لحربنا" (٨٨).

وعاد الوفد إلى أبها، عارضا على مجلس الشورى ما حدث وكان محمد بن عبد الرحمن آل عائض رئيس الوفد المرسل إلى الشريف حسين، قد أجرى محادثات شبيهة بمحادثات حسن بن عائض مع الأدارسة ، فأعلن الحسن ومجلس الشورى بعد مناقشة العروض الثلاث، بضرورة عدم الاتفاق مع أي طرف منهم لوجود أهداف خاصة يسعى كل طرف لتحقيقها، فتم إبلاغ كل من الحسين والإمام يحيى والإدريسي بالاعتذار عن الاتفاق(٨٩).

وغضب الإدريسي من موقف آل عائض فأمر وزيره محمود سرداب بتجهيز قوة عسكرية للتوسع على حساب آل عائض، فحدث قتال بين الطرفين انهزم فيه الجيش الإدريسي، مما دفعه لطلب مساعدة ابن سعود ضد آل عائض [٩٠] والذي سيتمكن من السيطرة على عسير السراه عام ١٩٢٠ [٩١].

وأظهرت بريطانيا من جانبها سنة ١٩١٩ رغبة في الاتفاق مع الإمام يحيي لذلك أرسلت إليه بعثة برئاسة الكولونيل يعقوب (Jacob)، الذي كان مستشاراً للمندوب السامي البريطاني في مصر لشؤون الجزيرة العربية [٩٢]. وبعد وصول البعثة إلى ميناء الحديدة بتاريخ ١٨ آب ١٩١٩، لم تتمكن من مواصلة التقدم نحو صنعاء، لأن قبيلة القحري– إحدى القبائل اليمنية الشافعية – احتجزتها في مدينة باجل [٩٣].

وأكد يعقوب (Jacob)، أن الإدريسي حاول التوسط لدى القبيلة لإخلاء سبيلهم لكنها رفضت[٩٤]، كما حاول الإمام يحيى أيضاً، بإرسال مستشاره محمود نديم حاملاً مبلغاً من المال يتجاوز ٤٠٠٠ جنيه استرليني، لتقديمها للقبيلة مقابل إطلاق سراح البعثة لكنهم رفضوا ذلك. ومن جانبها عرضت بريطانيا مبلغ ٥٠،٠٠٠ الف جنيه استرليني، على القبيلة مقابل إطلاق سراح البعثة، كما طلبت من تجار ووجهاء الحديدة إرسال رسائل إلى وجهاء وشيوخ اليمن للتوسط لدى زعماء تلك القبيلة لكنها فشلت أيضاً[٩٥].

قررت بريطانيا بعد فشل محاولات إطلاق البعثة استخدام القوة لعلها تحقق هدفها، ففي ٢٨ ت٢ ١٩١٩، حلقت طائرة بريطانية في سماء مدينة باجل لتخويف القبيلة، لكن تلك المحاولة لم تثمر أيضاً [٩٦].وقد أطلقت قبيلة القحري سراح البعثة بتاريخ ١٢ ك١ ١٩١٩، وعادت دون أن تواصل سيرها نحو صنعاء عاصمة الإمام يحيى [٩٧].

وإثر رجوع البعثة، عادت الحروب واشتعلت من جديد بين قوات الإمام يحيى والإدريسي، وخاصة في مناطق الحمرة وعبال والعين والطرواح [٩٨]. ثم قامت

بريطانيا في كانون ثاني سنة ١٩٢١، بتسليم الحديده للإدريسي تقديراً منها للجهود التي قام بها خلال الحرب العالمية الأولى [٩٩]، لاسيما بعد فشل جميع محاولاتها لعقد اتفاق مع الإمام يحيى.

غضب الإمام يحيى واستاء من تسليم الحديدة للإدريسي، وأصدر أوامره لقواته بالزحف نحو النواحي التسع [١٠٠]، فسيطر على أربع منها هي: الضالع والشعيب والأجود والقطيبي، مما دفع بريطانيا لإرسال بعثة جديدة برئاسة جلبرت كلايتون ((Clayton للتفاوض مع الإمام يحيى ولكنها فشلت [١٠١].

وهدف الإمام من مهاجمته تلك النواحي الضغط على الحكومة البريطانية، لإعادة الحديدة واللحية والصليف التي سلمتها للإدريسي بعد نهاية الحرب [١٠٢]. وأرسل الإمام مندوبه القاضي عبدالله العرشي إلى عدن للتفاوض مع المسؤولين البريطانيين بشأن تلك المناطق وضرورة إعادتها، وأكد عليه "إذا تمكنت من العمل على إعادة فتح الطرق التجارية وعلى التخلص من الإدريسي والأمران ملتحمان لا انفصام بينهما فهذا جيد، وإن لم تتمكن فلتعد إلى صنعاء" [١٠٣].

ولا شك أن تسليم الحديدة للإدريسي من قبل بريطانيا رغم إدراكهم أنها المنفذ الرئيس لليمن على البحر الأحمر، كان تدخلاً بريطانياً بهدف ازدياد الصراع بين الإمام والإدريسي. وقد أشار مصطفى سالم صاحب كتب " تكوين اليمن الحديث" إلى أن الإدريسي عندما سيطر على الحديدة، فشل في إدارة شؤونها، بسبب استبداد موظفيه بالسكان، وكثرة الضرائب التي فرضها عليهم، وأخذ بعض من كبار تجارها أسرى في عاصمته جازان [١٠٤]. ازداد نفوذ الإدريسي بعد سيطرته على الحديدة، واشتعلت الحروب بينه وبين الإمام يحيى، خاصة في تهامة وجبل برع وحراز وحجه [١٠٥].

حاولت بعض الأطراف التوسط لإنهاء النزاع بينهما. فقد دعا أمين الريحاني مؤلف كتاب ملوك العرب آنذاك [١٠٦] إلى عقد مؤتمر في الحديدة أو عدن تحضره وفود

المتحاربين، ولذلك أرسل كتاباً إلى الإمام يحيى بتاريخ ٨ تموز ١٩٢٢ جاء فيـه: "..، هل يقبل حضرة الإمام بعقد مؤتمر في عدن يحضره ممثلون من قبله وممثلون من قبل الإدريسي وممثل من دار الاعتماد البريطاني ، إذا وعده المعتمد رسمياً بتسليم الحديدة على شرط أن يتم الاتفاق والسلم بينه وبين الإدريسي"، وذكر الريحاني أيضاً أنه قابـل الإدريسي في جازان ووجد لديه الرغبة في الصلح شريطة اعتراف الإمام به حاكمـاً على لواء عسير[١٠٧]. ولم تستكمل المفاوضات لأسباب تتعلق بالطرفين.

كما ظهرت محاولة أخرى سنة ١٩٢٢، من قبل الشريف حسين بن علي ملك الحجاز، حيث أرسل مبعوثه الريحاني إلى الإدريسي والإمام يحيى أملاً في عقد اتفاقية ثلاثيـة بهدف مقاومة التوسع السعودي. وأثناء مقابلة الريحاني للإدريسي أشار إلـى نظرتـه للإمام يحيى بقوله: "فذلك الرجل أضر بنا ضرراً جسيماً (المقـصود الإمـام يحيـى) ونحن نفعناه، فنحن أول من حمل على الأتراك في الحرب الكبرى، أول من انضم إلى الأحلاف. أما هو فاتفق والترك وانسحب إلى شهاره وأقام هناك بعيـداً عـن سـاحة القتال، فنحن كنا نحاربهم في تهامة لنردهم عن ابن حميد الدين، أوقفناهم مـراراً فـي زحفهم عليه، دفعناهم عنه فراح يعقد وإياهم صلحاً وراء ظهرنا هذا أثناء الحرب، أما قبلها فكنا وإياه متعاهدين..." [١٠٨].

أما الإمام يحيى فتحدث عن الإدريسي بقوله: "... لكن الإدريـسي حليـف الإنكليـز وعدونا يأخذ منهم المال والسلاح ويحاربنا به، وهـو بيننـا وبـين الحجـاز المـانع الحاجز"[١٠٩].

ويذكر أن الريحاني حاول أثناء مقابلته لكلا الزعيمين تقريب وجهات النظـر بينهمـا وإزالة أي سوء تفاهم وخلاف، لكن تشدد الطرفين ونظرتهما العدائية لبعضهما حالـت دون ذلك، إضافة إلى رغبة الملك حسين في الزعامة والسيادة على الجمي

▪ أثر وفاة محمد الإدريسي على العلاقة مع الإمام يحيى إمام اليمن ١٩٢٣-١٩٢٥:

توفي محمد الإدريسي مؤسس الإمارة بتاريخ ٢١ آذار ١٩٢٣، ودفن في صبيا، وبعد دفنه عقد اجتماع في صبيا ضم أفراد الأسرة الإدريسية، وعلى رأسهم أبناء محمد الإدريسي (علي وعبد الوهاب وعبد العزيز وعبد الرحمن وأحمد) والحسن الإدريسي عمهم، وكذلك كبار رجال الدولة. مثل محمد يحيى باصهي، ويحيى زكريا، ومحمد حيدر العبي، وحمود سرداب، وتم فيه مبايعة علي الإدريسي أكبر الأبناء حاكماً(١١٠).

وكان مصطفى الإدريسي وأبناؤه قد حضروا من مصر للمشاركة في دفن السيد محمد الإدريسي لكنهم تأخروا، وعندما وصلوا وجدوا أنه تمت مبايعة علي، فوجه اللوم، لكنه بايع، وعرض على أفراد الأسرة ضرورة إرسال الحاكم الجديد إلى مصر لإكمال دراسته، فانقسمت الأسرة وكبار رجال الدولة بين مؤيد ومعارض، وأخيراً رفضت الفكرة واستمر علي حاكما للإمارة (١١١).

ويذكر أن الحسن الإدريسي ومصطفى الإدريسي وبعض الوزراء لم يكونوا راضين عن الحاكم الجديد بسبب صغر سنه وافتقاره للخبرة السياسية والإدارية التي كانت لدى والده. خاصة للظروف الصعبة التي تعاني منها الإمارة وحروبها مع الإمام يحيى، لذلك بدأت تلك الأطراف الاستعداد للثورة والانقلاب ضد الحاكم الجديد وقرر أن يتم ذلك في الاحتفال الذي يقام في الذكرى السنوية لوفاة المؤسس، علم علي الإدريسي بذلك يوم الاحتفال، فخرج منه قبل أن ينتهي، وبذلك فشل المخطط وتوترت علاقاته مع عمه الحسن وقريبه مصطفى فتدخلت بعض الأطراف، للتوفيق بينهم فعاد الوئام، وأعاد الحسن ومصطفى مبايعتهم من جديد لعلي، وبذلك أحس علي أنه بحاجة للولاء من رجال القبائل والزعماء فحاول كسبهم من خلال الأموال والهدايا (١١٢)، ليكسب دعمهم في حال قيام ثورة ضده.

كما حاول كسب قريبه مصطفى من خلال تعيينه نائباً له على المنطقة الجنوبية عام ١٩٢٥، وبدأ الأخير منذ لحظة استلامه لمنصبه الجديد يخطط للثورة من جديد من خلال استدعاء زعماء المنطقة وحثهم على الثورة، والاتصال مع المعتمد البريطاني، في جزيرة كمران لدعمه بالسلاح والذخيرة والأموال مقابل منح شركة بريطانية امتيازاً لاستغلال ملح الصليف، فعلم علي بذلك واحتج لدى السلطات البريطانية التي أكدت له أن ذلك غير صحيح (١١٣).

جهز علي الإدريسي قواته لمقاتلة قريبه مصطفى الإدريسي الذي أعلن ثورته، حيث تمكنت قواته من الحاق هزيمة بالثائرين، وهرب مصطفى إلى جزيرة كمران (١١٤)، وهكذا فشلت تلك الثورة. وبقي علي فترة من الوقت في المنطقة الجنوبية لترتيب أمورها وإعادة الأمن والاستقرار فيها، وعين خاله عبد المطلب هارون نائباً عليها ومقره الحديدة، كما نفى عددا من وزرائه اعتقادا باشتراكهم في تلك الثورة مما أدى إلى افتقار الإمارة للخبرات السياسية والإدارية، كما أثّر ذلك على ولاء بعض المناطق له خاصة في المنطقة الشمالية وصبيا لكون معظم من نفاهم من تلك المناطق، فابتعدت عنه والتفت حول عمه الحسن الذي لم يكن راضياً عن أعمال ابن أخيه الحاكم الجديد(١١٥).

بدأ عبد المطلب هارون يدير شؤون المنطقة الجنوبية وقد وصفه العقيلي بقوله: "هو رجل لم يسبق له المران في الإدارة، ولا الاشتراك في الحروب، خال من العلم والمعرفة، غريب وفد من السودان مع أخته أم الإمام علي الإدريس" (١١٦).أما فتوح خترش مؤلف كتاب العلاقات السعودية اليمنية ١٩٢٦-١٩٣٤م، فوصفت حالة المنطقة الجنوبية بعد وصوله بقولها "أما المنطقة الجنوبية فقد ساءت الأحوال فيها بعد أن تولى شؤونها خاله عبد المطلب هارون، وفقدت أهم ميزاتها العسكرية بعد عزل قائدها محمد طاهر رضوان، صاحب التجربة والحنكة والخبرة، وأصبحت تشكل ثغرة كبيرة

على الإمارة الإدريسية، لأنها تجاور ألــدّ خصم قوي يهدد هذه الإمارة، وهو الإمــام يحيى [١١٧].

استغل الإمام يحيى فرصة الفوضى والنزاع التي عمت الإمارة الإدريسية والانقسامات والحروب الأهلية فيها، فأصدر أوامره إلى قواته بالتقدم نحو المنطقة الجنوبية لاستعادة الحديدة [١١٨]

وكان الإمام يحيى قبل أن يفكر بالهجوم على مناطق الإمارة الإدريسية، قد أخذ موافقة من بريطانيا بعدم اعتراضه، حيث تعهدت له إذا ما هاجم تلــك المنــاطق واســتعاد الحديدة، لن تمانع ولن تعترض على ذلك [١١٩]. وبذلك تم تحييد أكبــر طــرف داعــم ومساند للأدارسة منذ سنة ١٩١٤، وربما يرجع ذلك إلى رغبة بريطانيا في التحــالف مع الإمام يحيى لتحييد إيطاليا التي كانت تبذل جهوداً كبيرة للاتفاق مع الإمام يحيى.

زحف الجيش اليمني بقيادة عبدالله بن أحمد الوزير لحرب الأدارسة بتــاريخ ٣ أيــار ١٩٢٤، فتمكن من السيطرة على باجل والصليف وابن عباس وميدي، واستعاد الحديدة سنة ١٩٢٥، وحاصر مدينتي صبيا وجيزان، لذلك أرسل الإمام علي وفــداً للتفــاوض إلى الإمام يحيى، فاشترط عليهم الإمام مقابل وقف التوسع في الإمارة الإدريسية:

١- عزل الأمير علي وتولية عمه الحسن مكانه.

٢- ضم الحديدة والمناطق المحيطة بها إلى الإمام يحيى.

٣- يكون أمير عسير خاضعاً لصنعاء وتابعاً لسياستها، فلا يعقد معاهدة أو اتفاقاً مــع دولة أخرى إلا بعد موافقة الإمام يحيى على ذلك، لكن علي الإدريــسي رفــض ذلك، فواصل الجيش اليمني تقدمه في مناطق الإمارة، مما دفــع كبــار رجــال الإمارة وأمراء الأسرة الإدريسية إلى عزل الأمير علي وتوليــة عمــه الحــسن مكانه [١٢٠].

تولى الحسن حكم الإمارة، ولاحظ أن ما لديه من أموال وأسحلة وذخائر لا تمكنه من مواجهة الجيش اليمني، لذلك طلب مساعدة الحكومة البريطانية التي اعتذرت بحجة أن ذلك نزاعاً داخلياً، مما دفعه إلى عرض صلح على الإمام يحيى مقابل توقفه عن التوسع في المناطق الإدريسية، واعتراف الأدارسة بولائهم له، مقابل منحهم نفوذاً محلياً، لكن الإمام رفض وأصر على مواصلة الحرب، مما حمل الحسن الإدريسي، للإلتجاء إلى ابن سعود. وعقد معاهدة مكة عام ١٩٢٦، التي أمنت حماية الملك عبد العزيز للأدارسة وإمارتهم ووقف التوسع اليمني في أراضيهم.

▪ الخاتمة:

غلب على العلاقات اليمنية – الإدريسية الطابع العدائي، وظهر واضحاً رغبة الإمام يحيى في التخلص من الإدريسي والتفرد بحكم اليمن، ولم يمنع ذلك من تحالفهما عام ١٩١٠–١٩١١ ضد الدولة العثمانية، التي نجحت في تحقيق الانفصال بينهما عندما عقدت صلح دعان عام ١٩١١، بينها وبين الإمام يحيى، مما زاد العداء بين الطرفين بسبب تخلي الإمام عنه وتركه وحيداً في مواجهة الدولة العثمانية، مما دفعه للتحالف مع إيطاليا، التي مدته بالأموال والأسلحة والذخائر.

وقف الإدريسي إلى جانب بريطانيا خلال فترة الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨، بينما أعلن الإمام يحيى حياده. ازداد نفوذ الإدريسي السياسي والعسكري والاقتصادي على حساب الإمام يحيى الذي عانى كثيراً بسبب الحصار الذي فرضته بريطانيا على الموانئ اليمنية.

عملت بريطانيا على مكافأة الإدريسي لما قام به من خدمات لها خلال فترة الحرب بتسليمه الحديدة، ميناء اليمن الرئيسي، مما أدى إلى زيادة العداء بين الطرفين وحدوث الكثير من المعارك بينهم. حاولت بعض الأطراف التوسط لعقد صلح عام ١٩٢٣، لكنها فشلت.

أدت وفاة محمد الإدريسي مؤسس الإمارة الإدريسية إلى ضعف وانهيار إمارته، خاصة بعد أن تولى حكمها أمير صغير في السن تنقصه الخبرة السياسية والعسكرية والإدارية، التي كان يتمتع بها والده، فحدث نزاع بين أفراد الأسرة على الحكم، حيث استغل الإمام يحيى تلك الظروف وتوسع على حساب المناطق الإدريسية واسترجع الحديدة، مما دفع كبار رجال الدولة الإدريسية لعزل الإمام علي وتولية عمه الحسن مكانه، فلجأ الأخير إلى ابن سعود وطلب حمايته في مواجهة التوسع اليمني بعقد معاهدة مكة بينهما عام ١٩٢٦.

الهوامش

(١) يطلق اسم عسير اليوم على الجهة الغربية من الجزيرة العربية الواقعة من الحجاز شمالاً واليمن جنوباً ونجد شرقاً والبحر الأحمر غرباً.

* تم الاعتماد في كتابة التمهيد على المصادر التالية: عبد الكريم غرايبة: قيام الدولة السعودية، قسم البحوث والدراسات التاريخية والجغرافية، ١٩٧٤، أمين سعيد: **تاريخ الدولة السعودية**، مطبعة كرم، بيروت؛ أحمد بن السيد زيني دحلان: أمراء البلد الحرام، بيروت، ١٩٨١؛ إبراهيم الحفظي: **تاريخ عسير رؤية تاريخية خلال خمس قرون**، تحقيق محمد بن مسلط بن عيسى الوصال البشري، ط٥؛ فتوح عبد المحسن الخترش: **تاريخ العلاقات السعودية- اليمنية ١٩٢٦-١٩٣٤م**، الكويت، ط١، ١٩٨٣؛ محمود شاكر: **شبه جزيرة العرب، عسير**، ط٢، المكتب الإسلامي؛ محمد بن أحمد العقيلي: **تاريخ المخلاف السليماني**، راجعه وأشرف على طبعه حمد الجاسر، ط٢، ج١؛ حنان سليمان ملكاوي: ال**علاقات بين أمراء الإدارسة في عسير وأشراف مكة ١٩٠٨-١٩٢٥**، منشورات لجنة تاريخ الأردن، عمان، ط١، ١٩٩٧م.

(٢) فاروق عثمان أباظة: ال**حكم العثماني في اليمن ١٨٧٢-١٩١٨**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، ص٢٠٦ نقلاً عن الاهرام، ع ٩٤٧٠، ١٣ أيار ١٩٠٩، ص١

(٣) العقيلي: **تاريخ المخلاف السليماني**، جـ٢، ص ٧٦٩.

(٤) السيد مصطفى سالم: تكوين **اليمن الحديث (اليمن والإمام يحيى ١٩٠٤-١٩٤٨)**، ط٢، جامعة عين شمس، ١٩٧١، ص٩٨-٩٩، أحمد محمد بن بريك: **اليمن التنافس الدولي في البحر الأحمر** ١٨٦٩-١٩١٤، ط١، ٢٠٠٠، ص٣٠٣-٣٠٤.

(٥) سالم: **تكوين اليمن**، ص ٩٩؛ بريك: **اليمن والتنافس الدولي** ، ص٣٠٤.

(٦) عبد الواسع بن يحيى الواسعي اليماني: **تاريخ اليمن المسمى، فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن**، ط١٨٨٠-١٩٩١، ص٢٢٦.

(٧) المؤيد(جريدة يومية سياسية تجارية تصدر من مصر ١٩٠٨-١٩١٤م) ، ع ٦٢٦٩، ١٩١١/١/٢١، ص ٤.

(٨) حيث ارسلت ١٣١ ارطه و ٨ بطاريات مدفعية، انظر المؤيد، ع ٦٢٧، ١٩١١/١/٢٤، ص٢

(٩) المؤيد،ع٦٢٨٣، ١٩١١/٢/١، ص٤

(١٠) العقيلي: **تاريخ المخلاف السليماني**، ص٧٤٤.

(١١) أمين الريحاني: **ملوك العرب**، ط٣، بيروت، ١٩٥٨، ج١، ص٢٩٨.

(١٢) الملك عبدالله بن الحسين: **الآثار الكاملة**، ط٢، بيروت، ١٩٧٩، ص٧٨.

(13) Military Hand book of Arabia 1913, 1917, Volume II, The Arab Bureau Hand Books of Hejaz Asir, Yemen, 1917, Archive Edition, 1988. Cairo, First edition, p23-24, H. ST. John Philby: Saudi Arabia, Beirut,1968, p257.

(١٤) أحمد عزت باشا، الباني، تربى تربية عسكرية في ألمانيا نفي في عهد السلطان عبدالحميد إلى سوريا، ولما زار الأمبراطور الألماني غليوم سوريا قال عنه: إذا كان الجيش العثماني يستغني عن عزت باشا فإن الجيش الألماني بحاجة إليه، فرقاه السلطان قائداً للفرقة الرابعة عشر المقيمة في الحديدة، ولما أعلن الدستور عُين رئيساً لاركان حرب الجيش العثماني: المؤيد، ع ٦٢٩٨، ١٩١١/٢/٢٣، ص٤.

(١٥) بريك: **اليمن والتنافس الدولي**، ص٣٠٨-٣٠٩.

(١٦) البيان(جريدة سياسية أدبية شعارها الوطنية والحقيقة تصدر ثلاث مرات في الاسبوع من نيويورك ١٩١١-١٩٢٦م)، ع١٤، ١٩١١/٥/٢، ص١؛ المؤيد، ٦٢٩٨، ١٩١١/٢/٢٣، ص٢؛ المنار(مجلة شهرية منشئها محمد رشيد رضا تصدر من مصر ، م ١٤، ج٢، ص ١٥٨-١٥٩؛ محمد انيس : الدولة العثمانية والمشرق العربي، ط١، القاهرة، ص٢٢٧؛ سالم: تكوين اليمن، ص١٢١-١٢٢.

(١٧) David George Hogarth: A History of Arabia, Oxford University Press, London, 1921, p.121 ،هاردلدف يعقوب: **ملوك شبه جزيرة العرب** (بداية الحكم التركي ونهايته في شبه جزيرة العرب) ترجمة أحمد المضواحي، ص١٤٣؛ بريك: **اليمن والتنافس الدولي**، ص٣١٣.

(١٨) دعان: قرية صغيرة تقع إلى الشمال الغربي من عمران، تمتاز بموقعها المتوسط بين المناطق التابعة لنفوذ الإمام يحيى في الشمال غرب صعده، وبين مناطق الأتراك في الجنوب والقريبة من صنعاء، انظر: الواسعي: تاريخ اليمن ، ص٣٧٥.

(١٩) الواسعي: **تاريخ اليمن**، ص٣٧٥-٣٧٦؛ سالم: **تكوين اليمن**، ص١٥٠-١٥١؛ سالم: وثائق يمنية، ص٣٥١-٣٥٣؛ أحمد حسين شرف الدين: **اليمن عبر التاريخ**، ط١، ١٩٦٧، ص٢٧٠-٢٧١؛ أمين سعيد: اليمن تاريخه السياسي منذ استقلاله في القرن الثالث الهجري، القاهرة، ط١، ص٣٢-٣٣؛ عبدالكريم علي عزيز: **التشكيلات المركزية العثمانية والإدارة المحلية في اليمن، ١٨٥٠-١٩١٨**، ط١، ٢٠٠٣، ص١٦٨-١٧١؛ إسماعيل بن محمد الوشلي التهامي: نشر الثناء الحسن المنبئ ببعض حوادث الزمن من الغرائب الواقعة في اليمن، (تهامة- المخلاف ١٨٦٨-١٩٣٨) ، ط١، ١٩٨٢، ص١٠٨؛ بريك: **اليمن والتنافس الدولي**، ط١، ص٣١٤-٣١٦؛

ARNOID J, Toy NBEE: Surfey of International affairs 1925, v.I, London, 1927, p276.

(٢٠) يعقوب : **ملوك شبه الجزيرة**، ص١٥٥.

(٢١) شرف بن عبد المحسن البركاتي: الرحلة اليمانية لصاحب الدولة أمير مكة المكرمة الشريف حسين باشا وأعماله في محاربة الإدريسي مع جغرافية البلاد العربية وأسماء قبائلها، ط٢، مطبعة بيروت، ص٧٢؛ المويد، ع ٦٤٧٨، ١٣ أيلول ١٩١١، ص٢؛ Philby: Saudia Arabia, P257؛ صلاح الدين المختار: تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها، ط١، بيروت، ١٩٧٥، ص١٢٠؛ وانظر حول ثورة الإدريسي وحملة الشريف حسين: ملكاوي: العلاقات بين أمراء الإدارسة في عسير أشراف مكة ١٩٠٨-١٩٢٥، ص١١٣ فما بعد.

(٢٢) يعقوب: **ملوك شبه الجزيرة العربية**، ص١٨٨.

(٢٣) Military Hand Book of Arabia, v.2, p23-24 .

(٢٤) الوشلي: نشر الثناء الحسن، ص ١٢٣-١٢٤؛ بريك: **اليمن والتنافس الدولي**، ص٣٢٣-٣٢٤؛ سالم: **تكوين اليمن**، ص١٦٥.

(٢٥) العقيلي: **المخلاف السليماني**، ج٢، ص٧٤٥.

(٢٦) عزيز برديف خودا: **الاستعمار البريطاني وتقسيم اليمن**، دار التقدم، موسكو، ١٩٩٠، ص٥٠-٥١؛ أباظة: **الحكم العثماني**، ص٣٢٩-٣٣٠.

(٢٧) سليمان شفيق: **بلاد العرب في مذكرات سليمان شفيق** باشا، مجلة العرب، ج١، سنة ٧، ص٥٢؛ وانظر المنار، مجلد ١٦، ج٥، ص٣٨٩.

(٢٨) الواسعي: تاريخ اليمن، ص١٢٦؛ العرشي: **بلوغ المرام**، ص ١٣؛العقيلي: **المخلاف السليماني**، جـ٢، ص٦٢٨.

(٢٩) انريكو انسباتو كارلوفوني بورشيناري: **العلاقات العربية الإيطالية ١٩٠٢-١٩٣٠**، ترجمة عمرالباروني، منشورات مركز جهاد الليبيين، ١٩٨٠، ص٥٤؛ القاضي عبد الله بن عبد الكريم الجرافي: **المقتطف من تاريخ اليمن**، ط١، بيروت، ١٩٨٧، ص٢٩٥؛ سالم: **تكوين اليمن**، ص١٧٢.

(٣٠) بريك: **اليمن والتنافس الدولي**، ص٣٢٩-٣٣٠، وانظر اباظة: **الحكم العثماني**، ص٣١٨، خودا: **الاستعمار البريطاني**، ص٥١؛ محمد يحيى حداد: **التاريخ العام لليمن (اليمن المعاصر)**، ط١، ١٩٨١، ص٦٣

(٣١) F.o 882/10 p 50؛ أنريكو: العلاقات العربية الإيطالية، ص٥٥.

(٣٢) Military Hand Book of Arabia, v.2, p22-23; F.o 552/10 p30

(٣٣) بريك: **اليمن والتنافس الدولي**، ص٣٣٠.

(٣٤) يعقوب: **ملوك شبه الجزيرة**، ص ١٨٩؛ توفيق علي برو: **العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨-١٩١٤**، القاهرة، ١٩٦٠، ص٢٤٥-١٤٦؛ سالم **تكوين اليمن**، ص١٨٦-١٨٩؛ بريك: **اليمن والتنافس الدولي**، ص٣٢٤-٣٢٥.

(٣٥) الواسعي: **تاريخ اليمن**، ص٢٤٦؛ خودا **الاستعمار البريطاني**، ص٥١.

(٣٦) البركاتي: **الرحلة اليمانية**، ص١٠٩-١١٠؛ سليمان شفيق: **بلاد العرب، مجلة العرب**، ج١، سنة ٧، ث٧٥٧؛ للمزيد حول حملة فيصل انظر أمين الريحاني: فيصل الأول، بيروت، ط١، ١٩٣٤، ص٢٢-٢٣.

(٣٧) سالم: **وثائق يمنية**، ص٢٨١-٢٨٢

(٣٨) سالم: **وثائق يمنية**، ص٢٨٢.

(٣٩) انريكو: **العلاقات الإيطالية – العربية**، ص ٥٥ ؛ برو: **العرب والترك**، ص ٤٠٥-٤٠٦..

(٤٠) حافظ وهبه: **جزيرة العرب في القرن العشرين**، ط٤، القاهرة، ١٩٦١، ص١٧٤؛ زاهية قدورة: **شبه الجزيرة العربية، كياناتها السياسية**، بيروت، ط١، ص٤٥؛ ملكاوي: **العلاقات بين أمراء الأدارسة في عسير وأشراف مكة**، ص١٤٣.

(٤١) سالم: **تكوين اليمن**، ص٢٠١؛ بريك: **اليمن والتنافس الدولي**، ص٣٥٢؛ أباظة **الحكم العثماني**، ص٣٥٨.

(٤٢) أريك ماكرو: **اليمن والغرب** ١٦٧١-١٩٦٢، نقله إلى العربية وعلق عليه حسين عبد الله العمري، ط٤، دمشق، ١٩٨٧، ص١٠٧.

(٤٣) سالم: وثائق يمنية، ص٣٣٨.

(٤٤) F.o 271/2140 و F.o 371/2143,/52139 و F.o 371/2143 من نجدة فتحي صفوة. الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، م١، ١٩١٤-١٩١٥، ص٣٠٩، ص٣٢٨، ص٣٢٩.

(٤٥) بريك: **اليمن والتنافس الدولي**، ص٣٥٢.

(٤٦) Arabian Boundaries: Primary Document 1853-1957, Editors Richard Schopield and Gerald Blake Archive Edition, 1988, V.2, Troller: The Birth of Sudia Arabia, Houes,f Saud, p92; Gary London, p208-209

(٤٧) سالم: تكوين اليمن، ص٢٢١-٢٢٢؛ العقيلي: **تاريخ المخلاف السليماني**، ج٢، ص١١٤-١١٥؛ خودا: **الاستعمار البريطاني وتقسيم** اليمن، ص٥٧-٥٨؛ أباظة: **الحكم العثماني**، ص٣٧٢-٣٧٣.

(٤٨) F.o 882/19 رسالة من مكماهون إلى الحسين بتاريخ ٨ ايار ١٩١٦، نقلاً عن صفوة: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، م ٢،ص ١٨٧-١٨٨

(٤٩) بريك: **اليمن والتنافس الدولي**، ص ٣٥٢؛ يعقوب: **ملوك شبه الجزيرة**، ص٢٠٦؛ سالم: **تكوين اليمن**، ص١٩٩-٢٠٠؛ سليمان موسى: **المراسلات التاريخية** ١٩١٤-١٩١٨، م١، عمان، ١٩٧٣، ص٧٠.

(٥٠) الريحاني: **ملوك العرب**، ج١، ص١٣٤؛ أمين الريحاني: **تاريخ نجد وملحقاته**، ط٣، بيروت، ١٩٦٤، ص٢٠١.

(٥١) جورج انطونيوس: **يقظة العرب تاريخ حركة العرب القومية**، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، دار العلم للملايين، ط٨، ١٩٨٧، ص٢٤٨-٢٤٩.

(٥٢) خودا: **الاستعمار البريطاني وتقسيم اليمن**، ص٦٠.

(٥٣) The Arab bulletin, the Bulletin of The Arab Bureau in Cairo, 703, P13; Arab Boundary, V.2, p606-607.

(٥٤) Arab Bulletin, V.3, p1,V.4, p106; Military Hand Book of Arabia, V.2, P24.

(٥٥) Arab Bulletin, V.3, P13, V.4, P106; Arab Boundary, V.2, P606-607; Military Hand Book of Arabia, V.2, P23.

(٥٦) Arab Bulletin, V.1, P44; Military Hand Book of Arabia, V.2, P23

(٥٧) F.o, 882/10 , P90-95 ، رسالة كلايتون إلى الحاكم العام في السودان

(٥٨) يعقوب: **ملوك شبه الجزيرة** ، ص٢٣٤.

(٥٩) F.o 3713380 نقلاً عن صفوة: **الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية**، م٢، ص٣٢.

(٦٠) F.o 371/2773 نقلاً عن صفوة: **الجزيرة العربية، الوثائق البريطانية**، م٢، ص ص ٤٨٤.

(٦١) F.o 371/27/09 برقية من المقيم السياسي في عدن إلى حكومة الهند بتاريخ ٦ آذار ١٩١٦؛ وانظر في مكي شبيكة: العرب **والسياسة البريطانية في الحرب العالمية الأولى**، القاهرة، ط١، ١٩٧٤، ص١٨١؛ F.o 371\2773 نقلاً عن صفوة: الجزيرة **العربية في الوثائق البريطانية**، م٢، ص ٥٠٢.

(٦٢) Hejaz and Yemen politics F.o 10/16/5

(٦٣) F.o 882/9; F.o , Arab Bulletin, V.1, P44؛ نقلاً عن صفوة: **الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية**، ج٢، ص٥١٨.

(٦٤) عبد الكريم بن أحمد المطهر: **سيرة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين**، المسماة كتيبة الحكمة في سيرة إمام الأمة ، ج١،دراسة وتحقيق محمد عيسى صالحة، دار البشير، ط١، ١٩٩٨، ص١٤٠-١٤١؛ وانظر خودا: **الاستعمار البريطاني وتقسيم اليمن**، ص٦٤.

(٦٥) صالحية: **سيرة الإمام يحيى**، ص١٤٣-١٤٦.

(٦٦) يعقوب: **ملوك شبه الجزيرة** ، ج١، ص٢٣٠-٢٣٨.

(٦٧) الريحاني: **تاريخ نجد الحديث**، ص٢٠١

(٦٨) يعقوب: **ملوك شبه الجزيرة** ، ج١، ص٢٣٤.

(٦٩) يعقوب: المرجع نفسه، ص٢٣٢-٢٣٣.

(٧٠) أكبر مدن تهامة اليمن وأشهر موانئها على البحر الأحمر. انظر: محمد بن أحمد العقيلي. **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية** (مقاطعة جازان- المخلاف السليماني)، ج١، الرياض ١٩٨٩، ص١١٣

(٧١) الوشلي: نشر الثناء الحسن، ص١٧٢.

(٧٢) خودا: الاستعمار البريطاني وتقسيم اليمن، ص٦٥-٦٦؛ أحمد شرف الدين: **اليمن عبرالتاريخ من القرن الرابع عشر قبل الميلاد إلى القرن العشرين،** ط١، ١٩٦٣،ص٢٧٥.

(٧٣) صالحية: **سيرة الإمام يحيى،** ص١٦٧، ص ١٧٤؛ أباظة: **الحكم العثماني،** ص٤٢١-٤٢٢؛ فاروق عثمان أباظة: **سياسة بريطانيا في عسير خلال الحرب العالمية الأولى** ١٩١٤-١٩١٨، الكويت، ١٩٨٣، ص٧٧-٧٨؛ عبد الكريم علي عبد العزيز: **التشكيلات المركزية،** ص٢٩٢.

(٧٤) صالحية: **سيرة الإمام يحيى،** ص١٧٤.

(٧٥) صالحية: المرجع نفسه، ص١٧٤.

(٧٦) سالم: **تكوين ا ليمن،** ص ٢٥٧؛ أحمد فائد الصائدي: **حركة المعارضة اليمنية في عهد الإمام يحيى بن محمد بن حميد الدين** ١٩٠٤-١٩٤٨، ط١، صنعاء، ص٣٦-٣٧.

(٧٧) أباظة: **الحكم العثماني في اليمن،** ص ٤٢١-٤٢٢؛ اباظة: **سياسة بريطانيا،** ص٧٧-٧٨.

(٧٨) أحمد شرف الدين: **اليمن عبر التاريخ،** ص٢٧٥.

(٧٩) العقيلي: **المخلاف السليماني،** ج٢، ص٧٣٢؛ أحمد شرف الدين: المرجع نفسه، ص٢٧٥.

(٨٠) البيان، ع١٧٨٨، ٢٩ ك٢ ١٩٢٦، ص٤.

.

(٨١) Toynbee: Surfy of International Affairs, P481؛ أحمد عبد الرحيم مصطفى: **في أصول التاريخ العثماني**، ط٢، بيروت، ١٩٨٦، ص٢٩٣؛ لوتسكي: **تاريخ الأقطار العربية الحديث**، ترجمة عفيف البستاني، ط٧، بيروت، ١٩٨٠، ص٤٧٣؛ أباظة: **الحكم العثماني** في اليمن، ص٤٠٧؛ خودا: **الاستعمار البريطاني وتقسيم اليمن**، ص٦٥-٦٦.

(٨٢) آل عائض: اسرة تنسب إلى مؤسس إمارتها عائض بن مرعي، من أهل ريدة من آل يزيد بن مغيد من قبيلة عسير، كان مركز إمارتهم أبها، عينتهم الدولة معاون متصرف عسير منذ سنة ١٨٧٢ واستمروا في ذلك حتى نهاية الدولة العثمانية بنهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٨، انظر: خير الدين الزركلي: **شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز**، جـ١، ١٩٧٠، ص٢٤٧؛ الريحاني: **تاريخ نجد**، ص٢٢٩.

(٨٣) Toynbee:Surfy of internationd Affairs, p278؛ الجرافي: **المقتطف من تاريخ اليمن**، ص ٢٢٥؛ الوشلي: نشرا لثناء الحسن، ص١٨٩؛ اباظة: **سياسة بريطانيا في عسير**، ص٧٦؛ سالم: **تكوين اليمن**، ص٢٢٩-٢٣٦.

(٨٤) ماكرو: **اليمن والغرب**، ص١٠٦.

(٨٥) Arab Boundary, V.2, p152

(٨٦) Arab bulletin, V.4 . p105-106

(٨٧) عبد الله بن علي بن مسفر: **السراج المنير في سيرة إمراء عسير**، ط١، ١٩٧٨، ص١١٩-١٩٢، الريحاني: **تاريخ نجد**، ص٣٠٠.

(٨٨) مسفر: **السراج المنير**، ص١٢٤.

(٨٩) الحفظي: **تاريخ عسير**، ص٦٤ ؛ هاشم بن سعيد النعيمي: **تاريخ عسير في الماضي والحاضر**، الرياض، ج١، ص٢٤٤؛ ا لعقيلي: **المخلاف السليماني**، ج٢، ص٧٣٨-٧٣٩.

(٩٠) الحفظي: **تاريخ عسير**، ص٢١٩.

(٩١) الحفظي: المرجع نفسه، ص٢١٩.

(٩٢) النعيمي: **تاريخ عسير في الماضي والحاضر**، ص٢٥٠-٢٥١؛ العقيلي: **المخلاف السليماني**، ج٢، ص٧٤٠؛ الحفظي: المرجع نفسه، ص٢٢٣، ص ٢٢٣.

(٩٣) Sheik Muhammad Iqbal: Emergence of Saudi Arabia, Study of Abd Al-Aziz Ibn Saud, (1901-1953), Kashmir, Saudiyah Publishers,1977, p187; David Holden and Richard Johns; The House of Saud, The Rise and Rule of the powerful Dynasty in the Arab World, New York, 1981, P76.

(٩٤) يعقوب: **ملوك شبه الجزيرة**، جـ١، ص٢٦٣-٢٨١.

(٩٥) يعقوب: **ملوك شبه الجزيرة**، جـ١، ص٢٦٣-٢٨٤؛ سالم: **تكوين اليمن**، ص٢٥٩،العرشي: **بلوغ المرام**، ص٩٢؛ أحمد شرف الدين: **اليمن عبر التاريخ**، ص٢٧٥؛ Arab boundary; V.2, P 150-152;.Toynbee: Surfy of internationd Affairs, p279

(٩٦) يعقوب: **ملوك شبه الجزيرة**، ص٢٦٣-٢٨٤؛ الريحاني: **ملوك العرب**، ج١، ص١٧٤؛ سالم: **تكوين اليمن**، ص٢١٧.

(٩٧) خودا: **الاستعمار البريطاني وتقسيم اليمن**، ص١١٣-١١٤؛ الوشلي: **نشر الثناء الحسن**، ص١٩٩؛ أحمد شرف الدين: **اليمن عبر التاريخ**، ص٢٧٥.

(٩٨) .خودا: **الاستعمار البريطاني**، ص٦٩-٧٣؛ أمين سعيد: **اليمن**، ص٦٢؛ ماكرو: **اليمن والغرب**، ص١١٤-١١٥.

(٩٩) .خودا: **الاستعمار البريطاني**، ص ٦٩-٧٣؛ يعقوب: **ملوك شبه الجزيرة**، جـ، ص٣١٠.

(١٠٠)صالحية: **سيرة الإمام يحيى**، ص٢٧١-٢٧٢؛ ماكرو: **اليمن والغرب**، ص١٠٩.

(١٠١)Toynbee; Surfy of internationd Affairs., p279 خودا **الاستعمار البريطاني وتقسيم اليمن**، ص٧٥-٧٧؛ سالم: **تكوين اليمن**، ص٢٧٠-٢٧٣؛ ماكرو: **اليمن والغرب**، ص٦١٣؛ انطونيوس: **يقظة العرب**، ص٤٤٩.

(١٠٢)نواحي التسع: تقع شرق سنجق تعز في الجنوب الشرقي لسنجق صنعاء، وتشرف على البحر العربي وخليج عدن لذلك،فإنها تتمتع بأهمية استراتيجية كبيرة أنظر: عبد الكريم علي العزيز: **التشكيلات المركزية العثمانية**، ص١٧٨.

(١٠٣)Toynbee: Surfy of internationd Affairs., p27 ؛ غرايبة: **مقدمة تاريخ العرب**، ص٣٠٨، الريحاني: **ملوك العرب**، ج١، ص١٧٤؛ سالم: **تكوين اليمن**، ص٢٧٠؛ العرشي: **بلوغ المرام**، ص٩٣؛ محمود كامل المحامي: **اليمن شماله وجنوبه تاريخه وعلاقاته الدولية**، بيروت، ١٩٦٨، ص٢٥٢.

(١٠٤)Toynbee: Surfy of internationd Affairs P320-32 ؛ أباظة: الحكم العثماني، ص٤١٦-٤٢٢.

(١٠٥)الريحاني **ملوك العرب** ج١، ص١٧٤، يعقوب: **ملوك شبه الجزيرة**، جـ١، ص٣٣١.

(١٠٦)سالم: **تكوين اليمن**، ص٢٧٤-٢٧٥.

(١٠٧)الجرافي: **المقتطف من تاريخ** اليمن، ص٢٩٨.

(١٠٨)الريحاني: **ملوك العرب**، ج١، ص٣٠١-٣٠٢.

(١٠٩)الريحاني: **ملوك العربن** ج١، ص٢١٠؛ خترش: **تاريخ العلاقات السعودية-اليمنية**، ص١١٦.

(١١٠)الريحاني: **ملوك العرب**، ج١، ص٢٩٧.

(١١١)المرجع نفسه، ص١٥٢.

(١١٢)علي الإدريسي، ولد في دنقله في السودان سنة ١٩٠٤، والدته مريم بنت هارون شيخ الطريقة لاحمدية، تلقى تعليمه في صبيا، استلم الحكم سنة ١٩٢٣، وعمره لا يتجاوز سبعة عشر عاماً. انظر العقيلي: **المخلاف السليماني**، ج٢، ص٨٥٠.

(١١٣)الجرافي: **المقتطف من تاريخ اليمن**، ص٣٠٤؛ العقيلي: **المخلاف السليماني**، ج٢، ص٨٥

(١١٤)العقيلي: **المخلاف السليماني**، ج٢، ص٨٥٥-٨٦٠..

(١١٥)خترش: **تاريخ العلاقات السعودية - اليمنية**، ص٧٥؛ العقيلي: **المخلاف، السليماني**، ج٢، ص٨٦٧-٨٦٨

(١١٦)أم القرى(جريدة تصدر مرة في الاسبوع من مكة المكرمة، المدير المسؤول يوسف ياسين، السنوات ١٩٢٥-١٩٢٦م، ع١٨، ١٧ نيسان ١٩٢٥، ص٣.

(١١٧)خترش: المرجع نفسه، ص٨١-٨٢.

(١١٨)العقيلي: **المخلاف المسلماني**، ج٢، ص٨٧٦.

(١١٩)خترش: المرجع نفسه، ص٨١.

(١٢٠)خترش: المرجع نفسه، ص٨٢-٨٣.

(١٢١)خترش: المرجع نفسه ، ص٨٣.

(١٢٢)خترش: المرجع نفسه ص٨٧.

المصادر والمراجع

أ- الوثائق غير المنشورة (الأجنبية):

F.O 882/10

F.O 552/10

F.O 271/2140

F.O 371/27/09

F.O 10/16/5

ب_ المصادر الأجنبية(الوثائق الأجنبية المنشورة):

- Arabian Boundaries: Primary Document 1853-1957, Editors Richard Schopield and Gerald Blake Archive Edition .

- The Arab bulletin, the Bulletin of The Arab Bureau in Cairo.

- Military Hand book of Arabia 1913, 1917, Volume II, The Arab Bureau Hand Books of Hejaz Asir, Yemen, 1917, Archive Edition, 1988, cairo, first edition.

- Aronold Toynbee:Surfy of internationd Affairs, 1925, V.1, London, 1927.

- David Holden and Richard Johns; The House of Saud, The Rise and Rule

of the powerful Dynasty in the Arab World, New York, 1981.

- David George Hogarth: A History of Arabia, Oxford University Press, London, 1921.

- GORG Troller: The Birth of Sudia Arabia, Houes,f Saud, London.

- John Philby: Saudi Arabia, Beirut,1968.

- Sheik Muhammad Iqbal: Emergence of Saudi Arabia, Study of Abd Al-Aziz Ibn Saud, (1901-1953), Kashmir, Saudiyah Publishers,1977.

جـ - المصادر:

- إبراهيم الحفظي: تاريخ عسير رؤية تاريخية خلال خمس قرون، تحقيق محمد بن مسلط بن عيسى الوصال البشري، ط٥.
- أحمد بن السيد زيني دحلان: أمراء البلد الحرام، بيروت، ١٩٨١.
- أحمد شرف الدين: اليمن عبر التاريخ من القرن الرابع عشر قبل الميلاد إلى القرن العشرين،ط١، ١٩٦٣
- اسماعيل بن محمد الوشلي التهامي: نشر الثناء الحسن المنبئ ببعض حوادث الزمن من الغرائب الواقعة في اليمن، (تهامة- المخلاف ١٨٦٨-١٩٣٨) ، ط١، ١٩٨٢.
- أمين الريحاني:
  ١. فيصل الأول، بيروت، ط١، ١٩٣٤.
  ٢. تاريخ نجد الحديث وملحقاته، ط٣، بيروت، ١٩٦٤.
  ٣. ملوك العرب، ط٣، بيروت، ١٩٥٨.
- أمين سعيد:
  ١. اليمن تاريخه السايسي منذ استقلاله في القرن الثالث الهجري، القاهرة، ط١.
  ٢. تاريخ الدولة السعودية، مطبعة كرم، بيروت.
- شرف بن عبد المحسن البركاتي: الرحلة اليمانية لصاحب الدولة أمير مكة المكرمة الشريف حسين باشا وأعماله في محاربة الإدريسي مع جغرافية البلاد العربية وأسماء قبائلها، ط٢، مطبعة بيروت.

- عبد الله بن علي بن مسفر: السراج المنير في سيرة أمراء عسير، ط١، ١٩٧٨.
- عبد الكريم بن أحمد المطهر: سيرة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين، المسماة كتيبة الحكمة في سيرة إمام الأمة ، ج١،دراسة وتحقيق محمد عيسى صالحة، دار البشير، ط١، ١٩٩٨.
- عبد الكريم غرايبة: قيام الدولة السعودية، قسم البحوث والدراسات التاريخية والجغرافية، ١٩٧٤.
- عبد الله بن عبد الكريم الجرافي: المقتطف من تاريخ اليمن، ط١، بيروت، ١٩٨٧.
- عبد الواسع بن يحيى الواسعي اليماني: تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن، ط١، ١٩٩١.
- محمد بن أحمد العقيلي:

١. تاريخ المخلاف السليماني، راجعه وأشرف على طبعه حمد الجاسر، ط٢، ج١.

٢. المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، مقاطعة جازان، المخلاف السليماني، ج١، الرياض، ١٩٨٩.

- هارولدوف يعقوب: ملوك شبه الجزيرة العربية (بداية الحكم التركي ونهايته في شبه جزيرة العرب، ترجمة أحمد المضواحي، ج١.
- هاشم بن سعيد النعيمي: تاريخ عسير في الماضي والحاضر، الرياض، ج١.

د- المراجع :

- أحمد حسين شرف الدين: اليمن عبر التاريخ، ط١، ١٩٦٧.
- أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، ط٢، بيروت، ١٩٨٦.
- أحمد فائد الصائدي: حركة المعارضة اليمنية في عهد الامام يحيى بن محمد حميد الدين ١٩٠٤- ١٩٤٨، ط١، صنعاء.
- أحمد محمد بن بريك: اليمن التنافس الدولي في البحر الأحمر ١٨٦٩-١٩١٤، ط١، ٢٠٠٠.
- اريك ماكرو: اليمن والغرب، نقله إلى العربية وعلق عليه: حسين عبد الله العمدي، ط٤، دمشق، ١٩٨٧.
- انريكو انسباتو كارلوفوني بورشيناري: العلاقات العربية الايطالية ١٩٠٢-١٩٣٠، ترجمة عمر الباروني، منشورات مركز جهاد الليبيين، ١٩٨٠.
- توفيق علي برو: العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨-١٩١، القاهرة، ١٩٦٠.
- جورج أنطونيوس: يقظة العرب وتاريخ حركة العرب القومية، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، دار العلم للملايين، ط٨، ١٩٨٧.
- حافظ وهبه: جزيرة العرب في القرن العشرين، ط٤، القاهرة، ١٩٦١.
- حنان سليمان ملكاوي: العلاقات بين أمراء الإدارسة في عسير وأشراف مكة ١٩٠٨-١٩٢٥، منشورات لجنة تاريخ الأردن، عمان، ط١، ١٩٩٧م.
- خير الدين زركلي: شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز، ط١، ١٩٧٠.
- زاهية قدورة: شبه الجزيرة العربية وكياناتها السياسية، بيروت، ط١.

- سليمان شفيق: بلاد العرب، مجلة العرب، ج١.

- سليمان موسى: المراسلات التاريخية ١٩١٤-١٩١٨، م١، عمان، ١٩٧٣.

- صلاح الدين المختار: تاريخ المملكة العربية السعودية ماضيها وحاضرها،ط١، بيروت، ١٩٧٥.

- عبد الكريم علي عزيز: التشكيلات المركزية العثمانية والادارة المحلية في اليمن ١٨٥٠-١٩١٨، ط١، ٢٠٠٣.

- عبد الله بن الحسين: الآثار الكاملة، ط٢، بيروت، ١٩٧٩.

- عزيز برديف خودا: الاستعمار البريطاني وتقسيم اليمن، دار التقدم، موسكو، ١٩٩٠.

- فاروق عثمان أباظه:

١. الحكم العثماني في اليمن ١٨٧٢-١٩١٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦.

٢. سياسة بريطانيا في عسير خلال الحرب العالمية الأولى

- فتوح عبد المحسن الخترش: تاريخ العلاقات السعودية- اليمنية ١٩٢٦-١٩٣٤م، الكويت، ط١، ١٩٨٣.

- لوتسكي: تاريخ الأقطار العربية الحديث، ترجمة عفيف البستاني، ط٧، بيروت، ١٩٨٠.

- محمد أنيس: الدولة العثمانية دار المشرق العربي، ط١، القاهرة.

- محمد علي حداد: التاريخ العام لليمن(اليمن المعاصر)، ط١،١٩٨١.

- محمود شاكر: شبه جزيرة العرب، عسير، ط٢، المكتب الإسلامي.

- محمود كامل المحامي: اليمن شماله وجنوبه تاريخه وعلاقاته الدولية، بيروت، ١٩٦٨.

- مصطفى سالم:

١. تكوين اليمن الحديث واليمن والامام يحيى ١٩٠٤- ١٩٤٨، ط٢،جامعة عين شمس، ١٩٧١.

٢. وثائق يمنية، دراسة وثائقية تاريخية.

- مكي شبيكة: العرب والسياسة البريطانية في الحرب العالمية الأولى، القاهرة، ط١، ١٩٧٤.

- نجدة فتحي صفوة: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، م١، ع٩، ١٩١٥، م٢، ١٩١٦-١٩١٨.

مشاريع حل القضية الفلسطينية، وأزمة النظام السياسي الفلسطيني ١٩٦٥-٢٠١٠م

الدكتور محمد حسون
كلية العلوم السياسية
جامعة دمشق

مقدمة:

في العقود التي واكبت (النظام السياسي الفلسطيني) ممثلاً بمنظمة التحرير الفلسطينية توالت المبادرات والمشاريع والرؤى والأفكار التي تحاول أن تطرح حلولاً للقضية الفلسطينية التي اصطلح على تسميتها بعد عدوان حزيران ١٩٦٧م (الصراع العربي ــ الصهيوني) وهذا الكمّ من المشاريع والأفكار كان على الدوام يتحرك منطلقاً من اتجاه واحد، أعني من جهة العرب والفلسطينيين، دون أن نشهد، ولو لمرَّة واحدة، مبادرة أو مشروعاً «إسرائيلياً» جديّاً، باستثناء مشروع (الوطن البديل)، وما سوى ذلك لم يطرح أي مشروع إسرائيلي واحد حقيقي وجدّي، وكل ما قيل ويقال منذ مؤتمر مدريد في عام ١٩٩١م وما قبله وإلى اليوم ليس سوى محاولة «إسرائيلية» لكسب الوقت وتخدير الطرف الفلسطيني والعربي، ريثما يتم استكمال إحكام القبضة ««الإسرائيلية»» على بقية الأرض في سياق مشروع التهويد.

والذين تبنوا هذه المشاريع (وهنا يأتي الحديث عن النظام السياسي الفلسطيني) كانوا ولا يزالون يراهنون على الموقف (الأمريكي ــ الإسرائيلي) وتجاهلوا عن عمدٍ ماهية الكيان الصهيوني نشأةً ووظيفة وإيديولوجيةً تربطه بالدور الاستعماري الأمريكي ــ

الغربي في المنطقة، وفي دائرة صنع القرار في الولايات المتحدة الأمريكية نفسها، وليس من المبالغة الحديث عن ارتباط بعض هؤلاء (وجوداً واستمراراً) بمثل هذه المشاريع، وهذه بعض وجوه أزمة النظام السياسي الفلسطيني، وهؤلاء لم يكلِّفوا أنفسهم البحث عن جواب السؤال الملح وهو: كيف يمكن تمرير أو فرض هذه المشاريع (الحلول) على الطرف الآخر (الأمريكي – الإسرائيلي)؟ وما البدائل فيما لو فشلت هذه المشاريع (وهي قد ثبت فشلها)؟ وهل يعني فشلها بالضرورة فشل تجربة الحركة الوطنية الفلسطينية ونظامها السياسي؟ وهل سبب هذا الفشل خلل في البرنامج الوطني الذي وجهت إليه اتفاقات أوسلو ضربة قاضية؟ أم هو فشل في أدوات وأساليب النضال؟ أم أن الفشل يكمن في طبيعة قوى الحركة الوطنية؟

في هذه الدراسة سنتناول مشاريع حل القضية الفلسطينية. وكيف تعاطى النظام السياسي الفلسطيني معها، ونتائج هذه المشاريع، وآثارها على الحالة الفلسطينية برمتها، وما إذا كان النظام السياسي الفلسطيني لا يزال قادراً على تجاوز أزمته، واستعادة دوره النضالي التحرري بعد كل هذه الإخفاقات والأزمات التي يعيشها.

أهمية البحث:

في الوقت الذي برهنت فيه الأحداث على فشل كافة المشاريع المطروحة لتسوية القضية الفلسطينية، وكذلك فشل النظام السياسي الفلسطيني في الاحتفاظ بدوره النضالي التحرري [illegible]

هدف البحث: يهدف البحث إلى كشف حقيقة مشاريع الحل لدى الجانب الفلسطيني والظروف التي قادت إليها، والدور الذي مارسه النظام السياسي الفلسطيني وطبيعة تعاطيه مع هذه المشاريع، وإلى أين وصلت؟ وأوصلت معها القضية الفلسطينية، وطرح رؤية للخيار البديل.

إشكالية البحث:

لا يزال (النظام السياسي الفلسطيني) ممثَّلاً بما تبقى من منظمة التحرير الفلسطينية المصادرة من قبل فريق فلسطيني معروف بسلوكه السياسي المتماهي مع الرؤية الأمريكية لخارطة (الشرق الأوسط الجديد) يراهن على إمكانية التوصل عبر رؤيته السياسية إلى تسوية يمكن أن ينشأ عنها (دولة فلسطينية) في حدود الرابع من حزيران ١٩٦٧م، وقد قام هذا النظام السياسي بالتنكر لمشروع المقاومة في سبيل إقناع الطرف الأمريكي ــ الإسرائيلي بنهجه التسووي.

وعلى الرغم من النتائج الكارثية التي ألحقها هذا النهج بالقضية، إلا أنّ هذا الفريق لا زال يكابر، ويصر على تمسكه بهذا المشروع الفاشل، وهو لا يكتفي بذلك، بل يسعى إلى فرض رؤيته وشروره على الشعب الفلسطيني، في عملية تزييف وخداع مكشوفة، يدعمه الخداع الإعلامي [illegible].

فرضية البحث:

[illegible] مشاريع حل القضية الفلسطينية في ظروف [illegible] الكنيست [illegible] ١٩٤٨م وكلها كانت [illegible] جامعة الدول العربية [illegible] الصراع. فهل تحقق من هذه المشاريع ما ينبغي [illegible] الفلسطينية؟

٢- انشغل (النظام السياسي الفلسطيني) بهذه المشاريع، وهو ما انعكس على بنيته ووظيفته وحتى على شرعيته، فهل لا يزال هذا النظام ببنيته الراهنة وبرنامجه الراهن وفي ظل أزماته قادراً على حمل المشروع الوطني والحفاظ عليه؟ أم أن واقع الحال يشير إلى غير ذلك؟

منهجية البحث:

بما أن البحث يتناول مشاريع الحلول ودور النظام السياسي الفلسطيني منها فقد كان لزاماً اعتماد المنهج التاريخي القائم على التحليل العلمي الذي تناول هذه المشاريع وموقع منظمة التحرير الفلسطينية منها في سياق التحول التاريخي لهذه المنظمة وما طرأ على برنامجها السياسي من تحولات في ضوء قراءة تحليلية للأحداث.

تقسيم البحث:

يقسم البحث إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة.

يتناول المبحث الأول: مشاريع الحلول التي شهدتها القضية والظروف التي أفرزتها ونتائجها وآثارها على القضية الفلسطينية وعلى النظام السياسي الفلسطيني.

ويتناول المبحث الثاني: النظام السياسي الفلسطيني ممثلاً بـ (منظمة التحرير الفلسطينية) وكيف تعاطت مع مشاريع الحلول والأزمة التي تعيشها ومحاولة طرح خيار الخروج من هذه الأزمة.

المبحث الأول: مشاريع الحلول لدى الجانب الفلسطيني

شهدت خمسينيات القرن العشرين وستينياته نوعاً من الثبات الفلسطيني على أطروحات ما قبل النكبة[١]، أما سبعينيات القرن العشرين وثمانينياته، فقد شهدت سجالاً وصراعاً بين خطيَّن فكرييَّن: الأول المتمسك بالثوابت وأطروحات ما قبل النكبة. والثاني يطالب

بالتعاطي مع المستجدات الراهنة وينشد تسوية تقوم على أساس قرارات الشرعية الدولية ذات الصلة بقضية فلسطين(٢). ومع هذا فإنَّ هزيمة ١٩٦٧ أيقظت الشعور الوطني الفلسطيني أكثر، ونبهته إلى ضرورة إحياء الهوية الوطنية الفلسطينية التي عانت من الإلغاء الإسرائيلي والاحتواء العربي.

ثم جاءت حرب تشرين ١٩٧٣م ونتائجها السياسية لتكون المحطة التي شهدت غلبة التيار المنادي بالتسوية السياسية، لاسيما وأنها قد سبقت بمشروع (المملكة العربية المتحدة) الذي أعلنه الملك حسين في آذار/ ١٩٧٢م، وهو ما دفع بعض القيادات الفلسطينية المتنفذة للمضي في مشاريع التسوية مخافة تجاوزها، وما كان يتحدث عنه في الخفاء صار معلناً، وبات من يقاوم دعوات التسوية ومشاريع الكيانات الافتراضية متهماً بالخروج عن الإجماع الوطني وعن شرعية منظمة التحرير الفلسطينية، والمتابع لهذه المشاريع يجد أن الكيان الصهيوني وحليفه الأمريكي والأوروبي لم يتقدموا بطرح أي مشروع حقيقي وجدي لتسوية القضية، ولو بالحد الأدنى من الحق الفلسطيني المشروع، واكتفوا إمَّا بإدارة الظهر لهذه المشاريع أو بالعمل على إدارتها في عملية تفاوضية لا مرجعية لها، ولا سقف زمني، ولا آليات: وكأنَّ التفاوض قد صار هدفاً بذاته. ونستعرض هنا أهم هذه المشاريع.

المطلب الأول: مشروع الدولة الديمقراطية العلمانية:

كانت بداية هذا المشروع فكرة انبعثت من خلال شهادة الفلسطيني (سامي طه) التي أدلى بها في عام ١٩٤٦م أمام لجنة التحقيق البريطانية ــ الأمريكية التي توجهت إلى فلسطين في ذلك العام، وأصبحت على رأس توصيات تلك اللجنة التي قدَّمتها إلى الحكومتين المعنيتين، وكانت خلاصة الشهادة تقترح حلاً للنزاع بإقامة دولة واحدة ديمقراطية لسكان فلسطين الفعليين على قاعدة المساواة دون تفرقة بسبب العرق أو الدين.. الخ وهو ما أصبح معروفاً بـ (مشروع الدولة الديمقراطية العلمانية وكذلك

طرح المشروع من الحزب الشيوعي في فلسطين المحتلة منذ حرب عام ١٩٤٨م وما يزال يتبناه إلى الوقت الحاضر. كما تبنّت حركة فتح هذه الفكرة للإجابة على سؤال عن مشروعها السياسي، وطرح «نبيل شعث» هذه الفكرة للمرة الأولى في كلمة ألقاها في جلسة افتتاح مؤتمر «نصرة الشعوب العربية» الذي نُظِّم بمبادرة مشتركة بين حركة عدم الانحياز والمجلس العالمي للسلام في أواخر عام ١٩٦٧م في العاصمة المصرية القاهرة.

ثم أعيد طرح الفكرة من قبل صلاح خلف (أبو إياد) الشخصية المهمة في حركة فتح في مؤتمر صحفي عقده في ١٠/ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٨، وأعلن فيه بأنَّ هدف الفلسطينيين الاستراتيجي هو دعم إنشاء دولة ديمقراطية على امتداد فلسطين التاريخية يعيش فيها العرب واليهود في وفاق كمواطنين على قدرٍ كامل من التساوي. وقد تبنّى المجلس الوطني الفلسطيني الخامس (١-٤ شباط ـ فبراير/ ١٩٦٩م) هذا الهدف الاستراتيجي[٣].

وقد انتشرت هذه الفكرة لدى قاعدة حركة (فتح) التي قادت منظمة التحرير الفلسطينية والنظام السياسي الفلسطيني منذ عام ١٩٦٨م، وخاصة بعد طرح الملك حسين مشروع (المملكة العربية المتحدة) في ١٥/ آذار/ مارس/ ١٩٧٢م، وهو ما قاد منظمة التحرير الفلسطينية بعد ذلك إلى تبنِّي مشروع النقاط العشر أو (البرنامج المرحلي) الذي طرحته الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ثم تبنته حركة (فتح) ومنظمتا الصاعقة، وجبهة التحرير العربية ورفضته الفصائل التي ألّفت «جبهة الرفض» وضمّت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، والجبهة الشعبية، القيادة العامة، وجبهة التحرير الفلسطينية، وجبهة النضال الشعبي، وتسبَّب هذا المشروع في انشقاق سياسي داخل النظام السياسي الفلسطيني ظل يتفاعل بعد ذلك وخاصة على الساحة اللبنانية.

المطلب الثاني: مشروع الاتحاد الكونفدرالي:

يتحدث المشروع عن اتحاد كونفدرالي يضم كلاً من فلسطين الانتدابية (الضفة + غزة + أراضي ١٩٤٨ «إسرائيل» مع شرقي الأردن (المملكة الأردنية الهاشمية)، وقد ظهر هذا المشروع عقب خروج قوات منظمة التحرير الفلسطينية من الساحة اللبنانية في أواخر عام ١٩٨٣[٤].

ويرى دعاة هذا المشروع وهم مجموعة من النخب السياسية الفلسطينية، وعلى رأسهم خالد الحسن عضو اللجنة المركزية لحركة فتح السابقة أن هذا الحل وحده هو الكفيل بحل كافة قضايا الصراع، ويضربون على ذلك مثلاً بقضية اللاَّجئين التي ستتحول في سياق هذا الحل من مشكلة جماعية إلى مشكلة أفراد، ولتحقيق ذلك لابد من تنفيذ قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم (١٩٤) لعام ١٩٤٨م الذي يعطي الفلسطيني حرية الاختيار بين العودة أو التعويض، ويرون أن تأمين مثل هذه الحرية في الاختيار ينقل الطبيعة الجماعية لمشكلة اللاجئين إلى طبيعة فردية.

كما يرون أن الاعتراضات الصهيونية التي تقول إن السَّماح بعودة اللاجئين يعني القبول بالزوال التدريجي للغالبية اليهودية الحاسمة في دولة «إسرائيل»، وهو ما يتناقض مع الإيديولوجية الصهيونية، وسيؤدي في النهاية إلى تدمير الكيان الصهيوني ذي الغالبية اليهودية والطبيعة الصهيونية، بل إن «إسرائيل» ترفض حتى عودة لاجئي عدواني ١٩٥٦ و١٩٦٧م إلى الضفة وغزة والقدس بحجة أن الانفجار السكّاني الفلسطيني سيكون هو الأخطر على يهودية الكيان الصهيوني وأمنه، ويرى أصحاب هذا المشروع أن هذه الاعتراضات ستنتهي بتطبيق الكونفدرالية وفق النموذج السويسري المتميز بالكانتون الذي لن يهدد النمطية المجتمعية الصهيونية/ اليهودية، لأن عودة اللاجئ الفلسطيني إلى بيته أو بلدته يجعله كأي مواطن آخر في الكونفدرالية يمتلك حق اختيار مكان الإقامة والعمل وحرية التنقل بما يتفق مع مصالحه وآماله

المستقبلية، وفي أي مكان في الاتحاد، وتتم عملية التصويت السياسي للبرلمان أو البلديات في الكانتون الذي سينتمي إليه.

أما بالنسبة للفلسطينيين المقيمين في الأردن، فإن الحل الكونفدرالي على النمط السويسري الذي يتميز بالكانتون كوحدة سياسية سيعفي الفلسطيني الذي يقرر البقاء حيث هو من العبء النفسي في تحدي الاختيار بين الهوية الأردنية حيث مصالحه، والهوية الفلسطينية حيث تلبي حاجاته العاطفية والوجدانية، فكل المواطنين في الاتحاد سيحملون جنسية واحدة هي جنسية الاتحاد. ويرون أن هذا الحل يشمل أيضاً اللاجئين الفلسطينيين المقيمين في البلدان العربية.

كما يرون أن مشكلات المياه والحدود والاقتصاد ومشكلة الاقتصاد، ستحل فيما بعد وفق منهجية أن هذه المشكلات لن تبقى مشكلات حادة ومعقدة باعتبارها صراعاً بين دول وأعداء، تحكمهم منطلقات السيادة للدولة، وإنما تتحول إلى مشكلات مجتمع واحد، وقضايا دولة واحدة، يتم حلها بوسيلة العلم والتنمية وليس بالانتصار المسلح.

وأما بالنسبة للكرامة والثقافة الوطنية، فإن الكانتونات، وبحسب النخب السياسية في (منظمة التحرير الفلسطينية) تقدم حلاً راديكالياً يشمل مشكلة اللغات أيضاً، وأي استعراض للوضع في سويسرا يوضح ذلك، فالاتحاد هناك يقوم بين فرنسيين وألمان وإيطاليين وسويسريين ومع ذلك تتعايش اللغات.. الخ.

ويرى هؤلاء أن مشكلة الأمن ستتحول وفق الكونفدرالية على النمط السويسري من مشكلة بين دولتين أو أكثر لتصبح مسألة داخلية عادية كما هي في الدول الأخرى العادية.

ويذهبون أخيراً إلى أن مشروع الكونفدرالية المذكورة يجب أن يتم بمقتضى روحية وتوجيه الشرعية الدولية التي تشمل كل قرارات الأمم المتحدة المتصلة بالمسألة

الفلسطينية وبالتطبيق الحرفي لها، وذلك بدءاً من قرار التقسيم رقم (١٨١) المتخذ عام ١٩٤٧ وما بعده حتى الآن[٥].

وهذا المشروع لم يلق اهتماماً كبيراً في حينه من جانب النظام السياسي الفلسطيني لما كان يمكن أن يترتب عليه من مواقف من الجانب الأردني الذي يرى فيه مقدمة لتغييرات جذرية في بنيته نظراً للوجود الفلسطيني الكبير شرقي الأردن كما أن تاريخ العلاقة (الأردنية ـ الفلسطينية) على المستوى الرسمي لا يحتمل هزّات بحجم هذا المشروع، لاسيَّما أن أحداث أيلول/ سبتمبر ١٩٧٠م لا زالت ماثلة للعيان.

إضافة إلى أن «إسرائيل» فيها (وهم الأغلبية) من يتبّنى فكرة (الوطن البديل) بمعنى أن يكون الأردن وطناً للفلسطينيين على حساب الأردن، أو (الخيار الأردني) وهو إلحاق فلسطين بالأردن بحيث يحكم الأردنيون الفلسطينيين على حساب حقهم في الدولة والكيان فوق أرضهم، وهذا ما يلاحظ في التعامل الإسرائيلي مع القضية الفلسطينية، حيث تسعى «إسرائيل» إلى حذف واحد من الكيانات المفترضة غربي وشرقي نهر الأردن أي (الكيان الإسرائيلي، الكيان الأردني، والكيان الفلسطيني) وذلك من خلال دمج الكيانين الأردني والفلسطيني في كيان واحد، وليس لدى «إسرائيل» مانع من قبول فكرة الوطن البديل أو الخيار الأردني، وهذا ما دعا مؤخَّراً اللجنة الوطنية للمتقاعدين العسكريين في الأردن لإصدار بيان للأردنيين (الشرفاء) بحسب نص البيان للتحذير من هذه الفكرة ويضعون تصوّراً لطبيعة العلاقات الأردنية ـ الفلسطينية كإجراء وقائي ضد هذه الفكرة[٦].

المطلب الثالث: مشروع البرنامج المرحلي (١٩٧٣-١٩٧٤)م:

جاء هذا المشروع كرد فعل من النظام السياسي الفلسطيني على مشروع (المملكة العربية المتحدة) الذي قَدَّمه الملك حسين عاهل الأردن في ١٩٧٢/٣/١٥م والذي

افترض بموجبه أن تصبح المملكة الأردنية الهاشمية مملكة عربية متحدة، وتُسمَّى بهذا الاسم على أن تتكون من قطرين:

أ- قطر فلسطيني ويتكون من الضفة الغربية وأي أرض فلسطينية أخرى يتم تحريرها ويرغب أهلها في الانضمام إليها.

ب- قطر أردني ويتكون من الضفة الشرقية.

على أن تكون عمَّان العاصمة المركزية للمملكة وفي الوقت نفسه تكون عاصمة لقطر الأردن وتكون القدس عاصمة لقطر فلسطين، وأن يكون الملك هو رئيس الدولة (المملكة) الجديدة كما تحدث المشروع عن السلطات الثلاث القضائية التنفيذية والتشريعية.. الخ.

يقول صلاح خلف الذي كان يعد الرجل الثاني في حركة فتح في هذا الصدَّد:

«المسألة المطروحة اليوم، هي مسألة معرفة ما إذا كنَّا برفضنا لقبول أي شيء آخر غير تحرير فلسطين كاملة، مستعدون لأن نترك جزءاً من تركتنا إلى فريق ثالث؟ وهل من المعقول أن ندع الملك حسين يتفاوض باسم الفلسطينيين؟»(٧) كما أن مشروع (البرنامج المرحلي) جاء في أعقاب حرب تشرين ١٩٧٣ وبدء سريان مفعول سياسة «الخطوة خطوة» و«الاتفاقيات الجزئية المؤقتة» التي رسمها وزير الخارجية الأمريكي الأسبق «هنري كيسنجر» وتبنَّاها الرئيس المصري الراحل أنور السادات ممَّا حفَّز القيادة الفلسطينية المتنفِّذة وشجعها لخوض التجربة آخذة في الاعتبار ميزان القوى المحلي والدولي، ودعوات بعض الأصدقاء في المعسكر الاشتراكي ـ وعلى رأسه الاتحاد السوفييتي للتسوية مع مراعاة المراحل، ومستفيدين من تجارب سبقت وتعاطت مع هذه السياسة ومنها تجربة الزعماء الصهاينة أنفسهم الذين قبلوا قرار التقسيم وإقامة (دولة إسرائيل) على جزء من فلسطين التي كانوا يطالبون بها كلَّها، وكذلك قادة الثورة الفيتنامية الذين قبلوا أثناء مؤتمر جنيف عام ١٩٥٤م تقسيم وطنهم

إلى دولتين بانتظار التغيير في ميزان القوى، ومطالبة من الفلسطينيين أن يتحرروا من عقدة أل «لا» التقليدية في الحركة الوطنية الفلسطينية منذ عام ١٩١٧م وحتى عام ١٩٤٧م. إذ ليس كل «نعم» هي بالضرورة خيانة في حال الاضطرار إلى تنازلات تكتيكية. وتمَّ إقرار البرنامج المرحلي من قبل الدورة الرابعة للجنة المركزية للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين في عام ١٩٧٣م وهي أول من بادر إلى طرحه والدعوة إليه[٨].

وقد تبنَّت كلٌ من حركة «فتح» و«الجبهة الديمقراطية» وتنظيم الصاعقة ـ وتنظيم جبهة التحرير العربية هذا المشروع في حين رفضته باقي فصائل منظمة التحرير الفلسطينية لاعتقاد هذه الفصائل أنَّ هذا المشروع يأتي على حساب الحق الفلسطيني في كل فلسطين باعتباره يؤسس لسلطة وطنية في أي جزء يتم تحريره من فلسطين في الوقت الذي كانت هذه الفصائل ترفع شعار تحرير فلسطين كل فلسطين من النهر إلى البحر دونما تنازل عن أي ذرة تراب من أرض فلسطين.

ويقول صلاح خلف (أبو إياد) معقباً على أحداث الأردن المأساوية (٩٧٠-١٩٧١): «إن الثورة الفلسطينية لا تستطيع الاعتماد على أي بلد عربي لتضمن لنفسها ملاذاً آمناً وقاعدة لعملياتها ضد إسرائيل. فلابد لنا أن نمضي قدماً نحو المجتمع الديمقراطي التعددي الذي نحلم به، وأن نقيم دولتنا الخاصة حتى ولو على بوصة من فلسطين»[٩].

ويقول أصحاب هذا البرنامج: إنهم جاؤوا في فترة بالغة الدقة من تاريخ النضال الوطني الفلسطيني، تزاحمت فيها مشاريع «الكيان الفلسطيني» في سياق سعي بعض الأنظمة العربية لتأهيل نفسها طرفاً مشاركاً في التسويات الثنائية، وهي أيضاً فترة توسطتها حرب تشرين ١٩٧٣م التي لم تَقُد حالة شبه التوازن الناجمة عنها ميدانياً (عسكرياً) إلى نتائج متوازنة سياسياً، حيث أصدر مجلس الأمن في ١٩٧٣/١٠/٢٢م القرار رقم (٣٣٨) الذي يعيد تأكيد الأسس التي تضمنها قراره السابق رقم (٢٤٢)

ويدعو إلى تنفيذها ويحث على الشروع فوراً في (مفاوضات بين الأطراف المعنية تحت الإشراف الملائم بهدف إقامة سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط) وإثر صدور هذا القرار جرت مشاورات أمكن في ختامها الاتفاق على عقد مؤتمر جنيف تحضره الدول العربية المحاربة بالإضافة إلى «إسرائيل» تحت راية الأمم المتحدة، ويرأسه كلٌ من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي وبهذا تحقق (الإشراف الملائم) الذي تحدَّث عنه القرار (٣٣٨)[١٠].

كما أنها تقع في فترة بين مشروع «المملكة العربية المتحدة» الذي يعني مصادرة التمثيل الفلسطيني المستقل وقمة الرباط العربية ١٩٧٤م التي كرَّست وحدانية التمثيل بعنوان «منظمة التحرير» وفتحت الطريق للاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني في محفل الأمم المتحدة في عام ١٩٧٤.

ويقول أصحاب هذا النهج من بعض الفصائل الفلسطينية السابقة الذكر إن هذه الإنجازات أتت كثمرة لتضافر ثلاثة عوامل: حرب تشرين، وصمود المقاومة الفلسطينية، ونهوض الحركة الجماهيرية في الأراضي المحتلة والتفافها حول منظمة التحرير الفلسطينية، والبرنامج السياسي الذي تفاعلت معه هذه الحركة (ويعنون به البرنامج المرحلي) على الرغم من وجود كتلة الرفض في الجهة الأخرى.

ويقولون: إنه للمرة الأولى ينبثق برنامج عن تشخيص دقيق لواقع الشعب الفلسطيني، ويلخصون خطة العمل التي يدعو إليها البرنامج المرحلي على النحو التالي:

«إن على الثورة الفلسطينية أن تركز قواها وتحدد اتجاه ضربتها الرئيسية في المراحل الراهنة باتجاه النضال من أجل تحرير المناطق الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧م (الضفة الغربية وقطاع غزة)، وضمان حرية تقرير المصير للشعب الفلسطيني في هذه المناطق، بمعنى حقه في الاستقلال الوطني والتخلص من الإلحاق والوصاية الهاشمية، إن إنجاز هذا الهدف سوف يعجل نهوض الحركة الوطنية الديمقراطية الموحدة

للشعبين الفلسطيني والأردني في شرق الأردن، ويمكّن من نجاحها في إقامة نظام وطني ديمقراطي. وهذا التطور بدوره سوف يفتح الطريق أمام إعادة وتجديد الوحدة بين الشعبين والضفتين على أسس جديدة، وطنية وديمقراطية، تقوم على المساواة الإقليمية والاختيار الطوعي الحر، وتضمن صيانة الشخصية الوطنية المستقلة للشعب الفلسطيني، ويوفر ذلك الشروط المحلية لقيام قاعدة ارتكاز متينة تتيح تعبئة طاقات الشعب الفلسطيني (وكذلك الأردني بالطبع) لمواصلة النضال المناهض للصهيونية من أجل فلسطين حرة ديمقراطية موحدة يتمتع شعب فلسطين العربي في ظلها بكامل حقوقه القومية في وطنه»(١١).

وعلى الرغم من أن برنامج النقاط العشر المرحلي كان يدعو إلى «إقامة سلطة الشعب الوطنية المستقلة المقاتلة على كل جزء من الأرض الفلسطينية التي يتم تحريرها» إلاّ أنه كان يفسح في المجال أيضاً لقيام القيادة الفلسطينية، بإجراء الاتصالات اللازمة لتحقيق هذا الهدف، وهو ما عبّر عنه البند العاشر إذ ورد: «تضع قيادة الثورة التكتيك الذي يخدم ويمكّن من تحقيق هذه الأهداف».

وكان هذا البند الذي يسمح «بالتكتيك» أي بالاتصالات والإجراءات اللازمة هو جوهر الموضوع الذي تريده القيادة الفلسطينية(١٢).

وقد احتدم السجال في الساحة الفلسطينية حول هذا البرنامج بين مؤيديه ومعارضيه عبر الوسائط الإعلامية وتجدد مع دعوتي وزير خارجية مصر محمد حسن الزيّات في أواسط حزيران/ ١٩٧٣م من نيويورك في مجلس الأمن، وفي أحاديث لاحقة إلى تسوية شاملة لمشكلة الشرق الأوسط تتضمن:

أ١- إقامة دولة فلسطينية في نطاق مشروع التقسيم وبموجب قرار الأمم المتحدة ذي الصلة (١٨١).

ب- يجري التفاوض حول هذه التسوية بين مختلف أطر النزاع.

جـ- إن للفلسطينيين وحدهم إذا شاؤوا أن يقبلوا أو يرفضوا هذا الحل.

وبعد ذلك بأيام قليلة جاءت دعوة الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة[١٣]، وورد فيها:

أ- المطالبة بتسوية تقوم على قرار التقسيم رقم (١٨١).

ب- إقامة دولة فلسطينية تشمل الضفة الشرقية لنهر الأردن إضافة إلى القسم الذي كان من نصيب العرب وفقاً لقرار التقسيم.

وقد سبق للرئيس التونسي السابق "حبيب بورقيبة" أن طرح أثناء جولته في المنطقة عام ١٩٦٥م مسألة الاعتراف بـ «إسرائيل» والصلح معها، وقد ووجه في حينه بالرفض والإدانة.

وقد تذرعت التيارات التي تبنت هذا النهج بالواقعية والعقلانية، ونبذ التزمُّت في نفس الوقت الذي لم يكن معروضاً على المنظمة أي عرض من قبل الكيان الصهيوني أو الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا لتسوية قضية الصراع في الشرق الأوسط.

وازدادت حدة الانقسام في الساحة الفلسطينية التي انقسمت إلى تيارين رئيسيين تيار يجمع القدس والفصائل التي تدعو للتسوية، وتيار آخر معارض ومناقض لهذه الدعوة، وقد أعطى توقيع مصر اتفاقيات كامب ديفيد مع الكيان الصهيوني دفعاً قوياً لتيار التسوية الذي قبل بإقامة الدولة الفلسطينية المنشودة في الضفة وغزة، عبر برنامج النقاط العشر أو كما يُسمَّى رسمياً «البرنامج المرحلي للعمل الوطني» الذي أقرَّه المجلس الوطني الفلسطيني في دورته الثانية عشرة المنعقدة في القاهرة في الفترة ١-١٩٧٤/٦/٨ والذي طوى جملة من الثوابت وفتح الباب واسعاً لطي ثوابت أخرى أقرت في برامج لاحقة صادقت عليها الهيئات الفلسطينية مقابل قرار عربي باعتبار المنظمة هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب العربي الفلسطيني، وقبول المنظمة

بمنزلة عضو مراقب في الأمم المتحدة. وكان الأمر كما وصفه الدكتور طلال ناجي[١٤]:

«فقد بدأت مرحلة المقايضة بعد إقرار البرنامج المرحلي، وهي مرحلة كان لابد لها أن تظهر وتتموضع في النهج والممارسة السياسية والكفاحية، فالحركة الوطنية الفلسطينية، ورغم البهرجة الإعلامية والشعاراتية، وما استثارته من صراعات مسلحة داخلية وفلسطينية وعربية، وصراعات سياسية، لم تكن في حقيقة الأمر، وبمعنى أدق لم ترتق هذه الحركة إلى مستوى قوة تغيير فاعلة، ويمكن وصف هذا الوضع للثورة وقواها بالزائف. إن الوضع الذاتي ورغم قوة مفاعيل عناصره، كانت له كذلك أسباب موضوعية يأتي في مقدمتها التشابك مع النظام العربي الرسمي، الذي مثل الانخراط في لعبة «أخيل»[١٥] للثورة الفلسطينية، وقد حل هذا التشابك المعقد، خاصة في جزئه العلني في قمة الرباط عام ١٩٧٤م حيث قبلت منظمة التحرير الفلسطينية «أي الثورة» أن تكون الشريك الصغير في «اللعبة»[١٦].

المطلب الرابع: مشروع الدولتين:

يقوم المشروع كما تصورته القيادة الفلسطينية وعلى رأسها الراحل ياسر عرفات ومحمود عباس رئيس السلطة الفلسطينية الحالي على مبدأ الفصل بين (دولة إسرائيل) والدولة الفلسطينية المفترضة على أساس قرار مجلس الأمن الدولي رقم (٢٤٢)، أي انسحاب «إسرائيل» من الضفة وغزة، وهو يشمل الفصل المادي والإقليمي والقومي، بحيث تقام دولة فلسطينية في (الضفة والقدس الشرقية وغزة) تكون مستقلة وقادرة من موقع الاختيار الحر على إقامة علاقات طبيعية مع دول المنطقة بما فيها «إسرائيل».

تمثل هذه الرؤية الدليل لدعاة نهج التفاوض سبيلاً أوحداً لتسوية الصراع، وفي المقابل ينقسم الجمهور (الإسرائيلي) بالنسبة إلى موقفه من هذه المسألة:

فمنهم من يؤيِّد فصلاً كاملاً، ويؤيد قيام دولة فلسطينية محدودة الأرض والسيادة، ويرون في هذا مصلحة كبرى لـ «إسرائيل» التي تعيش هاجس القنبلة الديمغرافية الفلسطينية، ومن هؤلاء (حزب العمل) الذي ألغى من دستوره الاعتراض على قيام دولة فلسطينية و«تيسيفي ليفني» زعيمة حزب (كاديما) هي الأخرى تنظر لهذا الحل وتعدّه الأفضل والأقل خطراً على «إسرائيل»، وذلك مقابل حل الدولة الديمقراطية لكل مواطنيها.

إنّ غالبية الإسرائيليين يرغبون في الخروج من الصراع وترك الفلسطينيين يعالجون مشكلاتهم ويديرون أمورهم بعيداً عن أية التزامات إسرائيلية مع احتفاظ «إسرائيل» في الوقت نفسه بالسلطة المطلقة على الأمن والشؤون الخارجية، وكذلك الاحتفاظ بالقدرة الدائمة على تهديد الفلسطينيين، وإطلاق اليد «الإسرائيلية» في الإغلاق، والاجتياح والضربات (الوقائية) والمطاردة، وبأية إجراءات عقابية تراها «إسرائيل» مناسبة ضد الفلسطينيين[١٧].

واقع الأمر أنّ مشروع الدولتين وفق (رؤية بوش) إنما هي دعوة إلى إعادة صياغة الحقوق الفلسطينية المشروعة وغير القابلة للتصرف لتنسجم مع المصالح «الإسرائيلية»، بحيث يعطى الفلسطينيون (كياناً) أو (دولة) وفقاً للمقاييس «الإسرائيلية» تكون فاقدة للاستقلال والسيادة وتكون (وطناً قومياً للفلسطينيين) دون أن يكون لهم الحق في تقرير مصيرهم، وهو المصطلح الذي عرف بـ (الأرض مقابل السلام) أو (الحكم الإداري الذاتي المحدود).

وبحسب الكاتب الأمريكي «ستيفن وولت» فإن حلَّ الدولتين لابد من تطبيقه بطريقة تحمي «إسرائيل» من الهجمات الناجمة من أراضي دولة فلسطين الجديدة، فلا يمكن لأية دولة أن تتوقّع الأمان المطلق، وبطبيعة الحال فإن الإسرائيليين يريدون التأكد من أن دولة فلسطين لن تصبح معقلاً للهجمات الإرهابية المكثفة ضد إسرائيل»[١٨].

ومع هذا فإن غالبية الإسرائيليين لا تقبل هذا الطرح، ولا ترى الحل إلاَّ من خلال فرض مشروع (الوطن البديل) وهو الذي يتضمن مشروع (الترانسفير) الذي يعد المشروع الصهيوني الوحيد تجاه الفلسطينيين بحيث لا يتواجد من النهر إلى البحر سوى اليهود فقط فـ «إسرائيل» غير مستعدة حتى لتقديم الحد الأدنى من الحقوق الفلسطينية التي يطالب بها فريق (التسوية) الفلسطيني وموقفها هذا غير قابل للتطور أو التغيير، وبالعكس فإن المجتمع الإسرائيلي يجنح بشدة نحو التطرف مما يباعد كل يوم إمكانية هذه التسوية.

ورأت دراسة أعدها «معهد بيغن ـ السادات للدراسات الاستراتيجية في إسرائيل» أن التوصل إلى اتفاق سلام إسرائيلي ـ فلسطيني لا يبدو أمراً ممكناً في المستقبل، وفي رأي كاتبها «غيورا آيلان» الذي شغل منصب رئيس مجلس الأمن القومي في الكيان الصهيوني، أن مشروع الدولة الفلسطينية كما هو مطروح في حل الدولتين غير قابل للحياة، ما يستدعي البحث عن بدائل أخرى، مثل الحل الكونفدرالي وتبادل الأراضي»(١٩).

وبالرغم من كل هذه الحقائق المدعومة بالسلوك الإسرائيلي المستمر في مصادرة الأراضي الفلسطينية وعمليات التهويد وبناء المستوطنات إلاَّ أن قيادة منظمة التحرير الفلسطينية لا تزال تصطدم بجدار الصد الإسرائيلي وتراهن على إمكانية التوصل إلى حل (الدولة الفلسطينية)!؟!

المطلب الخامس: اتفاق أوسلو والنظام السياسي الفلسطيني:

في مؤتمر مدريد للسلام لم يلاحظ تمثيلاً فلسطينياً مستقلاً، بل كان ضمن وفد أردني ـ فلسطيني مشترك، إضافة إلى أن التمثيل الفلسطيني قد اقتصر على فلسطينيي الداخل بدون القدس والشتات وبدون أية علاقة معلنة مع منظمة التحرير الفلسطينية ويندرج في إطار الوفد الأردني(٢٠)، وكان هذا الموقف مدخلاً لتقسيم الشعب الفلسطيني

الواحد وإخلالاً بصيغة تعريف الفلسطيني على المستوى الحقوقي. وتخلياً عن كون منظمة التحرير الفلسطينية ممثلاً شرعياً ووحيداً للشعب الفلسطيني، وفي ١٣ أيلول ١٩٩٣م تم التوقيع على اتفاقيات أوسلو بين الجانبين الإسرائيلي والفلسطيني بعد ٢٢ شهراً من انطلاق مسيرة التسوية التي ابتدأت في مدريد عام ١٩٩١م، تخللتها إحدى عشرة جولة من المفاوضات الثنائية، وعدة جولات من المفاوضات المتعددة(٢١).

وتمثلت الدوافع الفلسطينية من وراء المفاوضات السريَّة التي قادت إلى اتفاق أوسلو في عمق التحديات التي واجهت منظمة التحرير الفلسطينية التي شكَّلت بالنسبة لها تهديداً لشرعيتها إن لم يكن لوجودها ومن هذه التحديات تصاعد الدور السياسي لحركة حماس المعارضة لعملية التسوية. حيث بدت وكأنها تمثل البديل السياسي للمنظمة في الأراضي المحتلة، وكذلك تراجع الوضع الإقليمي والدولي للمنظمة بعد موقفها من الغزو العراقي للكويت في ٢ آب ١٩٩٠م.

فكان على المنظمة حتى تعود إلى بؤرة العملية السياسية المطروحة في المنطقة أن تبادر لتقديم تنازلات ومنها الاعتراف بـ «إسرائيل» وحقها في العيش في أمن وسلام والتزامها (أي المنظمة) بالعمل السلمي لحل الصراع بين الجانبين ونبذ (الإرهاب) واعتماد لغة الحوار والمفاوضات لحل كل القضايا الأساسية المتعلقة بالأوضاع الدائمة.

وبناءً على هذا الموقف الذي اتخذته المنظمة في ١٩ أيلول ١٩٩٣م فقد اعترفت حكومة «إسرائيل» بها كممثل للشعب الفلسطيني، ووافقت على التفاوض معها في إطار عملية السلام في الشرق الأوسط.

وهنا كان الاعتراف الإسرائيلي بمنظمة التحرير كممثل للشعب الفلسطيني للتفاوض معه في إطار عملية السلام دون أي اعتراف من قبل «إسرائيل» بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني، ودون أية التزامات، وكأنَّ الاعتراف بالمنظمة صار هدفاً في حد

ذاته، وهذا ما حدث بالفعل بعد ذلك، إذ أن الاعتراف لم يعط لمنظمة التحرير الصفة التمثيلية الشرعية الوحيدة للشعب الفلسطيني، وبالتالي فإنه أبقى الباب مفتوحاً لإنكار هذه الصفة التمثيلية في الوقت الذي تراه «إسرائيل» مناسباً. ويؤكد بعض الخبراء والباحثين على اعتراف منظمة التحرير الفلسطينية بالدولة «الإسرائيلية» بأنه اعتراف لا يمكن الرجوع عنه إذ أن اتفاقية «مونتفيديو» عام ١٩٩٣م تشترط عدم الرجوع عن الاعتراف بالدول، في حين أن اعتراف حكومة إسرائيل بـ منظمة التحرير الفلسطينية كان مجرد اعتراف بمنظمة أو هيئة سياسية، وهو اعتراف واقعي ويمكن الرجوع عنه لأن المنظمة ليست دولة(٢٢).

كما أن «إسرائيل» علَّقت اعترافها بالمنظمة على شرط تحقيق التعهدات والالتزامات الواردة في خطاب اعتراف المنظمة بـ «إسرائيل»، وإذا لم تلتزم المنظمة بهذه التعهدات لسبب أو لآخر فإنه يمكن سحب هذا الاعتراف.

وهنا نجد أن «إسرائيل» قد تعاملت مع منظمة التحرير كتنظيم سياسي يمثل الفلسطينيين في المفاوضات، وليس ككيان سياسي وممثل شرعي ووحيد لكل الفلسطينيين، وأن هذا التمثيل سينتهي واقعاً حال انتخاب المجلس الذي سيمثل فلسطينيي (الضفة وغزة) فالمجلس وفقاً للاتفاق (الإسرائيلي – الفلسطيني) هو الممثل للشعب الفلسطيني في غزة والضفة وليس منظمة التحرير.

وهذا الانقلاب على دور منظمة التحرير الذي قامت به قيادة المنظمة نفسها جاء من أجل تكييف مجمل الأوضاع الوطنية الفلسطينية مع استحقاقات اتفاقيات أوسلو الذي مهَّد لتحولات جذرية واسعة في النظام السياسي الفلسطيني لعلَّ أبرزها قيام سلطة فلسطينية لأول مرة في التاريخ الفلسطيني الحديث على جزء من إقليم فلسطين التاريخية.(٢٣)

وجاء تشكيل سلطة (الحكم الذاتي) ليضيف عاملاً جديداً من عوامل إضعاف منظمة التحرير الفلسطينية حيث أخذت السلطة تعمل على استيعاب مؤسسات ودوائر المنظمة وكذلك الاتحادات الشعبية في وزاراتها وأجهزتها مما أدّى إلى تهميشها وإلى تحويلها أو تحويل ما تبقى منها إلى ملاحق بإدارات وأجهزة السلطة وتم تغييب المجلس المركزي، وفقدت اللجنة التنفيذية على خلفية إسقاط البرنامج السياسي المشترك دورها الذي أصبحت مرجعيته اتفاقيات أوسلو[٢٤].

وباتت المشكلة في أن الحركة الوطنية الفلسطينية ممثلة بنظامها السياسي فشلت في تحقيق المهام الوطنية التحررية التي نشأت من أجلها، بل باتت غير قادرة على صون منجزاتها التي تحققت لها عبر مسيرتها النضالية.

المطلب السادس: رؤية الدولة ثنائية القومية:

في أعقاب الفشل الذي وصلت إليه فكرة مشروع الدولتين من خلال نتائج اتفاقيات أوسلو الكارثية على الشعب الفلسطيني وتراجع إمكانية ولادة دولة فلسطينية في الحدود الدنيا التي توافق عليها الفلسطينيون ولو مرحلياً، فقد عاد الحديث من جديد عن صيغة معدّلة عن صيغة الدولة الديمقراطية العلمانية، وهي صيغة الدولة ثنائية القومية، وقد تبنّى نخبة من المثقفين الفلسطينيين هذه الفكرة، فقد طرح «سري نسيبة» عام ١٩٨٧م سيناريو افترض فيه أن «إسرائيل» لن تنسحب من الأراضي المحتلة، وأن على الفلسطينيين أن يطلبوا من «إسرائيل» أن تضم تلك الأراضي إليها، الأمر الذي يؤدي إلى أن يعيش الفلسطينيون في دولة ذات حكم عنصري بحكم الواقع (Apartheid) وعليهم أن يناضلوا لنيل حقوق متساوية مع الإسرائيليين، وأن يصبحوا كالمواطنين الإسرائيليين. ويتوقع نسيبةً أن يشكل العرب سنة ٢٠٢٠ أغلبية سكانية على اليهود غربي نهر الأردن، وبذلك يتمكنون من السيطرة على الكنيست وبقية مؤسسات الحكومة، فيصبحوا قادرين على تمرير قانون عودة اللاجئين الفلسطينيين إذا اختاروا

ذلك، وفي مثل هذه المرحلة تتحول (فلسطين ـــ إسرائيل) إلى دولـــة ثنائيـــة القوميـــة بالمعنى الكامل للكلمة[٢٥].

وفي السياق ذاته يندرج رأي الأستاذ «برهان الدَّجاني» المفكر والخبيـــر الاقتـــصادي الفلسطيني، الذي يدعو إلى بقاء فلسطين موحدة، ويرى أن أي حل منتظـــر يجـــب أن يحافظ على هذه الصيغة من دون فصل الدولتين إحداهما عن الأخرى[٢٦].

ويرى «ادوارد سعيد» أن «التحدي هو إيجاد طريقـــة ســـلمية للتعـــايش كمـــواطنين متساويين في الأرض نفسها»[٢٧] ويشترك الباحثان «أسعد غانم» و«ســـارة أوزاكـــي لازار» في الرؤية ذاتها ويتصوران حلاً بديلاً عن حل الدولتين، ويريا أن المجتمعـــين المحليَّن العربي الفلسطيني واليهودي الإسرائيلي يمكن أن يعيـــشا جنبـــاً إلـــى جنـــب ويمارسا حكماً ذاتياً خاصاً بكل منهما في شؤونه الداخلية ـــ الثقافية واللغوية والدينيـــة على أن يشتركا في اقتسام السلطة والسيادة على كامل ما ســـميا (فلـــسطين ـــ أرض إسرائيل) وتكون القدس عاصمة للدولة المنشودة[٢٨].

ويرى المفكر العربي عزمي بشارة أن يشكل العرب الفلسطينيون في الضفة وغزة مع فلسطينيي الـــ ٤٨ كياناً سياسياً فلسطينياً واحداً ضمن كيان سياسي أكبر ثنائي القومية فيه كيان سياسي يهودي وكيان سياسي عربي يشكلان معاً كياناً يهوديـــاً ـــ عربيـــاً ذا برلمانيين من جهة وبرلمان مشترك من جهة أخرى، ويمضي بشارة في رأيه فيقـــول: «وأنا لا أتحدث هنا عن دولة ديمقراطية علمانية، وإنما عن دولة ثنائية القوميـــة، أي عن نظام شبه فدرالي بين كيانين قوميين، وقد تصاعدت في الأونة الأخيرة الأحاديـــث حول هذه الرؤية[٢٩] ومن وقت لآخر يلوِّح بعض ممثلي النظام الـــسياسي الفلـــسطيني بورقة الدولة الواحدة مزدوجة القومية كبديل عن الفشل الذي وصلت إليه مفاوضـــات حل الدولتين، على الرغم من أن حل الدولة الواحدة يعد وبكل المقاييس أبعـــد منـــالاً وأصعب تحقيقاً من حل الدولتين، ويظل فكرة مشوَّهة أو خيالية التصور، إذ أن الدولة

الواحدة (المفترضة) لن تقوم على أساس قوميتين تتشاطران الأرض نفسها على أساس تعاوني متساوٍ، لكنها ستكون دولة ينعم فيها البعض (اليهود) بالحريات الليبرالية والامتيازات الديمقراطية مع استمرارهم في الخوف بشأن أمنهم، في حين يُحرم الآخرون (العرب) من الحريَّة والحقوق المتساوية والأمن على حدٍّ سواء(٣٠).

وبكلمات أخرى إذا قامت دولة واحدة في المستقبل للإسرائيليين والفلسطينيين سويَّة فإنها لن تقوم على التعايش المتساوي، بل على علاقات تتسِّم بالسيطرة من جهة، والمقاومة من جهةٍ أخرى.

مما تقدّم يتبين لنا أن كل مشاريع التسوية التي طرحت لحل القضية الفلسطينية وصلت إلى طريق مسدود وسجلت فشلاً ذريعاً، ولم يجن منها الشعب الفلسطيني سوى المزيد من المعاناة على الصعيد الحياتي، وأما على صعيد المشروع الوطني التحرري فقد تعرض هذا المشروع لضربة قاصمة، وخاصة بعد اتفاقات أوسلو ونتائجها الكارثية على قضية الشعب الفلسطيني ونضاله من أجل استرداد حقوقه المشروعة المتمثلة في قيام دولته المستقلة على كامل ترابه الوطني.

المبحث الثاني

أزمة النظام السياسي الفلسطيني

المطلب الأول: نشوء النظام السياسي الفلسطيني بعد نكبة عام ١٩٤٨م:

بعد نكبة عام ١٩٤٨م توزعت فلسطين بين احتلال إسرائيلي للقسم الأكبر من فلسطين الانتدابية بما يعادل ٧٨% من الأرض الفلسطينية وبقي ٢٢% منها هي الضفة الغربية وقطاع غزة، حيث قام الأردن بضم الضفة الغربية بما في ذلك (القدس الشرقية) وقامت مصر بإدارة قطاع غزة وإلحاقه بإدارتها المدنية، ممّا حرم الشعب الفلسطيني من ولادة كيان سياسي يحفظ له شخصيته وهويته وبعض أرضه. ولم يعد للفلسطينيين

الصفة التمثيلية على المستوى الدولي على الرغم من اعتراف الدول العربية فيما عدا الأردن بما سُمَّي «حكومة عموم فلسطين» التي أعلن عن تشكيلها أواخر عام ١٩٤٨م، وظلت قائمة من الناحية الرسمية حتى وفاة رئيسها «أحمد حلمي عبد الباقي» عام ١٩٦٣م، إلاَّ أن التمثيل العربي للشعب الفلسطيني بقي صورياً.

كذلك فقد تعامل المجتمع الدولي مع قضية الشعب الفلسطيني بوصفها قضية لاجئين لا أكثر، وإن كان ذلك لا يعني أن المجتمع الدولي قد أنكر على هذا الشعب وفي حدود الكيان الذي أشار إليه قرار التقسيم ـ تمتعه بالشخصية القانونية الدولية(٣١).

ولم تأخذ مسألة التمثيل الدولي للشعب الفلسطيني على المستويين العربي والدولي نصيبها من الاهتمام إلا بعد تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية. لذلك يُعَدُّ إعلان قيام هذه المنظمة في مؤتمر القمة العربي الثاني المنعقد في أيلول ١٩٦٤م في الإسكندرية حدثاً من أهم أحداث النضال في تاريخ الشعب الفلسطيني والصراع العربي ـ الصهيوني وقد جاء هذا الإعلان في عدة سياقات:

الأول: تصاعد الخطر الإسرائيلي وحاجة الدول العربية لمؤسسات فلسطينية تشارك في مواجهته.

الثاني: استجابة الدول العربية لحقيقة سياسية في أوساط الشعب الفلسطيني تستدعي قيادة نضاله لاسترجاع وطنه المحتل وحقوقه المغتصبة.

الثالث: قطع الطريق على بعض الأنظمة العربية وتحديداً (الأردن) الذي حاول التفرد بتمثيل الشعب الفلسطيني وما ترتب على هذا من خلافات عربية ـ عربية قادتها مصر في وجه المشروع الأردني (البديل)، ولذا كان الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر أقوى المؤيدين لقيام هذا الكيان السياسي الفلسطيني (أي منظمة التحرير الفلسطينية).

وتطوّر الاعتراف بمنظمة التحرير إلى أن اعترف بها في القمة العربية السابعة في الرباط عام ١٩٧٤م ممثلاً شرعياً ووحيداً للشعب الفلسطيني وفي العام نفسه صدر قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم (٣٢٣٦) الذي يتضمن تأكيد الأمم المتحدة على الحقوق المشروعة والثابتة للشعب الفلسطيني، وحقه في استخدام جميع الوسائل التي تسمح بها قوانين الشرعية الدولية لتحقيق هذا الهدف.

ثم صدر في نفس العام القرار (٣٢٣٧) الذي نص على دعوة (منظمة التحرير الفلسطينية) للمشاركة في أعمال ودورات الجمعية العامة للأمم المتحدة بصفة مراقب والمشاركة في كل المناقشات والمؤتمرات الخاصة بقضية الصراع العربي الصهيوني التي تجري تحت إشراف الأمم المتحدة بما في ذلك مؤتمر جنيف الخاص بالقضية الفلسطينية. وأصبحت القضية الفلسطينية من وجهة نظر غالبية الأعضاء في المنظمة الدولية ليست مجرد قضية لاجئين كما كان الأمر في السابق، بل قضية شعب له الحق في الوجود وإقامة دولته المستقلة على ترابه الوطني[٣٢].

كما حصلت المنظمة على اعتراف واسع من جانب العديد من المنظمات الدولية الأخرى كمنظمة عدم الانحياز، والمؤتمر الإسلامي في قمة لاهور الباكستانية عام ١٩٧٤م ومنظمة الوحدة الأفريقية والذي جاء اعترافه سابقاً لاعتراف هيئة الأمم المتحدة[٣٣].

وعُدّت منظمة التحرير الفلسطينية بإطارها التنظيمي الإسلامي وبرنامجها السياسي (الميثاق القومي ثم الوطني) بمثابة الكيان التمثيلي والبيت الفلسطيني الجامع والوطن المعنوي للشعب الفلسطيني في الوطن المحتل والشتات، وحاضنة ورافعة لنضالات هذا الشعب بدأ معها الشعب الفلسطيني مرحلة جديدة من الكفاح على طرق تأكيد هويته وانتزاع حقوقه المغتصبة.

المطلب الثاني: النظام السياسي الفلسطيني بعد الغزو الصهيوني للبنان عام ١٩٨٢م والخروج من لبنان:

مرَّت منظمة التحرير الفلسطينية بمحطات ومسارات من الصعود والهبوط كان من أخطرها على بنية المنظمة محطة أيلول ١٩٧٠م في الأردن، ومحطة البرنامج المرحلي (برنامج النقاط العشر) في عام ١٩٧٤م، ثم محطة الخروج من لبنان في عام ١٩٨٢م الذي أدَّى إلى خسارة منظمة التحرير آخر مواقع المواجهة خارج الوطن وبالتالي فقدانها أحد أهم أوراقها في الصراع مع العدو الصهيوني، مما عزَّز من وجهة النظر التي كانت تشكِّك بجدوى الكفاح المسلح من قبل بعض الدول العربية وبعض القيادات الفلسطينية وقد عبَّر عن هذا (الراحل) ياسر عرفات نفسه حين سُئل وهو يغادر لبنان عن وجهته وإلى أين سيذهب، فقال: إلى فلسطين.

ولا يفهم من هذه الإجابة على الرغم من ضرورتها المعنوية في ذلك الوقت سوى أنّه بات أكثر قناعة بخط التسوية أو (الاشتباك السياسي) على حد تعبير بعضهم في القيادة الفلسطينية(٣٤).

وفي هذا الصدد يقول محمود عباس: «في أحد الأيام قرأت خبراً في صحيفة محلية يفيد بأن يهود البلاد العربية أصبحوا يشكلون أكثرية سكان «إسرائيل» وفي هذه الفترة رفعت شعارين: **الأول** مطالبة الدول العربية بالسعي لإعادة اليهود الذين هاجروا أو هُجِّروا منها، **والثاني** العمل على الاتصال بالقوى «الإسرائيلية» لإجراء حوار معها للوصول إلى السلام»(٣٥).

ثم كانت الانتفاضة الأولى (انتفاضة الحجارة) كانون الأول ١٩٨٧م والتي يرى الكثيرون أن مرحلتها قد تفوقت على جميع مراحل النضال الفلسطيني السابقة بتأكيدها على حيوية الشعب الفلسطيني وقدرته على الصمود وابتكار أشكال جديدة من النضال أمكنها أن تلحق بالعدو أفدح الخسائر.

وجاء القرار الأردني في تموز ١٩٨٨م القاضي بفك الارتباط مع الفلسطينيين وقطع الروابط القانونية والإدارية مع الضفة الغربية، وهو القرار الذي أنهى (الازدواجية) في تمثيل الشعب الفلسطيني، ومهَّد الطريق في تشرين الثاني ١٩٨٨م لإعلان الاستقلال وقيام الدولة الفلسطينية في دورة المجلس الوطني التاسعة عشرة في الجزائر، ممَّا فتح الباب على الحوار الأمريكي ـ الفلسطيني وأخرجه من الأدراج إلى سطح الطاولة، وتم تكليف السفير الأمريكي في تونس بهذه المهمة، وكانت (قضية الإرهاب) ويعنون بها (المقاومة) في مقدمة ما جرى بحثه، وفي حينه أكَّدت منظمة التحرير الفلسطينية أنها ضد كل أشكال الإرهاب، وأما النضال المشروع ضد الاحتلال فهو شيء آخر، وهو يستمد شرعيته من قرارات الأمم المتحدة ومن القوانين الدولية. وهكذا وجد الفلسطينيون، وعبر منظمة التحرير الفسلطينية، أنفسهم طرفاً أساسياً ورسمياً في أي حوار حول (صراع الشرق الأوسط).

ثم جاء الغزو العراقي للكويت في آب ١٩٩٠م (حرب الخليج الثانية) الذي يعد نقطة تحول مهمة في تاريخ الصراع العربي ـ الإسرائيلي، حيث استغلَّ الكيان الصهيوني الحرب وانشغال العالم بها، فانفرد بالشعب الفلسطيني بعيداً عن الاهتمام الدولي، وخضع الشعب الفلسطيني لوطأة حصار خانق، وتزامن ذلك مع الحصار المالي الذي تعرضت له منظمة التحرير الفلسطينية بسبب تأييد قيادة المنظمة للغزو، مما أحدث خللاً في مفهوم (التوافق والتضامن العربي) الذي يفترض أن يكون ركناً أساسياً من أركان العمل الفلسطيني، بحيث تظل المنظمة قاسماً مشتركاً بين الدول العربية مع تجنبها الدخول في المحاور الإقليمية. وهكذا وجدت المنظمة نفسها (لأول مرة) معزولة ومحاصرة من الأنظمة الإقليمية التي كانت تدعمها مالياً وسياسياً وهي ذات الأنظمة المحسوبة على محور التسوية (كمصر والسعودية) مما يعني المزيد من إضعاف هذه القيادة، لا سيما مع تصاعد قوة حماس وشعبيتها في الأرض المحتلة من

خلال الانتفاضة، وهذا ما لم تكن تحتمله قيادة المنظمة على المدى البعيد، ممًا دفعها وبعجالة كبيرة نحو نهج التسوية(٣٦).

المطلب الثالث: منظمة التحرير الفلسطينية والسلطة:

في الوقت الذي يفترض أنه ما زالت الحالة الفلسطينية تعيش مرحلة التحرر الوطني وتناضل لأجل الخلاص من الاحتلال والاستيطان لإقامة (الدولة العتيدة) في هذا الوقت وفي ظل اتفاقات أقل ما يقال عنها أنها زادت الوضع الفلسطيني تأزمًا، قامت على أجزاء (لا زالت تحت الاحتلال) من هذه الأرض سلطة فلسطينية ذات بنية خاصّة، باتت هي المعنيَّة بحكم طبيعة (اتفاق أوسلو وتوابعه) في ظل الاحتلال عن إدارة شؤون أجزاء من الضفة وكامل قطاع غزة بعد إعادة الانتشار ومغادرة الاحتلال له في العام ٢٠٠٥م.

إلى ذلك ما زالت منظمة التحرير الفلسطينية رغم غياب دورها الإيجابي والاحتفاظ بها كغطاء على سياسات الأمر الواقع التي يمارسها الاحتلال وتمارسها قيادة السلطة في رام الله وبحكم الظروف التي تعيشها الساحة الفلسطينية المنقسمة على ذاتها، لا زالت هذه المنظمة نظراً لموازين العلاقات الإقليمية والدولية تحتل موقعها التمثيلي الديكوري للشعب الفلسطيني في مناطق تواجده كافَّة، الأمر الذي أوجد علاقة معقدة ما بين (المنظمة) كمؤسسة وفصائل، وبين السلطة الفلسطينية، وكذلك ما بين المنظمة والسلطة من جهة وبين مؤسسات المجتمع المدني الفلسطيني من جهة أخرى.

وهذا التعقيد لعب دوراً في خلق صعوبات أمام دوائر البحث والتحليل للتعمق في دراسة طبيعة النظام السياسي الفلسطيني وتطوره رغم أن هذا النظام قطع خطوات على طريق بلورة طبيعته اللاّحقة إن في التجربة التي سطرتها السلطة في قيام نظامها الرئاسي، أو في صياغة مشروع دستور الدولة الفلسطينية العتيدة.

وفي سياق ما سُمِّي بإدخال إصلاحات على أوضاع السلطة بهدف بلورة إطار سياسي فلسطيني أكثر استجابة للضغوط الأمريكية و«الإسرائيلية» فقد تم استحداث منصب رئيس وزراء في السلطة لغرض تقليص صلاحيات ونفوذ رئيسها آنذاك الراحل (ياسر عرفات) الذي اعتبر عقبة في طريق التسوية. وقد شجَّع على هذا التوجه الكثير من الأطراف الدولية لأن إضعاف منظمة التحرير الفلسطينية يعني إضعاف الكيانية السياسية للتجمعات الفلسطينية في الشتات (اللاجئين) الأمر الذي يسهِّل مفاوضات الحل الدائم فيما يخص ملف اللاجئين باتجاه حل يقوم على التوطين والتأهيل خارج منطوَق القرار (١٩٤) وهو ما عُبِّر عنه بـ (حل عادل ومتفق عليه).

وأثناء حملة (بوش الابن) الانتخابية أعلن في مؤتمر صحفي مشترك مع رئيس وزراء العدو الصهيوني (شارون) يوم ٢٥ تموز/ يوليو/ ٢٠٠٣م أن عباس نفسه قد التزم بتفكيك قوى المقاومة «وأن البشرى هنا هي أن رئيس الوزراء عباس قد صرَّح علناً أننا سنعمل معاً على تفكيك المنظمات الإرهابية بقطع الموارد المالية عنها، ولمنع الأقلية من تدمير تطلعات الأكثرية»[٣٧].

وفي غمرة انشغال فريق السلطة بخطة خارطة الطريق قام هذا الفريق بتعزيز مواقعه في السلطة، ومن ذلك استكمال صياغة مشروع المسودة الثالثة (المنقحة) لدستور (دولة فلسطين) واعتبرت مسودة أخيرة.

وقد جاء في الباب الأول: (الأسس العامة للدولة) مادة (٨):

«النظام السياسي الفلسطيني: ديمقراطي، نيابي برلماني يقوم على التعددية الحزبية السياسية، وكفالة حقوق المواطنين وحرياتهم، ومنها حرية تكوين الأحزاب وممارستها لنشاطها على أساس القانون. وتلتزم الأحزاب مبادئ السيادة الوطنية والديمقراطية والتداول السلمي للسلطة عملاً بالدستور».

وقد خصّص الدستور بابه الثالث للحديث عن السلطات الثلاث: التشريعية والتنفيذية والقضائية.

المطلب الرابع: الانتخابات التشريعية الثانية عام ٢٠٠٦م:

جرت الانتخابات التشريعية في الضفة والقطاع والقدس يوم ٢٠٠٦/١/٢٥م، وهي الثانية بعد اتفاق أوسلو وتشكيل السلطة الفلسطينية، حيث جرت الانتخابات الأولى عام ١٩٩٦م وكان من المفترض أن تجرى الانتخابات الثانية عام ٢٠٠٠م، غير أنها تعطلّت بسبب اندلاع الانتفاضة الثانية (انتفاضة الأقصى) والاجتياح الصهيوني لمناطق السلطة.

وقد اعتمد في هذه الانتخابات (الثانية) التي شاركت فيها حركة حماس (للمرة الأولى) نظام انتخابي جمع بين نظام الدوائر ونظام التمثيل النسبي (نظام القوائم) مناصفة، وذلك استجابة لاتفاق القاهرة ٢٠٠٥/٧/١٧م، وتم زيادة أعضاء المجلس التشريعي من ٨٨ عضواً إلى ١٣٢ عضواً.

واتسمت هذه الانتخابات وبشهادة أكثر من تسعمائة مراقب أجنبي أشرفوا على سيرها بالشفافية والجدية، ممّا يسجّل إنجازاً للشعب الفلسطيني يدل على قدرته على إدارة شؤونه، وجاءت نتيجة الانتخابات مفاجئة على غير ما توقع الكثير من المحلّلين للأوضاع السياسية، وحصدت حركة حماس ٧٦ مقعداً إضافة إلى ٤ مقاعد للمستقلين، وحصدت حركة فتح ٤٣ مقعداً، وبقية المقاعد توزعت على ٤ قوائم، وعُدت نتيجة الانتخابات استفتاءً شعبياً على نهج المقاومة وعلى برنامج التغيير والإصلاح الذي رفعته حركة حماس شعاراً لها.

ومنذ اللحظة الأولى لإعلان النتائج أعلنت حركة فتح فيما يشبه الانقلاب على النتيجة رفضها للمشاركة في أية حكومة تشكلها حماس، وبأنها تفضل الانتقال إلى صفوف المعارضة[٣٨].

أما على صعيد العدو الصهيوني وقادته السياسيين فقد اتفقت مواقف التكتلات السياسية المختلفة على وصف فوز حركة حماس بـ (الزلزال السياسي) ورفضت التعاطي مع الحركة طالما لم تعترف بالدولة اليهودية «إسرائيل».

وأما الإدارة الأمريكية فإنها رأت أن سيطرة حماس على قطاع غزة ولو عبر الانتخابات الديمقراطية يضر بالمصالح الأمريكية في المنطقة، ويشكل تهديداً لـ «إسرائيل» الحليف العضوي ذي الأهمية الخاصة في تحديد السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط، وبحكام عرب هم على علاقة تفاهم تقليدية مع الولايات المتحدة الأمريكية(٣٩).

وعليه فقد تمكنت الإدارة الأمريكية على فرض الحصار السياسي الشامل على حركة حماس إضافة إلى الحصار الذي فرضته إسرائيل لإفشال الخط السياسي الذي تنتهجه الحركة وتمت ممارسة كل وسائل الضغط على السلطة الفلسطينية، وبالأخص على حركة فتح لعزل حركة حماس، ووضع العراقيل تجاه أي تقدم نحو تشكيل حكومة وحدة وطنية، لحرمان حركة حماس من الغطاء السياسي الفلسطيني الاجتماعي أو الأكثري، أو توفير حزام أمني سياسي فصائلي لوجودها في السلطة(٤٠).

وفي سياق الخطط لإسقاط حكومة (حماس) في غزة فقد نشرت جريدة النيويورك تايمز (The New York Times) تقريراً في ٢٠٠٦/٢/١٤م عن خطة إسرائيلية أمريكية مشتركة تهدف إلى عزل السلطة في غزة والتسبب بمعاناة للشعب الفلسطيني تجبره على إسقاط حكومة حماس وإعادة فتح إلى السلطة(٤١).

وقد أخذت الإدارة الأمريكية التي يرأسها (جورج دبليو بوش) بمعظم الأفكار والتوصيات التي تقدمها مراكز الأبحاث المدعومة من الجماعات الموالية لـ «إسرائيل»، التي ترى أن الولايات المتحدة الأمريكية تواجه قوى خطيرة تتمثل في الإسلام الراديكالي، والدول التي تساند وتدعم الإرهاب(٤٢).

المطلب الخامس: حماس والنظام السياسي الفلسطيني:

ترى حماس أن ليس ثمة مشروعان في الساحة الفلسطينية، أحدهما وطني والآخر إسلامي، وترى أن هناك مشروعاً وطنياً واحداً له تلاوين مختلفة(٤٣).

وأن هذا المشروع سيظل وطنياً ما دامت البوصلة السياسية صحيحة، وما دامت أرضيته الفكرية والسياسية والأهداف الاستراتيجية التي يسعى إليها هي أهداف وطنية وترى أن النظام السياسي الفلسطيني نظام في طور التشكيل وأن التسوية عبر أوسلو فرضت شكلاً من النظام السياسي غير الطبيعي، لأن أولوية حركة حماس هي للتحرير وليس لإقامة سلطة.

وترى أن منظمة التحرير هي أصل النظام السياسي الفلسطيني بوصفها مشروعاً وطنياً وإطاراً تنظيمياً، وأن التسوية فرضت نظاماً سياسياً ثبت أنه عبء على الواقع الفلسطيني، وأن حماس تتعامل معه على أنه أمر واقع، وليس أمراً اختارته الحركة، ولو ترك لها أن تختار فهي بالتأكيد لن تختار الصيغة الحالية، ومع هذا فإن معيارها أن لا تغرق في هذا الواقع معتبرة إياه نقطة بداية وليس المنتهى، وأن إطاره السياسي (أوسلو) لن يكون إطارها، ولن يقيِّدها، وأن حماس جاءت لتغيِّر النظام السياسي وفق المشروع وحسب القواسم الوطنية التي يلتقي عليها المجموع الوطني الفلسطيني.

وعن موقفها من مبدأ الانتخابات وعلاقتها بالشرعية فإنَّ حماس تقول إنها تحترم الديمقراطية وترى أن الشرعية متعددة، فهناك شرعية الحق وعدالة القضية، وشرعية النضال، وشرعية الثورة والأهم هو شرعية الصدق والعطاء والتضحية.

فالشرعية النضالية تعزِّز شرعية صناديق الاقتراع، لكن في ظل الاحتلال فإن قاعدة الشرعية الأساسية هي الشرعية النضالية، وبأن الأولوية يجب أن تعطى للإطار الوطني الجامع بين الداخل والخارج وليس للسلطة وبأنها (أي حماس) تمارس دورها

في الحكومة والسلطة بالحد الذي يلزم لخدمة الناس وضرورات الواقع الفلسطيني تحت الاحتلال.

وترى حماس أن إعادة بناء منظمة التحرير هو المخرج لأزمة الوضع الفلسطيني السياسي الراهن إضافة إلى كونها المتمم للنظام السياسي الفلسطيني الحقيقي، والشكل الأهم الذي يوحِّد الداخل والخارج، يوحِّد الديمغرافيا الفلسطينية، ويوحد أيضاً البرنامج الوطني الفلسطيني بكل مفرداته، وليس فقط قضية الضفة وغزة، بل القدس وحق العودة واللاجئين.. الخ.

وعن مشروع الدولة الفلسطينية على حدود عام ١٩٦٧م ترى حماس أن هذا المشروع مقبول مرحلياً، طالما أن حوله توافق وطني[٤٤].

وقد قوبلت مواقف الحركة هذه والتي حاولت الحكومة التي شكلّتها حماس في غزة أن تتبناها رفضاً شديداً من حركة فتح ومن رئيس السلطة محمود عباس الذي كان يرى أنه من الأهمية بمكان قبول والتزام (حماس) بكافة الاتفاقات التي أبرمتها منظمة التحرير الفلسطينية وبشروط الرباعية الدولية بما فيها الاعتراف بإسرائيل وأن تكون مقبولة دولياً، وقادرة على إيجاد حلول للأزمات السياسية التي تواجه الشعب الفلسطيني لكي يتعاطى معها[٤٥].

لقد كسرت الانتخابات حالة الاستئثار التي كانت سائدة والتي كانت تمارسها حركة فتح، لكنها أفرزت نظاماً فلسطينياً برأسين هما الرئاسة ورئاسة الحكومة، وفي ظل رفض حركة فتح العملي لنتائج الانتخابات إضافة إلى إصرار محمود عباس على أن تكون الحكومة مقبولة دولياً، وأن تكون قادرة على إيجاد حلول للأزمات السياسية التي تواجه الشعب الفلسطيني، ورفضت كل الفصائل تقريباً المشاركة في حكومة وحدة وطنية مع حركة حماس، تطوَّر الأمر إلى الأسوأ وصار هناك مرجعيتان في الساحة الفلسطينية هما: مرجعية الرئاسة ومرجعية الحكومة. ثم حكومتان واحدة في رام الله

والأخرى في غزة بعد تفرد حماس بغزة من خلال الحسم العسكري في ٢٠٠٧/٦/١٤م، ووجدت حماس نفسها وجهاً لوجه أمام التوافقية الدولية والإقليمية التي حكمت أفق الحل للقضية الفلسطينية بحدود الأراضي التي احتلت في عام ١٩٦٧م.

وكان ذلك أسهل عليها وهي في موقع المعارضة، أمّا وأنها في السلطة وتتفرَّد بالسلطة التنفيذية وترتكز على أغلبية تشريعية فالوضع أكثر تعقيداً خاصَّة وأنه مطلوب منها أن تدير الصراع مع إسرائيل في ظل سلطة الرأسين والمرجعيتين والهوة السحيقة التي تفصل بينهما في ظل انسداد تام لأفق التسوية ساعد عليه الموقف الإسرائيلي المتعنِّت والرافض لكل مشاريع التسوية مدعوماً بالموقف الأمريكي المتواطئ، وفوق ذلك الانقسام الفلسطيني الذي ترك وخلَّف آثاره السلبية على مجمل الشأن الفلسطيني، وإصرار فريق أوسلو في السلطة على المضي في الرهان الخاسر على الموقف الأمريكي وعلى نهج المفاوضات العقيم.

وفي تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٩م ألغيت الانتخابات العامَّة التي كانت مقررة لكل من رئاسة السلطة والمجلس التشريعي في كانون الثاني/ يناير ٢٠١٠م، وذلك بسبب حالة الانقسام والفشل الذي وصلت إليه جهود المصالحة.

وجميع الفاعلين داخل الحقل السياسي الفلسطيني يعترفون بأن إطالة أمد الانقسام ألحق الضرر الفادح بالمصالح الوطنية الفلسطينية، وأن هذا الانقسام والاستقطاب يستمد قوته من مصدرين اثنين على نحوٍ خاص:

١- شلل المؤسسات الوطنية الفلسطينية (منظمة التحرير الفلسطينية) الذي يجعلها عاجزة عن التوسط في الصراعات والخلافات السياسية وحلّها.

٢- التدخل الخارجي والتلاعب بمكونات الحقل الوطني الفلسطيني السياسية والأمنية والمالية، ومن طرف فاعلين إقليميين ودوليين على حدٍّ سواء ولا حاجة للقول بأن

الانقسام الجغرافي السياسي داخل الحقل السياسي الفلسطيني لا يمكن إنهاؤه إذا لم تجرِ معالجة هاتين القضيتين[٤٦].

وعلى الرغم من الحراك البطيء الذي شهدته الساحة الفلسطينية في ظل استمرار فرض الحصار على غزة والعدوان الإسرائيلي اليومي على الأرض الفلسطينية من خلال المصادرة والتهويد وعلى الإنسان الفلسطيني قتلاً واعتقالاً، وفي أجواء الفشل البيِّن لمسار التسوية وخيار المفاوضات، والتظاهر الأمريكي بالعجز أمام الحكومات «الإسرائيلية» المتعاقبة والرافضة لكل أشكال التسويات التي تعترف بالحد الأدنى من الحق الفلسطيني إلاَّ أن كل ذلك لم يؤديَّ إلى كسر الجمود في المشهد السياسي الكلي للواقع الفلسطيني، فقد استمرت حالة التشرذم والانقسام، ولم يتم التوصل إلى مصالحة تؤدي إلى حلحلة النقاط الجوهرية العالقة المرتبطة بإعادة ترتيب البيت الفلسطيني وتحديد أولوياته، بما في ذلك إعادة بناء أو إصلاح منظمة التحرير الفلسطينية وتشكيل حكومة وفاق وطني، وإصلاح الأجهزة الأمنية.. الخ.

وحالة الانقسام منذ ما زالت تؤثر سلباً على مجمل المشروع الوطني وعلى النضال الفلسطيني محلياً وعربياً ودولياً[٤٧].

وما لم تتمكن القوى الحريصة على الوحدة الوطنية من الاستقواء بالضغط الشعبي لعزل القوى ذات المصالح المرتبطة باستمرار وضع الانقسام في الضفة والقطاع، ومن العمل على وقف انتهاكات الحريات العامة المتصاعدة من طرفي الصراع الداخلي في الساحة الفلسطينية فلن يكون الفلسطينيون على موعد قريب مع المصالحة، ومع إعادة بناء النظام السياسي الفلسطيني على قاعدة التعددية والديمقراطية والمشاركة السياسية.

خاتمة

بعد هذا الاستعراض السريع لمشاريع التسوية وعلاقتها بالنظام السياسي الفلسطيني المأزوم نجد أن هناك تلازماً بين الاثنين، وأن مشاريع التسوية لم تجد لها طريقاً إلاَّ من خلال الثغرات التي فتحت في جسد ذلك النظام إثر كل محطات الضعف والتراجع الذي تعرَّض لها عبر مسيرته التي بدأت مع الإعلان عن إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية في عام ١٩٦٤م، ومن التحرير الكامل لفلسطين كل فلسطين إلى برنامج الحل المرحلي وصولاً إلى مشروع الدولتين، كان النظام السياسي الفلسطيني يتراجع متبنيًّا طروحات ومشاريع، لا مكان لها عند الطرف الآخر (الكيان الصهيوني) مما كان يعطي إشارات واضحة على ضعف هذا النظام وإمكانية تقديمه لمزيد من التنازلات وهكذا..

ولم يكتف النظام السياسي الفلسطيني بالجري وراء مشاريع أقرب إلى الوهم منها إلى الحقيقة، بل قام بالتخلي عن أوراق قوته التي كان لابد من الاحتفاظ بها وتوظيفها في لعبة المساومات وأعني بها أوراق: المقاومة، والوحدة الوطنية، والالتحام بالبعد العربي والإسلامي الممانع، وهذا ما زاد من أزمته على الصعيد الوطني الداخلي، وعلى الصعيد الإقليمي، وحتى على الصعيد التفاوضي، وباتت حركة فتح التي قادت هذا النظام طوال عقوده الخمس عاجزة عن مهمة إعادة بنائها التنظيمي وتقف تائهة في تعريف نفسها بين حركة تحرر وطني أو حزب السلطة، كما أن حركة حماس في المقابل تظل غير قادرة على قيادة المشروع الوطني بسبب وجودها خارج مؤسسات صنع القرار في منظمة التحرير الفلسطينية إضافة إلى خلافاتها الإيديولوجية مع قوى اليسار.

ومع وجود الانقسام في الجسم الفلسطيني واستمراره تصبح الأمور أكثر صعوبة مما يستدعي البحث عن حل بديل يخرج الوضع الفلسطيني برمته من أزمته الراهنة.

وهذا الحل يتمثل في حل السلطة، أو تغيير وظيفتها، بحيث تصبح أداة لرعاية الشؤون اليومية في الأرض المحتلة، وإعادة الاعتبار لـ (منظمة التحرير الفلسطينية) بعد إصلاحها وإعادة بنائها برنامجاً، وإطاراً تمثيلياً، وإطاراً مؤسساتياً وفق رؤية استراتيجية تهدف إلى إعادة بناء الحركة الوطنية والمشروع الوطني التحرري دون استبعاد لأي فريق.

وهذا الخيار بحاجة إلى وفاق وطني، حول أسس ومبادئ العمل السياسي الفلسطيني، ففلسطين لا زالت تحت نير الاحتلال، وعلى الحوار الوطني أن يذهب إلى نهايته في حل التباينات والخلافات وصياغة مبادئ ملزمة للجميع دون استثناء.

إن وثيقة الوفاق الوطني، واتفاق مكة على أهميتها يصلحا أن يكونا وثيقتين في سياق هذا المشروع لكنهما لا يصلحان كبديل عن التوافق المنهجي والبرنامجي وبعيداً عن نهج المحاصصة والتقاسم الوظيفي الذي طفا على عقلية طرفي الصراع في الساحة (حركة فتح وحماس).

إن الوحدة الوطنية المستندة إلى برنامج سياسي وطني يرعى ويصون الثوابت الوطنية الفلسطينية هي الضمانة لسلامة العلاقات الوطنية بين القوى والفصائل وكافة شرائح وفئات المجتمع الفلسطيني، واستعادة الدور والوظيفة والمصداقية لحركة التحرر الوطني الفلسطيني، والالتفاف حول مشروع المقاومة بعد فشل كل مشاريع التسوية.

لقد جرت محاولات لوضع هذا الخيار موضع الاختبار العملي ويضمن ذلك الدعوات المستمرة إلى (الحوار) والمصالحة لكن عجز وشلل النظام السياسي الفلسطيني وتناقض رؤية الصراع المعبَّر عنه بتناقض مشروعي المقاومة والتسوية، وعمق الأزمة ومنها (أزمة الثقة) من ناحية، وحجم التدخلات الخارجية الرامية لتكريس الانقسام ورفض كل محاولات المصالحة والوفاق من ناحية أخرى حالا دون التقدم نحو الخيار..

بعد هذه القراءة في مشاريع الحل وفي النظام السياسي الفلسطيني خلص الباحث إلى النتائج التالية:

١- فشل كافة مشاريع التسوية المطروحة لحل القضية الفلسطينية، ويعود ذلك إلى افتقار هذه المشاريع إلى العدالة وإلى المرجعية التفاوضية المحددة وإلى الإرادة الجادة من الأطراف الدولية الراعية لهذه المشاريع وآخرها مشروع (حل الدولتين) إضافة وهذا هو الأهم إلى أن الكيان الصهيوني لم يكن في يوم من الأيام جاهزاً للتسوية ولو بحدها الأدنى.

٢- يعيش (النظام السياسي الفلسطيني) أزمة حادة في بنيته وبرنامجه ومؤسساته، وهذه الأزمة وإن كانت قديمة، إلاّ أن انخراط هذا النظام في مشاريع التسوية قد كشف عن مدى عمق هذه الأزمة، وما الانقسام الفلسطيني ما بين مشروعي المقاومة والتسوية العدمية إلا أحد تجلياتها.

٣- ستظل (السلطة) التي جاءت بها اتفاقات أوسلو وفق مقاييس ومعايير المصلحة («الإسرائيلية») عقبة في طريق أي برنامج وطني جاد في الساحة الفلسطينية، ومن غير الممكن أن تتعافى الحالة الفلسطينية عامة في ظل هذه السلطة رغم كل مظاهر التجميل التي تحاول أن تظهر بها، وعليه فإن الخطوة الأولى على طريق إصلاح (النظام السياسي الفلسطيني) يجب أن تبدأ بجل هذه (السلطة) أو تغيير وظيفتها بحيث تصبح أداة لرعاية المشروع الوطني التحرري وليس أداة أمنية لحماية المشروع الصهيوني.

٤- ضرورة إعادة بناء (م. ت. ف) على أسس وطنية ترعى وتصون الثوابت وتستعيد دورها النضالي التحرري وتضمن سلامة العلاقات الوطنية بين القوى والفصائل وكافة شرائح المجتمع الفلسطيني.

الهوامش

(١) وهي المتمثلة برفض وعد بلفور وقرار التقسيم، والتمسك بعروبة فلسطين التاريخية من النهر إلى البحر.

(٢) فيصل الحوراني: «**نشأة الحركة الوطنية الفلسطينية وتطورها حتى نهاية القرن العشرين، ورقة مقدمة إلى الندوة الفكرية السياسية، خبرات الحركة السياسية الفلسطينية في القرن العشرين**». (غزة: المركز القومي للدراسات والتوثيق، ٢٠٠٠م)، ص٦١.

(٣) أريك لورو، **فلسطيني بلا هوية، لقاءات مع صلاح خلف**، ترجمة نصير مروة، بيروت، ط١، ١٩٨٥م، بدون دار نشر.

(٤) خالد الحسن، **مقدمة كتاب قضية من السلام الشائك**، صحيفة الحياة ١٩٩٣/١/١٥.

(٥) خالد الحسن: مقدمة كتاب «قضية السلام الشائك»، مرجع سابق.

(٦) المصدر: وكالة أنباء «عمّون» ammonnews.net ٢٠١٠/٥/١.

(٧) أريك لورو، مرجع سابق، ص٢١٦.

(٨) المكتب السياسي للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، **البرنامج المرحلي ١٩٧٣-١٩٧٤م**، بيروت: شركة التقدم العربي للصحافة والطباعة والنشر، ط١ نيسان ٢٠٠٢م، ص٢٦.

(٩) أريك لورو، مرجع سابق، ص٢٢٢.

(١٠) فيصل حوراني: **الفكر السياسي الفلسطيني ١٩٦٤-١٩٧٤**، مركز الأبحاث م. ت. ف، بيروت، ١٩٨٠م، ص١٩٥.

(١١) المكتب السياسي للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين: البرنامج المرحلي (١٩٧٣-١٩٧٤)م، مرجع سابق، ص١٤.

(١٢) بلال الحسن: **علامات الطريق في التفاوض الفلسطيني ــ الإسرائيلي**، بيروت، مجلة الدراسات الفلسطينية، عدد ٨٤، خريف ٢٠١٠، ص١٨.

(١٣) جريدة النهار البيروتية ١٩٧٣/٧/٦.

(١٤) د. طلال ناجي ــ **أزمة النظام السياسي الفلسطيني**، دار الأمام للدراسة والنشر والوثيق، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م، ص١٨.

(15) أخيل: هي مؤخرة عقب التمثال وهي أضعف نقطة فيه.

(١٦) طلال ناجي، مرجع سابق، ص١٩.

(١٧) أسعد غانم، **دولة فلسطينية إسرائيلية ثنائية قومية نحو حل اتحادي للمسألة الفلسطينية ــ الإسرائيلية، مجلة الدراسات الفلسطينية**، بيروت، عدد ٤١ شتاء ٢٠٠٠، ص٤٨.

(١٨) تقرير واشنطن: **حلّ الدولتين يحقق الأمن لإسرائيل**، الكاتب الأمريكي ستيفن وولت، ترجمة: إيمان مصطفى عبد القادر.

www.souriaalghad.net.

(١٩) دراسة لمعهد بيغن ــ السادات: **٣ مقاربات إسرائيلية للتسوية مع الفلسطينيين**، إعداد: محمد خلف، الوطن، الكويت (١١-٢٠٠٩/٣/١٥م) وأعاد نشرها (www.alzaytouna.net).

(٢٠) المكتب السياسي للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، الطريق الوعر، نظرة على المفاوضات الفلسطينية «الإسرائيلية» من مدريد إلى أوسلو، شركة دار التقدم العربي للصحافة والطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ص٦٠.

(٢١) المصدر نفسه، ص١٩.

(٢٢) حسن نافعه وآخرون: **المجتمع الدولي والقضية الفلسطينية**، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٩٣م، ص٤٤٩.

(٢٣) أيمن يوسف: **النظام السياسي الفلسطيني** (١٩٩٦-٢٠٠٦)م (بيروت – مجلة المستقبل العربي – العدد ٣٣٤ ك، ٢٠٠٦م، ص٤٢).

(٢٤) المكتب السياسي للجبهة الديمقراطية – خمس سنوات على اتفاق أوسلو، بيروت، شركة دار التقدم العربي، ط١، ١٩٩٩م، ص٨٧.

(٢٥) كمال الخالدي، **فكرة دولة ثنائية القومية في فلسطين**، مقالة في كتاب مشروع رؤية سياسية فلسطينية جديدة، بيروت، منشورات أجراس العودة، ٢٠٠٨م، ص٦٥.

(٢٦) المصدر نفسه، ص٦٦.

(٢٧) إدوارد سعيد، **الحقيقة والمصالحة**، مشروع رؤية سياسة فلسطينية جديدة، مرجع سابق، ص٩٢.

(٢٨) أسعد غانم، **دولة فلسطينية – إسرائيلية ثنائية القومية – نحو حل اتحادي للمسألة الفلسطينية الإسرائيلية**، مصدر سابق، ص١٥.

(٢٩) آري شافيط: **مقابلة مع عزمي بشارة** «سجال حول فكرة الدولة ثنائية القومية»، كما أن المقابلة نشرت في هاآرتس في ١٩٩٨/٥/٢٩م والنص المنشور مأخوذ

عن مجلة الدراسات الفلسطينية «بيروت» العدد ٣٤ صيف ١٩٩٨م، ص١٤٣-١٥٩.

(٣٠) «ناثان جي براون». **زوال حل الدولتين**، تقرير أعدته «مؤسسة كارينغي للسلام الدولي»، الحقائق ٢٠٠٨/٦/٢، ص٢٥٠.

(٣١) د. حسن نافعة وآخرون، **المجتمع الدولي والقضية الفلسطينية**، مرجع سابق، ص٦٤-٦٥.

(٣٢) سمر بهلوان، محمد حبيب صالح، **تاريخ القضية الفلسطينية**، منشورات جامعة دمشق، ط٢، ٢٠٠٣، ص٤٠٤.

(٣٣) المرجع نفسه، ص٤٠٢.

(٣٤) حسن نافعة وآخرون، مرجع سابق، ص٦٦، ٦٧.

(٣٥) محمود عباس: **طريق أوسلو**، بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط١، ١٩٩٥م، ص٢٦-٢٧.

* الشخصيات المقرَّبة من الراحل ياسر عرفات.

(٣٦) حسين السيد حسين – محمد حسون: **القضية الفلسطينية والصراع العربي الصهيوني**، منشورات جامعة دمشق، (٢٠١٠-٢٠١١)م، ص٢٨٤.

(37) White house, "President Discusses Middle East peace with prime Minster Sharon", (http:www.whitehouse.gove/neas/releases/2003 july 2003.

(٣٨) إذاعة لندن ٢٠٠٦/١/٢٨، **وكالة الأنباء الفرنسية** ٢٠٠٦/٢/٢٧م، الجزيرة نت ٢٠٠٦/١/٢٧م.

(٣٩) علي الحرباوي: **فلسطين والرحلة الجديدة**، مركز الدراسات الفلسطينية، بيروت، ٢٠٠٦م، ص١٦.

(٤٠) عبد الإله بلقزيز: **حماسة وفتح والرسالة لعبة الأخطار القاتلة.**، المستقبل العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦م، ص٢٤.

(41) Steven Erlanger, "U.S. and Israelis are said to talk of Hamas Ouster", in the New York Times newspaper, 14/2/2006, in:
http://www.nytimes.com/14/02/2006/international/middleeast/14mideast.html? hp andex 1139979600 and partner = homepage.

(42) Normun Podhoretz, World war: How it started, what it means, and why we have to win, commentary September 204.

(٣) خالد مشعل رئيس المكتب السياسي لحركة (حماس) مداخلة في حلقة نقاش بعنوان: **ازدواجية لنظام السياسي**، مركز دراسات الغد العربي، دمشق، ط١، ٢٠٠٦م، ص٩٠.

(٤٤) خالد مشعل، المصدر نفسه، ص١٠٦.

(45) The Washington times, December, 20-2006.

(٤٦) جميل هلال: **«بعد الحرب، فلسطين بحاجة غلى بنية سياسية جديدة»**، (مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد ٧٧ شتاء ٢٠٠٩، ص٤٢-٤٣).

(٤٧) د. محسن محمد صالح، **التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة ٢٠٠٩م** (تحرير) د. محسن محمد صالح، الناشر (مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات)، بيروت، ط١، حزيران/ يونيو ٢٠١٠م، ص٣٥.

المصادر والمراجع المعتمدة

١. إذاعة لندن ٢٠٠٦/١/٢٨، وكالة الأنباء الفرنسية ٢٠٠٦/٢/٢٧م، الجزيرة نت ٢٠٠٦/١/٢٧م.

٢. آري شافيط: مقابلة مع عزمي بشارة «سجال حول فكرة الدولة ثنائية القومية»، كما أن المقابلة نشرت في هاآرتس في ١٩٩٨/٥/٢٩م والنص المنشور مأخوذ عن مجلة الدراسات الفلسطينية «بيروت» العدد ٣٤ صيف ١٩٩٨م.

٣. أريك لورو، فلسطيني بلا هوية، لقاءات مع صلاح خلف، ترجمة نصير مروة، بيروت، ط١، ١٩٨٥م، بدون دار نشر.

٤. أسعد غانم مجلة الدراسات الفلسطينية، بيروت، عدد ٤١، شتاء ٢٠٠٠.

٥. أسعد غانم، دولة فلسطينية إسرائيلية ثنائية قومية نحو حل اتحادي للمسألة الفلسطينية، مقالة في كتاب مشروع رؤية سياسية فلسطينية جديدة، بيروت، منشورات أجراس العودة، ٢٠٠٨م.

٦. أيمن يوسف: النظام السياسي الفلسطيني (١٩٩٦-٢٠٠٦)م (بيروت ـ مجلة المستقبل العربي ـ العدد ٣٣٤ ك، ٢٠٠٦م).

٧. بلال الحسن: علامات الطريق في التفاوض الفلسطيني ـ الإسرائيلي، بيروت، مجلة الدراسات الفلسطينية، عدد ٨٤، خريف ٢٠١٠.

٨. تقرير واشنطن: حلّ الدولتين يحقق الأمن لإسرائيل، الكاتب الأمريكي ستيفن وولت، ترجمة: إيمان مصطفى عبد القادر.

٩. جريدة النهار البيروتية ١٩٧٣/٧/٦.

١٠. جميل هلال: بعد الحرب، فلسطين بحاجة غلى بنية سياسية جديدة، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد ٧٧ شتاء ٢٠٠٩.

١١. حسن نافعه وآخرون: المجتمع الدولي والقضية الفلسطينية، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٩٣م.

١٢. حسين السيد حسين – محمد حسون: القضية الفلسطينية والصراع العربي الصهيوني، منشورات جامعة دمشق، (٢٠١٠-٢٠١١)م.

١٣. خالد الحسن: مقدم كتاب «قضية السلام الشائك»، صحيفة الحياة، ١٩٩٣/١/١٥.

١٤. خالد مشعل رئيس المكتب السياسي لحركة (حماس) مداخلة في حلقة نقاش بعنوان: ازدواجية لنظام السياسي، مركز دراسات الغد العربي، دمشق، ط١، ٢٠٠٦م.

١٥. دراسة لمعهد بيغن – السادات: ٣ مقاربات إسرائيلية للتسوية مع الفلسطينيين، إعداد: محمد خلف، الوطن، الكويت (١١-٢٠٠٩/٣/١٥م) وأعاد نشرها (www.alzaytouna.net).

١٦. طلال ناجي – أزمة النظام السياسي الفلسطيني، دار الأمام للدراسة والنشر والوثيق، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م.

١٧. عبد الإله بلقزيز: حماسة وفتح والرسالة لعبة الأخطار القاتلة.، المستقبل العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦م.

١٨. علي الحرباوي: فلسطين والرحلة الجديدة، مركز الدراسات الفلسطينية، بيروت، ٢٠٠٦م.

١٩. فيصل الحوراني: «نشأة الحركة الوطنية الفلسطينية وتطورها حتى نهاية القرن العشرين، ورقة مقدمة إلى الندوة الفكرية السياسية، خبرات الحركة السياسية الفلسطينية في القرن العشرين». (غزة: المركز القومي للدراسات والتوثيق، ٢٠٠٠م).

٢٠. فيصل حوراني: الفكر السياسي الفلسطيني ١٩٦٤-١٩٧٤، مركز الأبحاث م. ت. ف، بيروت، ١٩٨٠م.

٢١. كمال الخالدي، فكرة دولة ثنائية القومية في فلسطين، مقالة في كتاب مشروع رؤية سياسية فلسطينية جديدة، بيروت، منشورات أجراس العودة، ٢٠٠٨م.

٢٢. محسن محمد صالح، التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة ٢٠٠٩م (تحرير) د. محسن محمد صالح، الناشر (مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات)، بيروت، ط١، حزيران/ يونيو ٢٠١٠م.

٢٣. محمود عباس: طريق أوسلو، بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط١، ١٩٩٥م.

٢٤. المصدر: وكالة أنباء «عمّون» ammonnews.net ١/٥/٢٠١٠.

٢٥. المكتب السياسي للجبهة الديمقراطية ــ خمس سنوات على اتفاق أوسلو، بيروت، شركة دار التقدم العربي، ط١، ١٩٩٩م.

٢٦. المكتب السياسي للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين: البرنامج المرحلي (١٩٧٣-١٩٧٤)م، صراع ــ وحدة في المقاومة الفلسطينية، الدار الوطنية الجديدة، دمشق، ط١، نيسان ٢٠٠٢م.

٢٧. المكتب السياسي للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، البرنامج المرحلي ١٩٧٣-١٩٧٤م، بيروت: شركة التقدم العربي للصحافة والطباعة والنشر، ط١ نيسان ٢٠٠٢م.

٢٨. المكتب السياسي للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، الطريق الوعر، نظرة على المفاوضات الفلسطينية «الإسرائيلية» من مدريد إلى أوسلو، شركة دار التقدم العربي للصحافة والطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

٢٩. ناثان جي براون». زوال حل الدولتين، تقرير أعدته «مؤسسة كارينغي للسلام الدولي»، الحقائق ٢/٦/٢٠٠٨.

1. White house, "President Discusses Middle East peace with prime Minster Sharon", (http:www.whitehouse.gove/neas/releases/2003 july 2003.
2. Steven Erlanger, "U.S. and Israelis are said to talk of Hamas Ouster", in the New York Times newspaper, 14/2/2006, in:
3. Normun Podhoretz, World war: How it started, what it means, and why we have to win, commentary September 204.
4. The Washington times, December, 20-2006.
5. www.souriaalghad.net.
6. http://www.nytimes.com/14/02/2006/international/middleeast/14mideast. html? hp andex 1139979600 and partner = homepage.

مسيرة تحديث المجتمع الليبي في العهد الملكي (١٩٦٠-١٩٦٩) التنمية الاقتصادية والاجتماعية نموذجاً

الدكتور محمود العارف قشقش

جامعة المرقب – ليبيا

يدل تاريخ ليبيا الاقتصادي على أنها كانت دائماً تعاني من وجود عجز مالي في جميع مرافقها الاقتصادية، حتى أن المراقبين للاقتصاد الليبي وصفوه بأنه اقتصاد عاجز، وكان العجز المالي شاملاً لجميع الأنشطة الاقتصادية، ومن سوء حظ الاقتصاد الليبي في الماضي، غياب الاستثمارات الخارجية لتغطية عجزها(١).

إضافة إلى أن المشروعات الاقتصادية سواء كانت زراعية أو صناعية وحتى القوى الكهربائية، عانت عجزاً في ميزانياتها، هذا العجز الفردي الذي كان يظهر واضحاً في كل مشروع على حدة، إنما يعكس حقيقة هامة وهي أن الاقتصاد الليبي كان يتسم بطابع خاص يمكن أن نطلق عليه اقتصاد عاجز(٢). وكانت الطريقة الوحيدة لمعالجة هذا العجز هي الاعتماد على المساعدات والهبات والمصاريف العسكرية واستثمارات الدول الأجنبية(٣).

وبصدور قرار الأمم المتحدة رقم /٢٨٩/ في ٢١ نوفمبر ١٩٤٩، والذي ينص على أن ليبيا والتي تشمل برقة وطرابلس الغرب وفزان، يتعين أن تصبح دولة ذات سيادة قبل أول يناير ١٩٥٢(٤).

وفي نفس الوقت أصدرت الأمم المتحدة قراراً آخر في ١٧ نوفمبر ١٩٥٠ طلبت فيه من المجلس الاقتصادي والاجتماعي والوكالات المتخصصة تقديم المعونة الاقتصادية إلى ليبيا.

وفي ٢٤ ديسمبر ١٩٥١، أعلن استقلال ليبيا بناءً على قرار الأمم المتحدة رقم ٢٨٩، وخرجت هذه الدولة إلى الوجود دون أية دائم اقتصادية تمكنها من الاعتماد على نفسها، وكان هذا الاقتصاد طبقاً للمعطيات السابقة اقتصاد الكفاف[٥].

وعلى العموم فإن كانت الطبيعة قد شددت النكير على ليبيا جدباً وجفافاً، فإنها بالرغم من ذلك كانت أرضها تحتوي على ينابيع غزيرة وكبيرة من النفط.

وبالتالي فإن الحكومة الليبية مجرد أن بدأت في تصدير النفط حتى أخذ مدخولها بالتزايد، أخذت تعمل على الاستفادة من إيراداته وتم استغلالها على أحسن وجه متمثلة في صرف مبالغ طائلة لتنمية الزراعة والصناعة والتعليم والصحة والخدمات العامة وتتمثل في الآتي.

١- التنمية في قطاع الزراعة:

في خطة التنمية الاقتصادية والاجتماعية الأولى، أولت الحكومة الزراعية اهتماماً بالغاً، وذلك لأن أكثر من نصف العمال الليبيين يعملون في الزراعة أو في الميادين المتصلة بها، وبالرغم من ذلك كان الإنتاج الزراعي في عام ١٩٦٠ حوالي (٢٦%) فقط من مجمل الإنتاج المحلي – الذي قدر بمبلغ (٦٢) مليون جنيه – وإذا ما حسبنا أن عدد الأشخاص الذين يعتمدون على الزراعة بصورة مباشرة هو (٨٥٤,٧١٧) نسمة كما يوضحه التعداد الزراعي لعام ١٩٦٠ بالقياس إلى مجمل عدد السكان الذي قدر بـ (١,١٩٥,٠٠٠) في عام ١٩٦٠، فإن متوسط دخل الفرد الواحد من السكان الذين يعملون في غير القطاع الزراعي وهو حوالي (٣٥ ج. ل)[٦].

إذن يتضح أن الفرق بينهما كبير جداً، ولو أن انخفاض الدخل الفردي نسبياً هو أمر يقترن عادة بسكان الأرياف في كافة أرجاء العالم تقريباً، ثم إنه يجب اعتبار هذه الأرقام مجرد أرقام تقريبية، لذلك كان من الضروري اتخاذ تدابير حاسمة وفعالة[٧].

ومن التدابير التي سعت الخطة إلى اتخاذها، العمل بقدر الإمكان على تقليل ما تستورده ليبيا من الأغذية المختلفة بكميات متزايدة، وكذلك معالجة العوامل العديدة التي تحول دون تحسين الزراعة وزيادة الإنتاج الزراعي، كمشكلة تجزئة الأراضي الزراعية، ومشكلة ملكية الأراضي، وإيجاد حل لها، وذلك بالعمل على توحيد الملكيات المجزئة، وإصدار الوثائق الخاصة بهذه الأراضي وملكيتها، وزيادة مساحة المكليات المزروعة لضمان زيادة الإنتاج، وحتى يتسنى تطبيق الطرق والأساليب الفنية الزراعية المستحدثة، وحشد كافة الجهود الممكنة لتنمية وحفظ التربة وموارد المياه التي تمثل جانباً هاماً من جوانب التخطيط الإنماء الزراعي، وإيجاد حل للمشاكل الاقتصادية المختلفة التي تتعلق بالزراعة، مثل التسويق، والنقل، والتسهيلات المستحدثة لكافة أنواع التسليف والائتمان الزراعي، والعمل على تحسين المستوى الغذائي والأحوال الاجتماعي لسكان الريف الدعوة إلى القيام بكافة الإجراءات الفعالة من أجل تحسين شامل في هذا المجال[٨].

هذا بالإضافة إلى أن البلاد كانت تعاني نقصاً في المواد الغذائية التي يتم إنتاجها محلياً، إلا أن هذا النقص ليس هو السبب الذي يدعو في حد ذاته إلى ضرورة العمل على زيادة الإنتاج الزراعي، بل يجب أن يقترن هذا القول بالحقيقة الثابتة، وهي أن غالبية الشعب الليبي يعمل بالزراعة – وإن كانت على الأغلب تقوم بسد الاحتياجات المعيشية، وعندئذٍ يتضح لنا أن الضرورة تقضي بتعميم الخبرات الناجمة عن إيرادات النفط والأخذ في الزيادة على نحو يكفل تحسين الأحوال الاقتصادية والاجتماعية لهذه الغالبية الكبرى من السكان[٩].

ويمكن اختصار السياسة الزراعية التي انتهجتها الحكومة فيما يلي:

- توفير الغذاء لجميع السكان وتحسين المستوى الغذائي بواسطة رفع مستوى الإنتاج الزراعي كماً ونوعاً.
- استصلاح أراضٍ جديدة وتهيئتها للمزارعين.
- تحسين أحوال المزارعين الاقتصادية بتثبيت أسعار بعض المنتجات الرئيسة.
- ربط تصدير واستيراد المنتجات الزراعية بعجلة التنمية الاقتصادية في مجموعها.
- توفير المنتجات الزراعية الأولية اللازمة الصناعات الزراعية.
- تأمين مصادر ووسائل التمويل المناسبة للمزارعين.
- توفير التسهيلات والخدمات التعليمية والتدريبية للمزارعين بما في ذلك التدريب الزراعي الأساسي.
- ضمان حفظ المياه والتربة وتنمية موارد المياه.
- استخدام أساليب البحث العلمي والاختبارات العصرية للتوصل إلى الطرق والأساليب الملائمة.
- تشجيع المزارعين على الاشتراك في التعاونيات الزراعية(١٠).

ومن أهم بنود الخطة هو تمليك الأراضي الزراعية واستصلاحها، والفلسفة التي ينطوي عليها هذا المشروع هي تنمية مجتمع متكامل يعتمد على إمكانياتها، بحيث تستند هذه التنمية إلى اقتصاد زراعي سليم وتحقيقها هو بمثابة خطوة رئيسة نحو تنمية الريف والنهوض به. وقد وضع اعتماد لاستصلاح ما يقارب (٤٦٠٠) مزروعة من المزارع الإيطالية السابقة ولإنشاء (٦٥٥) مزرعة جديدة بالإضافة إلى تنمية

واستطيان منطقة بئر الغنم بطرابلس ولإعادة تشجير مناطق مصاريف المياه بوادي المجنين، وفي برقة يقضي المشروع بتعمير وتنمية ما يقارب (١٨٠٠) مزرعة من مزارع الجبل الأخضر المعروف بمزارع أنتي سابقاً. ومن وضع خطط عملية فنية لتنمية هذه الأراضي ولتشجيع وجود زراعة ثابتة فيها(١١).

كما اهتمت الحكومة بانتهاج سياسة فيما يتعلق بتحديد أسعار مناسبة لبعض المحاصيل الزراعية الرئيسة وهي بمثابة حماية لمصالح المزارعين وحافز لهم على زيادة إنتاجهم من المحاصيل الرئيسة وتقضي هذه السياسة بتأمين وجود احتياطي من المحاصيل تلبية احتياجات البلاد أو ما يتعلق منها بشراء الفائض من هذه المحاصيل إذ زاد مقدارها عن طلب السوق المحلية، وركزت الخطة على بندين رئيسن، وأولهما هو شراء وتخزين مقدار من الغلال يفي باحتياجات البلاد لمدة ستة شهور كاحتياطي للطوارئ، وثانيهما هو وضع اعتماد لتدعيم أسعار المنتجات الزراعية كحافز لزيادة الإنتاج، وهذا الاحتياطي يعتبر ضرورياً حيث إن ليبيا لا تنتج سوى (٢٠%) فقط من احتياجاتها من القمح(١٢).

وأهم بند يلي ذلك هو تحسين تسويق الزيوت النباتية. ومن أجل تنفيذ نصوص قانون الزيوت النباتية الذي صدر بمرسوم ملكي في أواخر عام ١٩٦١. وتماشياً مع سياسة الحكومة التي اتبعت بشأن الزيت الزيتون المنتج في عام ١٩٦١، وعلى ضوء الخبرة، فقد وجد من الأنسب استمرار سياسة تثبيت أو تدعيم سعر زيت الزيتون وتشجيع إنتاج الزيوت النباتية الأخرى لفائدة المزارعين والمستهلكين على السواء(١٢).

وقد أنشئت مؤسسة الاستيطان الزراعي وفقاً للقانون الصادر في يوليو ١٩٦٣، وذلك استجابة للحاجة الملحة التي لمستها الدولة الدولة وما تدعو إليه من وجوب النهوض بالقطاع الزراعي بصورة عامة والريف والدواخل بصورة خاصة، والمؤسسة في سبيل تحقيق رسالتها التي أنيطت بها، قامت منذ نشأتها بإعداد الخطط والبرامج

المدروسة على الدراسات الفنية والاجتماعية والزراعية. ومن هذه الدراسات تحليل التربة وموارد المياه ومسح الأراضي ورسم الخرائط وتعمير الأراضي وإصلاحها وإقامة مناطق زراعية جديدة على أسس علمية حديثة تحقيقاً للاستقرار وربط المزارع الريفي بأرضه وتوفير كافة الاحتياجات له في منطقته. وبهذا استطاعت هذه المؤسسة إنشاء عدة مزارع وإصلاحات أخرى تم إنشاؤها في مختلف أنحاء البلاد حيث زودت جميعها بكل الوسائل اللازمة والمرافق الضرورية.

ومن المشاريع التي حققتها مؤسسة الاستطان الزراعي: مشروع الساعدية ويحتوي على (٦٠) مزرعة مجهزة، ومشروع صبراتة ويحتوي على (٥٥) مزرعة، ومشروع جندوبة ويحتوي على (٢٥٠) مزرعة، وقد تم استصلاح (٧٠٠) مزرعة في منطقة الجبل الأخضر، و(٧٧٠) مزرعة في منطقة مصراتة، و(٢٤٠) مزرعة في منطقة ترهونة[١٣].

كما اهتمت الحكومة بتنمية موارد المياه وحفظ التربة، فمصادر المياه الجوفية المعروفة قليلة وشحيحة. وماء المطر الذي يسقط خلال فصل الشتاء القصير كثيراً ما يكون غير كافٍ بل قليل الفائدة، هذا بالإضافة إلى تكرار فترات جفاف تمتد أحياناً إلى ثلاث أو أربع سنوات مما ينتج عنه انخفاض أعداد الماشية وشل نشاط وأعمال معظم المزارعين، كما أن هناك أيضاً مشكلة الانخفاض العام في منسوب المياه الجوفية نتيجة تبذير المياه، ففي ابن غشير مثلاً انخفض منسوب المياه (١٥) متراً، كما أدى الإفراد في استعمال الماء في المناطق الساحلية إلى تسرب ماء البحر إلى المياه الجوفية العذبة، وتلوث هذه المياه العذبة بماء البحر المالحة غير صالحة للاستهلاك البشري والحيواني، وبل وغير صاحلة حتى للري[١٤]. وقد خصصت الحكومة من ميزانيتها الاستثنائية للتنمية لتحسين مشاريع الري وحفر الآبار، والجدول التالي يوضح ذلك.

الجدول (٤٥)

المبالغ التي خصصتها الحكومة من ميزانيتها الاستثنائية لتنمية مشاريع الري وحفر الآبار

المشروع	التكاليف (بالجنيهات الليبية)
مشروع الري بمدينة درنة	١٣٥,٠٠
مشروع الري في المناطق المجاورة لمدينة درنة	٢٩,٦٠٠
مشروع الري بمنطقة بنغازي الساحلية	٣١,٥٠٠
مشروع الري بمنطقة المرج	٩٨,٠٠٠
مشروع الري بمنطقة أجدابيا	٤٠,٠٠٠
مشروع الري مشروع الري بئر الغنم	١٠,٠٠٠
مشروع الري بمنطقة هون	٩٠,٠٠٠
مشروع الريبوادي عقفال	٨٠,٥٠٠٠
بمنطقة تراغن	٢١٦,٠٠٠
مشروع الري بمنطقة وادي قطة	٧٥,٠٠٠

المصدر: طرابلس الغرب، ٢٤ يناير ١٩٦٣، العدد ٣٢٢.

وعملت الحكومة أيضاً على تنمية الغابات والمراعي وتثبيت كثبان الرمل بأقل التكاليف الممكنة، وقدمت معونات إلى المزارعين الذين يقومون بتثبيت الكثبان الرملية، وعقد اتفاق بين شركة إستوستاندر ومصلحة الغابات لولاية طرابلس على القيام ببرنامج لتثبيت الكثبان الرملية وتشجير المناطق الصحراوية، باستعمال المنتجات البترولية والطرق الفنية التي ابتكرتها شركة إسو للأبحاث، بدأت في أعمالها خلال السنوات ١٩٦٠-١٩٦١، بعد دراسة تكوين الكثبان الرملية وتحسين منتجات التثبيت البترولية، وأجريت التجارب منطقة الحشان (غرب طرابلس حوالي ٤٠ كيلومتر)، كما

أجريت تجارب في منطقة عين زارة والقربولي[١٥]. كما قامت الحكومة بدعم أجهزة الإرشاد والتثقيف الزراعي لما له من قيمة في هذا المجال، فقد دعم القطاع الزراعي أجهزته التثقيفية المنتشرة في البلاد كي تقوم هذه الأجهزة بتقديم الخدمات الضرورية والمساعدات الفنية للمزارعين عن طريق تزويدهم بالمبيدات والمعدات اللازمة لوقاية المزروعات، وقد أقامت أجهزة الإرشاد عشر مزارع نموذجية في مناطق متفرقة لتطبيق الأساليب الزراعية الحديثة على مقربة من الفلاحين، ولتحسين المنتوجات الزراعية، خصصت الحكومة مبالغ مالية لإنشاء عدة مشاريع من أهمها: إنشاء منطقة كحقل تجارب في زراعة المنتوجات الزراعية بمبلغ وقدره (١٠,٠٠٠) جنيه ليبي، ومشروع لتربية وتحسين النسل للدواجن والمواشي بمبلغ (١٠٠,٠٠٠) ج. ل، ومشروع للإرشاد الزراعي وتوفير الخدمات الاجتماعية والصحية والتعليمية للمزارعين بمبلغ (٢٤٠,٠٠٠) ج.ل بولاية فزان[١٦].

بالإضافة إلى المشاريع الزراعية التي عملت الحكومة على تنميتها وهناك مشاريع زراعية أخرى تم تنفيذها تحت إشراف وزارة شؤون البترول وبعض الوزارات المختصة الأخرى من بينتها مشروع التطوير الزراعي، وهو أحد الميزات الإضافية التي تقدمت بها شركة اكسيدنتال ضمن طلبها للحصول على عقود امتياز بترولية في ليبيا[١٧].

ولقد تعهدت هذه الشركة عند توقيع عقدي الامتياز رقم (١٠٢، ١٠٣) أن تخصص نسبة من الأرباح قبل خصم الضرائب الليبية للتطوير الزراعي في البلاد، وطبقاً لذلك فقد وُقّع عقد التنفيذ لمشروع جاء فيه: (تعهد الشركة بأن تخصص قبل خصم الضرائب الليبية نسبة ٥% من الأرباح الصافية لمبيعات النفط الخام الذي تنتجه الشركة من عقود امتياز (١٠٢-١٠٣)، وتخصص هذه النسبة للتطوير الزراعي في واحة الكفرة أو أية منطقة أخرى، على أن يكون تنفيذ هذا المشروع بالاتفاق بين الشركة والجهات المختصة بالحكومة الليبية)[١٨].

وعلى هذا الأساس فقد بدأت الشركة بدراسة مبدئية لمنطقة الكفرة في أوائل سنة ١٩٦٧ بحفر الآبار للتأكد من توفر كميات المياه الصالحة والكافية لتنفيذ المشروع، ودراسة شاملة للتربة ونوعها ومدى صلاحيتها للتطوير، وساعد هذا المشروع على تطوير طرق الري الموجودة بالمنطقة ووفر مياه الشرب الصالحة لسكان المناطق التي يقوم عليها[١٩].

وبدأ تنفيذ المشروع في يونيه عام ١٩٦٨ بزراعة (١٠٠) هكتار من البرسيم، و(١٠٠) أخرى من الشعير والقمح، واعتمد في الري على تجربة آلة الري المحوري التلقائية التي تروي ما بين (١٠٠,٥٥) هكتاراً دون الحاجة إلى اليد العاملة[٢٠].

وبعد قيام الثورة تبنت المشروع باستحداث خطة عاجلة تمثلت في إصلاح واستزراع (١٠) آلاف هكتار من الحبوب، وحفر (١٠٠) بـأثر عميقة للري[٢١].

ومن أهم المشاريع الزراعية الكبرى بعد مشروع الكفرة، مشروع الجبل الأخضر وتقدر مساحته بحوالي (١,٢) مليون هكتار. وقد قامت مؤسسة الإصلاح الزراعي وتعمير الأراضي في عام ١٩٧٠ العمل بالمشروع بتكاليف (٨,٢) مليون دينار[٢٢].

ثم مشروع سهل الجفارة، مشروع تاورغاء، مشروع غوط السلطان، مشروع الهضبة الخضراء، مشروع قرية القوارشة، ومشاريع وادي الآجال – الشاطئ – تراغن[٢٣].

٢- تنمية الثرو ةالحيوانية:

تعتبر تنمية الثروة الحيوانية من الأركان الهامة للاقتصاد الليبي فإنتاج المواشي كان دائماً أهم الثروات في ليبيا تعتمد عليها نسبة كبيرة من الشعب في معيشتها، والمواشي تؤمن للشعب طعاماً ذا قيمة غذائية عالية، ومنتوجاتها من صوف وجلود تشكل المادة الخام للصناعات الوطنية، كصناعة المواد الجلدية، وصناعة البسط والسجاجيد والملابس الصوفية، كما تصنع منها منتوجات كثيرة للتصدير، وقد كانت

ليبيا من أهم الأقطار المصدرة للماشية في حوض البحر المتوسط، وخاصة الجمال والأغنام، ولكن اضطرت فيما بعد إلى استيراد المواشي لسد احتياجات الاستهلاك المحلي، وقد نشأ هذا الوضع بسبب ارتفاع مستوى المعيشة الذي أدى إلى ازدياد استهلاك اللحوم. وقد أدى استيراد المواشي إلى إضافة مشاكل جديدة إلى المشاكل الزراعية القائمة من قبل. فقد كانت البلاد خالية من الأمراض الوبائية الشائعة بين المواشي في القارة الإفريقية، مما دعا الحكومة إلى فرض رقابة مشددة للحجر والتفتيش الصحي، حتى لا تدخل للبلاد أمراض حيوانية جديدة عن طريق المواشي المستوردة. وقد جرت عدة محاولات لتحسين سلالات المواشي، وخاصة الأبقار والأغنام، بقصد تكبير حجمها، وزيادة إنتاجها للحليب، وتحسين نوعية صوفها، وذلك عن طريق انتخاب أحسن السلالات بموجب عمل علمي سليم يخضع للمراقبة، كما قامت الحكومة بتوسيع الخدمات البيطرية، فشملت المناطق النائية، وزيادة عدد البيطريين المستخدمين، وتم وضع برنامج محكم للتدرب في البلاد وخارجها، وتحضير لقاحات معينة منتخبة والقيام بحملات واسعة لتجريع وتغطيس الحيوانات لإزالة الطفيليات المعدية والجلدية(٢٤).

كما أنشأت العديد من المختبرات المركزية لتحضير الأمصال وتشخيص أمراض المواشي وغيرها من الحيوانات، وأجريت دراسات في الأغذية الحيوانية المركزة، كما أُنشئت مختبرات ميدانية متحركة إجراء التجارب والأبحاث، وإنتاج وتوزيع علف المواشي على نطاق واسع وإقامة المنشآت والخدمات الإدارية اللازمة لمثل هذا البرنامج(٢٥).

ومن أجل وقاية البلد من أمراض المواشي المستوردة، أُنشئت محطات حجر في الموانئ الرئيسة. وتشجيع إنتاج الدواجن والحيوانات الصغيرة، وتوسيع هذه الصناعة بقصد رفع مستوى القيمة الغذائية للحوم والبيض، مما يؤدي إلى سد قسط الصناعة كبير من حاجة الشعب إلى الأغذية البروتينية. وقد تم اعتماد مبالغ معقولة لتطوير هذه الصناعة بالنسبة للقطاعين العام والخاص. كما تم تدريب ما لا يقل عن خمسين

بيطري ليبي، واستيراد سلالات مناسبة من المواشي، وإنشاء الحظائر ومراكز التوالد، وإنتاج العلف والتدريب ومعدات المختبرات البيطرية، والآلات والمعدات، ومن جملتها المعدات اللازمة للتغطيس والتجريع والرش، وتوسيع مركز الهلال الأزرق والخدمات العامة الإضافية في برقة، واشتمل المشروع على توسيع وتطوير تربية النحل في منطقة رأس الهلال. والجدول التالي يوضح مجمل مخصصات الزراعة للسنوات ١٩٦٣-١٩٦٤-١٩٦٥.

الجدول رقم (٤٦)

مجمل مخصصات الزراعة للسنوات ١٩٦٣-١٩٦٤-١٩٦٥.

	المشروع	التكاليف (ج.ل)	%
١	الاستطيان الزراعي	١٠,٠٠٠,٠٠٠	%٣٤,١
٢	التسويق الزراعي	٣,٥٠٠,٠٠٠	%١١,٩
٣	تنمية موارد المياه وحفظ التربة	٣,٥٠٠,٠٠٠	%١١,٩
٤	الآلات الزراعية	٢,٥٠٠,٠٠٠	%٨,٥
٥	تنمية الغابات والمراعي	٢,٠٠٠,٠٠٠	%٦,٨
٦	تنمية الثروة الحيوانية	١,٥٠٠,٠٠٠	%٥,١
٧	الإرشاد الزراعي	٨٠٠,٠٠٠	%٢,٧
٨	البستنة	٥٠٠,٠٠٠	%١,٧
٩	مكافحة الأمراض والآفات الزراعية	٤٠٠,٠٠٠	%١,٣
١٠	الأبحاث والتجارب الزراعية	٧٠٠,٠٠٠	%٢,٣
١١	الإحصاء الزراعي	٧٥,٠٠٠	%٠,٢
١٢	التسليف الزراعي	٣,٨٠٠,٠٠٠	%١٢,٩

المصدر: المملكة الليبية. وزارة التخطيط والتنمية، خطة التنمية الاقتصادية والاجتماعية للسنوات الخمس ١٩٦٣-١٩٦٨، ص ٤٢.

٣- التنمية في قطاع الصناعة:

الصناعة في ليبيا من الصناعات الخفيفة، وتعتمد شبه اعتماد كلي على الزراعة وقد ساهمت في عام ١٩٥٨، في تأمين عشر الدخل القومي وقد تمركزت الصناعة الليبية في المدن الكبرى، كطرابلس، وبنغازي، والسبب في ذلك يعود للتركيز العمراني، ووجود المرافق العامة، بالإضافة إلى تواجد العمال المهرة، وكذلك تمركز التجارة والخدمات العامة، مما يسهل النشاط الاقتصادي. ومما لا شك فيه أن ظاهرة تمركز الصناعة في المدن تؤدي إلى نزوح الفلاحين إلى المدن، مما يعيق عملية النمو الزراعي، وهي أساس التنمية. كما تسبب في خلق أوضاع اجتماعية غير طبيعية. فالنمو المتوازن يتطلب تحقيق اللامركزية في الصناعة، وذلك بإيجاد الحوافز المناسبة لإنشاء الصناعة في الريف(٢٦).

وبعد الاستقلال مباشرة، تولت أمور الصناعة في البلاد مديرية الصناعة والمناجم في وزارة الاقتصاد الوطني، تساعدها في ذلك إدارات أخرى تابعة لوزارة الاقتصاد والمالية في الولايات. وقد اهتمت الحكومة بضرورة تنمية الصناعة لأجل استغلال الخامات المحلية وتوفير المنتوجات الصناعية. ففي سنة ١٩٥٦ صدر قانون تنمية الصناعات الوطنية، وفي سنة ١٩٥٨، صدر قانون استثمار رؤوس الأموال الأجنبية، ومن هناك تكونت لدى الحكومة فكرة إنشاء وزارة خاصة بالصناعة، وقد تحققت هذه الفكرة عام ١٩٦١، واختصت هذه الوزارة بعدة أمور أهمها: الإشراف على الصناعة، وتوفير الخدمات الصناعية، والقيام بالأبحاث الفنية والاجتماعية والاقتصادية، وتشجيع رؤوس الأموال لتوظيفها في بناء النهضة الصناعية، بالإضافة إلى مد المواطنين بالقروض الصناعية، وقد ساهمت الوزارة في تحمل جزء كبير من تكالف توصيل الطاقة الكهربائية إلى المصانع إسهاماً منها في تنمية المشاريع الصناعية، وعملت على إنشاء المجتمعات الصناعية بهدف تجميع الصناعات في صعيد واحد لتسهيل الخدمات المختلفة التي تتطلبها(٢٧).

وللمضي قدماً في تشجيع الصناعة أنشئت عام ١٩٦٣، مؤسسة التنمية الصناعية لإقامة صناعات جديدة أو المشاركة فيها[٢٨]، مع منحها قروضاً بفوائد مخفضة، بينما كانت قروض المؤسسة وابلنك الصناعي الليبي في عام ١٩٦٣ (٣,١٩٨,٠٠٠) جنيهاً، وبلغت في ١٩٦٧/١٩٦٨ (١٥,٦٨١,٠٠٠)[٢٩].

إن السياسة العامة للصناعة لدى الحكومة تمثلت في تشجيع الصناعة الليبية في كل من القطاعين العام والخاص عن طريق إنشاء مشروعات صناعية جديدة وتنمية الصناعة القائمة، ومساعدة المشروعات الصناعية الناشئة ودعمها، والاهتمام بالصناعات الصغرى وتطويرها من الناحية التكنولوجية والاقتصادية وفقاً لاحتياجات الصناعات نفسها. ورغبةً من الحكومة في مساندة هذا التطور، فإنها عملت على إشاء مشروعات للتدريب، وذلك لرفع مستوى الكفاءة وزيادة الطاقة الإنتاجية. كما قامت بتشجيع استثمار رأس المال الخاصة في الصناعة عن طريق الإعفاء من الضرائب وغيرها من الحوافز، واتخاذ التدابير الخاصة بحماية الصناعات وتشجيعها دون أن يضر ذلك بمصلحة المستهلك في البلاد[٣٠].

وتحقيقاً لهذه الأهداف إن سياسة الحكومة الليبية تمثلت في القيام بالأبحاث العلمية والصناعية والنهوض بها، وتنمية المهارات الفنية والخبرة[٣١]، التي تتطلبلها الصناعة بواسطة التدريب، والعمل على تحقيق التوازن في النشاط الصناعي بين المناطق الريفية والحضرية، وتوفير القروض لمساعدة القطاع الخاص بفوائد منخفضة[٣٢]. ولتشجيع رأس المال الوطني في الصناعة والعمل على تهيئة الظروف الملائمة لإحداث صناعات جديدة في مختلف المناطق، وتهيئة الظروف الملائمة للعمل لهم، قامت الحكومة بإنشاء مشروع المجمعات الصناعية لتقديم التسهيلات ذات الصبغة العامة، كتوفير المياه الجارية والكهرباء والمجاري بأسعار مشجعة، ويتم إنشائها بالقرب من مناطق سكن العمال. وتقديم هذه المجتمعات الصناعية خدمات جماعية

متمثلة في مراكز التدريب والمخازن والورش والمستوصفات والمطاعم والمكتبات... الخ[٣٣].

وتواجد المجمعات الصناعية في أمكنة مختلفة من البلاد ساعد على إيجاد التوازن في التنمية الصناعية ما بين المناطق الحضرية والريفية، ويشجع سكان المناطق الريفية على الاستقرار في الريف[٣٤].

وبالطبع بعد إنشاء العديد من المصانع في مختلف أرجاء البلاد رأت الحكومة ضرورة إقامة دورات تدريب صناعي لتأهيل المواطن الليبي، تحت إشراف نخبة من المدربين يستقدمون من خارج البلاد، ويكون الإشراف على خطة التدريب الوزارة الصناعية، وهي بدورها تتشاور مع وزارتي الشؤون الاجتماعية والمعارف. وللاستمرار في تنمية الصناعة قامت الحكومة بإنشاء مركز بحوث الصناعات الصغرى وذلك لإجراء البحوث العلمية والصناعية بقصد الكشف عن المواد المحلية الصالحة للاستغلال والتوصل إلى الوسائل لكيفية استغلالها في الصناعة[٣٥].

كما اهتمت الحكومة بتنمية مصائد الأسماك والمتمثلة في خمسة أنواع وهي: المصائد الساحلية، المصائد البحرية، المصائد المتنقلة بالشباك التي تجرها سفن الصيد، مصائد التونة، مصانع الإسفنج[٣٦].

والجدول التالي يوضح مجمل مخصصات الصناعة (١٩٦٣-١٩٦٨) مجمل التكاليف ٦,٩٠٠,٠٠٠ جنيه ليبي).

الجدول رقم (٤٧) مجمل مخصصات الصناعة (١٩٦٣-١٩٦٨)

	المشروع	التكاليف	%
١	المجمعات الصناعية	٦٠٠,٠٠٠	%٨,٦
٢	التدريب الصناعي	٣٥٠,٠٠٠	%٥,٠
٣	مركز البحوث الصناعية	٣٥٠,٠٠٠	%٦,٥
٤	القروض الصناعية	٥,٠٠٠,٠٠٠	%٧٢,٤
٥	تدعيم أوجه النشاط للبحوث المعدنية	١٠٠,٠٠٠	%١,٤
٦	تنمية مصائد الأسماك	٤٠٠,٠٠٠	%٥,٧
	المجموع	٦,٩٠٠,٠٠٠	%١٠٠

المصدر: المملكة الليبية. وزارة التخطيط والتنمية، خطة التنمية الاقتصادية والاجتماعية للسنوات الخمس ١٩٦٣-١٩٦٨، ص ٤٨.

وقد بينت الإحصائيات الصناعية بأن إجمالي الإنتاج الصناعي في المنشآت الكبيرة والتي يعمل بها عشرون عاملاً فما فوق يقرب من ٢٢,٥ مليون جنيه في عام ١٩٦٧، مقابل ٢٠,١ مليون جنيه في عام ١٩٦٦، أي بزيادة أكثر من ١١%، وقد سجلت صناعة التبغ أكبر زيادة في الإنتاج حيث زادت بمقدار مليون جنيه لتكوّن نحو خمسة ملايين و٢٤٣ ألف جنيه في عام ١٩٦٧، وقد زاد إنتاج المواد الغذائية بمبلغ ٧٠٠ ألف جنيه ليصل إلى نحو خمسة ملايين و٧٦٩ ألف جنيه، أما صناعة الكيماويات ومنتجاتها فقد زاد إنتاجها بمقدار ٥٥٤ ألف جنيه ليصل إلى ثلاثة ملايين و٢٥٩ ألف جنيه. وهناك بعض الصناعات الأخرى التي قل إنتاجها خلال عام ١٩٦٧، وفي مقدمتها صناعة الآلات الكهربائية التي انخفضت بمقدار ٣٩٠ ألف جنيه، وصناعة الجلد ومنتجاته التي انخفضت بمقدار ٢٦ ألف جنيه(٣٧).

ولكن الصناعة الأوفر حظاً هي التي ارتبطت بالنفط ومشتقاته وخاصة بعد أن بدأت الشركات بتصدير النفط.

ونظرت الحكومة بعين الاعتبار في طلب تنازل بعض الشركات النفطية العاملة عن عقود الامتياز الممنوحة إلى شركة (إسو). وفي أثناء المحادثات أظهرت لجنة البترول الليبية، وهي الهيئة الحكومية المختصة بالإشراف على تنفيذ السياسة البترولية للدولة في ذلك الوقت على لسان رئيسها، رغبة الحكومة في إقامة مصفاة بترولية على ترابها بطاقة إنتاجية تغطي احتياجات البلاد الاستهلاكية من المنتجات البترولية، وقد أبدت شركة (إسو) رضاها وموافقتها، وبذلك بدأت الدراسة الخاصة بتشييد معمل التكرير تماشياً مع الفقرة الأولى من المادة ٢١ من قانون البترول الليبي(٣٨).

ولقد صمم المصنع على أساس سد الاستهلاك المحلي في ذلك الوقت من المنتجات النفطية الممكن إنتاجها بطاقة إنتاجية قدرها ٨٠٠٠ برميل يومياً، ووضعت

المواصفات الخاصة بالمنتجات النفطية على أساس المواصفات المتبعة في الجدول التي سبقت ليبيا في إنتاج وتصدير النفط(٣٩).

وقد تم اختيار منطقة البريقة كموقع لتشييد المصفاة بحكم مواقعها ولقربها من مركز تجمع النفط الخام. ويوضح الجدول التالي إنتاج مصفاة البريقة في ١٩٦٧ الآلاف البراميل.

الجدول رقم (٤٨)

إنتاج امصفاة البريقة في عام ١٩٦٧ بآلاف البراميل

١	بنزين	٣٨٨
٢	كيروسين	١٣١
٣	غاز أديل	٥٣٣
٤	زيت وقود ثقيل	٨٠٨
٥	منتجات أخرى	٦٣
٦	كميات الاستعمال المصفاة الخاص أو كميات مستهلكة	٤٥
	المجموع	١٩٦٨

المصدر: المملكة الليبية. وزارة شؤون البترول، البترول الليبي (١٩٥٤-١٩٦٧) ص ٧٢. جدول رقم (٧).

وقد بلغت تكاليف إنشاء المصفاة الإجمالية ٥,٥ مليون دولار، وتتم عملية التسويق بواسطة محطات التوزيع المنتشرة في جميع أنحاء البلاد، والنقص في كميات الاستهلاك داخل البلاد بالنسبة للمنتجات البترولية المكررة يغطى عن طريق الاستيراد الخارجي. وقد قفز الاستهلاك الليبي من المنتجات النفطية المكررة خلال فترة قصيرة بحيث أصبحت طاقة المصنع الإنتاجية التي صمم بها أقل بكثير من كميات الاستهلاك.

والجدول رقم (٤٩) يوضح استهلاك المنتجات المكررة بالبراميل اليومية للسنوات ١٩٦٢-١٩٦٧[٤٠].

الجدول رقم (٤٩)

استهلاك المنتجات المكررة بالبراميل اليومية

نوع المنتجات		١٩٦٢	١٩٦٣	١٩٦٤	١٩٦٥	١٩٦٦	١٩٦٧
١	بنزين	١٣٣٧	١٥٤٠	١٧٩٢	٢٠٦٨	٢٤٦٨	٢٧٣٦
٢	كيروسين	٤٣٥	٤٩٩	٥٩٠	٧٣٧	٧٩٧	٩١٦
٣	غاز أديل	٥٢٩	٦٥٢	٨٢٥	١٠٦٠	١١٧٥	١١٥٨
٤	زيت وقود ثقيل	٢٧٢٦	٣٢١٩	٣٥٥	٣٧٥٤	٤٦٧١	٥٣٩٦
٥	منتجات أخرى	٤٣٣	٥١٨	٦٣١	٦٨٨	٧٤٥	٨٠٧
المجموع		٥٤٦٠	٦٤٢٨	٧٣٩٣	٨٣٠٧	٩٨٥٦	١١٠١٣

المصدر: المملكة الليبية. وزارة شؤون البترول، البترول الليبي (١٩٥٤-١٩٦٧) ص ٧٣. جدول رقم (٨).

وإلى جانب صناعة التكرير هناك صناعة الغاز باعتباره من أهم مصادر الطاقة التي عرفها الإنسان، كما يشكل أهم مواد الخام الرئيسة للصناعات البتروكيميائية وخاصة صناعة الأسمدة الصلبة (الأسمدة الكيماوية). ومن المعروف أن الغاز يخرج في أغلب الأحيان مختلطاً مع النفط الخام دون توفر مرافق لاستغلاله، فأصبح لزاماً على الشركات المنتجة إيجاد وسيلة للتخلص منه، فلم يكن أمامها إلا طريقة واحدة هي فصله عن النفط الخام المستخرج، ومن ثم حرقه في الهواء ولقد استمرت هذه الحرائق في ازدياد مطرد بحيث أصبح ينظر إلى كميات الغاز الضائعة بقلق شديد والجدول التالي يوضح تصاعد كميات الإنتاج منذ عام ١٩٦١ حتى نهاية عام ١٩٦٧.

الجدول رقم (٥٠)

إنتاج الغاز الليبي(١٩٦١ – ١٩٦٧)

السنة	مليون قدم مكعب
١٩٦١	٤٢٥١
١٩٦٢	٣٧٥٣٦
١٩٦٣	١٠٨,٣٥٢
١٩٦٤	٢٢٥,٦٧٠
١٩٦٥	٣٠٣,٥٦٢
١٩٦٦	٣٥٤,٧٨١
١٩٦٧	٣٦٨,١٨
المجموع	١٤٠٢,٦٧٠

المصدر: المملكة الليبية. وزارة شؤون البترول، البترول الليبي (١٩٥٤–١٩٦٧) ص ٧٥.

ويتضح من الجدول السابق أن إنتاج الغاز قد قفز بسرعة من ٤ مليون قدم مكعب في عام ١٩٦٢ إلى ثلاثمائة مليون في سنة ١٩٦٧.

ويتميز الغاز الطبيعي الليبي بجودته وانخفاض شوائبه مما يزيد عن إمكانية تخفيض تكاليفه، ومن هنا كان لا بد من الاهتمام بهذه الثروة والعمل على استغلالها ودراسة مدى إمكانية توطن هذه الصناعات التي تعتمد أساساً على الثروة الغازية، وفي نفس الوقت كان لا بد من محاولة تقدير إمكانية توفير الأسواق اللازمة لتصريف الإنتاج المرتقب إذ أثبتت الدراسة التصنيع وبذلك بدأت المشروعات الصناعية في ظهور إلى حيز الوجود ومن أهمها:

أ- مشروع تسييل الغاز:

عملت الحكومة جاهدة بالتعاون مع شركات النفط العاملة في البلاد دراسة كيفية استغلال الغاز، ودائماً كانت شركة (إسو) السباقة حيث بدأت هذه الدراسة عندما ظهر الغاز المرافق للنفط في حقل زلطن، فكان نتيجة هذه الدراسة أن تقدمت الشركة بمشروع لاستغلال الغاز الذي كان يحرق في الهواء بإسالته ونقله إلى أسواق الاستهلاك بواسطة وسائل النقل الخاصة والملائمة، وبذلك بدأت شركة (إسو) العمل بإنشاء مصنع لإسالة الغاز الطبيعي وتسويقه في مختلف الأسواق، ولقد صمم هذ المصنع ليكون أكبر معامل تسييل الغاز في العالم، إذ تبلغ طاقته الإنتاجية في بدايته حوالي ٣٥٤ مليون قدم مكعب يومياً، ويشغل مساحة قدرها ٥٤٦٠٠ متر مربع، كما أنه يشمل أربع مبدلات للحرارة ترتفع حوالي ٦٠ متراً، وبلغت تكاليف إنشائه حوالي ٢٠٠ مليون دولار، خصص منها ١٤٠ مليون للأجهزة والمعدات، وتم اجتيازها منطقة مرسى البريقة لإقامته ولإنشاء مثل هذا المصنع الضخم، ولما كان يحتم على الشركة أن تؤمن له فرص التسويق ووسائله، لذلك نجحت في إبرام اتفاقيتين الأولى لبيع مليون قدم مكعب في اليوم إلى شركة (سنام) الإيطالية، وتسري هذه الاتفاقية لمدة عشرين عاماً. أما الثانية فقد أبرمت مع شركة إسبانية هي (كتلا نادى غاز) لمدة خمسة عشرة سنة تزود بمقتضاها شركة (إسو) ما كميته ١١٠ مليون قدم مكعب يومياً من الغاز السائل(٤١).

وإلى جانب فكرة تسييل الغاز هناك وسيلة أخرى من وسائل استغلال الغاز هي إنتاج مادة (الأمونيا) من الغاز الطبيعي، يأتي هذا النوع من الإنتاج والبلاد في أشد الحاجة إلى توفير الأسمدة لقطاع يعتبر من أهم دعائم الاقتصاد الليبي والذي يكون الدخل الأساسي للسواد الأعظم من السكان وهو القطاع الزراعي، وفي هذا المجال تقدمت إحدى الشركات النفطية العاملة في البلاد بطلب للحصول على عقد الامتياز في إطار المزايا الإضافية لإنشاء مصنع لإنتاج (الأمونيا) النشادر الجاف والأسمدة الصلبة من

الغاز الطبيعي إذا عثرت على النفط، وهذه الشركة هي (أكسدنتال)، وقد جاء نص الاتفاق الموقع من قبل وزير البترول الليبي وممثل الشركة بموجب الملحق الثاني لعقدي امتياز الشركة اكسيدنتال رقم (١٠٢-١٠٣) كما يلي: (تتعهد الشركة ببناء مصنع أو مصانع لإنتاج النشادر الجاف (الأمونيا) طاقته الإنتاجية الأولية مقدارها ٦٠٠ طن يومياً قابلة للزيادة حتى ١٢٠٠ طن يومياً، مستعملة ذلك الغاز الطبيعي الذي يسلم من جانب الحكومة الليبية وتدفع ثمنه على أن يكون تحديد الثمن مماثلاً لثمن الغاز المستخدم في الأغراض الصناعية المماثلة في البلاد، وإنتاج هذا المصنع لتغطية احتياجات البلاد من الأسمدة الصلبة والأمونيا، التي بلغت حتى نهاية ١٩٦٧ (٢٩٠٠٠) طن من الأسمدة المختلفة، على أن يصدر الفائض إلى الخارج أو تشتريه الشركة المنشئة طبقاً للفقرة (د) من المادة الأولى من العقد المبرم بينها وبين وزارة شؤون البترول في مارس من عام ١٩٦٦، وبلغت تكاليفه ٣٠ مليون دولار، تتحمل الحكومة الليبية ٥٠% وتتحمل الشركة الباقي[٤٢].

٤- التنمية في قطاعي التعليم والصحة:

أ- التعليم:

أوضحت تقارير الأمم المتحدة التي وضعت حول الحالة التعليمية في البلاد في عام ١٩٥١. أن المدارس الابتدائية قد انتشرت في أغلب المدن، وفي المراكز الإدارية الرئيسة، كما وجدت أربع مدارس ثانوية، إحداها كانت مخصصة للبنات وقدرت نسبة الأمية آنذاك بأنها تصل إلى ٩٠% من مجموع السكان، كما أن عدد الليبيين الموجودين في البلاد والحاصلين على تعليم جامعي لا يزيد عن ١٤ رجلاً. وذكرنا أن الوضع الاقتصادي في أوائل الخمسينيات عبارة عن اقتصاد متخلف واعتبرت ليبيا من بين أفقر بلدان العالم، وأنه لا أمل للبلاد في تطور اقتصادي مهما كان بسيطاً. ولكن

تعطش الليبيين للتعليم الذي حرموا منه في السابق، كان أقوى من أن يتأثر بالوضع الاقتصادي المتخلف للبلاد، بل إن الكثيرين اعتقدوا بأن التعليم قد يكون هو السبيل الوحيد للخروج من حالة التخلف الاقتصادي، ولذلك استمر حماسهم نحو التعليم، الذي بدأ مباشرة بعد انسحاب الإيطاليين، في النمو وقد أدى هذا إلى سرعة انتشار التعليم الجامعي محلياً(٤٣)، وقد لعب النشاط الخاص بالبحث عن النفط ثم اكتشافه وتصديره فيما بعد، الدور الرئيس لتطور البلاد اقتصادياً، والتي أصبحت خلال فترة محدودة من الدول الغنية، وقد انعكس هذا التحسن في الوضع الاقتصادي على وضع التعلم، فأخذت المدارس تشيد في القرى النائية، وحتى في المجمعات السكنية الصغيرة، وتنوع التعليم، وتم التوسع في تعليم الفتاة وتطور التعليم الجامعي.

ففي فترة قصيرة انتشر التعليم ليصبح في مقدور أي مواطن في أية بقعة من البلاد، الاستفادة من بعض الإمكانات التعليمية، فبعد أن كان عدد جميع المسجلين في المدارس حوالي ٣٣ ألف، وهو ما يعادل حوالي ٢% من السكان، وصل عدد المسجلين في مراحل التعليم المختلفة بعد عشر سنوات إلى ١٤٤ ألف. وتوفرت المدارس الابتدائية في المناطق النائية، بل وحتى بالنسبة للسكان غير المستقرين، ولقد قدر الذين يحملون شهادات جامعية من الليبيين الموجودين في نهاية الستينيات بحوالي ١٤ فرداً، وارتفع هذا الرقم ارتفاعاً كبيراً حتى تجاوز في نهاية الستينيات وبداية السبعينيات الخمسة آلاف مواطن. ولقد سجل تطور عدد الطلاب خلال الخمسينيات، زيادةى سنوية قليلاً عن ١١% وقد تضاعفت هذه النسبة خلال الستينيات بحيث وصل عدد الطلاب في أوائل السبعينيات إلى حوالي ٤٢٠ ألفاً. أي بزيادة سنوية مقدارها ٢٧%(٤٤).

ولتنمية هذا القطاع اعتمدت الميزانية الإنمائية ١٩٦٣/١٩٦٨ (٢٢,٣٦٥,٠٠٠) مليون جنيه ليبي للتعليم، وقد هدفت خطط الحكومة إلى توفير أقصى حد من فرص التعليم لكل طفل، ورفع مستوى التعليم الابتدائي والثاني والعالي، وتكييف المواد والمناهج الدراسية لتتلاءم والأهداف الوطنية الليبية[٤٥].

١- التعليم الابتدائي والإعدادي والثانوي:

قامت الحكومة بإنشاء ١٨٨ مدرسة موزعة في جميع أنحاء ليبيا وتم تزويدها بالكتب والمختبرات والمعامل، وتم إضافة فصول جديدة على المدارس السابقة[٤٦].

٢- التعليم العالي:

نظراً لإقبال الطلاب المتزايد على التعليم العالي، قامت الحكومة بإنشاء مدينة جامعية في بنغازي مشتملة على فصول دراسية ومنازل للطلاب والأساتذة ومساحات وملاعب رياضية.

كما تم استحداث كلية تدريب للمعلمين العليا الخاصة في ميادين العلوم والرياضيات واللغات الأجنبية، والهدف منها توفير عدد كافٍ من المعلمين الليبيين[٤٧].

كذلك تم إنشاء كلية الدراسات الفنية العليا منذ سنة ١٩٦١-١٩٦٢، وفيها أقسام للميكانيك والكهرباء والهندسة وتصنيع المواد الغذائية، ولذلك لسد حاجة البلاد من الفنيين المختصين[٤٨].

ويتضح أن الاهتمام بالتعليم كان عاماً وقوياً بين جميع فئات الشعب، وكما توضح الأرقام الواردة في الجداول التالية فإن نصيب التعليم من الميزانية كان مرتفعاً باستمرار.

الجدول رقم (٥١)

تطور التعليم (١٩٥٠-١٩٧٠)

السنوات	التعليم الابتدائي		المراحل التعليمية										مخصصات التعليم من الميزانية العامة %
			الإعدادي		الثانوي		التعليم المهني		الجامعي		المجموع		
	مجموع الطلبة والطالبات	الطالبات %	مجموع الطلبة طالبات	طالبات %	مجموع الطلبة طالبات	طالبات %	مجموع طلبة وطالبات	طالبات %	مجموع طلبة وطالبات	الطالبات %	مجموع الطلبة والطالبات	الطالبات %	
١٩٥٠/٤٩	٣٦٠٩١	١١		-	٦٩٨	٣	١١٥	٢٣	-		٣٦٨٧٣	١٠	-
١٩٥٥/٥٤	٦٥٧١٤	١٧	٢٥٨٥	٦	١١٨٠	٤	١١٢٥	١٨	٣٤	-	٧٠٨٩٨	١٣	[illegible]
١٩٦٠/٥٩	١١٠٤٢٢	١٩	٩٤١٥	٥	١٩٤٦	٦	٢٠٣١	١١	١٧٠	٢	١٢٣٩٤٤	١٨	-
١٩٦٥/٦٤	١٩٥٣٠٤	٢٥	٢٠٦٩٠	١١	٤٤٩٦	١٢	٥١٧٥	٣١	١٣٨٧	٨	٢٢٦٧٦٢	٢٣	٢٣,٠
١٩٧٠/٦٩	٣٥٠٣٧٥	٣٢	٣٥٠٤٩	١٨	٩٤٤٧	١٥	٨٤٢٥	١٣	٤٤٤٢	٩	٤٠٧٥٣٨	٣١	٢١,٦

الجدول رقم (٥٢)

مجمل مخصصات التعليم

(التكاليف الإجمالية ٢٢,٣٦٥,٠٠٠ مليون جنيه ليبي)

المشروع	التكاليف التقديرية	%
تعليم الابتدائي والإعدادي والثانوي إنشاءات ثابتة ومعامل ومعدات	٨,٣٠٠,٠٠٠	٣٧,٦
جامعة السيد محمد بن علي السنوسي بما فيه الابتدائي والثانوي وعالي	٤,٢٠٠,٠٠٠	١٨,٧
التعليم العالي	٤,١٠٠,٠٠٠	١٨,٣
الجامعة الليبية	١,١٠٠,٠٠٠	٤,٩
الكليات الأخرى	١,٥٠٠,٠٠٠	٦,٧
التعليم المهني إنشاءات ومعامل ومعدات	١,٣٠٠,٠٠٠	٥,٨
معاهد المعلمين وتدريبهم إنشاءات ومعدات وتدريب	١,٠١٥,٠٠٠	٤,٥
التربية الإسلامية وتعليم الكبار	٢٥٠,٠٠٠	١,١
الآثار، حفريات ومعدات	١٥٠,٠٠٠	٠,٦
المساكن والمخازن المدرسية، إنشاءات	٣٥٠,٠٠٠	١,٥
الدراسة العامة، دراسة تفصيلية للتعليم	١٠٠,٠٠٠	٠,٤
المجموع	٢٢,٣٦٥,٠٠٠	١٠٠

المصدر: المملكة الليبية. وزارة التخطيط والتنمية، خطة التنمية الاقتصادية والاجتماعية للسنوات الخمس ١٩٦٣-١٩٦٨، ص٨٠.

ب- الصحة:

لم يعرف الليبيون المستشفيات المركزية إلا بعد الاحتلال الإيطالي، عندما بدأ الإيطاليون بإنشاء عدد من المستشفيات، أهمها مستشفى طرابلس المركزي، ومستشفى بنغازي المركزي، وفي أواخر الخمسينيات بلغ عدد المستشفيات بما في ذلك الصغيرة منها والممصحات حوالي عشرين، منتشرة في المراكز السكنية الرئيسة. مع العلم أن البلاد لا تقع في منطقة من مناطق الأوبئة الرئيسة، إلا أن هناك عدداً من الأمراض التي كانت منتشرة بصفة واسعة، وأهم هذه الأمراض أمراض العيون وخصوصاً

المرض المعروف بالتراخوما، والذي قدرت التقارير الطبية الموضوعة في الخمسينيات أنه يصيب حوالي ٧٥% من الأطفال، ويتسبب في نسبة عالية من فقدان البصر، كما كان مرض الدرن من الأمراض الواسعة الانتشار أيضاً وقدرت وفيات الأطفال خلال الخمسينيات، بأنها تصل إلى حوالي ٥٥٠ لكل ١٠٠٠ طفل(٤٩).

لقد كانت الإمكانيات الصحية خلال الخمسينيات محدودة جداً. وفي بداية الستينيات قامت الحكومة بوضع خطة تنموية وطنية للصحة استهدفت تقويم المشاكل الصحية الرئيسية والنهوض بتنمية الخدمات الصحية في ليبيا. وبالفعل تم إنشاء ٦٠ مركزاً صحياً و١٨٣ مستوصفاً في أنحاء مختلفة من البلاد، وذلك بمعدل مركز صحي واحد وثلاثة مستوصفات لكل عشرين ألف نسمة في المحافظات الشرقية والغربية، ومركز مع ملحقاته (ثلاث مستوصفات) لكل عشرة آلاف نسمة في محافظتي الجنوب. والجدول التالي يبين مراكز الصحية وملحقاتها التي تم إنشاءها خلال السنوات (١٩٦٤-١٩٦٥).

الجدول رقم (٥٣)

المراكز الصحية وملحقاتها التي تم إنشاءها خلال السنوات (١٩٦٤-١٩٦٥)

مواقع المراكز الصحية		مواقع المستوصفات الملحقة بالمراكز
١	القربولي	الخوالق- الوادي الغربي- ابن الأشهر
٢	مزدة	طبقة – القريات نسمة
٣	الجغبوب	العدم – بئر الأشهب
٤	جالو	أوجلة – سواني- مشرق
٥	برقن	أدري – ونزريك- قطة
٦	أم الأرانب	مرزق – القطرون- تراغن

المصدر: المملكة الليبية، مجلس التخطيط القومي، التقرير السنوي الثاني بشأن النشاط الإنمائي للسنة المنتهية في ٣١ مارس ١٩٦٥، ص ٧٦.

أما بالنسبة للمستشفيات فقد رصدت الحكومة مبلغاً وقدره ٤,٢٥٠,٠٠٠ مليون لبناء المستشفيات ومن أهمها مستشفى طرابلس المركزي (الفرناج) ويضم ٧٠٠ سريراً ومستشفى زلتين يضم ١٢٠ سريراً، مستشفى الخمس يضم ١٢٠ سريراً، مستشفى أجدابيا يضم ١٢٠ سريراً. بالإضافة إلى توسيع المستشفيات القديمة، وإنشاء مساكن للأطباء بمستشفى ترهونة، توسيع مستشفى الزاوية، وإنشاء مستشفى البركة ببنغازي الذي يضم ٢٠٠سريراً.

ولرفع المستوى الصحي داخل المجتمع الليبي ووقايته من الأمراض السارية، قامت الحكومة بإنشاء ثلاثة مراكز رئيسة لمكافحة مرض السل في كل من بنغازي، وطرابلس، سبها، وست عيادات في كل من غريان، وصبراتة، وترهونة، والبيضاء، ودرنة، وأجدابيا، بالإضافة إلى شراء ٤ وحدات طبية متنقلة، هذا إلى جانب المصحات السابقة لمعالجة مرض السل وهي مصحة أبو ستة وتضم ١٥٠ سريراً، وشحات تضم ١٥٠ سريراً، وفي سبها تضم ٤٠ سريراً(٥٠).

زد على ذلك وجهت الحكومة العناية بصفة خاصة لمكافحة مرض التراخوما بين الأطفال وصغار الشباب، حيث شكلت فرق لمعالجة هذا المرض بين طلاب المدارس، كما تم تزويد إدارات مكافحة التراخوما بكافة المعدات والعقاقير والآلات والأدوات اللازمة، بالإضافة إلى شراء ٢٠ سيارة لخدمة هذه الأغراض. وإلى جانب مكافحة مرض السل، قامت وزارة الصحة بالاشتراك مع منظمة الصحة العالمية بتنفيذ برنامج واسع النطاق لمكافحة الملاريا، فشكلت فرقة لزيارة تاورغاء، والجوش، وتيجي، ووادي درنة، والجغبوب، والكفرة، ومرادة، والشاطئ، ومرزوق، وهون.

وقد تم توفير عشر سيارات لعملية رش المستشفيات ومكافحة الذباب، ولمكافحة هذه الأمراض تم تزويد المستشفيات بالمختبرات، والمباني، والمعدات، والخبراء اللازمين(٥١).

بالإضافة إلى القيام بتنظيم حملات تثقيفية للشعب في شؤون الصحة، ولمنع تسرب الأمراض إلى ليبيا من خارجها، قامت الحكومة بإنشاء مراكز للوقاية الصحية والحجر الصحي في كل من مطار طرابلس، ميناء طرابلس، مطار بنينة بنغازي، ميناء بنغازي مساعد (على وحدود مصر)، رأس جدير (على الحدود التونسية)، سبها، فزان، القطرون، غات فزان(٥٢).

ونتيجة لسوء التغذية المتفشية في ليبيا بقدر ما يشكل سبباً من الأسباب التي تساهم في اعتلال الصحة، اتُخذت التدابير اللازمة لتصحيح وضع كان يعمل على إضعاف مقاومة الشعب لأسباب المرض، ووضعت سياسة ساهمت في القضاء على أسباب سوء التغذية بين كل طبقات المجتمع من خلال برنامج عام للتغذية بالاشتراك مع وزارة الزراعة ومنظمة الأغذية. والجداول التالية توضح مدى اهمتام الحكومة بالخدمات الصحية.

الجدول رقم (٥٤)

تطور الخدمات الصحية في ليبيا

السنة	عدد السكان لكل طبيب	عدد السكان لكل طبيب أسنان	عدد السكان لكل صيدلي	عدد السكان لكل ممرض	عدد السكان لكل سرير
١٩	٧٢٥٠	١٦٣١٢٥	٣٢٦٢٥	–	٣٥١
١٩٦	٤٧٥٥	٤٦٠١١	٢٧٩٣٥	–	٣٣٢
١٩٦	٢٦١١	٣٠٨٧١	١١٥٣٠	١٠٢٧	٢٩٧

المصدر: مصطفى عمر التير. مسيرة تحديث المجتمع العربي الليبي (مواءمة بين القديم والجديد)، الهيئة القومية للبحث العلمي، طرابلس، ١٩٩٢، ص ٢٩٣.

الجدول رقم (٥٥)

مجمل مخصصات الصحة

(التكاليف الإجمالية ١٢,٥٠٠,٠٠٠ مليون جنيه ليبي)

	المشروع	التكاليف التقديرية	%
١	المراكز الصحية	٢,٥٠٠,٠٠٠	٢٠
٢	المستشفيات	٤,٢٥٠,٠٠٠	٣٤
٣	مكافحة مرض السل	٧٥٠,٠٠٠	٦
٤	مكافحة مرض التراخوما	٦٥٠,٠٠٠	٥,٢
٥	مكافحة مرض الملاريا	١٠٠,٠٠٠	٠,٨
٦	مكافحة مرض البلهارسيا	٧٥,٠٠٠	٠,٦
٧	رعاية الأمومة والطفولة	١٠٠,٠٠٠	٠,٨
٨	الوقاية الصحية	٤٠,٠٠٠	٣,٢
٩	المختبرات الصحية العامة	٩٠٠,٠٠٠	٧,٢
١٠	التثقيف الصحي	٣٥,٠٠٠	٠,٢
١١	مراكز الحجر الصحي	٧٥,٠٠٠	٠,٦
١٢	أبحاث التغذية العامة وتنسيقها	١٠٠,٠٠٠	٠,٨
١٣	الخدمات الطبية المتنقلة	٧٥٠,٠٠٠	٦
١٤	الخدمات الطبية المدرسية	١٠٠,٠٠٠	٠,٨
١٥	التدريب	٢,٠٠٠,٠٠٠	١٦
١٦	الإحصاء	٧٥٠٠٠	٠,٠
	المجموع	١٢,٥٠٠,٠٠٠	١٠٠

المصدر: المملكة الليبية، وزارة التخطيط والتنمية، خطة التنمية الاقتصادية والاجتماعية للسنوات ١٩٦٣-١٩٦٨، ص٨٦.

٥- تطور قطاع الإنشاءات والبناء:

شهد قطاع الإنشاءات والبناء تطوراً سريعاً بعد ظهور النفط، أما قبله فقد كان نشاط هذا القطاع محدوداً، وذلك لارتباطه بعدد السكان القليل بالنسبة للبلاد. وبالتالي هذا العدد من السكان لا يحتاج إلا لعدد قليل من العمارات والمساكن الشعبية في حدود الطلب، هذا فيما يخص المدن، أما في الريف فإن نشاط البناء كان منحصراً ببناء المنازل الريفية بالطرق التقليدية البدوية التي تستلزم مواد البناء المحلية المتمثلة في الحجر والطين ومواد أشجار لزيتون والنخل. وبعد صدور قانون البترول والسماح بدخول عدد كبير من الشركات للبلاد وذلك للبحث والتنقيب عن النفط فمن البديهي أن يحتاج عمال هذه الشركات إلى السكن اللائق بهم. ولكن المباني الموجودة في المدن لا تفي بالغرض المطلوب، مما حدا بعدد من المقاولين الذين كانت لديهم الإمكانيات اللازمة، لبناء أنواع المساكن الجديدة والمطلوبة، وبهذا الاهتمام بدأت حركة قطاع البناء والإنشاءات في التوسع بسرعة فائقة حتى وصلت إلى مستوى معقول(٥٣).

ومع تزايد دخول الشركات ازداد عدد الأجانب المغتربين العاملين في قطاع النفط. وإلى جانب هذا كانت هناك موجة شديدة من الهجرة إلى المدن بسبب التوسع النقدي والمالي الذي أحدثه النفط، ومظاهر الرخاء وفرص لكسب الكسب السريع. مما أدى إلى زيادة في الطلب على السكن بالنسبة لشركات النفط والمؤسسات التي تعمل معها، الأمر الذي شجع الأفراد والمؤسسات على استثمار في قطاع البناء للاستفادة من ارتفاع الإيجارات التي كانت تدفعها الشركات والمؤسسات فهذا التوسع في قطاع البناء يوضح أن هذا القطاع كان أول من تأثر بشكل مباشر من التوسع النقدي والتغيرات الاقتصادية، التي سببها التنقيب على النفط ثم اكتشافه وتصديره حيث ارتفعت قيمة مساهمة هذا القطاع في الناتج المحلي بحوالي ثمانية أضعاف خلال الأربع السنوات الأولى من عهد النفط، ثم ازدادت بأكثر من مرتين ونصف خلال الثلاث سنوات التالية(٥٤).

واستمر هذا الاتجاه حتى وصل في سنة ١٩٦٨ إلى ما يعادل ٣٥ مرة من قيمة إنتاج هذا القطاع قبل عشر سنوات[٥٥]. ويعد قطاع البناء الوحيد بعد قطاع النفط نفسه، الذي سجل زيادة في نسبة مساهمة في الناتج المحلي، ويتضح التوسع في هذا القطاع في كل من طرابلس، وبنغازي لازدياد الطلب على السكن بسبب دخول عدد كبير من الأجانب للعمل في شركات النفط، وإسراع الملاك في بناء المساكن إما على شكل دارات (فيلات) أو (شقق) لتلائم هذه الفئة من الأجانب واستمر في هذا الاتجاه حتى تكونت مناطق كاملة من هذا النوع من السكن مثل (حي الأندلس) وكان من السهل بناء هذه المساكن بسبب توفر الأيدي العاملة الأجنبية ومواد البناء المستوردة[٥٦].

إن التوسع الذي سببه النفط في قطاع البناء أدى إلى استخدام الأيدي العالمة الأجنبية في مجال البناء وغيرها من النشاطات التي تأثرت بالنفط، الأمر الذي أدى بدوره إلى زيادة الطلب في المدن الرئيسة على السكن المناسب. ومما زاد في ارتفاع الأيدي العاملة، شروع الحكومة في تنفيذ مشاريع التنمية بشكل شامل في كافة أنحاء البلاد، حتى بلغت نسبة الأيدي العاملة الأجنبية حوالي ١٨% من المجموع[٥٧].

ونظراً لأن الأغلبية العظمى من هذه النسبية كانت من الفئات المهنية والفنية، كان من الطبيعي أن تتمتع بمستوى دخل مرتفع يمكنها من الحصول على مستوى لائق من السكن. زد على ذلك أن التحسن الذي طرأ على مستوى المعيشة بالنسبة لفئات عديدة من السكان الذي استفادوا من أعمال شركات النفط ومشروعات الحكومة والتوسع العام الذي حدث في قطاع العقارات والتجارة والمقاولات وغيرها من الأعمال الحرة، أصبحوا يسعون وراء السكن العصري، الأمر الذي زاد من حدة الطلب على السكن في المدن. بالإضافة إلى بروز فئة أخرى تمتعت بالسكن المجاني والمؤجر من قبل الحكومة وهم موظفو الدولة[٥٨].

ونتيجة لازدياد الطلب على السكن من قبل العديد من الشركات والمؤسسات الخاصة الحكومية، زاد ارتفاع مستوى الإيجارات بصورة عامة، ومن ثم التشجيع على بناء المزيد من المساكن سعياً وراء الاستفادة من تأجيرها(٥٩).

وبدأ يتضح التوسع في البناء وخاصة في مدينة طرابلس من واقع الأرقام المتوفرة على نشاط البناء في المدينة، فعلى سبيل المثال قدرت المساحة المبينة حسب إحصاءات بلدية طرابلس عام ١٩٥٦ بـــ (٧٣,٤١٦) ألف متر، واستمر هذا النشاط في الارتفاع حتى بلغ مجموع المساحة المبنية أكثر من ١٤٧ ألف متر مربع في عام ١٩٦٢، وفي عام ١٩٦٨ وصلت المساحة المبنية في المدينة إلى ١٠٥١٨٢ ألف متر مربع، وإلى جانب مدينة طرابلس شهدت مدينة بنغازي توسعاً أكثر والسبب هو شدة الطلب على السكن، وندرة الأماكن اللائقة بسبب تضرر المدينة بأضرار جسيمة أثناء الحرب العالمية الثانية، ولكن هذه الأضرار تم التغلب عليها بعد التوسع النقدي والمادي، ومن أهم العوامل التي أدت إلى التوسع السريع في هذا القطاع تنفيذ الحكومة لعدد كبير من مشروعات الإنشاء ضمن خطة التنمية الخمسية الأولى التي شرع في تنفيذها في منتصف سنة ١٩٦٣، وانتهت في شهر مارس من سنة ١٩٦٩، حيث بلغ عدد المشاريع التي تضمنتها الخطة حوالي ٤٥٠ مشروعاً رئيساً وفرعياً، منها حوالي ٧٥% في ميدان الإنشاء والتشييد، كالأشغال العامة، والمواصلات، والإسكان، حيث بلغ عدد المساكن التي أنشأها القطاع العام حوالي ١٥ ألف مسكناً، وإنشاء حوالي ٤ آلاف كيلو متر من الطرق الرئيسة والفرعية والزراعية، كما أجريت العديد من الإصلاحات في بعض الموانئ، وكذلك المطارات. وارتفع إنتاج الطاقة الكهربائية من حوالي ٣٠ ألف كيلو واط في الساعة في سنة ١٩٦٣ وإلى أكثر من ٢٣٠ ألف كيلو واط في الساعة سنة ١٩٦٩(٦٠).

كما اهتمت الخطة ببناء المدينتين الرياضيتين في كل من طرابلس وبنغازي، وكذلك العديد من النوادي والملاعب والرياضية، بالإضافة إلى بناء حوالي ٢٦ عمارة

مخصصة معظمها لمكاتب تجارية. وتم إنشاء حوالي ١٠٠ مسجد. ومما لا شك فيه أن القطاع العام كان له أثر كبير على التوسع الذي شهده قطاع البناء والإنشاء خلال الفترة ١٩٦٣-١٩٦٩، حيث أنفق حوالي ٣٦٠ مليون جنيه من قبل القطاع العام وحده في ميدان البناء والأشغال العامة، كما أنشئت شبكات جديدة للمجاري في مدينتي طرابلس وبنغازي مزودة بمحطات جديدة لتكرير مياه المجاري، كما أنشئت شبكات المجاري ومحطات تكرير في كل من سبها، ودرنة، ومصراتة، وطبرق، وفي ميدان تزويد المدن والقرى بمياه الشرب، تم إنشاء محطات الضخ وشبكات التوزيع في أكثر من ١٠٠ مدينة وقرية[٦١].

إن هذا التوسع في نشاط البناء سبب ضغطاً كبيراً على موارد البلاد البشرية حيث كان السوق الليبي يفتقر لليد العاملة المدربة، وحتى غير المردبة في شؤون البناء، ومع ذلك ارتفع عدد اليد العاملة وخاصة بعد النفط إلى حوالي ٣٢ ألف عامل في سنة ١٩٦٢، و٤٩ ألف في سنة ١٩٦٧[٦٢].

وبارتفاع عدد اليد العاملة ارتفعت الأجور بصورة سريعة في ذلك القطاع، حيث زاد الأجر اليومي للعامل العادي غير الفني من عشرة قروش في سنة ١٩٥٥ إلى حوالي ٨٠ قرشاً في سنة ١٩٦٣، ووصل إلى جنيه ونصف وحتى جنيهين في سنة ١٩٦٩. إن هذا الارتفاع في الأجور وأسعار مواد البناء والنقل والخدمات بصورة عامة، أدى إلى ارتفاع تكاليف البناء، كما أن إسراع الحكومة في تنفيذ مشروعات التنمية مرة واحدة وفي الكثير من الحالات بدون إتمام الدراسة اللازمة والتنسيق الضروري مع القطاعات الأخرى، أدى بدوره إلى المزيد من ارتفاع التكلفة، الأمر الذي سبب ارتباكاً في التخطيط وتأخيراً في التنفيذ. وساهم عدم إتمام مشروع تخطيط المدن والقرى في الوقت المناسب في الأضرار المادية والاقتصادية التي نتجت عن التوسع الكبير الذي شاهده قطاع البناء بعد اكتشاف النفط. ونتج عن ذلك ارتفاع التكلفة بشكل كبير جداً، وعلى سبيل المثال بلغت حوالي ثمانية آلاف جنيه للفصل المدرسي الواحد في سنة

١٩٦٨، بينما كانت حوالي ٨١٠٠ جنيه في سنة ١٩٥٨، كما ارتفعت تكاليف المساكن بحوالي عشرة أضعاف خلال الفترة نفسها[٦٣].

٦- الهجرة الريفية وتأثيرها على الاقتصاد الزراعي:

شهد الاقتصاد الليبي بعد نمو قطاع النفط نشاطاً ملموساً وتطورت النشاطات الأخرى المتصلة به، فقبل اكتشاف النفط كانت الزراعة تمثل النشاط الرئيس في الاقتصاد حيث كان النشاط الاقتصادي في المجالات الأخرى محدوداً للغاية كما كان قاصراً على بعض الصناعات الخفيفة والتجارة والخدمات، ونتيجة لذلك اتجه معظم السكان للعمل بالزراعة والرعي، والاعتماد عليها كمصدر رئيس لدخلهم. وقد تغير هذا الموقف كلياً – على أثر اكتشاف النفط وتصديره للخارج– حيث لاقت الزراعة منافسة شديدة في نواحي العمالة والاستثمار من قطاع النفط والقطاعات الأخرى مثل قطاع البناء والتجارة والخدمات، كما قلبت أهمية الزراعة كمجال استثماري يعتمد عليه في الحصول على أرباح مشجعة وكمهنة يشتغل بها غالبية الكسان، فتحقيق أرباح كبيرة في هذه القطاعات المتطورة، جذب كثيراً من رؤوس الأموال لاستثمارها في هذه القطاعات، ونتيجة لهذا التوسع الاستثماري ازدادت فرص العمل أمام العمال الزراعيين وبأجور أو دخول أعلى إذا ما قورنت بمثيلها في الزراعة الأمر الذي شجع العديد من هؤلاء العمال وعائلاتهم للهجرة من الريف وترك الزراعة، والعمل بهذه القطاعات التي تتركز معظمها في المدن، ولقد بدأت الهجرة الريفية في الظهور بشكل ملحوظ على أثر اكتشاف النفط حيث أخذ العديد من العمال الزراعيين في النزوح من الريف بحثاً عن عمل مع شركات النفط في مناطق البحث والتنقيب، واستمر تدفق تيار العمال الزراعيين وعائلاتهم للعمل في مختلف المجالات غير الزراعية، الأمر الذي أدى في النهاية إلى نقص ملحوظ في الأيدي العاملة الزراعية صحبه زيادة في العمالة في القطاعات الأخرى[٦٤].

فاتجاه عمال الزراعة والرعي وعائلاتهم للعمل في المجالات غير الزراعية قد أدى إلى نقص ملحوظ في عدد السكان الزراعيين والعاملين اقتصادياً في قطاع الزراعة، والدليل على ذلك بيانات التعداد الزراعي بسنة ١٩٦٠، والتعداد العام للسكان في سنة ١٩٦٤، إذ تشير إلى انخفاض عدد السكان الزراعيين من ٨٥٤,٧١٧ شخصاً في سنة ١٩٦٠ إلى حوالي ٧٣٥,٠٠٠ شخصاً في سنة ١٩٦٤، ٥٠٤,٠٠٠ في سنة ١٩٦٨ أي حوالي ٢٧,٣%[٦٥]، وانخفاض عدد السكان الزراعيين بهذه الدرجة يدل على أن معدلات الهجرة الريفية كانت أكثر بكثير من معدل الزيادة الطبيعية للسكان الزراعيين. كما أشارت الإحصاءات إلى النقص الملحوظ في حجم القوة العاملة الزراعية في نفس الوقت، حيث انخفض عدد السكان العاملين اقتصادياً والذين تبلغ أعمارهم ١٥ سنة فما فوق في قطاع الزراعة من ٢٧٩,٩٧٠ شخصاً في سنة ١٩٦٠ إلى ٣٦,٣٨٩ شخصاً في سنة ١٩٦٤[٦٦].

وانخفاض القوة العاملة الزراعية بهذه الدرجة يدل على أن الذين هاجروا كانوا من الشباب وصغار السنة خاصة في فترة البحث والتنقيب ونقل المعدلات والآلات المختلفة من مكان لآخر[٦٧].

ومن أهم العوامل التي أثرت على العمل في قطاع الزراعة هو معدل الأجر الزراعي ومقارنته بمستوى الأجر في القطاعات الأخرى، فوجود تفاوت كبير بين معدل الأجر في أي من القطاعات غير الزراعية والقطاع الزراعي قد دفع العمل الزراعيين لترك الزراعة والعمل بهذه القطاعات التي يحصلون فيها على أجر أو دخل أعلى[٦٨].

إن العمال المشتغلين في قطاعات النفط والبناء والتجارة وغيرها يتقاضون أجور أعلى من أجور عمال الزراعة والرعي، فنتيجة للتوسع الاستثماري وزيادة الطلب على الأيدي العاملة في القطاعات المتطورة كقطاع النفط والقطاعات التي تأثرت به أدى ذلك إلى ارتفاع متواصل في معدلات الأجور بهذه القطاعات، ولم يقابله ارتفاع مماثل

في مستوى الأجور الزراعية، وإذا اعتبرنا أن الأجور التي يتقاضاها العمال الزراعيين بوزارة الزراعة ومؤسسة الاستيطان الزراعي تمثل على وجه التقريب المستوى العام للأجور ومقارنتها بيأجور عمال البناء، يتبين التفاوت بين معدل الأجر في القطاعين المذكورين، ويظهر هذا التفاوت بمقارنة الأجر اليومي الذي يتقاضاه العامل الزراعي العادي بوزارة الزراعة ومؤسسة الاستيطان الزراعي في العقد السادس من القرن العشرين والذي بلغ ٨٥ قرش، و٩٥ قرش على التوالي، بينما حصل عامل البناء العادي الذي كان يعمل عند أحد المقاولين في طرابلس على أجر يومي وصل إلى ١٢٠ قرشاً، كما يظهر التفاوت أيضاً بمقارنة الأجر اليومي الذي يتقاضاه العامل الفني ومن له خبرة ودراية في الأعمال الزراعية الفنية بمؤسسة الاستيطان الزراعي، والذي بلغ ٢٢٥ قرش، بينما حصل عامل البناء الفني عند المقاول المذكور على أجر يومي قدره ثلاثة جنيهات بفرق قدره ٧٥ قرش في اليوم الواحد[٦٩]. ولكن يجب أن نشير أن هذا التفاوت بين معدل الأجر كدافع اقتصادي لا يكفي وحده لتفسير العوامل الرئيسة وراء ظاهرة الهجرة الريفية، فتزايد فرص العمل بأجر أعلى أمام العمال الزراعيين في المجالات غير الزراعية وارتفاع مستوى المعيشة في المدن وتحسين وسائل المواصلات التي تربط بين الأجزاء المختلفة في البلاد، كل هذه العوامل كانت على جانب كبير من الأهمية في تشجيع هجرة العديد من العمال الزراعيين من الريف إلى المدنية. فخبرة المزارع الليبي ودرايته المحدودة بالوسائل العلمية الحديثة أدى به إلى الاعتماد بصفة رئيسة على الوسائل البدائية ومستلزمات الإنتاج التقليدية التي يقوم بإنتاجها أو تحضيرها بنفسه داخل مزرعته. فمن استخدام الأسمدة المصنوعة مثلاً قد تبين أن هذا النوع من الأسمدة قد استخدم في المحافظات الغربية في عدد قليل من الملكيات لا يتجاوز ١٥% من مجموع الملكيات في هذه المخافظات. أما بالنسبة لاستخدام الآلات الزراعية الحديثة لم يكن انتشارها في الزراعة الليبية بقدر اعتمادها على الأيدي العاملة، وذلك بسبب وفرة العمل وانخفاض

مستوى الأجور من ناحية وعدم قدرة المزارع الليبي على شرائها أو إدارتها من ناحية أخرى. ونتيجة لذلك كانت العمليات المزروعة – سواء في مجال الإنتاج الحيواني أو إنتاج المحاصيل الحقلية – تتم معظمها بطرق وآلات بسيطة تعتمد بصفة رئيسة على الأيدي العاملة. وبالرغم من استخدام بعض الآلات الحديثة كالجرار الزراعي وآلات الحصاد وتسوية الأرض ومضخات المياه في الملكيات الكبيرة وبدرجة أوسع من المعمرين الإيطاليين، إلا أن ذلك كان قاصراً على إجراء بعض العمليات الزراعية في الحقل، كالبذر والحصاد وبلعض محاصيل معينة كالحبوب، إذ لم تنتشر استخدام الآلات الحديثة في هذه الملكيات على نطاق واسع في أداء العمليات الزراعية الخاصة بإنتاج لعض محاصيل الخضر كما كانت ميكنة الإنتاج الحيواني في مراحلها الأولى(٧٠).

ويتبين من الجدول التالي نوع الآلات المستخدمة في الزراعة الليبية سنة ١٩٦٠.

الجدول رقم (٥٦)

الآلات المستخدمة في الزراعة الليبية سنة ١٩٦٠

نوع الآلة	العدد
الجرار الزراعي	٢٥٠٨
آلات الحصاد والدرس	١٥٣١
آلات بذور الحبوب	١٣٥
آلات لشفط الحليب	٨
عدد سيارات النقل والسيارات الصحراوية	٦٩٨

المصدر: الإحصاءات الزراعية ١٩٦٠.

إن استخدام الآلات الزراعية في مجموعها كان محدوداً للغاية بالنسبة للاحتياجات الضرورية لخدمة المساحة المزروعة، والتي قدرت في عام ١٩٦٠ بحوالي ٩٩٨ ألف هكتار، فإذا افترضنا أنه للوصول إلى مرحلة متوسطة من الميكنة الزراعية، هي المرحلة التي يجب أن يتوفر فيها جرار واحد لخدمة ١٠٠ هكتار من الأراضي المزروعة فإنه لم يتوفر للزراعة الليبية في سنة ١٩٦٠ سوى ٢٥٠٠ جرار أي ما يعادل ربع العدد المطلوب فقط(٧١).

ويتبين مما تقدم أن ظاهرة الهجرة الريفية وما ينتج عنها من نقص في عرض العمل الزراعي قد بدأت بشكل ملحوظ في وقت كانت العملية الإنتاجية في قطاع الزراعة الليبي تعتمد على أساليب بدائية مركزة على العمل، ومن هنا تتضح طبيعة الظروف التي تتركها هذه الظاهرة على استغلال الموارد ومستوى الإنتاج الزراعي. فاستمرار الهجرة تحت هذه الظروف الخاصة بأساليب الإنتاج الزراعي يمكن أن يؤدي إلى نقص في مستوى الإنتاج الزراعي نتيجة لنقص الأيدي العاملة الزراعية وتعطيل جزء من الموارد الأرضية بسبب ترك المزارعين لأراضيهم بدون استغلال والعمل بالقطاعات الأخرى. ومن هذه الناحية أثارت مشكلة الهجرة اهتمام الكثير من المسؤولين باعتبارها المشكلة الرئيسة التي واجهتها الزراعة الليبية في فترة الستينيات، إذ قامت الحكومة ببذل كل الجهود الممكنة للحد من استمرار الهجرة وتشجيع المواطنين على الاستقرار في مزارعهم لتلافي النقص في الإنتاج الزراعي الذي يحدث نتيجة نقص الأيدي العاملة. واتجه هذا الرأي إلى إعادة التوازن بين ظروف العرض والطلب على العمل الزراعي عن طريق الجهود التي هدفت إلى الحد من الهجرة وتدفق العمال الزراعيين نحو القطاعات الأخرى، ولتحقيق هذا الغرض قامت الحكومة الليبية ببذل الجهود الممكنة لتشجيع المواطنين على الاستقرار في مزارعهم، ولكن بالرغم من هذه المساعي استمر تيار الهجرة في التدفق خلال الستينيات.

ولتعويض النقص في الأيدي العاملة الزراعية بسبب الهجرة الريفية، رأت الحكومة تطوير أساليب الإنتاج الزراعي وتشجيع المزارعين على التوسع في استخدام الآلات الزراعية وغيرها من أدوات الإنتاج وتحسين مقدرتهم الفنية والإدارية على استعمالها داخل الوحدات الإنتاجية، وبالتالي قامت الحكومة باستيراد أدوات الإنتاج ووفرتها بأسعار مناسبة، وقدمت لهم التسهيلات الائتمانية عن طريق البنك الزراعي الوطني وذلك بتقديم قروض زراعية بدون فائدة، وبالفعل تم استيراد ١٢٤٠ جرار زراعي في سنة ١٩٦٥ قيمتها ١,٣ مليون جنيه ليبي، كما استوردت ١٢٥٣ جرار في سنة ١٩٦٦ قيمتها تزيد قليلاً عن ١,٣ مليون جنيه ليبي[٧٢].

وعلى كل حال فإن ظاهرة الهجرة الريفية قد تعتبر خطوة هامة نحو تطوير الزراعة وتمكينها من المساهمة بصورة فعالة في عملية التنمية الاقتصادية، خاصة فبعد تحسين الأحوال الاقتصادية وتوفر رأس المال للاستثمار في قطاع الزراعة خلال نهاية الستينيات وبداية السبعينيات، فانخفاض عرض العمل بسبب الهجرة وارتفاع تكاليفه، وتوفير رأس المال لقطاع الزراعة في نفس الفترة خلق مجموعة جديدة من موارد العمل ورأس المال المتاحة للزراعة، وهكذا فإن الزراعة في ليبيا، مرت بمرحلة تحول في تركيب الموارد وأساليب الإنتاج الزراعي بفضل جهود الحكومة التي هدفت لانتشار الأساليب الحديثة الموفرة للعمل وإحلالها محل الأدوات البدائية.

الهوامش

(١) هنري أنيس ميخائل، **العلاقات الإنجليزية الليبية مع تحليل للمعاهدة الإنجليزية الليبية**، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٢٩٤.

(٢) شكري غانم، **النفط والاقتصاد** الليبي، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٨٥، ص ١٠.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) سامي حكيم، **حقيقة ليبيا**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٤٤.

(٥) علي أحمد عتيقة، **أثر البترول على الاقتصاد الليبي**، دار الطليعة للنشر، بيروت، ١٩٧٠، ص ٤١.

(٦) مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، شعبة الوثائق والمخطوطات، وحدة الوثائق المعاصرة، ملف وزارة الزراعية، وثيقة رقم م/٨/١٥/٢٤، استمارة ساعات العمل للعاملين في نظارة الزراعة مؤرخة في ١٩٦٣/٣/٣٠.

(٧) المملكة الليبية، وزارة التخطيط والتنمية، **خطة التنمية الاقتصادية والاجتماعية للسنوات الخمس** ١٩٦٣–١٩٦٨، ص ٣٣.

(٨) المصدر السابق، ص ٣٣.

(٩) المصدر السابق، ص ٣٤.

(١٠) المصدر السابق، ص ٣٤.

(١١) المصدر السابق، ص ٣٥.

(١٢) المصدر السابق، ص ٣٦.

(١٣) المصدر السابق، ص ٣٧.

(١٤) **المملكة الليبية** ١٩٦٣-١٩٦٨، المصدر السابق، ص ٣٥.

(١٥) طرابلس الغرب، ١٨ يناير ١٩٦٣، العدد ٣١٧.

(١٦) طرابلس الغرب، ١٨ يناير ١٩٦٣، العدد ٣١٧.

(١٧) طرابلس الغرب، ١٨ يناير ١٩٦٣، العدد ٣١٧.

(١٨) المملكة الليبية، وزارة شؤون البترول، **البترول الليبي** (١٩٥٤-١٩٦٧)، ص٨٢.

(١٩) المصدر السابق، ص ٨٤.

(٢٠) عزيز محمد حبيب، **ليبيا**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٣. ص٧٨.

(٢١) المرجع السابق نفسه، ٧٩.

(٢٢) المرجع السابق نفسه، ٨٠.

(٢٣) المرجع السابق نفسه، ٨١-٨٢.

(٢٤) **خطة التنمية الاقتصادية واجتماعية** (١٩٦٣-١٩٦٨)، المصدر السابق، ص٣٨.

(٢٥) المصدر السابق نفسه، ص ٣٩.

(٢٦) **البترول في خدمة التنمية**، المصدر السابق، ص ١٥٣.

(٢٧) مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، شعبة الوثائق والمخطوطات، وحدة الوثائق المعاصرة، ملف وزارة الصناعة، وثيقة رقم م/٨/٢٢/٥، دراسة لتطوير

الصناعة في ليبيا مقدمة من الدكتور المهندس محمد علي صالح، مؤرخة في ١٩٦٣/٣/٣٠.

(٢٨) طرابلس الغرب، ٢٣ مايو ١٩٦٣، العدد ٦٩.

(٢٩) عزيز محمد حبيب، المرجع السابق، ص ١٤٧.

(٣٠) خطة التنمية الاقتصادية ١٩٦٣–١٩٦٩، ص ٤٤.

(٣١) عملت وزراة الصناعة على الاستفادة من الخبراء الأجانب في هذا المجال، وعلى الأساس قامت بموجب اتفاقيات التعاون الفني بانتداب خبراء فنيين في مجال الصناعة وذلك لتنمية الخبرات الوطنية، انظر: مركز جهاد الليبيين **للدراسات التاريخية**، شعبة الوثائق والمحفوظات، وحدة الوثائق المعاصرة، ملف وزارة الصناعة، وثيقة رقم م/٨/٢٢/٦ مراسلة بين وزارة الصناعة ووزارة الخارجية بشأن منح تأشيرات للخبراء الأجانب مؤرخة في ١٩٦٤/٣/٣١.

(٣٢) المصدر نفسه.

(٣٣) طرابلس الغرب، ٢٤ مايو ١٩٦٣، العدد ٢٠٣.

(٣٤) طرابلس الغرب، ٢٤ مايو ١٩٦٣، العدد ٢٠٣.

(٣٥) المصدر السابق نفسه، ص ٤٦.

(٣٦) المصدر السابق نفسه، ص ٤٧.

(٣٧) مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية والمخطوطات، وحدة الوثائق المعاصرة، ملف وزارة الصناعة، وثيقة رقم م/٨/٢٢/١٤ تقرير عن نشاط وزارة الصناعة مؤرخة في ١٩٦٧/١١/٣٠.

(٣٨) عصام الزعيم، **صناعة التكرير البترولية في البلاد العربية**، "مجلة البحوث والدراسات العربية"، معهد البحوث والدراسات العربية، العدد السابع، يونيو ١٩٦٧، ص ١٤.

(٣٩) طرابلس الغرب، ٣ يونيه ١٩٦٣، العدد ٦٧.

(٤٠) **البترول الليبي**، المصدر السابق، ص ٧٥.

(٤١) عزيز محمد حبيب، المرجع السابق، ص ١١٦.

(٤٢) عزيز محمد حبيب، المرجع السابق، ص ٨٢.

(٤٣) قامت الحكومة الليبية بتقدم المساعدات المالية للطلبة في مراحل التعليم المختلفة، والذي بدأ مع أوائل الخمسينيات، حيث مهد الطريق أمام عدد كبير من الطلبة لمواصلة تعليمهم، وخاصة الفقراء منهم، وتقدم هذه المساعدات عن طريق منح تعطى إلى طلبة بعض مراحل التعليم مثل طلبة المعاهد وطلبة الجامعة، ثم تطور هذا البرنامج وخاصة في المناطق الجنوبية وسمي ببرنامج القرى المحرومة، فكانت المساعدات المالية تعطى حتى إلى طلبة مدارس الابتدائية.

(٤٤) **البترول في خدمة التنمية**، المصدر السابق، ص ٩٤.

(٤٥) المصدر نفسه.

(٤٦) المصدر نفسه.

(٤٧) المصدر السابق، ص ٩٥.

(٤٨) المصدر السابق، ص ٩٦.

(٤٩) مصطفى أحمد بن حليم، **صفحات من تاريخ ليبيا السياسي**، وكالة الأهرام للتوزيع، مطابع الأهرام التجارية، قليوب، مصر، ١٩٩٢، ص ١٥٩.

(٥٠) مجلس التخطيط القومي، التقرير السنوي، المصدر السابق، ص ٧٨.

(٥١) المصدر نفسه، ص ٧٩.

(٥٢) المصدر نفسه.

(٥٣) **خطة التنمية الاقتصادية والاجتماعية** للسنوات ١٩٦٣-١٩٦٨، ص ٣٠.

(٥٤) المصدر السابق نفسه، ص ٣١.

(٥٥) الطاهر الهادي الجهيمي، **أثر البترول على الدخل القومي في ليبيا**، مكتبة الخراز، بنغازي، ليبيا، ١٩٦٩، ص ٩٦-٩٧.

(٥٦) مبارك حجير، **الاقتصاد الليبي**، دار مكتبة الأندلس، بنغازي، ليبيا، د. ت، ص ٣٠.

(٥٧) المرجع السابق نفسه، ص ٣١.

(٥٨) مصطفى أحمد بن حليم، المرجع السابق، ص ٣٤٠.

(٥٩) مبارك حجير، المرجع السابق، ص ٣٠.

(٦٠) **خطة التنمية الاقتصادية والاجتماعية** للسنوات ١٩٦٣-١٩٦٨، ص ٣١.

(٦١) **المملكة الليبية**، مجلس التخطيط القومي، التقرير السنوي بشأن النشاط الإنمائي، ١٩٦٤-١٩٦٥م.

(٦٢) محمد يوسف العزابي، محمد عبد الله المير، **نشأة وتطور الطبقة العاملة في ليبيا**، دمشق، دار القلم، ١٩٨١، ص ١٠٦-١٠٩.

(٦٣) **خطة التنمية الاقتصادية والاجتماعية** للسنوات ١٩٦٣-١٩٦٨، ص ٨٠.

(٦٤) أجرى قسم البحوث في البنك الوطني الليبي دراسة نموذجية في شهري مارس وأبريل في سنة ١٩٥٩ لثلاثة عشر مشروعاً صناعياً من مختلف الأحجام في مدينتي طرابلس وبنغازي، وبلغ مجموع عدد العمال المستخدمين فيها ٧٩٣ عاملاً، وتبين من هذه الدراسة أن ٣٩٨ من العمال الذين تم استجوابهم كانوا قد ولدوا خارج المدينة التي كانوا يعملون بها آنئذٍ، انظر: **البنك الدولي للإنشاء والتعمير**، بعثة الأمم المتحدة في ليبيا، ج٢، واشنطن، أبريل، ١٩٦٠، ص ٣١٤.

(٦٥) المختار الطاهر كرفاع، **الحركة العمالية في ليبيا (١٩٤٣-١٩٦٩)**، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، ٢٠٠٠، ص ٢١١.

(٦٦) صحيفة الطليعة، ١٨ فبراير ١٩٦٩.

(٦٧) أمانات البلديات بالاشتراك مع أمانة التخطيط، مسودة المخطط الطبيعي الوطني طويل المدى، تعاون المم المتحدة الفني لمشروع التخطيط الطبيعي، طرابلس، ١٩٧٩، ص ١٩.

(٦٨) المصدر نفسه.

(٦٩) إن سبب الهجرة هو حالة الفقر ومن ثم البحث عن الحياة الأفضل بالإضافة إلى افتقار المناطق الريفية إلى الخدمات الصحية والتعليمية، انظر، صحيفة الرائد ١٩٦٥/٨/٢١.

(٧٠) مركز جهاد الليبيين، وثيقة رقم م ٢٤/١٥/٨، مؤرخة في ١٩٦٣/٣/٣٠.

(٧١) الإحصاءات الزراعية، ١٩٦٠.

(٧٢) مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، شعبة الوثائق والمخطوطات، وحدة الوثائق المعاصرة، ملف وزارة الاقتصاد، وثيقة رقم م ١٠/٨/٨، مذكرة مدير عام الاقتصاد حول استيراد الآلات الزراعية مؤرخة في ٩ مارس/١٩٦٠.

(٧٣) نوري عبد السلام بريون، **قراءات في الاقتصاد الليبي (١٩٦٨-١٩٦٩) قبل الثورة وبعدها**،منشورات دار مكتب الفكر، طرابلس، ليبيا،١٩٧١، ص١٧٧.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: الوثائق:

١- مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، شعبة الوثائق والمخطوطات، وحدة الوثائق المعاصرة، ملف وزارة الزراعية، وثيقة رقم م/٨/١٥/٢٤، استمارة ساعات العمل للعاملين في نظارة الزراعة مؤرخة في ١٩٦٣/٣/٣٠.

٢- مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، شعبة الوثائق والمخطوطات، وحدة الوثائق المعاصرة، ملف وزارة الزراعية، وثيقة رقم م/٨/١٥/٢٤، استمارة ساعات العمل للعاملين في نظارة الزراعة مؤرخة في ١٩٦٣/٣/٣٠.

٣- مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية والمخطوطات، وحدة الوثائق المعاصرة، ملف وزارة الصناعة، وثيقة رقم م/٨/٢٢/١٤ تقرير عن نشاط وزارة الصناعة مؤرخة في ١٩٦٧/١١/٣٠.

٤- مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، شعبة الوثائق والمخطوطات، وحدة الوثائق المعاصرة، ملف وزارة الاقتصاد، وثيقة رقم م ١٠/٨/٨، مذكرة مدير عام الاقتصاد حول استيراد الآلات الزراعية مؤرخة في ٩ مارس/١٩٦٠.

ثانياً: التقارير:

١- البنك الدولي للإنشاء والتعمير، بعثة الأمم المتحدة في ليبيا، ج٢، واشنطن، أبريل، ١٩٦٠، النص العربي لسنة ١٩٦٤.

٢- المملكة الليبية، مجلس التخطيط القومي، التقرير السنوي الثاني بشأن النشاط الإنمائي للسنة المنتهية في ٣١ مارس ١٩٦٥.

ثالثاً: المطبوعات:

١- المملكة الليبية، وزارة شؤون البترول، البترول الليبي (١٩٥٤-١٩٦٧).

٢- المملكة الليبية، وزارة التخطيط والتنمية، خطة التنمية الاقتصادية والاجتماعية للسنوات الخمس (١٩٥٦-١٩٦٦).

٣- أمانة البلديات بالاشتراك مع أمانة التخطيط، مسودة المخطط الطبيعي الوطني طويل المدى، تعاون الأمم المتحدة الفني لمشروع التخطيط الطبيعي، طرابلس، ١٩٧٩.

رابعاً الكتب:

١- نوري عبد السلام بريون، قراءات في الاقتصاد الليبي (١٩٦٨-١٩٦٩) قبل الثورة وبعدها،منشورات دار مكتب الفكر، طرابلس، ليبيا،١٩٧١.

٢- مصطفى أحمد بن حليم، صفحات من تاريخ ليبيا السياسي، وكالة الأهرام للتوزيع، مطابع الأهرام التجارية، قليوب، مصر، ١٩٩٢.

٣- الطاهر الهادي الجهيمي، أثر البترول على الدخل القومي في ليبيا، مكتبة الخراز، بنغازي، ليبيا، ١٩٦٩.

٤- عزيز محمد حبيب، ليبيا، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٣.

٥- مبارك حجير، الاقتصاد الليبي، دار مكتبة الأندلس، بنغازي، ليبيا، د. ت.

٦- سامي حكيم، حقيقة ليبيا، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٨.

٧- علي أحمد عتيقة، أثر البترول على الاقتصاد الليبي، دار الطليعة للنشر، بيروت، ١٩٧٠.

٨- محمد يوسف العزابي، محمد عبد الله المير، نشأة وتطور الطبقة العاملة في ليبيا، دمشق، دار القلم، ١٩٨١.

٩- شكري غانم، النفط والاقتصاد الليبي، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٨٥.

١٠- المختار الطاهر كرفاع، الحركة العمالية في ليبيا (١٩٤٣-١٩٦٩)، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، ٢٠٠٠.

١١- ميخائيل، هنري أنيس، العلاقات الإنجليزية الليبية مع تحليل للمعاهدة الإمجليزية الليبية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧٠.

خامساً: المعاهدات:

١- عصام الزعيم، صناعة التكرير البترولية في البلاد العربية، "مجلة البحوث والدراسات العربية"، معهد البحوث والدراسات العربية، العدد السابع، يونيو ١٩٦٧.

٢- طرابلس الغرب، ١٨ يناير ١٩٦٣.

٣- طرابلس الغرب، ٢٣ مايو ١٩٦٣.

٤- طرابلس الغرب، ٢٤ مايو ١٩٦٣.

٥- طرابلس الغرب، ١٨ فبراير ١٩٦٩.

٦- صحيفة الطليعة، ١٨ فبراير، ١٩٦٩.

٧- صحيفة الرائد، ١٩٦٥/٨/٢١.